

الموسوعة التارخيية الحديثة



سوعة التارخيية الحديثة

تاريخ

عصر النهضة الأوربية

الدكتور نور الدين حاطوم
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة الكويت

دار الفكر



تابخ

عصر النهضة الأولى

تأليف

الدكتور نور الدين جاطوم

دار الفكر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تصوير ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
عن ط - ١٩٦٨ م

يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير ،
كما يمنع الاقتباس منه ، والترجمة إلى لغة أخرى ،
إلا بإذن خطي من دار الفكر بدمشق

طبع بالأوفست في دار الفكر هاتف (٢١١٠٤١/٢١١٦٦) ، بريقياً (فكر)
ص.ب (١٦٢) دمشق - سورية Tx FKRMSG 411745 Sy



المقدمة

عصر النهضة

ان عصر النهضة الأوروبية أو القرن السادس عشر ، الذي ندرس تاريخه في هذا الكتاب ، هو العصر الذي يتبدى برحلة كريستوف كولومب الاولى في العالم الجديد عام ١٤٩٢ وحروب ايطاليا ١٤٩٤ ، وينتهي بين وفاة اليزابت ملكة انكلترا ١٦٠٣ وموت هنري الرابع ملك فرنسا ١٦١٠ .

لقد حدثت في هذا العصر حوادث عظيمة وتبدلات عميقة في أنظمة الدول الداخلية ، وفي سبيل أوربة العامة ، وفي علاقات هذه القارة مع القارات الاخرى . ولذا تختلف حوادث القرن السادس عشر اختلافاً كلياً عما نعرفه في العصر الوسيط الذي انتهى في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر .

واذا انتهى العصر الوسيط كما قنتهي الاشياء في التاريخ ، لأن هذه الاشياء لا تزول تماماً بل تبقى مع الزمن ، فالتنا نجد في حياة رجال القرن السادس عشر وافكارهم واعمالهم كثيراً من معالم العصر الوسيط الراحل . وليس في سياق التاريخ واستمراره انقطاع للحوادث البشرية ، بل ان هذه الحوادث تجري في تطور بطيء مستمر . وقد يقع أن يحدث ما يؤخر سيرها ، غير انها لا تلبث ان تعاود الكرة وتستأنف تقدمها ولو ببطء وخجل . واذا حدث في العصر الوسيط ما أخر ركب الحضارة ،

فما عتمت هذه أن اغذت السير في عصر النهضة ، وتفتحت عن حضارة زاهية وإنسانية جديدة ، لأن تاريخ القرن السادس عشر حافل بالقوى الثورية الجديدة التي تغلبت على القوى التقليدية المحافظة . وفي الحقيقة أن في تاريخ القرن السادس عشر حداثة وتجديداً في أوربة ، أو على الأقل في أوربة الغربية .

تجلى مظاهر التجديد في أوربة عصر النهضة بمحوادث كبرى وتطورات عظيمة أشبه ما تكون بثورات ، الثورة الفكرية والدينية والأخلاقية والسياسة الجديدة والاقتصاد الجديد .

الثورة الفكرية . - إذا درسنا آثار المؤلفين في هذا العصر الذي نعتة بالعصر الحديث وجدنا أن لاجديد لديهم بالمعنى المطلق ، لأن العصر الوسيط مازال يعيش بين ظهرانهم ، وكثيراً ما يذكرنا نمط تفكيرهم بتفكير أسلافهم . حتى أن الفلسفة المدرسية (السكولاستيكية) مازالت مستحكمة عند من كان يناهز منهم أنه عدو السكولاستيكية ؛ ولذا ذكر على سبيل المثال أن فرانسوا رابليه أكبر أعداء الرهبان كان راهباً أيضاً .

وإذا تأملنا هذه الثورة الفكرية في مظهرها الخارجي وجدناها عوداً على القديم ، وبدأ لنا القرن السادس عشر وكأنه الثقافة نحو الماضي أكثر منها نحو المستقبل ، أو رجعة نحو ماضيين يحملها معاً ، وهما القديم الوثني والقديم العبري - المسيحي ، أو نحو الألياذة والكتاب المقدس . وما النهضة والإصلاح الديني في البدء إلا حركتان متوازيتان وباتجاه واحد لتتعرف أحدهما بحقيقة الحركة الإنسانية في العصر القديم ولتعيد الأخرى الدين المسيحي إلى نقاوته القديمة الأولى . فبحث نحاول أن نجد ثورة ، لا نجد في الحقيقة إلا رجعية .

ولكن يجب الا نؤخذ بالظواهر فننكر على القرن السادس عشر كل تجديد . ان روح أي عصر من العصور لا يتمثل بعقلية الكتل والدماء والجمهير ، بل بعقلية الصقوة المختارة من أبنائه ، فئة من الابطال ، كما يقول كارليل ، حملة المشاغل الذين ينيرون للناس طريق المستقبل خلال ديجور الحاضر . واذا درسنا رجال الفكر في هذا العصر ، رأينا عندهم مفهوماً جديداً للعلم والطبيعة والدين والاخلاق الفردية والاجتماعية وبما يجدر ذكره ان هؤلاء الابطال يشعرون بأنهم في عصر حديث ، وان القرن السادس عشر يعرف نفسه بأنه عصر حديث ويصرح بمحدثاته ويبشر بالاكتشاف وبحلول عالم جديد .

ولكن المجددين كثيراً ما يتقدمون عصرهم ويكونون عرضة لاضطهاد معاصريهم ممن لا يفهمون آراءهم ؛ مثال ذلك كوبرنيك (١٤٧٣ - ١٥٤٣) ، فقد برهن على حركة الكواكب حول نفسها وحول الشمس ، فحكم البابا بان نظريته مخالفة للكتاب المقدس . وبالرغم من أن كوبرنيك نفسه كان من أبناء القرن السادس عشر ، فقد كانت الفكرة الثورية الجديدة ، التي اتى بها ، متقدمة على القرن الذي عاش فيه .

ومثله ليوناردو فانتشي ، فقد قرأ القديم كثيراً ، وأخذ عنه كثيراً ، ولم يرزخ تحت ثقل هذه الكثرة ؛ واعتمد على التجربة ، وعلى هذه التجربة وحدها اسس الميكانيك ، وبفضل التجربة كان يبدو سلفاً لنيوتن . فقد عرف نظرية الامواج وهوية الصوت والنور والحركة ، وأوجد علم طبقات الارض (الجيولوجيا) ولم يأخذه عن أريستو أو بلين الشيخ أو عن سفر التكوين . وقام بالتشريح ، وكان لديه فكرة عن الجنين والاحوال التي يمر فيها ، وعن التشريح المقارن ، وتنبأ بالطيارة .

وكان الجراح الفرنسي آمبرواز باريه (١٥١٧ - ١٥٩٠) يقول :
 « يجب أن يكون الاقدمون بمثابة مرصد لنا ننظر منه إلى بعيد » .
 وهو « كلوناردو » ، لا يعتقد إلا بالتجربة . وقد استطاع بتجاربه الخاصة
 ان يستعيز عن الكي بعصب الشرايين منعاً للنزف ، فففى بعمله هذا
 على التقاليد الموروثة .

لن امثال هذه الحالات ليست في الحقيقة إلا اثباتاً لشخصية الفرد
 وثورة للضمير البشري الحي على القسر الجماعي واما تعارف الناس
 عليه والقوة .

هذا وان كلمة العلم قد تبدل معناها في هذا العصر . فبعد أن
 كانت تدل على التقليد أو الكنز المتوارث عن القدامى . أصبحت تدل
 على معرفة الكائن . وهذه المعرفة يكتسبها الانسان بتأمله في الكائنات .
 ومثل هذا التفكير هو الثورة بعينها .

الثورة الدينية . - والى جانب هذا المفهوم الجديد للعلم ، أتى
 القرن السادس عشر بمفهوم جديد للعقيدة ، وهو حرية الضمير أو الوجدان ،
 وبعد أن كان الدين ولم يزل حادثاً اجتماعياً ، لأنه يوجد بين معتنقيه
 طائفة أو جماعة واحدة ، أصبح حادثاً فردياً وكنزاً للمؤمن خاصاً به
 دون سواه .

لم يشك بهذه الثورة ابناؤها الذين اذكروا ناراها ، وهم ، كرجال
 النهضة ، لا يعتقدون بأنهم ابدعوا قيماً جديدة بل ارجعوا قيماً قديمة عفى
 عليها النسيان ، وجددوا بناء الكنيسة القديمة بعد أن انقلته مع العصور
 ابنية اخرى ، ويقولون ان البشرية المسيحية ضلت سواء للسبيل منذ ألف
 سنة « ولذا يجب السير بها في طريق الهداية والرشاد .

لقد بدأت حركة الادب الانساني بالرجوع إلى النصوص القديمة . وأول عمل لهذه الحركة هو اقصاء الشراح والمفسرين والذهاب ، في طريق مستقيم ، إلى كلام الله ، إلى الكتاب المقدس ، لا كما نقله الينا منسوق الفلغاطة ، أي النص اللاتيني الأول للكتاب المقدس ، لان هذا النص يبقى عرضة للنقد العلمي ، بل إلى الكتاب القديم بنصه الاصلي كما خرج من بين يدي مومى والانبياء . غير أن الحادث الحاسم في هذا العصر هو نشر الانجيل باللغة القومية ووضعه تحت تصرف من يقرأ او من يسمع من يقرأ . ولم يكن كل هذا ممكناً لولا اختراع الطباعة . لقد ترجم المصلح مارتن لوتر ، وهو في سجنه في فارتبورغ ، الكتاب المقدس إلى اللغة الالمانية فجعل بترجمته هذه لغة مشتركة للشعب الالمانى . وكذلك تم نشر الكتاب المقدس باللغة المحلية في انكلترا والبلاد الاسكندنافية .

وبعد هذا قامت الحروب الدينية ، واضطهد البروتستانتيون في فرنسا خاصة وفي البلاد المنخفضة ، وعانى هؤلاء ما عانوا في سبيل إيمانهم . إلا أنهم عرفوا أن حرية الروح انما هي شيء عظيم جداً لا يشتري بالذهب ، وانما يقتضي التضحية . ومع الزمن لم يستطيعوا أن يرفضوا لغوهم الحرية التي استماتوا في سبيلها . ومن هذه الحروب خرجت حقيقة ، وهي أن ليس في إمكان أبناء دين ما أن ينزعوا دين غيرهم أو إيمانهم . وآل الامر اخيراً إلى حل وسط او حلول متوسطة اشهرها (مرسوم نانت ١٥٩٨) . ولم يكن هذا المرسوم كاملاً ، إلا أنه يعترف ، ولو بصورة جزئية ، بحرية الوجدان .

وهناك شيء آخر يتعدى النزاع بين الكنيسة الرومانية والكنائس البروتستانتية المختلفة ، وهو موقف الديانة المسيحية نفسها أمام جراءة التفكير . فقد لوحظ أن اكاديمية افلاطون في فلورنسا تقترح صهر الفكر

الوثني القديم مع الفكر المسيحي . وذلك لأن معرفة القديم بصورة مباشرة قوضت دعائم المذهب البسيط الذي يقسم تاريخ النفس البشرية إلى دورين . دور الخطيئة والضلال قبل مجيء المسيح ، ودور الايمان الحقيقية والفضائل بعده . حتى أن رجال الاصلاح البروتستانتى ، بالرغم من تمسكهم بالكتاب المقدس ، لم يستطيعوا أن يبقوا في معزل عن هذا التفكير العريض . وفي العام ١٥٢٤ كان يبشر بأن « خلاص الوثني يتوقف على نيته باتباع العقل ولو لم يكن معمداً » . ولكن ألقى هذا التفكير للعريض ذهب إلى أبعد من ذلك وتصدى للاسس المسيحية نفسها . لأن الحركة الانسانية في فلورنسا قامت تناهض المذهب القائل بأن الارض « وادي دمع » . وهكذا نشأت في عقل فئة مختارة الفكرة القائلة بأن « العالم المرنى خلقه إله الحب » ، ومن هذا الإله يستمد دوماً الحركة والحياة . ولذا فإن فردية النهضة تعتبر ، من بعض الوجوه ، احتياجاً على النسك والزهد ، وتعظيماً للحياة الارضية التي تستحق ان تُحمى بذاتها ، بالامها وافراحها . وكما في هذا التفكير الجريء من خطر على الايمان التقليدي .

الثورة الاخلاقية . - وقد يستحيل ، اذا سيطر الدين ، في عصر من العصور ، على كل شيء ، ان تحدث الثورة الدينية دون أن تبدل قواعد الاخلاق ، وبما لاشك فيه أن الحركة الانسانية لم تكن ثورة فكرية خالصة . فاذا وجد في ايطاليا اناس أخذوا بسمر الجمال القديم ورضوا بوثنية بعيدة عن الاخلاق ، أو لادخل للاخلاق فيها ، فقد وجد أيضاً في فرنسا خاصة وفي المانيا والبلاد المنخفضة وانكلترا والبرتغال ، بين جماعة الحركة الانسانية ، من كان يعبد الشكل لذاته أو ، كما يقال ، من كان يعشق الفن للفن ، بل ان هؤلاء كانوا لا يبحثون في آثار

- ١١ -

افلاطون وشيشرون عن درس في الجمال أو طلاوة في الاسلوب فحسب ، بل عن قاعدة للحياة ومنهج للسلوك . فالحركة الانسانية عند رابليه وكوليت مثلاً كانت اخلاقاً وعلم وجمال في آن واحد ، لان « العلم بلا وجدان ليس سوى دمار للنفس » . فأمام الابيقورية والانانية ، اللتين ينادي بهما بعض الايطاليين ، كان آخرون يضعون الفضيلة ويدعون لها .

وهذه الاخلاق التي يعنونها اخلاق بشرية ، والفكرة الاساسية فيها هي أن الانسان صالح بصورة طبيعية ، وعليه أن يسلك قوانين طبيعته ليعمل خيراً .

ولقد ساعد المصلحون أنفسهم على جعل هذه الاخلاق بشرية ، حتى أن لوثر جعل الفضيلة كالإيمان الكل في الكل ، ونصب ، امام المثل الاعلى القديم لفضيلة النسك ، مثلاً أعلى آخر وهو قداسة المنزل والفضائل العائلية المتواضعة .

وذهب كالفن الى ابعد منه ، وفصل بين ما هو من الله وما هو من الانسان وبين أن المسيح « مخلص » بعمله شريطة أن يقوم به على قدر وسعه مستعملاً في ذلك مامنحه الله من هبات ، ويبدو أنه لم يلاحظ أنه أقرب بهذا الى الحكمة القديمة من حرفية الانجيل التي تحتفظ بملكوت الله للفقراء . ولكن دخول هذا الملكوت لا يكون محظوراً على الاغنياء اذا احسنوا استعمال ثروتهم .

هذا وتظهر فكرتان جديدتان في أخلاق القرن السادس عشر :

الاولى ، وحدة الجنس البشري . فقد كان الاعتقاد السائد طويلاً أنه لا يوجد سوى بشرية واحدة من أعقاب أولاد نوح . وتنقسم هذه البشرية الى قسمين ، المسيحية والوثنية . إلا أن الحروب الصليبية

والرحلات عبر آسيا بدلت هذا المفهوم . وكذا اكتشاف العالم الجديد عرف أوربة ببشريات مبهولة سابقاً ، وجعل الأوروبيين يتساءلون ما إذا كان الهنود بشراً مثلهم . ولكن قبل أخيراً أن يعتبروا في عداد البشر لأنه لوحظ أنهم يشعرون بالألم كغيرهم من الناس .

الثانية ، فكرة التقدم . وقد خرجت هذه الفكرة من الاختلاف بين المعرفة القديمة والاكتشافات التي أصبحت ممكنة بفضل التقدم العلمي . ففي عام ١٥٩٩ قام أحد مؤرخي الحروب الدينية واسمه لابيوليبيرو واحتج على الإعجاب المفرط بالماضي الذي ينادي به : « الكثيرون ممن يحبون القديم أكثر من حبهم للعقل ، وأخذ يرد على من يقول : « لقد جئنا متأخرين بعد أن صنع كل شيء » بقوله : « إن الطبيعة لا تكلّ من العمل ، وإن اختراعات المحدثين تتم اختراعات الاقدمين . ألم يرتكب الاقدمون اخطاء في الفلك وعلم حركات الكواكب ؟ ومن منا لم يضعك من الآلات التي كان يستعملها الاقدمون في تهديم الحصون . وإذا كان من المجد أن تحسن أدوات الموت أو تخترع ، فهناك اختراع واحد ، على الأقل ، يفوق الاختراعات الاخرى ، ألا وهو الطباعة . ومثل ذلك اختراع الابرة المغناطيسية وما إلى ذلك من نتائج في معرفة الأرض . وهذه النتائج أخلاقية بقدر ما هي جغرافية ، لأن شعوب العالم تتعارف ويألف بعضها بعضاً وتحاب وتعاون وتتعاود وكأنها في مدينة واحدة » . وعلى هذا النحو تنضم نظرية التقدم إلى فكرة وحدة الجنس البشري ، وتنتهي بندا إلى التقدم في المستقبل .

السياسة الجديدة . - هنالك أربع وقائع كبرى تسجل ، في آخر القرن الخامس عشر وأول القرن السادس عشر ، بدء عهد جديد في السياسة الاوربية وهي :

- ١٣ -

١ - تشكل الدول الحديثة وفكرة القومية .

٢ - نهضة الفكرة الديمقراطية .

٣ - تعصير السياسة .

٤ - تبدل العلاقات الدولية .

إن الجمهورية المسيحية ، التي سادت العصر الوسيط ، لم تعد في حيز الوجود في هذا العصر ، بعد أن انقسمت إلى عدة دول . والفكرة الجديدة هي أن سيادة الدولة قامت مقام فكرة السيادة الاقطاعية ، وأن الملك ليس زعيم طبقة الاقطاعيين بل هو الأمير ، وليس له تابعون فحسب بل رعية . وقد أخذ مؤلفو الكتب السياسية هذه الفكرة عن الحقوق الرومانية ، وكان يدرسها فقهاء القانون في ايطاليا وفي اقليم لانغدوك ، في فرنسا ، منذ القرن الثالث عشر . ولقد شهد القرن السادس عشر غزواً جديداً للحقوق الرومانية في الجامعات الأوربية .

وفي الحقيقة ، ان ما جعل لهذه النظرية قيمة عالمية هو أنها خرجت من الوقائع التاريخية مثل حرب المائة عام وحروب ايطاليا التي رفعت اسم الملوك وظهرت اسم الأمة وفكرة الحدود والحدود الطبيعية والعاطفة القومية واللغة المحلية التي قامت مقام اللاتينية . وأدت الحروب الدينية إلى تعصير السياسة الداخلية بعد أن تبين ضرر الحرب الأهلية واستحالة الوحدة الدينية في الدولة . وكان لتعصير السياسة الداخلية نتيجة وهي تعصير السياسة الخارجية . والمسؤول عن هذا التبدل هو البابوية نفسها التي استحالَت إلى دولة زمنية . فقد كانت دولة البابا في عهد بورجيا دولة كسائر الدول تشن الحروب ، وتعتقد المعاهدات ، ولها أعداؤها ، ولها حلفاؤها .

أما نزاع الدول فيما بينها فقد أدى بها إلى التوازن الأوربي ، وهذا يعني الا ترك دولة من الدول تكبر للدرجة تصبح فيها خطراً على غيرها ؛ ومن ثم إلى تسوية السلام الأوربي .

الثورة الاقتصادية . - غير أن الحادث الهام ، الذي يميز القرن السادس عشر ويشمل سائر المظاهر الجديدة بما فيها الإصلاح الديني أيضاً ، هو التبدل العدي ، الذي جرى في اقتصاد أوربة الغربية اثر الاكتشافات البحرية الكبرى التي ساعدت على نمو النشاط التجاري . يضاف إلى ذلك تذوق حياة الأبهة الناجم عن ضعف الرادع الديني ، واحتكاك أوربة بالحضارة الايطالية ، وقذف المعادن الثمينة من أمريكا وانتشارها في السوق الأوربية عن طريق اسبانيا ؛ وأخيراً الأزمة العامة التي نجمت عن انخفاض قيمة النقد وارتفاع سعر الحياة .

كل هذه الأسباب جعلت لتداول النقد أهمية عظمى ، وحدث بالكثيرين إلى البحث عن الذهب وحب الكسب الذي يربط ثروة الدولة بازدياد اكدياس النقد عندها ، ويجعل الحكومة تبادل غيرها وتبيع كثيراً . وقد بولغ باتباع هذا المذهب حتى نتجت عنه أعمال القرصنة ، وخاصة في انكلترا ، والبحث عن المستعمرات واستثمارها على انفراد دون أي منافس . وهكذا نرى في تاريخ القرن السادس عشر رسماً أولاً وصورة سابقة لبعض صفات التاريخ الحديث والمعاصر .

المشتم الأول

الزينة الاوربية

الفصل الأول

أوروبا والعالم في آخر العصر الوسيط

يجدر بنا ، قبل البدء في دراسة تاريخ القرن السادس عشر ، أن نبين كيف كانت خارطة العالم السياسية في آخر العصر الوسيط ، أي في السنوات الأخيرة من القرن الخامس عشر .

أوروبا

بعد أن تداعت الامبراطورية الكارولنجية في الغرب الأوروبي انحلت قوى الدولة ، حتى أن فكرة الدولة فقدت معناها ، وشيد المجتمع بشكل جديد التفت فيه الضعيف حول القوي ، وبما النظام الإقطاعي على هذا النحو ، وخضع في ظله سكان المقاطعة أو الإقليم لحكم السيد وإدارته . ولم يكن ساكن الإقطاع خاضعاً للملك بصورة مباشرة بل تابعاً له عن طريق وسيط .

وفي الحقيقة ، أن الملكية ما زالت قائمة ونحتفظ مبدئياً بكل صلاحياتها وامتيازاتها ، ولكنها لا تملك من السلطة الحقيقية شيئاً ، لأنها كانت مشغولة اليد أمام الأمراء الإقطاعيين . غير أن مذهب السلطة الملكية عاد للظهور ، منذ القرن الثالث عشر حتى آخر القرن السادس عشر ، بفضل رجال القانون الذين استخلصوه من الحقوق الرومانية وأخذوا

يصرحون بأن السيادة يجب أن تكون واحدة ومطلقة ، وان الملك وحده يملك سلطة التشريع .

وكانت هذه الملكية المطلقة آخذة بالشكل في آخر القرن الخامس عشر ، عند بعض الدول على الأقل ، وكان الملك يسعى لنزع السلطة السياسية من أيدي الأمراء ، أي حق ادارة اقطاعاتهم . ولكن هذه النزعة كانت تختلف من بلد لآخر .

أ — أوربة الغربية

لقد كانت دول أوربة الغربية منظمة تنظيمياً قوياً ، وكانت الدول الهامة ، فرنسا ، انكلترا ، اسبانيا ، مرشحة لان تلعب دورها في التفوق الاوربي خلال العصور الثلاثة الآتية في المستقبل .

فرنسا . - كانت فرنسا بلداً متقدماً على غيره في طريق الوحدة القومية . وكانت نفوسها ١٥ مليون تقريباً ، وتضم أرضها اقطاعات كبرى . وكان ملك فرنسا يتمتع بمكانة خاصة بين سادة اوربه ، لأن السلطة الملكية رسخت قدمها امام طبقة النبلاء في عهد لويس الحادي عشر (١٤٦١ - ١٤٨٣) ، ولأن الملكية كانت ذات سياسة اقتصادية تشجع حركة المبادلة ، وعندها فكرة واضحة عن ضرورة وجود التضامن بين رفاه الدولة والثروة الفردية .

انكلترا . - كانت بلداً زراعياً بدأ بالصناعة ، وخاصة بصناعة الصوف . ولم تكن قوة بحرية بعد ، فقد كانت تجارتها الخارجية بأيدي الاجانب من البنادقة والمانيي بلاد الهانس . وتقدر نفوسها بأربعة ملايين نسمة . وقد تشكلت وحدتها المعنوية ببطء ، كما في فرنسا ، خلال حرب المائة عام . ولكن الجزر البريطانية لم تكن كلها خاضعة لحكم واحد .

وفي عام ١٤٨٥ اُتلى عرش انكلترا الملك هنري السابع من امرة
تيو دور ، وكان يتمتع بسلطة عظيمة ، كملك فرنسا ، لأن طبقة النبلاء
ضعفت منذ ١٤٥٠ بسبب الحروب الاهلية التي عرفت بحرب الوردتين .
وقد جعل همه زيادة المؤسسات الملكية . ولكننا نرى ، من جهة ثانية ،
أن لانكلترا برلماناً أي مجلساً مؤلفاً من مجلس الوردات (ويضم كبار
الأمراء العلمانيين والكنسيين) ، ومجلس العموم (ويضم الممثلين المنتخبين
من قبل ملاكي الاراضي التي لها ايراد معين) . ولم يكن باستطاعة
الملك فرض ضريبة أو سن أي قانون دون مساعدة البرلمان . والواقع ان
هنري السابع تيو دور لم يدع برلمانه الا قليلا .

اسبانيا . - كانت نفوسها ٨ ملايين نسمة تقريباً . وقد ظلت
حتى هذا التاريخ مجزأة الى عدة دول . ولكن بعد أن تزوج فرديناند
آراغونه بايزابيل قشتاله أصبح لها سياسة مشتوكة ، وحاول الملكان خلق
الوحدة المعنوية في المملكة باجلاء العرب في ١٤٩٢ ودعوة اليهود إلى
اعتناق الديانة الكاثوليكية . كما وطدت الملكية الاسبانية النظام الداخلي
ووضعت حداً للحروب بين النبلاء .

ب - أوربة الوسطى

في هذا القسم من أوربه ، الذي يمتد من اسكاندينافيا إلى ايطاليا ،
نجد التجزأة السياسية بالغة اقصاها . فمن شعب برينير إلى بحر الشمال
وبحر البaltيك ، وعلى أرض يبلغ سكانها تقريباً ٢٠ مليوناً ، نجد دولتين
هامتين فقط : دولة آل هابسبورغ الوراثية (وتشمل النمسا ، ستيريا ،
كارنيول ، تيرول) والدولة الفلاماندية البورغونية (البلاد المنخفضة
وبورغونيا) . وفيما عدا هاتين الدولتين نجد فيسفا من الدول الثانوية ،
وبعض الامارات الصغرى من كنسية وعلمانية واقطاعات ومدناً .

لقد وجد بين هذه الدول رابط نظري وهو الامبراطورية الجرمانية المقدسة ، التي تضم جميع البلاد الممتدة من بوميرانيا إلى البلاد المنخفضة فاللورين والكانتونات السويسرية فدول هابسبورغ وبوهيميا ، ولم يوجد بينها ، في الواقع ، أثر للوحدة السياسية وكان على رأس هذه الامبراطورية المقدسة عامل منتخب لا يتمتع بأي سلطة ولا يحصل من المجلس العام (الدياط) على المعونة إلا في الاحوال الاستثنائية .

غير أن النشاط الاقتصادي كان يتجلى في بعض أقسام أوربة الوسطى ، لأن بعض المدن ، مثل مواني هامبورغ وبريم ولوبيك خاصة ، قد تشاركت في سبيل التجارة الخارجية وتجهيز الاسطول وألفت كتلة عرفت باسم رابطة أو « عصابة الهانسن » التي بلغت نقطة الذروة في رفاها ، في القرن الخامس عشر ، وأصبحت تؤلف في أوربة قوة يحسب حسابها .

إيطاليا . - كانت نفوسها ١٢ مليون نسمة تقريباً ، وتتألف من عدة امارات ، خمس منها هامة وهي : دوقية بيمونت - سافوا ، دوقية لومبارديا ، الدول البابوية ، جمهورية البندقية ، مملكة نابولي .

وكانت الحرب دائمة بين هذه الامارات ، ولم يتردد امراؤها في البحث عن سند اجنبي . ولكننا نلمس في وسط هذه الفوضى الإيطالية خاصيتين تتواجدان معاً ، رغم تعارضها من حيث المبدأ ، وهما :
١ - أهمية المدن ، لأن المدن تلعب في الحضارة دوراً أساسياً . ولقد كانت الحياة الحضارية نشيطة في المدن الإيطالية .

٢ - قوة العاطفة الإيطالية ، لأن التجزئة السياسية لم تمنع وجود مواطني نحو الوحدة اللغوية وحب التفوق الناجم عن نشاط الحياة الفكرية وذكرى التراث الروماني القديم .

بيد أن إيطاليا كانت تشكو عدم الاستقرار في حياتها الداخلية ، وهذا ما جعلها عرضة لطمع الدول المجاورة .

للبلاد الاسكندنافية . - نجد فيها ثلاث دول : الدانيمرك ، السويد ، النرويج ، متحدة مبدئياً منذ ١٣٩٧ باتحاد كلالر . ولكن الواقع هو ان الملكية الدانيمركية اخذت تحاول ، منذ اول القرن السادس عشر ، بسط سيادتها على السويد والنرويج .

ج - اوروبا الشرقية

ترينا الحارطة السياسية في اوروبا الشرقية ثلاث دول كبرى : بولونيا ، موسكوفا ، الامبراطورية العثمانية .

بولونيا . - كانت تضم ، في القرن الخامس عشر ، في عهد آل جاجيلون ، هذا عن البلاد البولونية الصرفة ، بروسيا الغربية وبوهيميا وموخناريا وليتوانيا . غير أن هذه الامبراطورية أخذت تتداعى بموت كازيمير جاجيلون عام ١٤٩٢ وزاد انحطاطها في آخر القرن السادس عشر . ولكن بولونيا بقيت موطن حياة فكرية نشطة ، كما هي الحال في جامعة كراكوفيا ، وعاملاً قوياً للحضارة على أطراف الدول اللاتينية .

موسكوفا . - كان ايفان الثالث دوق موسكو الاكبر (١٤٦٢ - ١٥٠٣) جاعاً للأراضي الروسية . فقد ضم الامارات المجاورة لدوقية موسكو ، وأنشأ الدولة الروسية ، وأخضع طبقة النبلاء ، ولم يترك لها حرية التصرف بأراضيها إلا بصورة امتيازات قابلة للتقضى . كما دان له الاكايروس ، وغدت اسقفية موسكو تابعة للسلطة الزمنية . ولكن موسكوفا كانت بلداً زراعياً ولا توجد الحياة فيه الا قادراً .

- ٢٢ -

الامبراطورية العثمانية . - أتى الاتراك العثمانيون من شبه جزيرة
الاناضول واستوطنوا اوروبا ، في النصف الثاني من القرن الرابع عشر ،
وفتحوا القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، واخضعوا مسيحيي شبه جزيرة البلقان .

ولقد كانت الامبراطورية العثمانية ، بفضل ضرائبها الباهظة ، تتمتع
بموارد عظيمة تساعد على تعبئة جيش هام وتؤهلها لان تلعب دوراً
هاماً في السياسة الاوروبية .

وفي الواقع لم يكن « العالم الاوربي » ، ليشمل جميع دول القارة ،
لأن البلاد الموسكوفية الارثوذكسية ، التي مازالت نصف يوروبية ، والبلاد
الاسلامية الخاضعة للعثمانيين ، لا تؤلف قسماً من اوروبا . يضاف إلى
ذلك ان دول اوروبا الغربية والوسطى كانت ، في آخر القرون الخامس
عشر ، قليلة الاتصال بالامبراطورية العثمانية ، ولا يوجد أقل تماس بينها
وبين موسكوفا ، التي كانت عملياً مغلقة على اوروبا . بيد أننا في
هذا العالم الاوربي ، الذي نحدده على هذا الشكل ، نرى وجود صفات
مشتركة وهي :

١ - ان الحضارة قبل كل شيء مسيحية ، لأن الاختلاف الديني
لا يوجد ، أو على الأقل لا يعترف به ، ولأن الدين يجمع بين الحياة
الفردية والجماعية . والكنيسة قادرة على أن تقول كلمتها الحاسمة اني
ومتى شاءت .

٢ - ان المجتمع كان مرقباً على طبقات . ففي كل دولة من الدول
الأوروبية كانت الطبقات الاجتماعية منفصلة متميزاً بعضها عن بعض بالترتيب :
النبلاء ، الاكابروس ، الطبقة الوسطى .

القارات الاخرى

أ - اسيا

كان في آسيا ، في آخر القرن الخامس عشر ، اربع دول هامة : الصين ، اليابان ، الهند ، ايران .

الصين . - لقد خضعت الصين للمغول في القرن الثالث عشر . غير ان ثورة وطنية صينية قامت في الصين وطردت المغول عام ١٣٦٨ ، واسس زعيم الحركة الوطنية سلالة جديدة ، وهي سلالة آل منغ التي دامت حتى عام ١٦٤٤ .

وكانت الصين ، في آخر القرن الخامس عشر ، امبراطورية كبرى ، وربما بلغ عدد نفوسها ٥٠ مليوناً ، بيد انها كانت امبراطورية مسالمة . ولا شك في ان آل منغ سلكوا ، في اول القرن الخامس عشر ، سياسة توسع ، في الهند الصينية وجاوا وسيلان ، ولكنهم عدلوا عن هذه السياسة ، فيما بعد ، وانطوت الصين على نفسها .

تتماز الصين بالصفات الآتية :

١ - محضارتها الدقيقة الناعمة من حيث الثقافة الفكرية والفن الصناعي .
٢ - بحيانها الاقتصادية النشيطة ، حتى أن نشاط المواني النهرية وثروة جمعيات التجار الصينيين أخذ بلب الاوربيين الاوائل الذين اتصلوا بهم .

٣ - بنظامها الاداري المتين ، ولو ظاهراً على الاقل . فمن ذلك ان الموظفين لا يستلمون مهام عملهم الا بعد اجتياز فحص . وكانوا على مراتب ، ولم يكن في الصين ، خلافاً لما كانت عليه الدول الاوربية ، طبقة نبيلة تلعب دورها في شؤون الادارة .

ولكن بدأت ، منذ ذلك الحين ، ظاهرة أساسية في حياة الصين ، وهي احترام الطقوس والتقاليد المتعلقة بالاعتقادات الدينية وعبادة الاسلاف القدماء ، ولم يعد للصيني رغبة في التقدم فغلبت عليه المحافظة .

اليابان . - لقد طبعت اليابان بطابع الحضارة الصينية ، غير أنت وضعها السيامي كان غالياً تماماً . ولم يكن للامبراطور سلطة حقيقية ، بل كانت السلطة الفعلية ، من حيث المبدأ ، بيد الشوغون ، أي الزعماء العسكريين . وكثيراً ما كانت الامر الكبرى تتنازع منصب الشوغون حتى أن الحرب كانت دافئة تقريباً بين الاقطاعيين . وفي مثل هذه الحالة كانت السلطة الحقيقية بيد هؤلاء الامراء الاقطاعيين أي « الدايمو » المحاطين بتابعيهم « السامورائي » . وكانت الحرب الاقطاعية ، في آخر القرن الخامس عشر ، حالة طبيعية في اليابان .

الهند . - عالم مركب ومعقد ومزيج من العروق والاديان والحضارات . وكان السكان الهنود خاشعين نوعاً ما إلى حكم المسلمين ، من الاتراك والافغانيين ، الذين أنشأوا في القرن الثاني عشر والثالث عشر امبراطورية هندية - اسلامية في منطقة دلهي . وستفتح هذه الامبراطورية الاسلامية عام ١٥٢٦ على يد المغولي العظيم بابر وتتأثر بالحضارة الفارسية . وكان هذا الفتح بداية لتشكيل امبراطورية دامت حتى القرن التاسع عشر ، واحتوت السهل الهندي الغانجي كله .

ايران . - كانت آسيا الوسطى ، حتى فاتحه القرن الخامس عشر ، تحكم من قبل سلاطين اتراك يجارب بعضهم بعضاً . غير ان حركة قومية دينية قامت في ايران وآلت في عام ١٥٠٢ إلى تشكيل دولة دافئة وهي امبراطورية الصفويين ، التي امتدت ، في زمن ما ، حتى بغداد .

وكانت لهذه الامبراطورية حضارة زاهرة وكان لاشعاعها تأثير كبير في بلاد الشرق .

كانت هذه الدول الآسيوية دون اتصال بأوربه تقريباً ، ولكن هذا لم يمنع من أن تعلم أوربه بوجودها من رحلة مار كوبولو (١٢٧١ - ١٢٩٥) في القرن الثالث عشر ، ومن بعثات الفرنسيين في بلاد المغول والصين في القرن الرابع عشر . ولكن منذ أن تقدم الفتح التركي في بلاد آسيا الغربية وأوربه الشرقية انقطعت العلاقات المباشرة بين هذه البلاد الآسيوية وأوربه .

ب - افريقية

لقد كانت افريقية السوداء ، التي هي افريقية الحقيقية ، تخفى على أوربه . وكانت هذه تجهل تمام الجهل تقريباً حالة السكان الزوج ، في القرن الخامس عشر ، ولكنها تعلم تاريخ سكان افريقية الشمالية الذين ينتمون إلى العرق الابيض من مصريين وبربر وعرب .

وقد اخضع الفتح العربي ، منذ القرن السابع ، مناطق واسعة في افريقية . ولم يتوطد الحكم العربي في افريقية الشمالية فحسب ، بل ان تأثير العرب انتشر ، بالتجارة والدعوة الدينية ، في افريقية الشرقية في شاطئ المحيط الهندي وافريقية الغربية ونفذ إلى قلب افريقية السوداء . وكانت التجارة العربية نشطة بواسطة القوافل بين افريقية الداخلية والبحر المتوسط وخاصة في المحيط الهندي .

وكان الوضع في افريقية في آخر القرن الخامس عشر تقريباً مايلي :

البلاد الاسلامية . - وتؤلف مايقارب نصف افريقية الشمالي .

ولكن لم يكن بينها وحدة سياسية جامعة .

- ٢٦ -

بلاد الحضارة السوداء . - ويوجد فيها قبائل تتجمع احياناً بشكل اتحادات . وتؤلف هذه الاتحادات نوعاً من ممالك ، وخاصة في منطقة الكونغو وزامبيا العليا .

الحبشة . - وقد دانت بالديانة المسيحية على أيدي التجار السوريين في القرن الرابع وظلت مسيحية . الا انها اعتنقت الهرطقة القائلة بطبيعة المسيح الواحدة . وكان لنجاشي الحبشة سلطة مطلقة على عدد من الممالك ، وكانت هذه الممالك بمثابة ولايات تابعة له .

وفي افريقية هذه لم يحاول الاوربيون أن يتوغلوا بعد ، إلا ان الاسبانيين اسسوا ، منذ القرن الخامس عشر ، بعض المراكز على شاطئ افريقية الشمالية ، وعرف الملاحون البرتغاليون شاطئ افريقية حتى مصب الكونغو .

ج - امريكا

كان استيطان هذه القارة متبايناً جداً ، فالى جانب الصحارى أو اراضي المراعي الحالية نجد مناطق كثيفة السكان نسبياً . ولم تكن طباع السكان أقل اختلافاً . وكان معظمهم يعيش عيشة بدائية . وقد وجد فيها ثلاثة مراكز حضارية .

١ - حضارة الماياس في القسم الجنوبي من المكسيك الحالية .

٢ - حضارة الآزتيك في القسم الاوسط من المكسيك .

٣ - حضارة الانكا في هضاب بيرو العليا وبوليفيا الحالية . وأهم هذه الحضارات ، على ما يظهر ، هي حضارة الانكا . فقد نظموا دولة ذات طابع أصيل ، ووجدت الحياة الاقتصادية فيها منظمة بصورة دقيقة

يوزع فيها السيد الاراضي والامممة بين السكان ويأمر بأعمال الطرق والجسور وبناء السدود . كما يأمر بصنع الملابس في مشاغل الدولة ويوزعها عليهم .

وهذا التنظيم في الحياة الاقتصادية يفرض وجود ملاك منظم للدولة . فقد كان المرظفون يجتازون الفحص قبل توظيفهم ، ويؤمنون مراقبة الانتاج والمبادلات ومصالح الارتباط .

وكانت طرق المواصلات ، من طرق برية وادراج في الجبال ، معتنى بها ، حتى أن بعض علماء الاقتصاد يرون ، في دولة الانكا هذه ، اقتصاداً من النوع الاشتراكي .

ان هذا الوضع العام ، الذي اتينا على ذكره ، تبدل في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر والنصف الاول من القرن السادس عشر ، وذلك بتأثير حوادث ذات أهمية عظيمة لا بالنسبة لأوربة فحسب ، بل لمعظم العالم .

والحادث الرئيسي هو الاتصال المباشر بين أوربة والقارات الاخرى بعد الاكتشافات الكبرى التي كانت نقطة الانطلاق في التوسع الاوربي . وفي الوقت نفسه تبدلت سياه أوربة ، وخاصة أوربة الغربية ، بتأثير القوى الجديدة من نهضة فكرية واقتصادية ودينية .

ونرى اخيراً ، في بعض البلاد الاوربية ، وخاصة في فرنسا ، ان النظم السياسية تبدلت ، وان الدول اخذت طابعاً جديداً وهو تطور الملكية الوراثية وتزوعها نحو الحكم المطلق .

الفصل الثاني

حروب إيطاليا

من ١٤٩٤ إلى ١٥٥٩

كان القرن السادس عشر مسرحية تاريخية كبرى تتألف من عدة فصول . وأول هذه الفصول حروب إيطاليا . وإذا بحثنا في هذه الحروب وجدنا أنها ترجع في أصلها إلى العصر الوسيط . غير أنها مالبت أن أخذت شكلاً جديداً وأدت إلى مفاهيم حديثة لم تكن معروفة من قبل . ولذا تعتبر من هذه الناحية همزة وصل في التاريخ العام .

وعندما نقول « حروب إيطاليا » نعني بها هذه الحملات التي وجهتها كل من الدول الكبرى الأوروبية ، فرنسا ، إسبانيا ، الامبراطورية المقدسة ، إلى شبه جزيرة إيطاليا ، وتابعت إرسالها من ١٤٩٤ إلى ١٥٥٩ . هذا ويعتبر عبور شارل الثامن ملك فرنسا في العام ١٤٩٤ لجبال الالب . نقطة انطلاق لهذه الحروب أو رفعاً للستار عن المسرح الذي تمثل عليه هذه المسرحية ، كما يعتبر الانتخاب الامبراطوري في عام ١٥١٩ نقطة الوصول ، لأن اعتلاء شارل الخامس الملقب بشارلكت الهابسبورغي عرش الامبراطورية المقدسة ، وما علق به من نزاع في قضية بورغونيا ، أثار أول حرب كبرى عرفتها العصور الحديثة في سبيل الهيمنة على الغرب الأوروبي .

اسباب صروب ايطاليا

في العام ١٤٩٤ عبر ملك فرنسا شارل الثامن جبال الالب وانجدر منها على رأس جيش كبير إلى ايطاليا ، ثم تلت هذه الحملة عدة حملات . وتعتبر هذه الحملة الأولى انحرافاً في السياسة الفرنسية المتبعة ، وخروجاً على تقاليدھا المألوفة ، لأن ملوك فرنسا ، حتى ذلك الحين ، كانوا يسلكون باستمرار سياسة فطنة ودراية ، ويحاولون جهدهم ألا يلقوا بأنفسهم ويجنودهم في مغامرات بعيدة لا طائل تحتها ، بل انهم ، على العكس ، كانوا يبحثون عن المنافع القريبة منهم ويسعون في توسيع رقعة أرضهم على حساب الاقطاعات الكبرى ، ودون أن يصرفوا اهتمامهم عن الحدود الشرقية ، لأن المنطقة ، التي كانت وراءها وتمتد من الراين إلى الالب ، كانت داخلة في الامبراطورية المقدسة ، ويبدو أنها تستطيع في هذه الحال الانضمام إلى الجانب الأقوى . ولم يأل جهداً ملوك فرنسا في أن يتدوا بنفوذهم اليها كلما منحت الفرصة . فمن ذلك أن فيليب الرابع ، الجليل ، كسب ليون وكونتية بار ؛ وفيليب فالوا أو فيليب السادس الملقب بالجرمي كسب الدوفينة ؛ وشارل السابع تدخل في اللورين ؛ ولويس الحادي عشر احتل مقاطعة فرنش - كورنته وبروفانس مستفيداً من قضايا وراثية .

غير أن قضية بورغونيا لم تحل نهائياً . فقد كانت تابعة للدوق شارل المتهور الذي حاربه لويس الحادي عشر فلحقه حتفه تاركاً وارثة في العشرين من العمر تسمى ماريا بورغونيا . وقد قرر لويس الحادي عشر أن يستولي على أرضها ، فوضع يده على بورغونيا وفرانش - كورنته وبسكارديا وآرتوا ، باستثناء الفلاندر التي بقيت محافظة على ولائها لماريا

بورغونيا . وقد أخذت هذه تبحث عن سند لها تحتمي به من هذا المليك الذي جردها من اموالها ، فتزوجت بالأرشيذوق مكسمليان النمسا . وكانت النتيجة المباشرة لهذا الزواج ضياع الفلاندر من المملكة الفرنسية ، والتنافس الطويل بين الأميرة الفرنسية والاميرة النمساوية .

قامت الحرب بين ماريا بورغونيا ولويس الحادي عشر وبقيت دون نتائج حاسمة ، وتوفيت على اثرها ماريا بورغونيا . وعقدت بعدها معاهدة آكاس (١٤٨٢) بين لويس الحادي عشر ومكسمليان على أن تبقى الأمور على حالها ، وأن تتزوج مارغريت النمسا ، بنت ماريا ومكسمليان ، ولي عهد فرنسا ، شارل ؛ وان تقدم فرائش - كوته وآرتوا مهرآله . غير أن هذه المعاهدة لم تته شيئاً ، لأن لويس الحادي عشر أضع كوثنيه الفلاندر الغنية وأخذها آل هابسبورغ ، ولم يحتفظ بآرتوا وفرائش - كوته إلا كمهر لمارغريت النمسا خطيبة ابنه ولي العهد شارل . وعندما أصبح هذا الأخير ملكاً باسم شارل الثامن ، حاصر آنا بروتانيا ثم تزوجها في العام ١٤٩١ ، وانضمت هذه المقاطعة أخيراً الى المملكة الفرنسية .

ثم تأزمت القضية البورغونية وبلغت درجة عظيمة من الخطورة غير ان الملك الشاب ، شارل الثامن ، لم يكن ليفكر الا بايطاليا ، بلد المغامرة الكبرى . ولجعل هذه المغامرة سهلة الامكان رأى أن ينهي السياسة ، التي اتبعها ابوه لويس الحادي عشر ، وينح جيرانه عدداً من الامتيازات لتكون حدود المملكة ، مدة غياب الحملة ، في امان من أي تهديد أو خطر من قبل اعدائه . ولذا فسخ عقد التآل الذي أبرمه مع مكسمليان . وقد أصيب هذا بصدمتين : الاولى : ضياع آنا بروتانيا

وكانت ترغب الزواج به ، فقد كان منهمكاً في حربه مع الفلاماندين ، ولم يكن لديه متسع من الوقت للتدخل ، عندما أمرع شارل الثامن وحاصر آنا في مدينة رين إلى أن رضيت بزواجه بها . والثانية : فسح خطبة ابنته مارغريت مع شارل الثامن .

أما شارل الثامن فقد سوى المسائل كما يلي :

(١) عقد معاهدة سانليس (٢٣ أيار ١٤٩٣) مع مكسمليان النمسا وبوجهها تخلى له عن آرتوا وفراش - كوتته .

(٢) وعقد في هذه السنة أيضاً معاهدة بارشلونة ، وبها أعاد روسيون إلى فرديناند آراغونه .

وهذه الأقاليم الثلاثة : آرتوا ، فراش - كوتته ، روسيون ، التي كسبها لويس الحادي عشر وتخلي عنها شارل الثامن ، لم ترجع إلى فرنسا إلا بعد عدة حروب في القرن السابع عشر . أما الفلاندر ، فقد فقدتها فرنسا نهائياً ، باستثناء جزء منها ، ولبت ملوك فرنسا ، خلال ثلاثين عاماً ، وهم في منأى عن السياسة التقليدية ، يبدون مواردهم ويبددون قواهم في مشاريع خيالية وهمية ، وكما قيل ، في « حروب الفخر والعظمة » .

إن السبب الأول لهذه الحروب ، التي قامت في إيطاليا ، يرجع إلى مزاعم ملك فرنسا في مملكة نابولي ، التي كانت قديماً داخلة في ملكية الأمراء الأنجويين أي آل أنجو . وتشمل هذه المملكة الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة أي ما يقارب نصف إيطاليا . وقد عرفت في القرنين الرابع عشر والخامس عشر تاريخاً مضطرباً جداً . وضع آل آراغونه ، وكانوا سادة صقلية ، يدهم عليها عام ١٤٤٣ ، ثم قام الأمراء الأنجويون بمحاولات عديدة لاسترداد نابولي ، غير أن مساعيهم باءت بالفشل . وقد

نقل آخرهم الملك رونه مزاعمه عليها في العام ١٤٨٠ إلى لويس الحادي عشر ، فلم يعلق هذا الأخير كـبير أهمية على هذا الارث . أما ابنه شارل الثامن ، وهو آخر أحفاد بولاندا آنجو ، فكان ، على عكس أبيه ، فكراً روائياً يحب الحيال ويحلم بغامرات شارلومان وفتح نابولي ليذهب منها بأماله إلى قبرص والقدس والقسطنطينية وليزيح عنها « الكافرين » ويردم على أعقابهم خامرين ، ويسترجع الامبراطورية الشرقية لصالحه الخاص .

والسبب الثاني يرجع الى الدسائس التي يبيكها دوق ميلانو ، لودوفيك لومور من آل سفورزا ، لدعوة الفرنسيين لمساعدته ضد ملك نابولي . وأخيراً المزاعم التي قام بها لويس الثاني عشر ، خليفة شارل الثامن ، على ميلانيا أي منطقة ميلانو ، وكانت لويس الثاني عشر حفيد فالانتين فيسكونتي بنت دوق ميلانو الأول جان غاليا . ولذا كان يرى بأن له حقاً على دوقية ميلانيا التي وضع آل سفورزا يدهم عليها ، حوالي منتصف القرن الخامس عشر ، وجعلوها ملكاً من أملاكهم .

وطال النزاع على هذه الممتلكات . وبينما كان قائماً بين ملوك فرنسا وآل آرأغونه على مملكة نابولي ، اذا به يصل إلى نزاع بين هؤلاء الملوك والامبراطور مكسمليان على ميلانيا التي يعتبرها اقطاعاً من اقطاعات الامبراطورية المقدسة .

اشترك في حروب إيطاليا ، في أول الأمر ، ثلاث أسر كبرى مالكة : فرنسا ، النمسا ، اسبانيا . غير أن الموقف تطور ابتداء من ١٥١٩ ، بسبب انضمام الأميرة النمساوية إلى الامرة الاسبانية ، عندما اعتلى عرش الامبراطورية المقدسة شارلوكان ملك اسبانيا . وهددت فرنسا من جهة الشمال والشرق والجنوب فقامت تناضل للدفاع عن بيضتها

وسلامة أرضها . وتدخلت على اثر ذلك دول اوربية أخرى مثل انكلترا والامراء الألمانين ، وتركيا ، ولم يعد النزاع بعدها قاصراً على ايطاليا فحسب بل توسع وعم أوربه .

أدوار الحرب . - دامت حروب ايطاليا من ١٤٩٤ إلى ١٥٥٩ ويقسمها المؤرخون إلى عدة أدوار . على أننا نكتفي بتقسيمها إلى دورين كبيرين .

الأول : من ١٤٩٤ إلى ١٥١٦ ، ويتفق هذا الدور مع حكم شارل الثامن ولويس الثاني عشر وبداية حكم فرنسوا الاول من ملوك فرنسا .
الثاني : ١٥١٩ إلى ١٥٥٩ ، ويطلق حكم فرنسوا الاول (١٥١٥ - ١٥٤٧) وحكم هنري الثاني (١٥٤٧ - ١٥٥٩) ويمتاز باتساع شقة الحلاف بين الملكية الفرنسية والامبراطورية النمساوية . وقد تجلت في حروب ايطاليا أهمية العلاقات الدبلوماسية ، وشدة العناية بالسياسة الخارجية ، والبعث عن احلاف ، وانقلاب هذه الاحلاف على بعضها بين حين وآخر تبعاً لمصالحها الخاصة . وظهر فيها تحول وتجديد في طرق الحرب ووسائلها ، مما دل على ان هذه الحروب كانت بمثابة حروب انتقالية بين الحرب في العصر الوسيط حيث يستعمل السيف والقرس والدرع وغيرها ، وبين الحرب في العصر الحديث حيث يستعمل المسدس والبنديقة والمدفع وتغلب عدد الجنود المشاة على الفرسان .

ايطاليا قبيل الحروب

كانت ايطاليا ، في آخر القرن الخامس عشر ، بالنسبة الى اوربة ، بلداً جميلاً ساحراً يشع بالنور فيستهي جميع الشعوب . إن تقاليد روما عصر النهضة (٣)

والعواطف التي تجذب الحجاج إلى « المدينة الخالدة » ، والجاء الذي يتمتع به الكرسي البابوي ، والرغبة الملحة في مشاهدة البلاد العذبة بما فيها من حياة مترفة وحضارة زاهية ؛ إن كل هذه المشاعر والأحاسيس كانت تبعث في النفس الحنين والشوق إلى إيطاليا وتتملك « البرابرة » فيها وراء الجبال . لقد بدت إيطاليا لهؤلاء الأوروبيين بلداً متقدماً على غيره من البلاد الأخرى . وكان الواقع يؤيد ذلك ، نظراً لحياثها الاقتصادية وتركيبها الاجتماعي وحياتها الفكرية الناعمة الصافية الحرة وانظمتها السياسية المتنوعة . غير أنها كانت في هذا المعنى متأخرة بالنسبة لغيرها ، لأنها لم تعرف كيف تبدع النظم التي تستطيع بها تنمية نشاطها بسلام . فمن هذا التناقض الذي نراه بين حضارة متقدمة وعجز عن تأسيس دولة أو دول متماسكة وقوية ، ومن هذا التباين بين إيطاليا الغنية وجيرانها الجشعين ، خرجت المأساة الإيطالية فكانت انقلاباً عظيماً في تاريخ العصر .

وإذا كانت إيطاليا تستحق أن يطلق عليها اسم « تعبير جغرافي » فهي تستحقه جيداً في آخر القرن الخامس عشر . ولم يكن هذا التعبير محددًا جيداً في بعض الجهات : ففي الشمال الغربي لم تكن جبال الالب حداً فاصلاً ، لأن امرة سافوا كانت تقبض على معابر الجبال ولها رعايا سافوردية وبيموننتية . وهي إذا لامست البحر المتوسط عند نيس فقد كانت تتجاوز ، في شمال بحيرة ليان ، الأراضي الفرنسية : فود وپريس وبوجي . وكانت ماركيزية سالوس تابعة لفرنسا . كما أن جنوه أصبحت فرنسية مرتين خلال القرن .

وفي الشمال يرى أن كثيراً من امارات إيطاليا الشمالية مثل : ميلانو ، مانتو ، مودينا ، بارما ، كانت اقطاعات للامبراطورية المقدسة ، وان

امراءها مرعان ما يبادرون إلى الامبراطور للاعتراف بسلطتهم على المدن التي يخضعونها لادارتهم . يضاف إلى ذلك أن الاباطرة الجرمانيين ، منذ آل شتاوفن ، خلفوا مستعمرات جرمانية عند اقدام هذه الشعوب الجبلية . فمدينة ترانت ، مثلاً ، كانت مدينة المانية في منطقة ايطالية .

وفي الشرق ، كانت ايطاليا على اتصال بالشعوب السلافية ، كالسوفيين في شبه جزيرة ابستريا ، والدالماسيين على الشاطئ الشرقي لبحر الادرياتيک . وكانت الجزر والمدن التي في هذا البحر خاضعة لنفوذ البندقية وسيطرتها ، ولكن هذه الاخيرة غلبت على امرها تحت طغيان المد السلافي .

وبالرغم من التباين في اللهجات والاختلافات السياسية فقد وجد في ايطاليا ما نسميه « الايطالية » ، وهي هذه العاطفة ، التي تملك الايطاليين في وحدتهم اللغوية ، وتراث روما المشترك ، وشعورهم بتفوقهم الفكري ، وثقافتهم الصافية ، فتجعلهم أبناء امرة واحدة ، وبامكانها أن تحتقر « البرابرة » أي سكان اوربه الذين يأتون اليها من وراء جبال الالب . ولكن إذا وجد في ايطاليا ، لحدما ، روح ايطالية ، فليس فيها ما يشبه دولة ايطالية أو اتحاداً أو جامعة دول ايطالية . لقد كان مصور ايطاليا فسيفساء حقيقية متبدلة الحواشي والاطراف ، وكان التنافس يولد حروباً دائمة ، ويزيد هذه الحروب تعقيداً وتركيباً المنازعات الاهلية بين الاحزاب والطبقات في داخل كل دولة ، كنزاع البورجوازيين والنبله ؛ والشعب « النجيل » ، والشعب « الطرير » . وقد قامت هذه المنازعات مقام المنازعات التقليدية المألوفة في العصر الوسيط بين أنصار البابوات (الغلفيين) وأنصار اباطرة جرمانيا (الغيبيليين) ، التي قسمت ايطاليا على نفسها من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر . ولذا

كان العدو يجرد ، في كل مدينة ، حلفاء يدعوونه لنصرتهم ، وكانت الحروب تؤدي إلى الثورات .

غير أن الاشتراك في الحرب ، بالنسبة للبورجوازية المتمولة في الحواضر الكبرى ، كان معناه التخلي عن أرباح الصناعة والتجارة ، ولذا كانت ترجع استئجار رجال ، من محترفي الحرب ، وزعماء يأخذون على عاتقهم سوق العصابات والقيام بالعمليات الحربية . ولا شك في أن مثل هذه الحال كان يؤدي إلى نتائج لا سبيل إلى اجتنابها . وهي أن الزعيم المأجور كان بعيداً عن أي روح مدنية ، همه أن يقوم بالحرب كفنان ، ولم يكن لديه أي رغبة في ابادته الخصم والقضاء عليه ، حرصاً منه على سلامة رجاله ودفعاً لحساباته ، حتى أت الحروب البسيطة كانت تقرر مصير الدول . وكان الزعيم يحاول الاستمرار في وضعه معتمداً على قوته . ولهذا السبب كانت الجمهوريات في المدن تستحيل إلى امارات ، في الامم أو في الواقع ، لصالح بعض الامر ولو كانت هذه الامر متحدرة من ارومة متواضعة . فكان يسود آل بانتيفولي في بولونيا ، وآل باليوني في فيروزة ، وآل ايسن في فراره ، وآل غوانزاغ في مانتو ، وآل مالايسستا في ريميني ، وآل سفورزا في ميلانو .

وعلى هذا النحو نشأ في ايطاليا نموذج سيامي جديد يسمى « الامير » . ويختلف هذا الامير كثيراً عن الامير الاقطاعي القديم ، واكثر من ذلك عن الملك . ولم يكن هؤلاء الامراء أي ميزة من الميزات الصوفية التي استفاد منها آل فالوا في فرنسا ، وآل تيودور في انكلترا ، و« الملكان الكاثوليكيان » في اسبانيا ، لأنهم لم يوقفوا في نفس رعاياهم أي عاطفة تشبه العاطفة القومية ولو من بعيد . لقد توصل هؤلاء الامراء إلى السلطة بالقوة والحداع ، ولذا كانوا يرجعون دوماً إلى القوة والحداع للمحافظة

على كيانهم ضد محاولات منافسهم وضد الاحزاب المناوئة المستاءة .
وما قيمة الدول التي يحكمونها إلا بمقدار قيمتهم الشخصية .

هذا وتستطيع القوة الاقتصادية أن يكون لها من النفوذ ما للقوة العسكرية . فيمكن لصاحب المصرف الغني مثلا أن يكون « اميراً » كزعيم العصاة . ولا شك في أن ماكيافيلي ، مؤلف كتاب « الأمير » ، بدأ هذا الكتاب وهو يفكر برجل حرب ، ولكنه أهدها إلى ابن رجل مال . وفي القسم الفلورنسي من كتابه نجد أن كل شيء يحوم حول المصرف ووظائفه الأساسية التي ترمي إلى إدارة المصالح المالية في البلاط البابوي وتأمين استيراد الصوف وتصدير المنتجات التوسكانية . ومن أمر أصحاب البنوك ، امرأة آل ميدتشى التي استطاعت ، بفضل كوزم وبطرس ولوران ، أن تحصل على نفوذ وقوة غير منازعين . وفي ١٤٩٢ خلف بطرس الثاني أباه لوران دون أي تبديل في سير النظم الفلورنسية . غير أن عجزه الشخصي وعدم كفاءته والغزو الفرنسي أجلت تحويل هذه الامارة إلى دولة ملكية .

وكانت الحروب بين المدن تؤدي غالباً إلى توطيد نفوذ الاقوياء على جيرانهم . وفي المدن ، التي تزدى فيها الوضع إلى حالة التبعية ، كان أمراء الجمهوريات المتبوعة يضعون نائباً عنهم يمارس جميع السلطات باسمهم ولذا نرى ، في هذه التجزئة الإيطالية ، اتجاهاً نحو المركزية ، وفي كتل المدن عواصم ودواوين وبلاطات . غير أن هذه المركزية كانت مركبة ومحدودة وموضعية وينافس بعضها بعضاً ، وان ما يفهمه الايطاليون من الوحدة إنما هو استيعاب الدول الضعيفة وابتلاعها وامتداد الدولة القوية . فمن ذلك أن فلورنسا حذفت منذ تسعين عاماً حرية ييزا لتستطيع الاحتفاظ

بالطريق مفتوحة إلى البحر ، ونصبت على جسر نهر الآرنو أسداها الحجري
« مارزوكو » .! وكذا آل سفورزا ، سادة ميلانو ، خلفوا آل
فيسكونتي على رأس الدولة اللومباردية التي تضم بافيا وبرغام .

وأقوى هذه الدول ، وهي جمهورية البندقية ، كانت استثناء لنظام
الامارة الذي يكاد يكون عاماً في إيطاليا . وتتألف هذه الجمهورية من
جماعة أرستقراطية من اصحاب السفن ، ولا نجد ، في أحواضها المائية ،
الحنطة الضرورية لتغذية سكانها والمواد اللازمة لمصانعها . وكانت في ممتلكاتها
على الأرض اليابسة تمارس سلطة تنزع إلى المركزية الملكية ، ولا تخلو
هذه المركزية من فائدة ، لأنها تحمي البورجوازية والطبقات الشعبية من
طغيان النبلاء .

ولم تكن هذه الجمهورية دولة إيطالية بالمعنى الصحيح ، لأن منافعها
في أوربه . فقد كانت تقبض على طرق البلقان بممتلكاتها على الشاطئ
الشرقي للبحر الأدرياتيكي ، وعلى قبوص منذ عام ١٤٨٥ ، وتسيطر
باساطيلها في الاسكندرية على تجارة البحر المتوسط الشرقي . وبفضل
موقعها عند اقدام معابر الالب الشرقية كانت أبنيتها مستودعات للتجارة
بين بلاد شرق المتوسط والشرق الأقصى من جهة ، ومدن المانيا الصناعية
ومدن الهانس وبوهيميا وقسم من هونغاريا وبولونيا من جهة أخرى .
وكانت طريق القطن وطريق التوابل تمران دوماً من البندقية ، كما كانت
توساقلها تستورد المعادن ، وخاصة النحاس ، من مناجم أوربه الوسطى .
يضاف إلى ذلك أن استيلاء الاتراك ، على الامبراطورية البيزنطية الهرمة ،
لم يزعزع قوة هذه الجمهورية . غير أن البندقية كانت بحاجة لتأمين غذائها ،
وهذا ما جعلها تضيف ، إلى منتجات أرضها اليابسة ، منتجات البلاد التي
أصبحت عثمانية . وكانت مضطرة ، بحكم هذه الضرورة ، لأن تبقى

محافظة على علاقتها السلمية مع الباب العالي ، ولذا كان أفقها السيامي يشمل ، على هذا النحو ، فيتا والقسطنطينية ، أي يتجاوز حدود إيطاليا . وكانت تلعب دورها في إيطاليا بهذه القوة التي تأتيها من الخارج . ففي أراضيها من اليابسة كانت تؤلف عقبة أمام توسع الدولة اللومباردية ، وتهدد مواصلات فلورنسا ، وتمنع الدولة الحبرية من أن تمتد بنفوذها إلى الإمارات الرومانيولية . وأدى الضعف بملوك نابولي إلى التخلي عام ١٤٥٦ عن خمسة موانيء ونقاط الاستناد الخمس ، لأساطيلها على شاطئ بوي الشرقي . وفي هذا مايساعدها على اغلاق البحر الأدرياتيكي متى تشاء . في الحقيقة ، كانت البندقية ، في نظر جمهرة الايطاليين ، عدواً ودولة تسعى وراء التوسع والتسلط .

أما الدولة الحبرية فتمتد في وسط إيطاليا . ويعتبر العام ١٤٩٢ تقوياً أساسياً في تاريخها . ففي ١١ آب من هذا العام تم انتخاب البابا الكسندر السادس ، وهو ثاني بابا من امرة بورجا الاسبانية ، التي يسميها الايطاليون بورجيا ، وسيلعب دوراً هاماً في تحويل الكنيسة الرومانية إلى اكبر دولة زمنية في إيطاليا . كان هذا البابا سيمونيا فاسقاً وأباً لأمرأة عديدة جشعة . طبق سياسة المقربين والمحاسيب دون خجل أو حياء ، حتى أن أشد المؤرخين ، رغبة في محاربة الكنيسة الرومانية والاحتجاج على اسطورة آل بورجيا ، لا يخفون شيئاً من هذه المعايير . ومما قيل في أعمال الكسندر وابنه « قيصر » ، من الوجهة الاخلاقية فقد أدت إلى نتائج سياسية عظيمة : من ذلك أن حبه لأقربائه بلغ به مبلغاً عظيماً ، حتى ان من يتون اليه بصلة القربى البعيدة غادروا اسبانيا اثر انتخابه لينقضوا على الغنيمة الرومانية . وقد قال فيه رسول فيرواره في تشرين الثاني ١٤٩٢ : « ان عشر بابويات لا تكفي هذه الذرية السيئة » .

بحث الكسندر السادس في أول الأمر عن أحلاف لأبنائه بضاعفوت سطلته الزمنية : فقد تزوجت ابنته لوكريس أميراً من آل سفورزا ثم ابناً طبيعياً للملك نابولي قبل أن تصبح دوقة فيراره . وخلع ابنه قيصر الأرجوان ، لباس الكردينال ، ليتزوج شارلوت البريت . وحارب البابا آل اورسيتي واعطى إلى ابنه العزيز ، دوق غانديا ، بينيفين وتيراسين ، وجعل ابنه قيصر دوق رومانيو سنة ١٤٩٩ حاماً للكنيسة وحاملاً رايته . حتي أن الدولة الحبرية بدت في العام ١٥٠٠ ملكاً لأسرة واحدة . وكانت الامر ، التي ثور في هذه الدولة ، مثل أمرة اورسيتي وسافيلي وكولونتا ، نجد من يثنها في « هيئة الكرادلة » التي ترى فيها جميع المؤثرات الايطالية والأوربية . وكان الكرادلة يلعبون كالبابا دوراً زمنياً : فمن ذلك أن اسكانيو سفورزا كان يدافع عن السياسة الميلانية ؛ وجوليان دولاروفير « الجنوبي الاصل » كان خصماً خطراً لآل بورجيا ودخل في خدمة فرنسا التي وضعت يدها على اوسيتي ميناء روما .

وفي جنوب الدولة الرومانية تمتد ملكة نابولي . وكانت هذه المملكة تابعة منذ عام ١٤٥٨ لفرع طبيعي من امرة آرافونه . أما الفرع الشرقي فقد احتفظ بصقلية . فضلاً عن ان آل آنجو لم يتغلخوا عن مزاعمهم في نابولي . وقد ساءت علاقات ملكها فرديناند مع البابا وكرهه بارونات المدينة لفظاعته وسوء امانته ، فالتفوا حول امير ساليرن وبجشوا عن حلفاء لهم في الخارج .

كانت العلاقات بين هذه الدول الايطالية ودبة حيناً ، وعدائية حيناً آخر ، وكانت كل دولة تمثل نفسها لدى الاخرى بسفراء أو « اورانوري » دائمين أو مؤقتين .

وكانت إيطاليا ، في ذلك الحين ، ارضاً للتجارب يظهر فيها نشاط
اوربه الحربي والدبلوماسي ، وتعد في الدول التآلات والاحلاف .
ففي ١٤٤٨ وجد حلف فلورنسي - ميلاني ضد البندقية وقيل حروب
ايطاليا ابرمت فلورنسا وروما و نابولي حلفاً للمحافظة على الحالة الراهنة .
وكان لودوفيك سفورزا سيد ميلانو ، ولكنه لم يكن دوقها بل دوق
باري . وكان ابن أخيه جان غالياً ضعيفاً مريضاً لا حول له ولا قوة .
وقد تزوج غالياً بايزابل بنت الفونس كالايري أي بحفيدة ملك نابولي ،
وفي العام ١٤٩٠ أتت منه بغلام ، وبدا الحظر عظيماً على لودوفيك
فانحاز إلى معسكر أعداء نابولي .

ومن هنا تبدو صورة سياسة التوازن ضد النزعات ، التي ترمي إلى
السيطرة والهيمنة ، وفكرة المناداة بحكم أجنبي . ولما كانت الدول أو
حكومات الدول لا تستطيع أن يستولي بعضها على الآخر ، وكانت
جيوش زعماء العصابات تتحاب على الدوام دون نصر حام ، فقد أصبح
من الممكن أن تدخل إلى العالم الايطالي قوة خارجية ترجع كفة الميزان .
ويبدو أن الفكرة الغيبيلية القديمة ، التي كانت تنزل من جبال الالب
المليك الذي يبعث السلام ويقوم الاخطاء ، قد ظهرت بشكل جديد ،
وأخذت ايطاليا تنتظر وتدعو وتطالب بالمنفذ الذي يفصل في القضايا
المعلقة . وتجاوز النشاط الدبلوماسي الايطالي حدود الجبال . وكان للدول
الايطالية الهامة في البلاطات الاوربية مال ينازع بعضهم بعضاً ، ومنفيون
يؤملون بقوى جديدة لحمة احزابهم المغلوبة . فنشأ عن ذلك لعب
دائم في الدساتر والمكايد والمساومات والوعود . ولاغربة في أن يشرى
بالذهب مستشار الملك من الملوك ، أو يلجأ أمام آخر بمنصب أو بعقبة

الكردينال . وفي الغالب كانت الدول التي يطلب تدخلها : فرنسا ، اسبانيا ، الدولة النمساوية - البورغونية .

كان المتنافسون يقيمون الممثلين الدائمين في فرنسا خاصة ، لأن فرنسا شارل الثامن ، وقد توحدت سياسياً وقويت عسكرياً ، كان تمثل فيها الدولة الممتازة . ويتمتع ملكها ، ليل القديس لويس ، بجاه عظيم في جنوب جبال الالب ، واليه توجه انظار الضحايا ويلجأ المنفيون . ويبدو أن ايطاليا ، الحلوة من التقاليد الملكية ، كانت تعمل فيها اسطورة ملوك فرنسا .

ولا شك في أن من كانوا ينادون بشارل الثامن لم يفكروا باستعمال الراية الفرنسية ، في بعض الاحيان ، الا « كجعب » يخيفون به منافسيهم ، وكانوا يعتقدون في قرارة نفوسهم أن هذا التدخل من وراء الالب ، الذي يعلن عنه دوماً ؛ لا يمكن أن يكون حقيقة أبداً ، حتى ولو اتخذ الملك دعوتهم جدية وانحدر إلى ايطاليا ، لأن لهم ، من دقة أفكارهم ، كما يزعمون ، ما يجعلهم يتغلبون على عقلية رجال ماوراء الالب « الغليظة » .

هذه هي العناصر السياسية للقضية الايطالية . ويضاف لها عنصر اخلاقي وديني ، وهو هذه الاصوات التي تعالت صارخة على فساد الكنيسة الرومانية ووثنية النهضة الاولى واطماع الزعماء الطغاة الذين يضطهدون ايطاليا ويمزقونها ويوردونها موارد الهلاك . ولقد امد انتخاب البابا السيموني عام ١٤٩٢ هذه الالهجة الحارة بغذاء جديد . وقام الراهب الدومينيكي سافونارولا في فلورنسا ينادي بالحرر الذي يطهر ايطاليا من اداراتها ويرجع ملكوت المسيح . وكانت الرف المستمعين اليه تنفجر بالنميج

والزفرات . وقد دل سافونارولا بكلامه وتنبؤاته قبل عيد الميلاد عام ١٤٩٢ على العذاب الذي سيحل بـ « سدومات » شبه الجزيرة ، أي بالمدن الإيطالية التي تشبه سدوم وعمورة . ونظر في السحاب فوصف « سيف السيد الذي سيهبط على الأرض عاجلاً » ، وسيرى هذا السيف اليد التي تقبض عليه ، يد سيروس جديد . وبعد فليس على شارل الثامن إلا أن يعبر الألب وينحدر إلى إيطاليا .

المحاورت الأساسية

الدور الاول (١٤٩٤ - ١٥١٦) . - كان جيش شارل الثامن عظيماً في عصره بالرغم من أنه لم يكن ليتجاوز الثلاثين ألفاً . واكثر من نصفه فرسان . ويشتمل على جنود اجانب من البلقان وسويسرا والمانيا ، وجنود فرنسيين من مقاطعات غاسكونيا ودوفينة ، وبيكارديا ونورمانديا . وكانت المدافع التي معهم ثقيلة خشبها الايطاليون . وقد أعد الملك كل ما استطاع في سبيل النصر .

وما انحدرت الحملة من جبال الألب الا وانهارت ايطاليا كالبناء المتوهن . ففي بافيا قدم لودوفيك لثنية الملك في ١٥ تشرين الاول . وفي ٢١ منه توفي جان غاليليا دوق ميلانو الاسمي ، وقيل أنه مات مسموماً ، واستقر الامر للودوفيك ونودي به دوق ميلانو . أما في فلورنسا فقد أخذ وعظ سافونارولا شكل نداء للحرية ، وطرد الفلورانسيون آل ميدتشي ، وفر بطرس واخواته ، وجاء سافونارولا إلى المارشال الثامن « المسيحي جداً » ليخفف من غضبه ويطلب منه وعداً بالمرور من فلورنسا التي أصبحت بملكة المسيح واحرقت الاوثان التي عبدتها الوثنية الجديدة . ولكن مرهان ما تبدل هذا الامل البامم بيأس مريب ، ورأت ايطاليا نفسها قد خدعت ، لأن الفرنسيين ، بعد استقبلوا منفذين ومقومين للأخطاء ،

انقلب الايطاليون عليهم وكرهوم لفظاتهم ، ومعاقرتهم الراح ، واعتدائهم على النساء ، وتدخلهم في المنازعات الايطالية . وكاد النزاع يحتدم بين جماعة الملك ورجال فلورنسا .

واصعب من هذا كان مرور الجيش من الدولة الرومانية ، وذلك لأن الارهاب كان عظيماً في روما حيث وصلت الاخبار عن فظاظة الفرنسيين في الحرب . وكان آل كولوننا ، حلفاء شارل الثامن ، قد استولوا على اوستي وهددوا الرومانيين بالمجاعة . وابلغ شارل عن عزمه بقضاء عيد الميلاد في المدينة المقدسة ، ولم يدخلها إلا بعد مفاوضات طويلة جرت بينه وبين البابا الكسندر السادس بورجيا . وقد وصف المؤرخ ميشله دخول الجيش الفرنسي وصفاً رائعاً ، وفيه يحدثنا أن العرض العسكري دام ساعتين ، وأن الملك طلب إلى البابا تسليم قصر سنت آنتج وجعم (زيزيم) مرشح العرش العثماني ، وكان لاجئاً عند البابا ، وتسليم ابنه قيصر بورجيا رهينة ليرافق الجيش إلى نابولي . ورأى الكرادلة ، الذين كانوا في حاشية الملك ، ان يخلع هذا البابا السيموني وان يدعوا إلى جمع ديني لاصلاح الكنيسة . غير أن شارل لم يذهب بعيداً . وفي ١٥ كانون الثاني انتهى الطرفان إلى اتفاق . وفي ٢٨ منه ذهب الملك مع جم إلى نابولي ومات هذا الاخير فيها موقاً طبيعياً أو مفتعلاً ، كما قيل ، منذ وصوله اليها . ثم فر قيصر بورجيا بعد ذلك . وترك شارل الثامن البابا وأعاد اليه مفاتيح المدينة . وقدم الملك بين يدي البابا بين الولاء والطاعة ولكنه لم يحظ منه بتقليده عرش نابولي حسب المراسيم المتعارف عليها في العصر الوسيط .

كانت في الطريق من روما إلى نابولي نزمة عسكرية قضاه الفرنسيون في التأمل بحاسن الطبيعة واكتشاف الثروة في كامبانيا وغايت ، وكابو ،

وبوزول ، وفيزوف . وقد قال البابا الكسندر السادس ، لقد جاءوا بسيوف من خشب ولاهم لهم الا أن يسجلوا بالحوار أبواب منازلهم . ومضت خمسة أشهر على بداية الحملة ولم تحدث حرب تذكر .

استولى شارل على نابولي ، وتنازل الفونسو عن العرش ، ورأى الملك الفرنسي في دخول نابولي بداية للحرب الصليبية وفاقحة بشر لتحقيق الآمال التي عقدت على هذه الحملة . وبانتظار هذه الحرب أخذ ينعم ورجاله بلذائذ إيطاليا الجنوبية وبهذه المملكة التي فتحوها في سبعة أيام .

غير أن العقاب حل بهم على عجل ، وانتشر بينهم داء الزهري ، وكان الفرنسيون يسمونه « داء نابولي » . ولم يكن هذا الداء ، كما كتب فولتير ، بعد الكثيرين ممن تقدمه ، دخیلاً من العالم الجديد ، بل انه داء قديم جداً . وعلى ما يظهر أنه انتشر بفضاعة ، وكان جيش شارل الثامن اداة انتقال له . وقد كتب في ذلك رواية يقول : « لقد أصاب هذا الداء كل انسان وخاصة الفاسقين اكثر من غيرهم » .

وقد أثار الفتح امتعاض بارونات نابولي والمنتمين إلى الحزب الأنجليي ، لأن الفرنسيين تقاسموا الوظائف الكبرى فيما بينهم واحتكروها دون غيرهم . وإذا وضعنا جانباً بعض الاستثناءات النادرة وجدنا أن الشعب كان يوزح تحت فداحة الضرائب . واكتشفت مؤامرة لقتل الملك . حتى أن شارل الثامن اضطر إلى مغادرة المدينة بعد ثلاثة أشهر خشية من الحصار . وبدأ القلق يساور لودوفيك والبندقية من هذا النجاح الذي لاقاه الفرنسيون .

اغتم فرديناند آراغوانه الفرصة فبعث بسفير إلى البندقية . وتفاوض البابا الكسندر السادس مع الدوج في تدبير مؤامرة دبلوماسية كبرى

ضد الفرنسيين . وفي ٣١ آذار ١٤٩٥ وقعت البندقية ، مع « الملكين الكاثوليكين » الاسبانيين فرديناند وايزابيلا ، والامبراطور ماكسمليان ، ولومور ، والبابا ، حلفاً مقدساً لمدة خمس وعشرين عاماً « للدفاع عن الدول المسيحية ضد الاتراك وتوطيد مقام الكرمي الأقدس وحقوق الامبراطورية الرومانية » .

اما شارل الثامن ، امبراطور الشرق المزعوم ، فقد وجد نفسه في مصيدة وسط هذا الحلف ، ولم يجد بداً من العودة ، ففعل راجعاً ويم وجهه شطر الشمال واجتاز بمدفعيته شعاب الآبين . وعلى ضفاف نهر تارو ، بالقرب من فورنو جرت بينه وبين أعدائه واقعة ، في ٦ تموز ١٤٩٥ ، لم تكن حاسمة ، ولكنها اعتبرت ظفراً للحلف المقدس . وهكذا انهار البناء الذي شاده شارل الثامن .

ولم يكتف فرديناند بهذا النجاح بل أراد أن يتم تطويق فرنسا ، فضم انكلترا إلى الحلف بزواج ابنته كاترينا من هنري الثامن ، وزواج ابنته غوانة اميرة قشتالة من فيليب الجليل بن مكسمليان النمسا . وحاول الاستيلاء على بروثانيا فلم يفلح ، واكتفى أخيراً بتوقيع هدنة مع شارل الثامن ومباحثته قبل موته بتقسيم مملكة نابولي بين فرنسا وآل أراغونه .

قضية ميلانو ، لويس الثاني عشر وانقلاب الاحلاف . - ثم تبدل وضع القضية الايطالية وأصبح بالتدريج اورياً على يد خاف شارل الثامن وهو لويس الثاني عشر . وذلك لأن هذا الملك لم ينس مزاعم دوق اورلثان ، وارث فالانتين فيسكونتي على ميلانيا . ومن جهة ثانية كان يرى في المغتصب سفورزا تابعاً وحليفاً لمكسمليان . وبذا فان ميكانيكية الأحلاف قربت من فرنسا البندقية والبابا الكسندر بورجيا الذي كان

روح الحلف المقدس . وكان من انقلاب الاحلاف ، كما قيل : « تبدل تام في سياسة الدول الايطالية وثورات عميقة في التاريخ الداخلي لكل منها » . فقد انقسمت إلى معسكرين ونال كلا من هذين المعسكرين نصيب مما نال أحد التالين المتخاصمين .

وكان لويس الثاني عشر ، ملك فرنسا ، يعتبر نفسه أيضاً ملك نابولي ودوق ميلانو ، ولذا اتجهت أفكاره صوب إيطاليا ، وانتقاد في هذا الاتجاه بتأثير مطران روان ، جورج امبواز . وكان هذا الأخير يطمع في قبعة الكردينالية ويأمل أن يصل يوماً ما إلى التاج البابوي . لذا تقرب من آل بورجيا ، وحصل من البابا على السماح بفسخ عقد زواج الملك لويس الثاني عشر بيجان فرنسا ، ابنة لويس الحادي عشر ، التي كانت واسطة للمحافظة على بروتانيا ، وزواجه بأنا أرملة شارل الثامن للعرض نفسه . وانتقل الكسندر السادس إلى المعسكر الفرنسي . وتخلّى ابنه المفضل « قيصر » عن ارجوان الكردينالية ليدخل حياة العصر . وكان يطمع أن يكون « أميراً » كالأمير النموزجي الذي حلم به ماكيافيلي . وكان برنامج البابا السيامي أن يزوج ابنه قيصر بأميرة ويحصل له على مهر (دوطا) أرضي وحليف قوي . غير أن قيصر وسع هذا البرنامج بكفاحه ضد امراء رومانيو وطغاتها ، وجعل قسماً عظيماً من ملك الكنيسة ملكاً لأسرته وهي دولة آل بورجيا . وعدل عن مشروع زواج من نابولي وسافر إلى فرنسا وتزوج شارلوت آلبريت . فأصبح بذلك أميراً فرنسياً ، أميراً من امرة فالنتين . واستقبل في فرنسا من قبل هيئة التشريفات الملكية وحمل معه إلى شينون مرسوم البابا الذي يسمح فيه للملك بزواج أرملة شارل الثامن آنا « الدوقة الصالحة » وقبعة الكردينال آمبواز . وقبل أن يتزوج قيصر شارلوت آلبريت (١٠ أيار ١٤٩٩)

وارثة الأسرة التي كان فردبناند آراغونه ينافسها على فافار ، قطع البابا علاقاته مع آل سفورزا . وساءت علاقات هذا البابا الاسباني مع الملكين الكاثوليكين ، واعتبرهما غاصبين بينا كانا يتهمانه بالسيمونية . ووقعت روما والبندقية مع لويس الثاني عشر معاهدة لتقسيم لومبارديا ، وشكلتا مع فلورنسا حزباً فرنسياً في ايطاليا .

عبر لويس الثاني عشر جبال الالب في تموز ١٤٩٩ وكان في خدمته كثير من السويسريين والكوندوتيريرو اللومباردي تريفولتسه الذي دخل ميلانو . وفي ربيع ١٥٠٠ كانت ايطاليا تحت النفوذ الفرنسي .

ولكن هذا النصر كان مؤقتاً بسبب سوء ادارة لويس الثاني عشر ، فقد امتنع عن دفع المربيات لاعوانه السويسريين كما يرغبون ولم يترك لتجارهم امتيازاتهم التي يتمتعون بها في لومبارديا ، وحرّم سكان اوري من بلنزوننا التي يعتبرونها بمثابة باب لهم . كل ذلك هباً عودة لودوفيك في بدء عام ١٥٠٠ وتوصل هذا الاخير إلى استرداد ميلانو . واضطر الملك إلى القيام ثانية لتخليصها وأمر لودوفيك في نوفمبر (١٠ نيسان ١٥٠٠) .

وساد الاعتقاد أن منطقة ميلانو أصبحت أرضاً فرنسية ، لأن النظم التي بديء بها منذ الاحتلال الأول قد توطدت . وكان مجلس الشيوخ في ميلانو يتألف من فرنسيين ولومبارديين ، ويراقب ادارة الدوقية ويتأسس التنظيم القضائي . وأقيم نائب عام ومستشار يمثلان الملك وكان يعتبر فيها دوقاً . وخضعت جميع ايطاليا للنفوذ الفرنسي باستثناء نابولي .

وأفادت المعاهدة الفرنسية - الحبرية قيصر بورجيا . فقد أمده الفرنسيون بالجنود ضد كاترينا سفورزا كونتة فوري . وكان منها أن

ختمت بتسمية الكردينال أمبواز مندوباً بابوياً في فرنسا . غير أن سياسة آل بورجيا كانت طموحة جداً وتعمل لصالحها الشخصي . ولم تكن لتكتفي بدور التابع . وعاد قبصر إلى روما واحتفل بظفره على الطريقة الرومانية وتناول ربة الكنيسة والوردة الذهبية ، وقتل زوج لوكريس ، ووقعت بيزارو ورعيني وفانزا في يديه ، واصبح البابا الكسندر السادس يتصرف بأموال القديس بطرس لصالح ابنه الذي صار يسمى دوق رومانيو .

وكان ثمن هذه المساعدة الفرنسية لآل بورجيا بملكة نابولي . لأن لويس الثاني عشر عاود حلم شارل الثامن . وحاول أن يتلاعب بالأحلاف ، وتعاهد مع فرديناند . ولم يتردد ملك آراغوانه بتضحية الأراغونيين في نابولي . فقد أبرم صراً معاهدة غوناطة (في ١١ تشرين الثاني ١٥٠٠) وتقامم بوجها المملكة مع لويس الثاني عشر تاركاً له التاج وتيرلابور والآيروز ، وأبقى لنفسه بوي وكالابر . وصادقت الكنيسة الرومانية ، التي تعتبر سيده نابولي ، على هذه المعاهدة بمرسوم حبري في ٢٥ حزيران ١٥٠١ بحجة أن فريدريك نابولي تحالف مع الاتراك المسلمين . وذلك لأن البابا ، بنتيجة الانكسار الذي منيت به جيوش البندقية في نافان وليانت (آب ١٤٩٩) وغزو الأرض اليابسة حتى أبواب فيسانس ، أخذ يدعو إلى الحرب الصليبية وإلى مؤتمر يعقد في روما . غير أن الأمراء لبثوا دون حراك ، وتركوا بقايا الارستقراطية البندقية تنهار . وبتأثير من آنا بروتانيا ودهوة من سيد رودس الاكبر ، أرسل لويس الثاني عشر اسطولين إلى الارخبيل اليوناني إلا أنها أخفقا أمام ميتلين . ولم يوقف الاتراك هجومهم لولا أن خطر الفرس جعلهم البن قنائة من قبل .

عصر النهضة (٤)

ووقعت البندقية وبعدها هونغاريا الصلح في ١٥٠٢ - ١٥٠٣ وانتهت بذلك الحرب الصليبية .

أما قيصر فقد أصبح سيد إيطاليا الوسطى . وربما كان يطمع بلقب « الملك » ، ويفكر باخضاع فلورنسا وطوسكانا معتمداً على مساعدة الفرنسيين ، حتى إذا تحقق ما يصبو إليه طرد هؤلاء من إيطاليا وبقي فيها سيداً وحكماً . و « كل من يفكر بجاربه يخاطر بروحه أو يكن يوماً ما جثة مطروحة في مياه النهر » .

وتترك لويس الثاني عشر قيصر يعمل ما يريد ، لأنه كان بحاجة لمساعدته في الحفاظ على نابولي ، وأنقذه من مؤامرة آل اورسيني التي كادت تؤدي بحياته .

ولم يصبح قيصر ملك إيطاليا الوسطى ، غير أنه كان سعيداً بعد أن تخلص من أعدائه بحماية جيش لويس الثاني عشر قبل أن يقضي نحبه بخدمة حميه جان البريت . غير أن هذه الحياة الآثمة ، التي قضاها قيصر ، لا تمنع من أن نعتز بأهمية الأثر الذي بناه . لقد كان قيصر طموحاً إلا أن طموحه الشخصي أفاد ، عن غير وعي منه ، مقدرات إيطاليا . وقد قيل « إذا باع يهوذا المسيح بثلاثين دانقاً فان الكسندر السادس يبيعه بتسع وعشرين » ، وإذا كان هذا البابا سيمونياً فاجراً جشعاً وابنه زعيم عصابة لا إيمان له ولا وازع ، فلا نكران بأنها أوجدا ، على الأقل ، الإطار الذي سيلعب فيه نشاط عدوهما القديم ووسيط تفاهمهما مع فرنسا وهو الكردينال جوليان دولاروفير الذي أصبح فيما بعد بابا بامم جول الثاني .

وفي الواقع ، اننا نجد جزءاً من الحقيقة في هذا المديح الذي قيل

في قيصر : لقد أزال قيصر الطغاة فاستحق بأن يدعى مؤسس الحرية الإيطالية .

النصر الاسباني (١٥٤٤) ، - وبينما كان نفوذ آل بورجيا ينهار كانت فرنسا تخسر نابولي . وانا لتساءل ما إذا كان فرديناند المخاضل بتوقيعه معاهدة التقسيم قد هباً الفخ الذي يصطاد به غونزالف قرطبة الفرنسيين ؟ لقد كان كل شيء عذراً للحرب . فقد بدأت بنزاع الرعيان على الاراضي الواقعة بين ابروز وبوي . وكانت هذه الأراضي منقسمة إلى قسمين حسب الحدود الجديدة وكانت على الرعاة أن يدفعوا رسوم المرور إلى كل من التاجين . واطمان الفرنسيون لروما واعتمدوا على جنوه التي أصبحت فرنسية منذ ١٤٩٩ . أما الاسبانيون فقد اعتمدوا على صقلية وجرت بين الفرنسيين والاسبانيين عدة مواقع دافع فيها القادة الفرنسيون دفاع الأبطال . ولم ينجم عن ذلك سوى تأجيل النهاية المحتومة . وبالرغم من ارسال الاسطول الفرنسي فقد كان الاسبانيون يحتفظون بسيادة البحر منذ الحروب الصليبية . وبعد ثلاثة أشهر من العمليات العسكرية استسلمت غاييت في (١ كانون الثاني ١٥٠٣) وانتهى الحلم الفرنسي في نابولي ، ووقعت الهدنة بين الطرفين ، وستظل مملكة الصقليتين خلال قرنين أيضاً اسبانية . وهكذا اعاد فرديناند تأسيس ملك الفونس النبيل .

صودق على هدنة الثلاث سنوات هذه في ليون ٣١ آذار ١٥٠٤ ، وستفتح دوراً جديداً في التاريخ الاوربي . وستتلو الحروب في ايطاليا سياسة الدسائس والصلات العائلية والزوجية . وقد لعبت « السيدات » في هذه المؤامرات دوراً حاسماً . ونخص بالذكر : مارغريت النمسا بنت مكسمليان ، خطيبة شارل الثامن المهجورة وأرملة دون جوان . وقد أصبحت وصية على اراضي بورغونيا ومشاورة وامينة صندوق لوالدها ؛

والملكة آنا التي بقيت برومانية أكثر منها فرنسية وسيطرت على زوجها ، ولم يأتها منه غلام فتملكها الذعر ، وكانت تنظر بعين الحسد إلى لويز سافوا الطموحة ابنة دوق سافوا ومارغريت بورغونيا ، التي تزوجت شارل فالوا ، واتلها منه فرنسوا آنغوليم حفيد لويس اورلئان والوارث لعرش آل فالوا . وبفضل سيطرة آنا على زوجها لويس الثاني عشر ، وقع هذا الأخير معاهدات بلوا (في ٢٢ ايلول ١٥٠٤) وبوجها تتزوج ابنته كلود بشارل لو كسمبورغ بن فيليب الجميل - وهو الذي سيصبح شارلكان - وتقدم له مهراً : بروتانيا وبورغونيا وكونتية بلوا ، ويأخذ الزوجان دوقية ميلانو التي هي اقطاع من اقطاعات الامبراطورية . ولاشك ان هذا القبول في منتهى الحقة ، لان لويس الثاني عشر وجورج أمبواز هدما بناء لويس الحادي عشر وما تابعته الملكية الفرنسية منذ القرن الثالث عشر ، وضعياً بنتائج الزواج البروتاني المزدوج . يضاف إلى ذلك أن هذه المعاهدات تتضمن بنوداً مربية تقضي بقلب السياسة الفرنسية في ايطاليا . فقد كان مكسمليان يريد التخلص من جمهورية البندقية عدوته ، فأفاد من احقاد لويس الثاني عشر عليها ليشركه في حلف دفاعي تحت رعاية البابا (٢٢ ايلول ١٥٠٤) .

كان هذا الحلف اثرأ من آثار السياسة البورغونية . وفي الحقيقة ، كان لويس الثاني عشر يحذر ضعفه الخاص فاحتج منذ ١٥٠٠ ، على كل زواج لابنته من امير لا يكون وارثاً للعرش إذا لم يأتها هو نفسه غلام . ومالبت أن تحلل من يمينه على يد أمبواز وأمر بزواج كلود بفرانسوا آنغوليم ، فغضبت الملكة آنا واعتزلت بعض الوقت في بروتانيا . وعقد مجلس في تور واعلن المحافظة على سلامة المملكة واحتفل بالخطبة في ٢١ آذار ١٥٠٥ .

حبرية جول الثاني (١٥٠٣ - ١٥١٣) . - غير أن لويس الثاني عشر عاد مرة ثانية وانهمك في القضايا الإيطالية ، وذلك بفضل الحلف الثاني لآلكسندر بورجيا وهو جوليان دولا روفير الجندي الذي أصبح بابا بامم جول الثاني وكان هذا الحبر سياسياً ، شغفاً بالسياسة ، ذا عزم ثابت لا يتزعزع ، همه أن يجعل من دولة البابا دولة كبرى . ففى الدور الاول من حبريته (١٥٠٣ - ١٥٠٩) وطد سلطته في دول الكنيسة ، واجبر قيصر بورجيا على إعادة الحصون التي أخذها بغير حق ، واضطره إلى الالتجاء إلى فرنسا حيث مات في خدمة حيه جان آلبرت ، وانتزع فيروزه من آل باليوني ، وبولون من آل بانتيفوليو ، وأراد منذ العام ١٥٠٩ أن يجعل من الكرسي الأقدس سلطة من السلطات المسيطرة على ايطاليا الجديدة . وانضم إلى الحلف الذي تشكل ضد البندقية من لويس الثاني عشر ومكسمليان وفرديناند آراغونه ، ونشر في ٢٧ نيسان ١٥٠٩ مرسوماً أعلن فيه الحكم عليها بالحرمات والطرده من الجماعة ، وقد ظفر الفرنسيون على البنادقة في آياديلى (١٤ أيار ١٥٠٩) .

غير أن البابا مالبت أن قلق من تقدم الفرنسيين ، ورأى أن يطردهم من ايطاليا ، فأعلن عفوهم عن البندقية في شباط ١٥١٠ بعد أن اعادت اليه فاززا ورافين ، ووجد حليفاً ممتازاً في شخص ماتياس شينر ، وكان هذا اسقفاً ثم كاردينالا في سيون وعدواً للفرنسيين وله تأثير عظيم على الكاثولونات السويسرية . وما وسع لويس الثاني عشر أن بادر إلى النضال ضد جول الثاني ، واثار عليه عاصفة من السخط ، ولم يأل جهداً في أن يذهب بها إلى الحقل الروحي . واخذ يتكلم بالانفصال عن الكنيسة وخلع البابا . وفي جمع عقد في بيزا (١ تشرين الاول ١٥١١) ثم

انتقل إلى ميلانو ثم إلى آستي قرر خلع البابا في (٤ كانون الثاني ١٥١٢) .
وقابل البابا هذا العمل بتشكيل « حلف مقدس » من البندقية وفرديناند
آراغونه ، وانضم اليه هنري الثامن ملك انكلترا في (٤ تشرين الاول
١٥١١) . ولحسن حظ لويس الثاني عشر كان تحت تصرفه رئيس من
خيرة الضباط وهو ابن أخيه غاستون دوفوا . فقد استطاع هذا أن
يستولي على بولون وبريشيا وينتصر على الحلف في رافين (في يوم الفصح
١٥١٢) وحاول أن يهدد روما لولا أنه اودى في هذه الواقعة .

ولم يوات حسن الخط لويس الثاني عشر . فقد انفصل مكسمليان
وانضم إلى أعدائه وسحق السويسريون الجيش الفرنسي في نوفار (حزيران
١٥١٣) . وخسرت فرنسا منطقة ميلانو وأصبحت مهددة بعد أن اجتاحتها
هنري الثامن من جهة الشمال ، ومكسمليان والسويسريون من جهة الشرق
في منطقة ديجون . غير أن لويس الثاني عشر توصل إلى إيقافهم بالمال وتوقيع
هدنة معهم ، ثم توفي في ١ كانون الثاني ١٥١٥ .

وانتقل تاج فرنسا بعد وفاة ابن عمه كونت آنغوليم
الذي أصبح ملكاً بامم فرنسوا الاول . وكان هذا الملك الجديد في
العشرين من العمر ، طويلًا ، قوي البأس ، متحمسًا ، مندفعًا ، يحب
الفروسية ، ويود أن يشتهر ولو بجادات من الحوادث الحربية . وقد
استهوته ايطاليا كغيره من تقدمه ، ووطد العزم على فتح ميلانو ، وتحالف
مع البندقية .

انحدرت الجنود الفرنسية ، إلى ايطاليا الشمالية ، والتقت بخصومها في
مارينيان . وكانت الواقعة شديدة استئسل فيها كل من الطرفين ، ودامت
يومين (١٣ و ١٤ ايلول ١٥١٥) ، وكان النصر حليفاً للفرنسيين بعد
أن وصلتهم نبذات البنادق .

كان لهذا النصر نتائج هامة : فقد جعل فرنسوا الاول سيد ميلانيا واضطر اعداءه إلى التعاقد معه ، وكان البابا في طليعتهم . وانتهى الامر نيا بعد إلى عقد كونكوردات (١٨ آب ١٥١٦) . ووقع السويسريون في فريبورغ « الصلح الدائم » (٢٩ تشرين الثاني ١٥١٦) وتعهدوا بوجهه بأن لا يقدموا جنوداً لاعداء ملك فرنسا . وبالمقابل يستطيع ملك فرنسا أن يأخذ من السكائنات السويسرية ما يشاء من الرجال مقابل مبلغ معين من المال .

وقد احترمت هذه المعاهدة من الطرفين ودامت إلى سقوط الملكية الفرنسية عام ١٧٩٢ . وأخيراً عقد فرنسوا الاول مع شارل الشاب ملك اسبانيا معاهدة نوييون (١٣ آب ١٥١٦) . وبموجبها احتفظت فرنسا بملانيا ، وملك اسبانيا بملكة نابولي . وبدأ أن حروب ايطاليا انتهت ، وان اوربه أخذت تنعم بالسلام ، لولا أن هذا السلام لم يدم أكثر من خمس سنوات ، وعادت الحرب ثانية في العام ١٥٢١ وبصورة أوسع بما كانت عليه في السابق . ولم تكن في هذه المرة ايطاليا سببها الوحيد ، بل إنها ترجع في أسبابها إلى تكوين امبراطورية كبرى لصالح الملك شارل اسبانيا أو شارل الخامس (شارلسكان) .

الدور الثاني (١٥١٩ - ١٥٥٩) : النزاع بين البيت الفونسي والبيت النمساوي وانتخاب عام ١٥١٩ . - في ١٢ كانون الثاني ١٥١٩ توفي مكسمليان النمسا فشرع عرش الامبراطورية المقدسة وأدى ذلك إلى حدوث تنافس عظيم بين المطالبين بهذا العرش . وكانت القاعدة أن يتعقب الخلف « ملك الرومانيين » قبل أن يتوجه البابا امبراطوراً . وكان الانتخاب يجري حسب مرسوم شارل الرابع المسمى « المرسوم الذهبي » ١٣٥٦ ، . وكان هذا الانتخاب امتيازاً من امتيازات « امراء الامبراطورية »

وهم امراء الناخبيات العلمانية والكنسية وعددهم سبعة أمراء : دوق ساكس ، ملك بوهيميا ، مارغراف براندبورغ ، كونت بالاتينا الراين ، مطران ماينس ، مطران كولونيا ، مطران ترير .

وقد عمل مكسمليان ، وهو على قيد الحياة ، ما في وسعه ليحصر التاج الامبراطوري في امرته ويؤمن إلى حفيده شارل ملك اسبانيا عرش الامبراطورية من بعده « تجاه هذا المرشح » الملك الكاثوليكي ، كان بعضهم يفضلون دوق ساكس ، فريديريك العاقل ، حامى لوثر ابان الأزمة الدينية في المانيا .

وفي مثل هذه الحال كان من الواجب على ملك فرنسا ، فرنسوا الأول ، أن يدعم فريديريك ويقسم المانيا إلى قسمين فيجعلها بذلك غير قادرة على الدفاع ، غير أنه ، على العكس ، رأى أن يرشح نفسه للامبراطورية ووقف وشارل وجهاً لوجه متنافسين .

كانت الدعاية واسعة من الطرفين . وكان فرنسوا ينكر على شارل صفته الالمانية ويقول عن نفسه ، باعتباره « فرنجيا » ، أنه أهل كشارلومان لتأمين سعادة جرمانيا . وكان شارل ، باعتباره من آل هابسبورغ ، يصرح بأنه من الأرومة الحقيقية للأمرّة النمساوية ، ولذا يرى بأن ينظر إليه مرشحاً قومياً . ويبدو أن الناخبين قد ترددوا بين المتنافسين . ولكن يجب ألا نغش بعواطفهم . وإذا صح أنهم ترددوا فليس لأن « الأمراء » بحثوا عن ضمائرهم وعملوا بما توحى اليهم ، بل إن القضية كانت قضية مساومة مالية . ولقد أوضح ذلك المؤرخ ميشله ، منذ ١٨٥٥ ، وبين أن الانتخاب الامبراطوري عام ١٥١٩ كان مسألة مالية لا أكثر ولا أقل . يضاف إلى ذلك أن الوثائق الحسابية ، التي نبشت بكثرة وتناولتها أبدى

النقد ، دلت على ذلك دلالة واضحة وأثبت بأدلة ثابتة ومقنعة . قام بالرشوة كل من الطرفين المتنافسين . ولم يقص فرنسوا إلا لسبب واحد وهو أن مارغريت النمسا وأصحاب المصارف الالمانيين ، وخاصة آل فوغر وآل فيازر . أخذوا على عاتقهم هذه المهمة بكل ما أوتوا من جرأة وخداع . وبلغت حذاقتهم الفنية درجة عالية من المهارة . فقد قطعوا عن ملك فرنسا كل اعتماد ، ومنعوا انتقال الأموال الضرورية إلى ألمانيا . واضطر الملك أن يصدر قطع النقود الذهبية والفضية بكثرة ويدفعها نقداً . وملأ الناخبون جيوبهم ، إلا أنهم ، في آخر الأمر ، أعطوا صوته لشارل ، لأن أصحاب المصارف الموالين له كانوا يسلمونهم اسناداً لتدفع لهم بعد الانتخاب . وانتخب شارل في ٢٨ حزيران ١٥١٩ .

ولا شك في أن اعتلاء شارل عرش الامبراطورية كان يعتبر تهديداً خطيراً موجباً لفرنسا ، لأن شارل كان ملك اسبانيا وسيد البلاد المنخفضة وآرتوا وفرانش - كوته وملك نابولي وسيد ميلانو . فهو بهذه الممتلكات المترامية الاطراف يطوق فرنسا من جميع جهاتها . وكانت له مزاعم في بورغونيا أيضاً . واعادة تأسيس دولة بورغونيا لصالحه يرجع فرنسا إلى دور « الدولة الصغرى » ، وفي ذلك ما يمهّد السبيل لتوحيد الغرب على يده كما كانت الحالة في الماضي على يد شارلومان .

ولد شارل في غاند ، في بلجيكا ، في ٢٤ شباط ١٥٠٩ وتربى في الفلاندر . وكان يجهل الألمانية والاسبانية . كان أشقر اللون ، قوي الحيوية ، كثير التفكير ، حسيباً ، ثابتاً لا يتزعزع . وتعتبر هذه الصفة من صفاته الأساسية ، مع ما يمازجها من شدة الايمان العميق والارادة القوية .

كان شارل كان سياسياً ومسيحياً مؤمناً مندفعاً في ميته للحرب والحياة العسكرية . وكانت له نفسية قيصر ، ويرى نفسه وارث روما ، ويفكر بما يسميه الوحدة المسيحية الأوروبية ، ويريد أن يحقق هذه الوحدة على يده وتحت إدارته . وكانت فرنسا العبء الوحيدة أمام هذا المخطط العظيم الذي تجدد مراراً على يد الرومانيين وشارلومان واونون الكبير .

وسمى في هذا النزاع ، بين فرنسوا الأول وشارل كان ، أن التوسعية من جهة آل هابسبورغ ، وأن حق الامم بالاستقلال من جهة آل فالوا ، وان فرانسوا الأول من آل فالوا سيكون بطل هذا التوازن السيامي الذي بدأ بتشكيل الحلف المقدس عام ١٤٩٣ ضد شارل الثامن .

توازن القوى . - ويبدو لأول وهلة أن القوتين غير متعادلتين عند هذين الخصمين ، وان الشروط غير متوافقة بالنسبة إلى الجانب الفرنسي : لقد كانت اسبانيا في أوج عظمتها وخصبها ورفاها . ويعتبر عصرها بحق « العصر الذهبي » . وكانت الفلاندر والبلاد المنخفضة ، كما في العصر السابق ، في عهد أدواق بورغونيا العظام ، المنطقة الممتازة من الناحية الاقتصادية والبلد النشط والغني في الغرب الأوربي لاسيا وأن حروب ايطاليا سببت الدمار والحرب وابتلت الجمهوريات الايطالية ، وخفضت من شأنها . وكانت المانيا على أشد ما تكون في نزعتها الحربية . ولا شك في أن الإصلاح الديني الناشئ قد عكر صفوها بما أثاره من اضطراب اجتماعي ، إلا أنها كانت قوية بروحها الحربي المعروف عنها . وألفت النمسا واسبانيا مملكة واحدة . وأصبحت هذه المملكة بمتلكاتها الايطالية وامتدادها فيما وراء البحار ، في تحفز واندفاع واستعداد لسحق فرنسا ، غير أنه لم يكن لديها من الوسائل المالية الضرورية ، بعد شراء التاج الامبراطوري ، ما يجعلها تقوم باعباء مثل هذا الجهد العظيم لكسب الحرب .

وكانت فرنسا تمتاز بكثافة سكانها ووضعها الاقتصادي والمالي وقوة عاطفتها القومية التي تبلورت وتجمعت حول ملكية آل فالوا التي ربحت حرب المائة عام وأصبحت بحالة تتحدى معها كل هجوم . وستمربها ظروف حرجة وتحتاج أرضها مراراً ، ولكنها ستتمسك ، وأخيراً يسعدها الحظ وتنتهي الحرب لصالحها .

ولم يكن كل من الخصمين المتنازعين أعزل ومنعزلاً . وذلك لأن الدول ، التي كانت تحيط بها ، لم تقف ازاء هذا النزاع موقف المتفرج ، بل كان لها شأنها وكلمتها . ونخص بالذكر هنا موقف بريطانيا العظمى التي تملك كاليه . وهي ، بهذا الموقع الممتاز ، الذي لها علاقة على القارة ، مستعدة في أي وقت لأن تنزل جنودها وتلعب دور الحكم بين المتنافسين .

وقبل أن تشتعل الحرب كان كل من الطرفين المتخاصمين يبحث عن حلف مع الملك الانكليزي هنري الثامن . وقد دعاه فرنسوا الأول واستقبله بكل حقارة وتكريم بين مدينتي « آرد » و « غين » . وعرفت المقابلة بينها بمقابلة « معسكر القماش الذهبي » في ٧ تموز ١٥٢٠ والأبام التي تليه ، لما شوهد فيها من مظاهر البذخ والكرم وكثرة الموائد والحفلات والأعياد في الحيام الانكليزية والفرنسية .

قام بالمفاوضات من الجانب البريطاني الكاردينال ولزي ، وعن الجانب الفرنسي المستشار آنطوان دوبرا ، وتكرر عناق المليكين ، وأظهر كل منهما للآخر مهارته في الصداقة الاخوية . ولكن مثل هذه المظاهر الخلابية لم تكن لتخدع رجال العصر . وقد وقعت معاهدة بين الطرفين ، غير أن هذه المعاهدة اقتصرت على نسخ المعاهدات السابقة دون أن تضيف اليها الضمانات الكافية .

وأخطر من ذلك أن هنري الثامن ، قبل أن يبعث إلى انكلترا ، استقبل شارلكان في « غرافولين » بعد عودته من اسبانيا . وكانت هذه المقابلة أقل مسرحية من مقابلة معسكر القماش الذهبي التي سبق ذكرها ، إلا أنها اعمق منها أثراً . ويبدو أن هنري الثامن قد استمزع شارل أكثر من فرنسوا الأول ، وتم بينها اتفاق مري ضد فرنسا في « بروج » ووقعه بالنيابة عن هنري الثامن ولزي الذي أمله الامبراطور بالتاج البابوي . ويرمي هذا الاتفاق إلى تطويق فرنسا .

بدأت الحرب في نافار والوكسمبورغ . ففي ١٥٢١ حاول هنري البريت ملك نافار الاستيلاء على مملكة البيرينيه ، إلا أنه رد على أعقابها واضطر إلى التخلي عن أرضه . وفي الوكسمبورغ شن الكونت روبرت دولا مارك ، حليف فرنسوا الأول ، هجوماً فأخفق اخفاقاً ذريعاً . وحاولت انكلترا الوساطة بالصلح ، وعلى ما يظهر أن هذه الوساطة كانت بناء على طلب من ملك فرنسا فوسعت شقة الخلاف . وفي المؤتمر الذي عقد في كاليه (آب ١٥٢١) تعرض مندوبو الامبراطور ، وعلى رأسهم غاتينارا ، لبوغورنيا وبينوا أن هذه الدوقية « قد احتلها ملك فرنسا ظلماً وعدواناً وبدون حق » .

ثم جدد شارلكان معاهدة مع انكلترا وهجم على فرنسا واذاغ بياناً شديداً باللغة اللاتينية أوضح فيه كل ما يشكوه من اغتصاب الفرنسيين لبورغونيا . وفي هذه الاثناء استولى رجال الامبراطورية على موزون في جبال الآردن ، وحاصروا ميثير ، ودافع عنها القائد بايار دفاع الابطال واستحق لذلك تهاني الملك ، ولقب لشجاعته بـ « الفارس دون خوف ودون لوم » . وبعد أن قطع ملك فرنسا المفاوضات ، تحالف هنري الثامن مع البابا ليون العاشر . وكسرت الجيوش الفرنسية في ايطاليا ،

وفقدت بنتيجة ذلك ميلانيا كلها ، وتبع ذلك ، في العام ١٥٢٣ ، خيانة أكبر أمير في المملكة ، وهو القائد دوبربون ، وانضمامه إلى صف شارلكان . واجتاح دوبربون بروفانس ووصل إلى مارسيليا إلا أنها قاومت . وبدا أن كل شيء قد قلب ظهر المجن للملك فرنسا . غير أن فرنسوا الأول عاود الهجوم وانحدر إلى لومبارديا في العام ١٥٢٤ وفتح ميلانيا ، ولكنه غلب على أمره وأخذ أسيراً في بافيا في ٢٤ شباط ١٥٢٥ ، ثم نقل إلى حصن « يزيفتون » ومنه أرسل إلى أمه لويز سافوا كتاباً شهيراً يقول فيه : « لقد خسرت كل شيء ولم يبق لي إلا الشرف والحياة » . ثم نقل فرنسوا الأول إلى اسبانيا وسجن في حصن القصر في مدريد . وكان يؤمل أن يعامل كملك إلا أنه عومل كرجل عادي وبقي أسيراً مدة ستة أشهر وقع خلالها مريضاً . وفي غيابه قامت أمه لويز سافوا وصية على العرش وساعدها في مهمتها المستشار دوبرا على تقوية المملكة وتضميد جروحها من هذه الصدمة التي نلقتها .

كان ظفر الامبراطور تاماً ، إلا أنه أثار مقابل ذلك رد الفعل . وفي ذلك الحين كان البابا كليمان السابع يخشى على إيطاليا والكنيسة فجنح إلا ما يناهض الاطماع الامبراطورية ، وخشي هنري الثامن ، من جهة أخرى ، قوة آل هابسبورغ ، فدشن عن وعي منه أو عن عدم وعي سياسة جديدة ، وستصبح هذه السياسة في المستقبل سياسة بريطانيا العظمى التقليدية : وهي أن تسوى الامور بصورة لا تستطيع فيها أي دولة قارية أن تسيطر على الغرب الأوربي . وأرسلت الملكة لويز سافوا بندوبين عنها ليوقةوا معاهدة مع ولزي . وفي قصر مور ، بالقرب من هيرتفورد ، تعهدت الدولتان ، فرنسا وانكلترا ، بالعرش المتبادل ، ووعد هنري

الثامن بالتوسط لاطلاق صراح فرنسوا الأول ، وباع هنري الثامن تحالفه على أن يأخذ مرتباً سنوياً طوال الحياة .

ولكن شارل كان تروده كثيراً في التضحيات التي يجب فرضها على فرنسا ، ولم يقد من ظفروه ليضربها الضربة القاضية ، بل على العكس ، ترك لها الوقت الكافي لاستجماع قواها . وفي مدريد وقع فرنسوا الأول معاهدة الصلح الذي عرف باسم صلح مدريد (١٤ كانون الثاني ١٥٢٦) . وتعتبر هذه المعاهدة التي وقعها استسلاماً حقيقياً . فقد أقسم اليبين على أن يتخلى عن جميع مزاعمه في نابولي وميلانيا وعن كل سيادة في آرتوا والفلاندر ، وعلى أن يعيد بورغونيا إلى شارل كان . وأخذ ابنه رهينة ، وكان أحدهما ولياً للعهد .

غير أن هذه المعاهدة لم تنفذ . وكان حجب العثرة في سبيلها بورغونيا . فقد قدم ممثلو هذه المقاطعة في شهر أيار إلى « كونيالك » ، واحتجوا على الملك اثر تخليه عن الدوقية وأعربوا له عن ارادتهم في البقاء فرنسيين . وعقد حلف ضم الملك الفرنسي مع البابا ومعظم امراء وجمهوريات ايطاليا ولأول مرة يقوم حلف في وجه الريخ الألماني . ولم يدخل هنري الثامن في الحلف ولكنه شجعه ، وذلك لأنه اضطر بعد طلاق زوجته كاترينا آراغونه واستغاله في اللضايا الدينية أن يجنح إلى الجانب الفرنسي . ومن جهة اخرى ، ظهرت فكرة جديدة في مجلس « الملك المسيحي جداً » ، فرنسوا الأول ، وتهدف إلى محاربة آل هابسبورغ من الحلف وحصرهم بين ضربات الشرق والغرب . وفي ١٥٢٢ عقدت علاقات فرنسية مع هونغاريا وبوهيميا وبولونيا ومنها امتدت إلى تركيا . وقد بدأت بهذه الفكرة الملكة الوصية لويز سافوا . وعندما عاد الملك من أمره اندفع في هذا الاتجاه بجرأة . وجرى تفاهم بين « الملك المسيحي جداً »

والسلطان سليمان القانوني الملقب بالفاخر أو العظيم . وتعتبر هذه المحاولة في ذلك الحين جرأة عظيمة ، لأن « الملك المسيحي جداً » يتسامح مع سلطان المسلمين . غير أن هذه السياسة كان لها ما يبررها في الواقع ، لاسيما وأن فرنسا كانت في ذلك الحين رهن يد القضاء .

وهذه السياسة الواقعية ، التي ترمي قبل كل شيء إلى السلام القومي ، كان منها أن بدأت الوضع ، وحاولت إنقاذ الظواهر لثلاثي الوساوس الدينية فغطت الحلف الفرنسي - العثماني بشيء من الشكليات والصيغ العامة . ويمكن القول ان التحالف جرى منذ ١٥٢٨ عندما اجتمع ونجكون المندوب الفرنسي مع الصدر الأعظم إبراهيم باشا وجدد وإياه الاتفاقات التجارية القديمة التي عقدها ملوك « الفرنجة » وهذه الاتفاقات ، التي تسمى « الامتيازات الأجنبية » ، والتي نشطت تجارة فرنسا مع بلاد الشرق ، إنما تعتبر بمثابة صدى اقتصادي لهذا التقارب السيامي الذي تم بين الدولتين . لقد كان السلطان العثماني في ذلك الوقت في أوج عظيمته وقوته . ففي آب ١٥٢٦ انتصر على المونغارين في واقعة موهاكز حيث قتل ملك المونغارين واستسلمت العاصمة بودا ، ووالى العثمانيون هجومهم وتقدمهم ، ولم يستطع فرديناند أخو شارلكان أن يوقفهم في العام ١٥٢٩ على أبواب فيينا إلا بشق الأنفس .

غير أن صداقة فرنسوا الأول وكليمان السابع قد غطت إلى حد ما هذه السياسة المتناقضة التي من شأنها إثارة الشكوك عند بعض الضمائر . وكان نزول جيوش الامبراطورية إلى ايطاليا تحت قيادة دوبربون لها فدى . ودارت الأمور على غير ما كان يؤمله الامبراطور ، لأن جنوده أخذوا يعملون السلب والنهب والفضاعة في روما خلال ثمانية أيام ابتدأت في ٦ أيار ١٥٢٧ ، بينما كانت البابا ، خليفة السيد المسيح ، يرتجف

ويبتحب ويسأل الله الرحمة في ملاذه الفخم في قصر سانتانج . ولذا فان اعلان الحرب ، في كانون الثاني ١٥٢٨ ، من قبل فرنسا وانكلترا على الامبراطور ، وجد ، على العكس ، في هذا الجو العكر ، الذي اغطش سماء المدينة الخالدة ، مايبرره في الواقع .

حزت حوادث أيار المؤلمة في نفس شارلوكات ، وزعزعت عوده المنازعات الدينية التي مزقت المانيا ، فرأى الضرورة التي تليها الظروف وهي أن يكون قوياً من جهة الشرق لصد الخطر العثماني ، فتقام مع البابا بمعاهدة بارشولونة (٢٥ حزيران ١٥٢٩) . ومن جهة اخرى ، قام تجار لندن وأظهروا استياءهم لما تحملوه من نتائج وخيمة بسبب قطع العلاقات التجارية مع هولندا . فاستفاد شارلوكان من هذا الوضع وتصالع مع هنري الثامن . وتوسطت مارغريت النمسا بامم شارلوكان ، ولويز سافوا بامم فرنسوا الأول لعقد الصلح وتم ذلك في كامبريه في ٥ آب ١٥٢٩ . وعرف هذا الصلح بامم « صلح السيدات » نظراً لتدخل السيدتين الأنفتي الذكر . وبوجب هذا الصلح يتخلى شارلوكان عن المطالبة ببيورغونيا ، هدف السياسة الفرنسية ، ويعيد إلى فرنسوا الأول ولديه مقابل مبلغ عظيم من المال يدفع لانكلترا سداً لديوت الامبراطور ، وأخيراً يتزوج فرنسوا الأول بآلينور شقيقة شارلوكان . وفي ٤ شباط ١٥٣٠ تم تتويج الامبراطور في روما ، وسمى أخاه فرديناند حاممي فينا ملك الرومانيين ، وسيكون هذا فيما بعد خلفاً لأخيه على عرش الامبراطورية .

وأعقب هذا الاندفاع اعياء في فرنسا ، ولا سيما بعد أن تزوج الملك فرنسوا الأول بآلينور وشاخ المستشار دوبرا وترك مكانه إلى مونمورانسي . وكان هذا يمتدح سياسة التقارب مع الامبراطور ، واعتمد في ذلك على الملكة آلينور ، بعد وفاة الملكة الأم لويز سافوا . غير أن مستشارين

آخرين ، وهما الاخوان غليوم والكاردينال جان من امرة بلبه ، كانا يعارضان هذه السياسة ويقولان بسياسة التغام مع الامراء البروتستانتين في المانيا ضد آل هابسبورغ . وللوصول إلى غايتها ، شجعنا على طلاق ملك انكلترا وتحالفا معه بمعاهدة بولون في ٢٠ تشرين الأول ١٥٣٣ ، ثم اتبعها باتفاق مع السلطان العثماني في شباط ١٥٣٦ .

وعلى هذا النحو بدا شارلكان مطوقاً من جميع الجهات . فرد على ذلك بهجوم عنيف في بروفانس وفي الشمال . ولكنه مالبت أن رأى الاعداء يحيطون به من كل جانب فجنح إلى التغام وجرت مقابلة بينه وبين فرانسوا في ايفمورت في ١٤ تموز ١٥٣٨ ، وأسفرت عن عقد هدنة لمدة عشرة أعوام . ولم تحل فيها قضية من القضايا . ولكنها ، على كل حال ، دلت على أن السياسة التوسعية عند آل هابسبورغ كانت عاجزة عن الوصول إلى غايتها . وفي غضون ذلك أفاد شارلكان من هذه التسوية وزار فرنسا مستجيباً لدعوة فرانسوا الاول ودخل باريس واعجب بجمالها ، غير أن هذه الظواهر من المودة ظلت دون غد .

معاهدة كرويبي وآردور . - لم تصل هدنة ١٥٣٨ إلى غايتها ، لأن فرانسوا الأول عاد إلى المفاوضات من جديد ليحصل على تسوية ترمي إلى تأمين ميلانيا لصالح ابنه الثالث دوق اورلئان . إلا أن الفرنسيين كانوا غير شعبين في اليمونت والسافوا ، فانتهزت الدبلوماسية الامبراطورية هذه الفرصة وضاعفت نشاطها ، وأثارت على فرنسا كثيراً من حلفائها البروتستانتين ، وتحالفت مع هنري الثامن ضد فرنسا وهاجمتها من كل الجهات ، وساد باريس جو من الرعب والذعر . غير أن شارلكان كان مهيئاً للظن بحليفه الانكليزي ، ورأى المال ينقصه لاتمام الحرب والاجهاز

عمر النهضة (٥)

على الحشم فتفاوض مع فرنسا وعقد معها معاهدة كويي (في ١٨
أيلول ١٥٤٤) ، وبعد بضعة أشهر رأى هنري الثامن نفسه منعزلاً
فتفاوض الصلح في آردو (١٥٤٧) .

غطى صلح كويي الصعوبات بين الملكين بزواج شارل دوق اورلئان
بأميرة مساوية على أن تكون ميلانيا مهرباً له . وسوى صلح آردو الخلاف
بين انكلترا وفرنسا بدفع مبلغ من المال إلى الانكليز مقابل ارجاع برلون .

غير أن موت شارل اورلئان المفاجيء ، في ٨ أيلول ١٥٤٥ ، أبطل
مفعول معاهدة كويي وسادت في المانيا الحرب الاهلية ، وكانت سنة
١٥٤٦ سنة قاسية في جرمانيا لما رآته من حروب دينية . وكان شارل كان
يحلم بالصلح مع البروتستانتين ليجعل من المانيا وحدة ضد فرنسا ، لولا
أن الانقسام الديني أفسد عليه احلامه ، فعزم على مجاهدة البروتستانتين
ورأى أن يتفاهم مع الأتراك لينصرف إلى الاهتمام بالقضايا الداخلية .
ولكن البروتستانتين لم يرغبوا في هذه الوحدة التي يزيد أن يفرضها
الكاثوليكيون عليهم بقوة السلاح . يضاف إلى ذلك أن فرنسوا الأول
رأى حرجة الموقف الذي كان عليه شارل كان فحاول التحالف مع اادوار
السابع خليفة هنري الثامن بعد أن توفي في ٢٠ كانون الثاني ١٥٤٧ .
ولكن اضطراب الحالة الداخلية في فرنسا ، على أثر المصادرات والضرائب ،
التي فرضتها الحروب المستمرة ، عكرت آخر أيامه ، ومات في ٣١
آذار ١٥٤٧ .

نهاية النزاع (١٥٤٧ - ١٥٥٩) - وهذا النزاع ، الذي بدأ في
عهد فرنسوا الأول ، استمر في عهد ابنه وخليفته هنري الثاني (١٥٤٧ -
١٥٥٩) . كان هذا الملك أميراً مغلقاً حزيناً ولكن شجاعاً يحب

المبارزة . ولم تكن له صفات أبيه ، فقد كان ينقصه النظر الثاقب وحس الانتهازية اللذان يميزان الرجل السيامي ، وبالمقابل كان دؤوباً في مقاومة الخطر الخارجي والعمل على عقد الصداقات التي تساعد في الوصول إلى التوازن ليخفف من ضغط هذا الخطر . كان متيناً كجملود صخر ، جريئاً يتحدى أشد الهجوم . وبالجملة فقد أدى هذا الملك رسالته التاريخية وانهى في الحقل السيامي العمل الذي لم يتم في عهد والده .

كان هنري الثاني كسلفه يعتمد على مساعدة الاتراك . وقد ظهرت صلته بهم عندما أخذ البابا جول الثاني يتكلم عن حرب صليبية ضد فرنسا . ولكن هنري الثاني حاول أن يخفي جهده هذا التحالف الضروري مع الاتراك لئلا يفسد علاقته مع الكنيسة . ومن جهة أخرى ، كان حريصاً على صداقة حلفائه البروتستانتين الالمانيين بعد أن أخذ هؤلاء يثرون تباعاً على شارل كان لشدة تعصبه للكاتوليكين مع تقدم السن وميوله الاسبانية التي أصبحت خطرة على « الحريات الجرمانية » وخاصة من الناحية الدينية .

ولم ينس هنري الثاني إيطاليا بل استهواه كأسلافه ، فقد سبق أن تزوج بكاترينا ميدتشي في ٢٨ تشرين الاول ١٥٣١ فكان اذن على صلة بها . ولكن هذه الجاذبية الإيطالية لا تخلو من خطر . لقد جذبت ميلانيا كثيراً ، وحاول أن يعمل شيئاً في المانيا فعقد مع موريس ساكس والامراء الذين معه معاهدة شامبور في ١٥ كانون الثاني ١٥٥٢ . ثم ترك الوصاية إلى كاترينا وقام بـ « رحلة المانيا » ويقصد بذلك الحملة التي أراد أن يضرب بها الامبراطور الهابسبورغي الضربة الحاسمة . دخل ميتر في ١٠ نيسان واحتلها . ومن اللورين ذهب إلى الالزاس واندفع الفرنسيون حتى

هاغنو ، وكان مرورهم عظيماً ، بعد أن استطاعوا ، كما يقول رونسار ،
« أن يرووا خيولهم من مياه الراين » .

ويبدو أن هذا الاندفاع الفرنسي في الأرض الامبراطورية قد أثار
رد فعل شديداً من العاطفة القومية الألمانية ، وبدل زينة ما كان يؤمله
الملك الفرنسي ، وذلك لأن البروتستانتين نسوا أحقادهم على الامبراطورية
ووقفوا جبهة واحدة ضد الفرنسيين ؛ الامر الذي اضطر هؤلاء إلى القتال
متراجعين والانتواء في فردن .

ولم تضرب « رحلة ١٥٥٢ » البيت النمساوي الضربة القاضية . إلا
أنها ، على الأقل ، كشفت عن ما نسميه « سياسة الحدود » . وكان
لزماً على هنري الثاني أمام هذا الخذلان أن ينطوي على نفسه ، ولكنه ،
على العكس ، القى بجنده في مغامرة غريبة وهي مغامرة توسكانا التي
باءت باخفاق ذريع . وثبت أخيراً أن إيطاليا لا ترغب به . أما شارلكان
فقد وقع مريضاً ، بعد أن يئس من نتيجة هذه الحروب ، ورأى أن
يعتزل العالم . وكان ممه أن يؤمن لابنه فيليب الثاني مالم يستطع تأمينه
لنفسه . زوجته ماريا تيودور ملكة انكلترا الكاثوليكية بعد وفاة زوجها
أدوار السادس (١٥٥٣) ومن ثم تنازل شارلكان عن العرش على
مراحل : ففي ١٥ تشرين الاول ١٥٥٥ تخلى في بروكسل لابنه فيليب
عن املك بورغونيا بما فيها البلاد المنخفضة . ثم تصالح والبروتستانتين
وأعاد إلى ألمانيا السلام الديني بمعاهدة أوسبورغ (٣ تشرين الاول ١٥٥٥) .
وتخلى فيليب في بروكسل عن المملكة الاسبانية ومستعمراتها (في ١٦
كانون الثاني ١٥٥٦) . وعقب ذلك عقد مع فرنسا هدنة فوسيل
(في ١٥ شباط ١٥٥٦) . أما فرديناند أخو الامبراطور شارلكان

فكان من قبل ملك الرومانيين ولم يصبح امبراطوراً إلا في العام ١٥٥٨ .
واعتزل شارلكان في خريف عام ١٥٥٦ حياة العصر وعاش في دير
سان - جوست في ابستوامادور في اسبانيا حيث كان يصل اليه صدى
الحوادث حتى وفاته في ٢٦ ايلول ١٥٥٨ .

وهكذا انقضت احلام شارلكان الواسعة ولم يستطع تحقيقها إلا جزئياً
ومالبثت أن تبددت أمام مقاومة فرنسا من جهة ، وأمام انقسام المانيا
إلى قسمين بسبب انتشار الديانة اللوثرية من جهة أخرى . ولذا لم تستطع
المانيا أن تقف صفاً واحداً أمام الغرب في الساعة الحرجة ، وأخيراً
بسبب الوفاق الفرنسي - التركي ، الذي اضطر الرينخ الالماني إلى الحرب
على جبهتين . وكان انقسام هذه القوى الالمانية قاضياً على الاحلام .

سياسة الحدود . - إن انقسام امبراطورية شارلكان إلى قسمين :
شمالي واسباني لم يضعف ، كما قد يظن ، قوة آل هابسبورغ ، بل انه
زادها . ولهذا السبب نفسه كان شارلكان يؤمل أن يرى نجاح ابنه في
الحقل الذي اخفق فيه . ففي عدة مناسبات كانت جهود النمسا واسبانيا
تنضم إلى بعض . وكانت توزيع التبعات يخفف عن كامل الامبراطور
بعض الضغط ويجعل هذه التبعات سهلة على ورثته . إلا أن نقص الموارد
المالية ظل فادحاً كما في السابق . وهذا ما اصطدم به فيليب الثاني ،
كأبيه ، ونجت منه فرنسا في أخرج ساحاتها في عهد فرنسوا الأول
وهنري الثاني .

اما هنري الثاني ، على ما عرف عنه من جلد في أيام الشدائد وميوعة
في الاوقات العادية ، فقد تجمعت حوله المؤثرات والدسائس وانقاد لها :
فن ذلك أن زوجته كاترينا ميدتشي كانت عدوة إلى كوزم ميدتشي الذي

يحكم فلورنسا ، وكان يساورها القلق الابطالي . وكانت خليكته ديانا يواية توحى اليه بكثير من الامور وتلي عليه نصائحها الثمينة حيناً والسبئية حيناً آخر ، وكذلك موثورانسي ، بطل فكرة السلام التي لم يتغل عنها ابداً ، كان يحاول الحفاظ على ثقة الملك به بجميع الوسائل . ولم يكن آل غيز أقل طمعاً من موثورانسي ، بل كانوا ينازعونه تسيير المصالح ويوغبون بالحرب بقدر ما يرغب منافسهم بالسلام . وكان البابا بولس الرابع نابولي القلب والاصل ولذا كان خصماً لدوداً لاسبانيا . وكان ابن أخ البابا كارلو كاردينالا طموحاً جشعاً لا يقل عن قيصر بورجيا . واخيراً عمانوئيل فيليبير دوق سافوا كان رجل حرب ، وقد عزّز عليه أن يرى بلاده محوّر نزاع بين الدول المجاورة فأراد أن يحافظ على سلامتها الصالحة .

وكان غرانفيل مستشار شارلكان ، الذي يصغي اليه ويعمل بنصحه ، يوجه سياسة فيليب الثاني في البلاد المنخفضة . وكانت ماريا ثير دور ملكة انكلترا وزوجة فيليب الثاني تساند تعصب زوجها للكاتوليكية . ولذا لم يعمل شيئاً من جهة فرنسا وفكروا أن تبقى بسلام . وقد عمل موثورانسي كل ما في وسعه لصيانة هدنة فوسيل .

غير أن البابا وابن أخيه فكروا بما يخالف ذلك . فقد وجدابغيتهما في فرنسا دوق غيز ، فلمحا له بنابولي ، وفي هذه المرة نرى البابا بشخصه يشعل نار الحرب في ايطاليا . أما هنري الثاني فكان حائراً ، ثم انقاد إلى حليفه الهبري . وبينما كان غيز مندفعاً في طريقه إلى نابولي اجتاح الاسبانيون فرنسا من الشمال ، وانتصروا على الفرنسيين في واقعه سان كاتان ، وبدأ طريق باريس مفتوحاً أمامهم . غير أنهم لم يعرفوا كيف يستفيدون من هذا النصر ، لأن دوق غيز رجع في هذه الاثناء ،

بعد أن أمر مونمورانسي ، وغسل عار الاخفاق بحصار كاليه وفتحها عنوة
(١ - ٦ كانون الثاني ١٥٥٨) .

معاهدة كاتو - كامبري (٣ نيسان ١٥٥٩) . -
ويبدو أخيراً أن كلاً من الطرفين سئم الحرب واعوزه المال . ومن
جهة أخرى ، كان هنري الثاني قلقاً من تقدم الإصلاح الديني في دوله ،
فرغب في السلام على أي حال ليتفرغ لمقاومة الإصلاح وجرت مفاوضات
بين فرنسا واسبانيا ثم انكثرتا اسفرت عن معاهدة كاتو - كامبري
(٣ نيسان ١٥٥٩) . وبوجهها يتخلى ملك فرنسا عن جميع مزايمه
في ايطاليا ويعيد إلى دوق سافوا جميع ممتلكاته : ييمونت ، سافوا ،
بريس ، بوجي . وبالمقابل يحتفظ بكاليه . أما ملك اسبانيا فيبقى سيداً
على مملكة نابولي وميلانيا .

وتنص هذه المعاهدة أيضاً على زواج فيليب الثاني ، أرمل ماريا
تيودور ، بابنة هنري الثاني اليزابيث لضمان الصلح . وقامت بمناسبة الزواج
أعياد كبيرة في باريس واشترك هنري الثاني في إحدى المبارزات فاصابه
سهم في عينه ومات من جرحه في تموز ١٥٥٩ .

ان معاهدة كاتو - كامبري ، التي تتخلى فرنسا بوجهها عن الاراضي
الابطالية وتوطلد سيطرتها على الاسقفيات الثلاث : ميتز ، تول ، فردن ،
في اللورين ، تسجل كما يقال بداية سياسة الحدود الطبيعية . ولكن هذا
الحكم العام لا ينطبق والحقيقة الواقعة : أما . ولا شك في أن فرنسا
تخلت عن مزايمها في نابولي وميلانيا بعد أن حاربت من أجلها منذ ١٤٩٤ ،
ولكنها آمنت بهذه المعاهدة المغامرات الايطالية العميقة . وبهذا المعنى
يمكن أن يقال أن صلح كاتو - كامبري افاد المصالح الفرنسية .
ومن جهة أخرى ، نجد أن فرنسا احتفظت فعلاً بكاليه وميتز وتول .

وهذا هو كل ما أفادته من هذه الحروب . ولكن ليس في ذلك ما يدل على اتباع سياسة جديدة ، بل الأصح هو العودة إلى سياسة قديمة يرجع عهدها إلى ماضي فرنسا القومي .

ومن الصعب أن نرى في هذه المعاهدة ، التي تنص على إرجاع السافوا وبريس وبوجي وبيمونت ، تطبيقاً لسياسة الحدود الطبيعية ، وذلك لأن مناطق الجوار والالب تشكل ، أكثر من الرين ، حدوداً طبيعية لفرنسا . غير أن هذه الأراضي الفرنسية منذ عام ١٥٣٦ لن تعود إلى فرنسا إلا آجلاً . فقد عادت إليها بريس وبوجي عام ١٦٠١ في زمن هنري الرابع ؛ والسافوا فقط في ١٨٦١ في زمن نابليون الثالث .

وهكذا انتهى دور طويل من تاريخ الغرب الاوربي عرفه بعضهم بامم دور حرب ايطاليا . وكانت اسبانيا الدولة الوحيدة ، من بين الدول القومية الكبرى ، التي خرجت من هذه الحروب باكبر فائدة ولو لم تلعب الدور الأول . بسطت نفوذها وسيطرتها على القسم الأعظم من ايطاليا ، ووضعت يدها على نافار ، وورثت البلاد المنخفضة بعد أن تحررت من كل حق اجنبي عليها . واستطاعت ، بعد أن انفصلت عن الامبراطورية ، أن تنصرف بأكملها إلى الدفاع عن منافعها الخاصة وتركيز قواها في الأماكن التي تريدتها وتفيد منها في أعمال أخرى غير مكافحة المراطقة والألمانين المتمردين . لقد كانت قوية حقاً بوحدتها الروحية التي لم تنلها أيدي الانقسام ، وبالثروات الضخمة التي تأتيها من أمريكا ، وبقوة جنودها المشاة . وسيلعب التفوق الاسباني دوره في النصف الثاني من القرن .

أما فرنسا ، وهي الدولة الاساسية المعنية في النزاع ، فقد خرجت

- ٧٣ -

من حروب ايطاليا خامسة رابحة . ولكن فتح كاليه واحتلال ميترتول وفردت لايعوض إلا قليلاً جداً العزف عن ايطاليا والتخلي عن الفلاندر والآرنوا .

ومها يكن من أمر حروب ايطاليا فان نتائجها كانت عظيمة في اوربه ولاسيما من وجهة نظر النهضة التي تناولت مختلف نواحي الأدب والفن والعلم . فلقد تأثرت أوربه بنهضة ايطاليا التي سبقت تهضنها بقرن من الزمان وكانت لها استاذاً ورائداً .

• • •

الفصل الثالث

النهضة

الصفات العامة

انتهى « العصر الوسيط » في السنوات الاخيرة من القرن الخامس عشر وبدأ عصر أطلق عليه المؤرخون اسم « العصر الحديث » . وإذا صرفنا النظر عن دقائق الحوادث وتفاصيلها وجدنا في هذا العصر نزعتين مختلفتان ، من حيث التأثير ، قوة وضعفاً ، ومن حيث الظهور ، مرعة وبطءاً ، فقد تظهرا في مكان مبكرين ، وفي غيره متأخرين . وهما في الوقت ذاته ثورتان : ثورة في التفكير والجمال ، وثورة في العقيدة الاخلاقية والدينية . هاتان الثورتان هما النهضة والاصلاح الديني .

ان كلمة « النهضة » تعبير حديث النشأة بدأ استعماله منذ العام ١٨٣٠ ، ولكن المعنى الحقيقي مازال موضع نقاش وجدل وربما استمر ذلك زمناً طويلاً . على أن « النهضة » وان اتفقت من الوجهة الزمنية مع بدء العصر الحديث ، فمن المؤكد أن لا انقطاع بين « العصر الوسيط » والعصر الذي يليه ، وما تقسم التاريخ إلى عصور تاريخية إلا نوع من الاصطناع ، وإذا وجد شيء من ذلك فلتسهيل عرض التاريخ وتعليمه . وهذا التقسيم لا ينطبق مع الواقع إلا من بعيد ، لأن تاريخ البشرية كالماء الجاري الدائم الجريان لا يقف عند حد بل هو سائر في طريقه بحقق

قدره . وليست النهضة بعد هذا إلا مفهوماً مجرداً وحالة فكرية عامة .
والنتيجة التي نريد أن نتوصل إليها هي أن مامن أحد يفكر الآن
ان العصر الوسيط والنهضة عالمان متباينان تماماً . ولا شك في أن أحدهما
يختلف عن الآخر ولكن « كتوازن قائم من تركيب قوى معقدة بعكس
توازناً آخر من نفس النوع » وبين التوازنين عناصر مشتركة ولكن بنسب
متفاوتة . هذا فضلاً عن أن المرور من توازن لآخر جرى بصورة مستمرة
وهياً فيها العصر الوسيط النهضة .

« النهضة » تفتح عجيب للحياة بأشكالها المختلفة ، بلغت مظاهره
الكبرى بين ١٤٩٠ و ١٥٦٠ ، ولكن دون أن يبقى مقيداً في هذه
الحدود . وهي بالمعنى العام الواسع تدفق من الحيوية أثار البشرية الأوروبية
فتبدلت على أثره حضارة أوربه بكاملها . وهي بالمعنى الضيق نزوة حيالية
في أعمال الفكر . انها ضمة تطلع ونوق وهواية ومحو أكثر منها مذهب
أو نظام . انها دفع داخلي جدد حياة العقل والحواس والمعرفة والفن .
لقد أراد المعاصرون حقاً أن يدشنوا عهداً جديداً ففتحوا أسطورة تاريخية
وقالوا : لقد هدم العصر الوسيط البربري العالم القديم ولذا يجب تهديمه
بدوره . وهذا الانطباع ، في بناء معرفة جديدة وقطع الصلة بالعصر
الوسيط العساجز عن فهم القدامى ، نجم ولا شك عن أفول المدرسين
(السكولاستيك) الذين هجروا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر
الآداب الانسانية الكبرى في سبيل منطق صوري جاف وصوفية فقيرة
لاترى ، بالتقليد ، في الادب الانساني ، أكثر من ألوية مجرمة ، كأنجم
عن انسانية العصر الوسيط التي هي انسانية حقيقية ولكنها تختلف عن
انسانية النهضة . لقد استعمل الانسانيون التعبير « العصر الوسيط » منذ
النصف الثاني للقرن الخامس عشر وأصبح شائعاً في القرن السادس عشر

للدلالة على القسم الثاني من تاريخ البشرية المقسم إلى ثلاثة أقسام :
التاريخ القديم ، التاريخ الوسيط ، التاريخ الحديث ، أي للدلالة على
العصر الذي ينتهي تقريباً عند فتح القسطنطينية واكتشاف أمريكا ويرى
فيه الانسانيون عصر بربرية وجهل وظلمات يتلوها النور .

مجتمع النهضة ، - النهضة صنيعة هو البورجوازية والرأسمالية والملكية
المطلقة . ظهرت بادئ بدء في العصر الوسيط في المدن التي تشكل بناؤها
الاقتصادي والاجتماعي على أساس رأسمالي ، وغت ظواهرها الادبية والفنية
والعلمية في اوساط الممولين الذين أثروا بالتجارة والصناعة والمصارف ،
وفي ظل الملوكة المستبدن الذين استطاعوا فرض مجتمع جديد وهو في عز
توسعه الاقتصادي ، وجلبو المال بالضرائب والقروض واقاموا الحاشية ؛
وحول كبار الموظفين المدنيين والكنسيين . فهي اذن ثمرة البلاطات
والاكاديميات والحلقات و « الصالونات » .

لقد اعطت ايطاليا اوروبا لون هذه النهضة . ففي مدينتها التجارية
الكبرى تفتحت وغت : في فلورنسا حيث انطلقت الحركة منذ القرن
الرابع عشر حول امرة آل ميدتشي وغيرها من اسر اصحاب البنوك
والتجار التي كانت تنافسها الجاه وتعتقد الاجناعات الادبية وتنشئ الاكاديميات ؛
وفي البندقية بلد الارستقراطية التجارية ؛ واخيراً ظفرت النهضة في البلاط
الحبوري حيث كان الباباوات حماة للفنون والآداب ، مثل ليون العاشر
(١٥١٣ - ١٥٢١) الذي يجسد النهضة عند قول بعضهم ؛ وفي ميلانو
عند ادواك آل سفورزا ؛ وفي فيراره عند آل ابست ؛ وفي منتو عند
آل غونزاغ ؛ وفي اريينو عند آل مونتيفيلترة . لقد كان الامراء في
هذه المدن يحاولون أن يخلعوا على حياة البلاط كل رونق واهة وجمال .

وما ذلك منهم إلا لاسباب سياسية أو في سبيل الجاه وضرورة تأمين الانصار والرغبة في كسب الاعداء ومراقبة الخصوم .

ففي هذه البلاطات الايطالية بما المثل الاعلى للحياة في المجتمع ، وفيها تجلى البذخ والذوق والرفاه ، وفيها كانت اللذة هدفاً وغاية ، وفيها يقضى الوقت بالاعیاد والمآدب والحفلات والرقص والموسيقى والالعاب والمساجلات والاحاديث الخاصة والمطارحات الودية وتبادل العواطف بين الفارس والسيدة .

لقد فرض هذا المفهوم على اوروبا ، ولم يكن مجهولاً قبل حروب ايطاليا ، ولكنه انتشر في القارة على يد الاشراف ، الذين حاربوا في شبه الجزيرة ، والسفراء وتابعيهم وامناء مرهم ، وكان هؤلاء على الغالب انسانيين مولعين بالقديم وكان منهم شعراء وعلماء وأطباء .

في اسبانيا كان « الملك الكاثوليكيان » فرديناند وايزابل يدوسان اللاتينية ، وابنتها خوانه ترتجل خطباً باللاتينية أمام رسل البلاد المنخفضة . وكانت كاترينا آراغونه مثقفة واسعة الاطلاع .

وفي فرنسا ، أخذ الفرنسيون ، الذين نزلوا ايطاليا في ١٤٩٤ مع شارل الثامن ، وفي ١٤٩٨ في عهد لويس الثاني عشر ، وفي ١٥١٥ مع فرنسوا الاول ، بجمال ايطاليا وشدها بحياة بلاطاتها ، كما فتنوا بسحر المرأة الايطالية ، وتأثروا بالايطاليين ونقلوا معهم إلى بلادهم كثيراً من معالم الحضارة في شبه الجزيرة .

وفي انكلترا ، كان هنري الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٧) محباً للاتينية ، فقيماً في الدين ، موسيقياً ، مؤلفاً . وكان ولداه ادوارد وماريا يكتبان باللاتينية والفرنسية ، وايزابت بالاغريقية والايطالية . وكانت

الاعیاد الميثولوجية والمبارزات والمساخر ودخول المدن والاستعراضات لا تنقطع . وقد أحدث الملك في كامبردج كرامی استاذیة لتعليم الاغریقیة والعبریة . وكان أفراد الحاشیة یقلدون الملك ، والبورجوازیون یقلدون الحاشیة .

وفي المانیة كان الامبراطور ماكسمیلیان یضرب المثل بنفسه ویتبعه فی ذلك أصحاب مصارف المانیة الجنوبیة وخاصة آل فوغر والامراء . وعلى هذا النحو انتقل ذوق المعرفة ، الذي یسود البلاط ، إلى جمیع طبقات المجتمع .

أما بلاد الشمال فكانت أقل فناً ، ونحول فیها المثل الاعلی الایطالی . وهكذا أضرمت ایطالیا نار النهضة فاحترق بها مجتمع غربي اوربه .

السان النهضة . - هذا وتمتاز النهضة بوجود انسان من نوع خاص تغلی فی عروقه حیة حیوانیة قوية ترتجف منها جمیع حواسه . وهذه الحیة أقوى عند رجل الحرب والفن منها عند القاضي أو التاجر ، وعند الایطالی اكثر منها عند الفلاماندي ، ولكنها كانت عند الجميع فی هذا العصر أكثر منها عند الفئات المائلة لها فی عصر آخر . وتبجلی هذه الحیة للعامة بصنعب الحواس وكثرة الصور الجاذبة . كان انسان النهضة یتصور العالم الخارجي بفترات وقتیة لا یحلبها وتظل مؤثرة على شعوره حتی هیجان آخر . انه رجل شدید ، فجائی ، متطرف ، متحرك ، لا یلبث على حال ، متناقض ، معاكس ، مشاكس ، مریرع الهیجات والغضب ، یتسل سیفه لاقل حادث ، ثم لا یلبث بعد برهة أن یجب من كره قبل هنیة . ولنظرة أو التفاتة أو لاشیء ، ینبری الخنجر ، وهو موال الآن وخائن بعد قليل . انه بطل من نوع غریب ، یبکی كالطفل ویبوت والابتسامة على ثغره . والقتل عنده امر تافه لا أهمية له ، وصراع الدب والثیوان والاعدام والتقطیع والتتمیل والدم المتدفق بركة من الله .

لقد كانت حياة انسان عصر النهضة كثيفة وعضلاته متشنجة وأعصابه متوترة ، لأن شظف العيش والاضطراب التي نحدق به كانت تتطلب منه دوماً حواس ساهرة ورد فعل سريعاً ، في عصر كانت الشرطة نادرة والامن مضطرباً والشوارع ضيقة والغابات كثيفة . لذا كان عليه أن يبقى مستعداً لكل مفاجأة منيئاً لكل حادث ، ليأخذ حقه بنفسه .

ولكن هذه الحياة التي تنمي الحواس صنعت رجالاً أكفاء لجميع الفنون يتحسون بالالوان والروائح والاصوات . وهم بهذه الصفات الجامعة يتميزون عن انسان القرن العشرين الذي هو بصري غالباً . ان جميع الحواس تهتز عند رجل النهضة ولذا كان شغفاً بجميع أشكال الجمال .

الادب الانساني . - لقد ظهرت النهضة بظهور الرجعة إلى القديم . والانسانيون ، بالمعنى الواسع ، هم كل من تبنوا المثل الاعلى للنهضة وشغفوا بالآداب والفنون القديمة ؛ وفي المعنى الضيق ، ائاس مثقفون يمتنون منبثقون عن البورجوازية ، كنسيون ، اساقفة جامعات ، اطباء موظفون ، وأحياناً مؤلفون وناشرون في خدمة دار للنشر ، يعبرون عن نزعة المجتمع ويجهزونه بأدواته الفكرية ، ويدخلون في حماية الامراء ويتقاضون رواتبهم منهم ويقومون لهم بالدعاية .

كان الانسانيون رسل العالم القديم ، ويزعمون احياه ، ويحاولون أن يبعثوه كعلماء ومؤرخين ، ويفهموه بذاته ، ويتذوقوا جماله الاغريقي ، وينفذوا منه إلى أسباب وجوده . لقد كان القديم وسيلة بالنسبة إلى هؤلاء الانسانيين ، لأنهم يريدون حياة أخرى غير حياة العصر الوسيط ، حياة يشعرون بها ، وتغلي في عروقهم . وإذا أحبوا القديم فلأنهم الفوا فيه بغيثهم ، ولكنهم مع هذا ظلوا رجال عصرهم وفهموا العصر القديم أكثر

بما فهمه رجال العصر الوسيط . ومن الثابت أن معنى التاريخ كان نامياً عندهم . فقد فهموا العصر القديم حقيقة مخالفة لحقيقة العالم الحديث ، حقيقة زالت من الوجود ، وأرادوا أن يحيا معالمها وأوصافها دون أن يعلموا حقاً ما إذا كان بالامكان احياؤها فعلاً .

مراكز الانسانية . - كانت ايطاليا وطناً للانسانية . ومنها انتشرت في كل أوربة . غير أن عصر كبار العلماء والفقهاء من مكتشفي النصوص القديمة قد انتهى في شبه الجزيرة الابطالية مع انتهاء القرن الخامس عشر . ولكن ايطاليا بقيت مركز الانسانية . وكان المثقفون في ذلك الحين يملكون جميع النصوص الاغريقية واللاتينية التي هم في متناول بدا اليوم . إلا أن عمل النقد والتفسير والترجمة ما زال مستمراً . وكان الانسانيون يلتفون حول « الطباعين » وأهمهم آلد ماثوتشه في البندقية ، فقد احتكر هذا في زمن ما المنشورات الاغريقية ، وشغل ارموس البلاد المنخفضة وليناكر انكلترا ولاسكاريس وآليثاندرو ، وأسس الاكاديمية الأكاديمية لدراسة الاغريقية والتكلم بها . وبقي بعده جوس باد في ليون ثم في باريس حيث نشر المؤلفين اللاتينيين كلهم ، وهنري ابستين في باريس ؛ وتيري مارتنس في لوفان ، وانطوان كويرغر في نورامبورغ ، وفروبين في بازل . وكانت هذه الحلقات على صلة مع بعضها ومع صالونات الامراء وكبار البورجوازيين . وتشكلت على هذا النحو في أوربة جمهورية كبرى للآداب ، وكانت قاعدتها ، خلال فترة من الزمن ، في البندقية حول آلدماثوتشه . وقد أثرت ايطاليا أيضاً باساتذتها وعلمائها وفقهائها وخاصة بجامعاتها التي استهوت الاشراف والنبلاء والاساتذة والشعراء والاطباء والقانونيين . وكانت بولونيا ، وبيزا ، وبافيا ، وفراره ، وبادوا بخاصة ، مواطن أوربية . ومع هذا فان الاعمال العلمية الكبرى الموسعة جرت في

خارج ايطاليا . ففي فرنسا جدد غليوم بوديه دراسة الحقوق القديمة بأشارات على « مجموعة فتاوى جوستينيان » (١٥٠٨) ، وأحيا الحضارة الرومانية في كتابه « دوايس » ١٥١٥ ، عندما أراد أن يوضح نظام النقد . وتفوقت فرنسا في الحقوق على يد كوجاس مؤسس المدرسة التاريخية ، وفي نشر النصوص بفضل تورنيب . وفي ألمانيا جدد رويخن الدراسات العبرية (١٥٠٦ - ١٥١٨) . وفي هولندا ظل ارزموس روتردام ملك الانسانيين حتى وفاته عام ١٥٣٦ .

صفات الانسانية . - لقد كانت انسانية عصر النهضة نوعاً من الانسانية الكبرى الحادثة . وكان الانساني يمثل صوفية النبل البشري ، ويشيد بعظمة الانسان ، ويطلب اليه جهداً دائماً لتحقيق الكمال الاعلى في العلاقات البشرية ، ويقبل بصلاح الطبيعة والعالم ، ويرى نفسه فيها براحة وغبطة وفرح ، ويثق ثقة لا تتزعزع بالتقدم اللامتناهي للعمل البشري والعقل البشري والفرد والجماعة .

وإذا كانت هذه صفات انسانية النهضة ، فعلى ما يبدو أن انساني هذا العصر ، ولا يستثنى أحد منهم ، كانوا يهتمون اهتماماً بالغاً بالجمال ويبحثون ، خلال النصوص القديمة ، عن شكل سام يتصف بدقة الملاحظة وانتقاء المادة الحية وازهار الصفة البارزة ، وترتيب الأفكار ، والتسلسل الطبيعي ، وحذف التفاصيل غير المفيدة ، ونقاوة التعابير ، وغنى الصور ، وصحة الاستعارة ، واستمرار اجرائها ، مع ما في ذلك من انسجام وكال . وكان شيشيرون إلهاً عند كثير منهم . ولم يكن كل الانسانيين أهلاً لتقليد القدامى ، غير أنهم كانوا يتذوقونهم بعمق . أما الذين لا يهتمون بالشكل الادبي ، كلؤاردو فانتشي ، فقد الفوا لبانتهم في الفنون التشكيلية . وفي الحقيقة ، ان انسانية النهضة كانت علم جمال قبل كل شيء .

عصر النهضة (٦)

وبعد أن بحث هؤلاء الانسانيون عن الجمال وتذوقوه أرادوا أن يحققوا في أنفسهم المثل الأعلى للانسان ، مثَل افلاطون . بيد أنهم ، من جهة اخرى ، كانوا يؤخذون بحج الذائذ والاستمتاع على الارض . وإذا كنا لا نرى وثنيين في انساني النهضة ، باستثناء بعض الأفراد ، فيجب أن نعتزف بوجود وثنية عند الجميع . وقد دفعتم لفظيتهم وشكهم إلى هجر المنطق الصوري والفلسفة المدرسية وسلاسل القياس الهزيل التي خيل للعصر الوسيط انه وجد بها نظام الكون وبلوغ المطلق . وتركوا القضايا التي لا حل لها وانصرفوا إلى علم الانسان ، وأرادوا أن يجدوا عند الأقدمين الانسان كسكائن عام ، غير شخصي ، كلي ، هو نفسه في كل مكان وزمان ؛ وافكاراً ازلية بسيطة يجدها كل انسان في ذاته ويفهم بسرعة الله والروح والحير ؛ وأوصافاً دقيقة للعواطف والأفكار تسمح بالتنبؤ والعمل . لقد كانت الانسانية فن تقانة بالنسبة للحياة اليومية .

كان يغلب على انساني النهضة ، وخاصة في ايطاليا ، الكبرياء ، واثبات الانا وامتداد الفرد ، الذي يرغب كل الرغبة أن يعيش كل أنواع الحياة التي يمكن تصورها . كان يريد نفسه ملك الكون ، تقريباً ويقول : يجب أن يصبح كل انسان كلياً وجامعاً . وعلى الانساني أن يكون فصيحاً ، شاعراً ، فناناً ، فيلسوفاً ، اخلاقياً ، سياسياً ، بطلاً ، عاشقاً ، عالماً ، وعليه ان يثقف نفسه كالوردة وأن يروضها كخيل السباق . ان العالم في متناول اطلاعه وقريب منه وامام رغبته وطموحه . واخلاق الانسان عظيمة . وهو حر يقضي العمر ارستقراطياً منيراً ، يبحث عن سعادته في الجمال والخلق والابداع والظفر والمجد . ان انسانية النهضة خارجة عن الذات .

وفي إيطاليا ، أصبحت الصفة المميزة للانسان ارادة القوة ، وجميع الاعمال ، التي تحمل طابع العظمة ، تدعو إلى الاعجاب . ومن لا يستطيعون أن يتميزوا بالخير كانوا يبحثون عن الشهرة بالشر .

وأخيراً كانت الانسانية دينية ، فقد كان الانسانيون يتذوقون المغيبات وتستهوهم ديانات الامرار ، وكانوا اجمالاً مسيحيين ، وعلى الاقل رسمياً ، ولكنهم اتخذوا وجهتين مختلفتين : فمن جهة تأثروا بالبادوية أي بمدرسة بادوا ومن جهة اخرى بالافلاطونية والمسيحية .

أما مدرسة بادوا فقد أطالت بقاء فلسفة ابن رشد التي سادت في العصر الوسيط . وكانت تعمل على نصوص خلت من شوائب التغيير ودرس الناسخين ؛ وفسرت ارسطو كما فسر العرب ، وخاصة ابن رشد ، لا كما فسر القديس توماس الاكوييني ، وكان فيلسوفها بومبونازي (١٤٦٢ - ١٥٢٥) . بدأ بالتعليم عام ١٤٩٦ ونشر كتاب « الروح » ١٥١٦ وكتاب « القدر » عام ١٥٢٠ .

كان ابن رشد يرى أن هنالك روحاً واحدة عاقلة مشتركة بين سائر الناس ، خالدة في ذاتها ، ولكنها لا تمنح الخلود الشخصي لكل فرد . ويرى الكسندر افروديزياس أن في الفرد روحين متميزتين منفصلتين ولكنها ليستا سوى ظاهرتين للقوى الجسدية . إذن هما فائنتان .

أما بومبونازي فيرى أن القضية لا حل لها ويفسر العالم كتسلسل ضروري من العلل والمعلولات ، وأن كل شيء يخضع لقدر محتوم . فهو اذن ينكر الحرية التي هي شرط لمسؤولية الانسان والعقاب في الحياة الآخرة ، وينكر أيضاً الحكمة الإلهية « عمل الله الدائم في العالم » ويدخل فكرة الاخلاق بغير فريضة أو جزاء . ويقول ان أفكار الثواب

والعقاب غير عقلية ، وان الفضيلة تحمل في ذاتها ثوابها الخاص . ويفصل بين الايمان والعقل . ولا يعتقد بومبونازي الفيلسوف بخلود الروح ، ولكن بومبونازي المسيحي يعتقد به . وفي الحقيقة ، كان بومبونازي يعتقد خاصة بآله محايث يمتزج مع العالم ، هذا الكائن الكبير الحي ، بجميع اجزائه ومخلوقاته المتحدة مع بعضها اتحاداً مرياً . وقد نجحت هذه الآراء . ولكن البابا ليون العاشر شجب عام ١٥١٣ هذه العبارات : الروح العاقلة فانية . وليس للبشرية إلا روح واحدة . وهذا الرأي صحيح فلسفياً على الأقل . وهذا المذهب العقلي البادوي انتشر في اوربه كلها ومنه خرج مونتين وخلعاء القرن السابع عشر وفلاسفة القرن الثامن عشر والعلمانية الحديثة .

كان اكثر الانسانيين يتعلقون بالانساني المسيحي . وهذا الأخير قديم قدم المسيحية . وقد ادخل آباء الكنيسة إلى المسيحية انسانية العصر القديم . وكاث القديس برنارد والقديس توماس انسانيين في العصر الوسيط ، وقد شغف انسانيو هذا العصر بالقدماء وهاشوا على صلة بأوفيد وثاسيت وتيت - ليف والشعراء واقتنعوا بطيب الانسان ، وجه الله . ولذا وضعوا الانسانية في خدمة المسيحية ، وكان مثلهم الاعلى التواضع والحياة الباطنية والفقر والرأفة والحنان ، واعتبروا انفسهم في منفى على الارض . أما الانسانيون المسيحيون فيبدو في نظرهم أن الانسانية ، التي هي في جوهرها فهم واستيعاب لكل أشكال الحياة ، ادخلت بعض أشكال المسيحية في الحسد الذي يقبل فيه علم الدين واللاهوت جوهر المذهب العقلي القديم ، وفي الحسد الذي تنفق فيه الروحانية المسيحية مع التطلع الحالد للانسان نحو المطلق . ويظهر أنهم وضعوا المسيحية في خدمة الانسانية . ولذا كان الراهب القديس برنارد انسانياً في ذاته ، فان الانساني اوزموس ترك الرهبانية .

ويؤكد الانسانيون على وحدة الثقافة البشرية والانسجام العميق بين الكشف المسيحي والتقليد القديم ، ويصنعون من القديم اسطورة شعرية ويقولون لقد وجد في أصل البشرية ، وقبل موسى وابراهيم ، في زمن فرعون الاول ، إله الفصاحة والتجارة والصوص ، وكان هذا أول لاهوتي تبعه أورفه وفيثاغوروس و « الآلهي » افلاطون . ثم أن باقي الجنس البشري يصل الله بالناس . وهكذا يحمل العصر القديم حقائق الكشف البدائي وينبئ بالعصور المسيحية .

وبعث مادسيل فيتشينو (١٤٣٣ - ١٤٠٩) واعضاء الاكاديمية الفلورنسية فلسفة افلاطون وقالوا : ان الكائنات والاشياء التي نخطط بنا ليست إلا نسخاً غير كاملة لنماذج غير مرئية هي الجواهر او الافكار ذات الجمال الكامل التي هي في الله الكمال الاعلى والجمال الاسمى ، وان جمال الله يشع في الكائنات ويهبها جمالها ، وان أرواحنا ، قديماً ، كانت ترى مباشرة جمال الافكار والجمال الإلهي . وهي الآن سجينه الجسد ، ولكنها تتذكر الافكار في تماسها مع العالم المحسوس ، وتجد الجمال الإلهي في تماسها مع الاشياء الجميلة ، وتسمو بالفكرة إلى بارئها منتظرة الخلاص بالموت . ان الحب نبيل ومشروع وكال بشري وشرط لاغنى عنه لحب الله ، لان الانسان يجد جمال الخالق بحب المخلوق الجميل . وان الشاعر والفنان يبشران بالجمال لأنها رسولا الله يحملان ارادته والهامها أثر خاص منه . لقد كان جميع الشعراء والانسانيين المسيحيين افلاطونيين تقريباً .

لقد رأى الانسانيون المسيحيون اذن في إرجاع الآداب الصالحة أي القديس تيمية إلهية لارجاع حياة يعتبرونها مسيحية . فقد نشر الفرنسي لوفيفر ديتابل ، من ١٤٩٢ إلى ١٥٠٧ ، ارسطو وفسره حسب تفكير القديس توماس الاكويني ، ثم تدرب على افلاطون ، وانصرف منذ

١٥٠٩ إلى نشر « الاسفار الالهية » ، في ١٥١٢ . و « رسائل القديس بولس » واختتم بنشر « الكتاب المقدس » بالفرنسية عام ١٥٣٠ .

وابدع المولندي ارزموس مذهباً جديداً ، وهو التجديد الارزموسي ، وعرضه في « مجموعة الامثال » (١٥٠٠) وهو شرح الامثال اللاتينية ، وكتاب « الفارس المسيحي » (١٥٠٣) ، و « مدح الجنوث » (١٥٠٩) وهو هجاء لجميع شروط الحياة الدنيا ، و « الاحاديث » (١٥١٦) وهو خطب في الحياة الاخلاقية والاجتماعية ، ومنشورات العهد الجديد (١٥١٦) ، والقديس اغسطينوس والقديس يوحنا تم الذهب وغيرها . وكانت لهذا الأخير مكانة فكرية هامة بكتبه ورسائله مع الانسانيين من ملوك وبابوات .

يرى هؤلاء الانسانيون المسيحيون أن القديم ليس سوى نهيئة وتحضير للمسيحية . فقد عرضت فيه أفكارها الأساسية : وحدة الله ، وخلود الروح ، وكراهة الانسان ، والحرية المعنوية واثنينية الانسان بين الخير والشر ؛ وبينت الاخلاق البشرية المؤسسة على الوجدان والعقل . والمسيح ختام لكل تقدم بشري . والمهدف هو الاتحاد المباشر مع الله بالصلاة الروحية والتفكير بالمسيح ، ووحدة الروح مع المسيح والدين الباطني . ولذا يجب تجنب الشكليات وعدم الاكتفاء بالعبادة والطقوس والأمرار ، بل يجب أن تركز الروح من كل رجس بالقيام بالأعمال الحسنة ، وأن يكون صليب المسيح في القلب ، وأن يحيا الانسان في المسيح ، ويموت مع المسيح . ولم يكن هؤلاء الانسانيون مصلحين أي بروتستانتين ، لأنهم يقبلون إجمالاً بالخطوط الكبرى للعقيدة الكاثوليكية وبالكنييسة . انهم انسانيون مهمهم قراءة نص الكتاب المقدس الصحيح الموضوع حسب قواعد الفقه والمفهوم بفضل بعث الوسط اليهودي . وهم مقتنعون بأن

الانسان غير سيء ، ومن الممكن اصلاحه ، فهو يستطيع بقواه وحدها أن يسمو إلى اثير والعظمة والبطولة ، لان في النفس العاقلة شعاعاً من الوجه الالهسي . وهم انسانيون انجيليون يؤخذون بالنصوص ، ويحترمون مؤلفيها « فكراً وحقيقة » كالقديس يوحنا والقديس بولس ، ويريدون أن يعطوها للجميع ويحيوها بالجميع وان كانوا في الواقع لا يحفظون من هذه النصوص إلا ما يتفق مع نزعاتهم العديدة كإنساني النهضة .

وسواء أكانت النهضة بادوية أم افلاطونية فقد انتهت بالصوفية أي بالبحث عن كل ما يتجاوز الانسان والمطلق والالهسي والاتحاد مع الله الخائث والمتعالي . وليس بالسهل أن يعرف ما إذا كان الانسانيون المسيحيون ، عندما بحثوا عن المسيح ، الذي مثله الفنانون بطلاً قديماً وظافراً ، انما يعنون به الله المتجسد به أو الانسان الماؤه ليحققه بذاته . وعلى ما يبدو أن صوفية النهضة قنتهي غالباً بعلم الجمال ، وان علم الجمال يحقق الوحدة الداخلية لرغبات الانسان العديدة .

أدب الانسانيين اللاتيني . - كان الانسانيون يعبرون عن أفكارهم بأدب لاتيني غني ، ولم تكن اللغات القومية بعد صالحة عندهم للتعبير عن الافكار الدقيقة أو العميقة ، بل إن الشرف الاول للإنساني أن يعبر عن أفكاره بجمل لاتينية عذبة . لقد كانوا يرون في الله شكلاً أكيداً إلهياً للأسلوب الكامل والنموذج الكامل ويقولون يجب أن نحاول جهدنا أن نتقرب من هذه الصورة للجمال . وقد وجدوا هذه الصورة في شيشيرون ، ورفضوا استعمال كلام غير كلامه . ومن ايطاليا دخلت الشيشيرونية أوربة .

وليس لاختيار الموضوع أهمية ، بل الاهمية كلها للأسلوب . وقد كتب الانسانيون كثيراً في التاريخ ونظموه ووزعوه بانتظام والفوا

التواريخ على طريقة تيت - ليف وجعلوا اشخاصها ابطالاً رومانيين ، ونظموا القصائد اللاتينية وقلدوا كاتول وفيرجيل واوفيد ، وعبروا فيها عن عواطف حقيقية ، كما عنوا بالشكل وانتقاء الالفاظ وحسن اختيارها وتمييز الفروق واعتبار قيمة الكلمات وجرسها في الاذن . واشتهر منهم بيكاديتلي وبونتاس في نابولي ، وبوليسين في فلورنسا ، ومارول وفاغاجيرو في البندقية ، وقلد هؤلاء جميعاً في أوربة . وقد أثرت هذه الآداب اللاتينية على تعليم البلاغة والفصاحة في المدارس ، وتعلم بها الكتاب فن الكتابة ، وبدأ الشعراء القوميون شعراً باللاتينية .

اثر الانسانية في التعليم : - وبدأ أثر الانسانين في التعليم الجديد ايضاً . فقد كان التعليم في العصر الوسيط يهدف إلى معرفة نظام الكون وجوهر الاشياء . وعندما يتخرج الطالب من مدرسة النحو يقضي عامين في كلية الفنون الحرة ، ويدرس فيها الثالث : النحو والفصاحة والمنطق الصوري ؛ والرابع : الحساب والهندسة والفلك والموسيقى . وعندما يصبح « استاذاً في الفنون » يذهب إلى كليات التخصص في الطب والحقوق واللاهوت . وكانت طرق التعليم واحدة عند الجميع ، ولا يرجع الاساتذة والطلاب إلى المصادر بل كان الاستاذ يقرأ الكتاب ويفسره ويتعلق الاساتذة والطلاب بالمنطق الصوري والجدل والتدليل بالقياس . وفي آخر العصر الوسيط تغير الثالث والرابع ، واحتكر المنطق كل شيء .

أما في عصر النهضة فقد أراد الانسانون ارجاع القديم وقراءته وتفسيره وتقليد شعرائه ومؤرخيه وخطبائه . لذا اسسوا التعليم على العلوم الطبيعية : النحو والبلاغة والمنطق . واستخلصت البلاغة قوانين الاقناع من دراسة المؤلفين الكبار ، واستخرج المنطق الصوري قوانين الحكم والمحاكمة من

آثار العقل البشري الكبرى ، ووضع كلاهما القوانين بتعاليم ، وامتد كل منها ، ككل علم ، بفن أو تقانة .

وأصبح القدامى على هذا النحو أساساً للتعليم . فلتعليم اللاتينية بدرس ثيرانس ، شيشيرون ، سالتوست ، قيصر كوانتيلين ، فيرجيل ، هوارس أوفيد ، ثيول ، كانول ، بروبيوس ، جوفينال ، بيوس ولتعليم الاغريقية بدرس : هوميروس ، هيزود ، تيوكريت ، افلاطون ، ديموستين ، ثوسيديد ، بندار . وكان التعليم باللغة اللاتينية قراءة وكتابة كلغة حية . وقامت أسئلة الاساتذة مقام التدليل بين الطلاب . وطرق الانشاء ، نثراً وشعراً ، مختلف الموضوعات . وقاب مدح مريم والقديسين والظفر الملصكي عن التجارب الشفهية . أما في الفلسفة فقد بقي النقاش بالقياس .

وسهل اصلاح الدراسات باصلاح النظام . فقد كانت الدروس في كليات الفنون عامة ، والطلاب احراراً . وكانت المدارس الثانوية دوراً لضيافة الطلاب الفقراء . ونظمت الدراسة بشكل تمنع فيه كلية الفنون شهادة الدراسة بعد أن يكون الطالب قد أنهى الدراسة الثانوية . وأخذت المدارس الثانوية تعطي كل الدروس . وجعلت مدة الدراسة الجديدة فيها خمس سنوات للدراسات المدرسية وستين للفلسفة . وقسمت المدارس على صفوف حسب السن . وساد هذا النظام في كل أوربة تقريباً .

أما الكليات العليا ، الحقوق واللاهوت ، فقد حافظت على نظامها في التعليم ، وظهر إلى جانبها كليات كبرى انسانية . ففي اسبانيا أسس الكاردينال كزيمينيس عام ١٤٩٨ جامعة القالا وقض ٤٢ كرسيًا خاص

منها عدة كرامى للاتينية والاغريقية والعبرية . ومنها خرج الكتاب المقدس بعدة لغات . وفي العام ١٥١٧ فتحت في لوفن ، في بلجيكا ، كلية اللغات الثلاث : اللاتينية ، والاغريقية ، والعبرية . وأحدثت في البلاد الرينانية كرامى للاغريقية والعبرية في هايدلبورغ ، كولمار ، ماينس ، توبنغن . وفي العام ١٥١٥ أنشأ البابا ليون العاشر « دار الحكمة » للدراسات الهلنية . وفي فرنسا استطاع غليوم بوديه أن ينتزع من فرنسا الأول عام ١٥٤٠ تعيين « مقررئين ملكيين » ، يندبهم الملك ويدفع لهم رواتبهم ، ليكونوا اساتذة أحراراً لتدريس الاغريقية والعبرية واللاتينية واللغات الشرقية والفلسفة . وقد أصبحت هذه المؤسسة فيما بعد « كلية فرنسا » .

ونجح التعليم الجديد . وكانت يقبل على هذه الكليات الاشراف والبورجوازيون والفقراء ممن دخلوا في خدمة اولئك واستطاعوا على هذا النحو أن يتابعوا دروسهم . وكان الاساتذة يضربون المثل لطلابهم في العمل والدرس . وقد بلغ الاندفاع في الدراسة حداً عظيماً . فكان الطلاب من مختلف الاعمار ، حتى التلاميذ من سن ١٢ عاماً ، يشتغلون شغلاً عقلياً عشر ساعات فعلية في اليوم ، ويعتبر هذا الحد عادياً .

وبعد أن يقضي الطلاب ثلاثة أعوام ، عليهم أن يقوموا بالتدريس ثلاثة أعوام في المدارس الكبرى ، ويساهموا في المناقشات العامة ويجربوا أنفسهم بها . وفي نهاية هذه الستة أعوام يؤلفون رسالة لنيل الدكتوراه .

النهضة الأدبية والفنية والعلمية

النهضة ، بالمعنى الضيق ، حركة أدبية وفنية كانت على صلة بالإنسانيين من جهة ، وبالبلاطات والاكاديميات والحلقات والصالونات من جهة أخرى ، وتحت هذا التأثير المزدوج . وكان الانسانيون بوجوازيين . أما الادباء ، وخاصة الشعراء ، فكانوا في الاغلب نبلاء .

النهضة الادبية - لقد تمت النهضة الأدبية على ثلاث مراحل :

١ - مرحلة التهيئة والتحضير . وهي مرحلة التجديد ، وقد امتزجت فيها روح التمتع الوثنية بالروح المسيحية ، ووجدت فيها بقايا كثيرة من عناصر العصر الوسيط . وكان الكتاب في هذه المرحلة مفعمين بالقوة والابتكار ، ولكن عملهم كان محاولة وتحسناً وتلمساً دون أن يكون لديهم بعد معنى كاف للشكل .

٢ - مرحلة الأوج . وهي مرحلة الوثنية العميقة . وفيها كان التمتع بالحياة هدفاً أعلى ، والاهتمام بالفن وقيمة الاسلوب يفوق كل شيء . وكان الاتجاه منصرفاً إلى البحث الرواعي عن الكمال المستمر . وفيها اتحدت العناصر القديمة بالعناصر القومية في كل منسجم .

٣ - مرحلة افول النهضة . وفيها جنى المبدآن الأساسيان ، الفردية وحق البحث الحر ، ثمارهما وتفوقت العبقرية القومية على الروح القديم . بلغت إيطاليا بين ١٥٠٠ و ١٥٤٠ قمة الأوج ، وفيها مارس الادب الايطالي نوعاً من ملكية وأثر في جميع الآداب الأخرى وأعطاهم الأنواع الشعرية كالقصائد الثمانية والاثني عشرية والمسرح ومفهوم الفن والالهام . أثر أولاً في اسبانيا ، ثم انتقل تأثير هذين البلدين المتوسطين إلى الشمال .

ففي فرنسا ، كانت اللغتان الاسبانية والايطالية مرموقتين ، وترجمت لهما ترجمات عديدة . وبعد دور من التحضير يتفق مع عصر مارو وبداية رابليه بلغت فرنسا اوجها في عهد هنري الثاني عام ١٥٥٠ على يد رونسار و « السابوع الأدبي » . وأخيراً تفتح الادب الانكليزي بدوره على تقليد الايطاليين ، الذين عرفهم عن طريق الترجمة الفرنسية وتقليد الفرنسيين والاسبانيين ، وبلغت النهضة الانكليزية نقطة الذروة في عهد اليزابث بعد عام ١٥٧٥ . ولاشك في أن نهوض هذه الحركة الأدبية كان يساير نمو القوى السياسية والاقتصادية في كل دولة .

كانت هذه الآداب باللغة العامية ، لأن الشيشيرونية . مذهب شيشيرون ، جعلت اللغة اللاتينية غير اهل للتعبير عن الافكار والعواطف الجديدة ؛ ولأن الكاتب كان عليه أن يعجب رجال البلاط (ولأن العاطفة القومية كانت تعمل عملها ايضاً . غير ان العمل الادبي كان بحاجة لتوافر لغة ثابتة الاركان وغنية . وقد سادت في هذا الحقل ، في كل بلد ، لغة اقليمية خاصة ، وزادها ثباتاً عمل النحويين واحياء المؤلفين لها بما أعطوها من قيمة باستعمال تعابيرها ونحت كلماتها ، أي بما صنعوا لها من لغة أدبية . ففي إيطاليا سادت الفلورنسية ؛ وفي اسبانيا القشتالية ؛ وفي انكلترا ، لغة لندن التي تمت على يد سبنسر وشكسبير والكتاب المقدس الانكليزي ؛ وفي المانيا لغة ديوان الامير ناخب ساكس . ثم استعمل النحويون التصانيف القديمة وضبطوا اللغة ووضعوا قواعدها .

قلدت هذه الآداب القدامى واخذت عنهم الانواع الادبية والقصائد الغنائية والرسائل والمرائي والذم والقدح والمجاء والملاحم والمآمي والملاهي والتاريخ وقواعد الفصاحة والاهتمام بالاسلوب والموضوعات . وبالرغم من كثرة التلميحات الميثولوجية والتعابير المأخوذة عن اللاتينية والاعريقية فلم

يكن هذا التقليد عبودية . لقد كان الاقدمون نماذج للتعبير عن العواطف الشخصية التي هي عواطف رجال القرن السادس عشر ، وكانوا يؤدون القواعد لاستعمال المادة التي يعطيها العصر الحديث وتقاليده العصر الوسيط .

كانت هذه الآداب تكتب لتسر وتعجب وتسلي وتهيج وتستوي عطف القاريء اكثر من أن تعلم . وكانت الأنواع الأدبية الكبرى الشعر الغنائي ، وفيه نجد ، إلى جانب الأنواع القديمة ، الثنائيات والاثني عشريات الايطالية والقصائد الحماسية لـ (أريوستو ، لوتاسو ، ادموند سبنسر) والرواية الفروسية (مونتالفو) والرواية العاطفية ، والرواية المحبوبة (رابليه ، سرفانتيس) والدراما الريفية (لوتاسو) ، والقصة ، والحكاية . أما الأنواع الأخرى فهي نسبياً أقل أهمية . وكان المسرح غنياً ، وفيه أخذت المهارة والمأساة تقوم مقام المسرحيات الدينية ودرامات الجنون التي سادت في اواخر العصر الوسيط . ولم يبلغ المسرح شأنه العظيم إلا في انكلترا منذ ١٥٧٥ على يد شكسبير . وكان الحيال فياضاً ، حياً ، شاباً ، مندفعاً عند الكتاب . فقد هجروا ، بما تعلموه عن الاقدمين ، وبما هم عليه من فلسفة لفظية ، الرموز والتجريدات المشخصة كالايمان والعدل والفضيلة والشراسة والبنغل ، وعبروا مباشرة عما يشعرون وما يرون . ولم يدعوا شخصيات اسطورية وشياطين أو ملائكة مع حركات القلب ، بل عبروا عما يشعرون به من حركات داخلية في أعماقهم فحصل تقدم نحو الفكر الاليجاني .

وكان الأدب بترار كياً . فقد أخذت قصائد الشاعر الايطالي بترارك وحللت ومترحت ووضعت في صيغ عامة وقلدت . وقد خامر الشعراء مثل بترارك الأعلى وبلاطات الحب في العصر الوسيط ، وأصبح الحب للنقي لامرأة وحيدة مثالية قاعدة تحتذى على نمط لورا بترارك . وكثرت

لونا ، وديليا ، وكاساندر ، وماريا ، وسمت البتراركية حتى الافلاطونية ،
وغدا جمال المرأة صورة عن جمال الاله ، والحب السكي الطاهر للخلق
يحيى حب الخالق ، والشاعر المحب بناس مري مع ما وراء الطبيعة ،
والتأمل موجوداً بين الحالة الشعرية والحالة الصوفية ، والالهام نفحة من الله ،
وللشاعر كليمه ورسوله رسالة إلهية على الأرض . وكانت هذه الكائنات
الحساسة والمتأثرة عديدة ومختلفة . وتتفق افلاطونيتهم مع الشهوانية .
فهم يصفون العري والملاطفات والتمتع والمهيجان السار ويعبرون عن
انطباعاتهم القوية الشهوانية بتعابير لذيذة مفعمة بالحياة والجلاء واللون
وجمال الاسلوب .

لقد كان هؤلاء الادباء فنانيين يهتمون بالاسلوب .

وكان الشعر تصويراً يبحث فيه الشاعر عن اللون والاشراق . وكان
على الشعر أن يغنى أو يرافق بالعود ويلحن ويكون له ايقاع ونغم ،
ويجسم عليه بالاذن . ومع هذا فلم يضاء الاقدمين في هذا المضمار إلا
الايطاليون . أما في البلاد الاخرى فان الكتاب ، الذين برزوا في
اللاتينية ونسجوا على منوال الاقدمين بتفوق ، لم يستطيعوا أن يسيطروا
على مادتهم بلغتهم ، ولم يكن لديهم بعد حس كاف بالشكل . وقلما
يعملون مخططاً لبحثهم بل كانوا يتبعون مزاجهم ويشردون ويسترسلون .
وكانت انطباعاتهم حية وخیالهم فياضاً فلم يستطيعوا ضبط أنفسهم .
ولذا كانت الصور والأوصاف نفوتهم ، حتى أن القصص قتلوا القصص
حسب ذاكرتهم والهامهم . ومن الخير قراءتهم في مقتطفات ومقطوعات .

كان هؤلاء الادباء فرديين وآثارهم مفعمة بالأخبار عن حياة الكتاب
وطباعه . وكانوا في جميع البلدان يتغنون بفضائل لغتهم القومية : مثل

فالدس باللغة الاسبانية ، وسيروني بالايطالية ، ودوبليه بالفرنسية .
وكانوا كلهم يريدون أن تكون لهم قصائد الحماسية مثل لوتريسن في « ايطاليا
الحررة من الغوط » ؛ ولوب « وفيغا في لادريغوننيا » ؛ ورونسار في
« لافرانسياد » ، وسبنسر في « ملكة الجن » .

وكان الباشون يدرسون القوميات القديمة ويصفون بلادهم بحب
وهوى . وكثيراً ما كان الكتاب يقومون بالمقارنات بين بلادهم والبلاد
الأخرى ، وينتهون إلى الضحك والاستمزاء والطعن بجيرانهم ، حتى أن
قطعا مسرحية كانت وحدها آثاراً وطنية مثل « تومانيا » سرفانتس
ودرامات شكسبير التاريخية ، التي يظهر فيها الفرنسيون والايكوسيون
والغاليون جنباء وخونة وحمقى ، وجان دارك بغياً ، والفرنسيون خنازير
يرجفون من زقاء ديكهم الخاص .

واخيراً كانت هذه الآداب قومية يعبر كل منها عن شخصية .
وإذا تذكرنا أن الصفة السائدة لامتنع الصفات الأخرى امكنا القول إن
عاطفة الفن والبحث عن الجمال ولذة الفن ، في الأدب الايطالي ، تفوق
كل شيء ، مثل قصيدة « اورلاندو الشاثر » لأريوستو . وفي المرحلة
الأخيرة من النهضة الايطالية ، أي عندما ذهب الغزو الاجنبي والنفوذ
الاسباني وزاد البحث الاناني عن المنفعة الفردية والتمتع المباشرة ،
فاضت الشهوانية في درامة لوتاسو الريفية « آميتنا » وملحمته « خلاص
القدس » .

في اسبانيا ، سادت عواطف القروسية والمثل الأعلى لحياة الفارس كما
في « آماديس غاليا » ؛ والحب المثالي ، الطاهر ، الحار ، المفجع ،
المفرط كما في « سيلستينا » والروايات العاطفية : سان بدرو ، سجن
الحب . وقد جدت اسبانيا هذا الذوق عند جيرانها .

في فرنسا ، كانت مدارس الشعر كبيرة ، إلا أن الفرنسيين أجادوا خاصة في النثر : في القصص ، والمجاء ، والمذكرات ، والتحليل الخلفي والنفسي : مثل ، رابليه ومارغريت نافر وبرانثوم ومونلوك . وكانت المرحلة الثالثة للنهضة عندهم حرجة كما تبدو في مونتين .

وفي انكلترا ، ساد الشعر الافلاطوني والمسرح المتنوع المليء بالمفاجآت والمغامرات وتفاصيل الحياة اليومية والأفراد الأشداء ، ورواية الاخلاق والطباع مثل « اوفوس » جوهن ليلي ؛ و « آر كاديا » السير فيليب سيدنى التي أدرجت في الموضة لغة مينة وادخلت الشهوانية الجشعة والنظرات النفعية للعاطفة القومية الحادة .

النهضة الفنية . - مرت النهضة الفنية ، كالنهضة الادبية ، بثلاث مراحل : النهضة الأولى ، النهضة الاتباعية ، وأخيراً الافول الذي انتهى بالاسلوب الباروكي .

لقد تفوقت ايطاليا في الفن كما في الادب . وكانت نهضتها الاولى في القرن الخامس عشر ، وبلغت عصرها الاتباعي (الكلاسيكي) في الثلث الأول من القرن السادس عشر ، واليه يرجع الفضل في تثقيف الفنانين الاجانب ان على أرضها أو بمن ترسل من فنانها إلى الخارج لادارة العمل الفني وتوجيهه .

فن هذا العصر علماني يمتزج بالحياة اليومية ، أبدع فيه الفنانون اطار اللذائذ فسمروا جميع الحواس وعودت الأعياد الدائمة الانظار على المنشآت وجوع الاشخاص والألوان فظهرت على أيدي الفنانين قصوراً ومنحوتات ولوحات تصويرية . ودرجت الموضة على الظفر الدنيوي الذي يقلد الظفر الروماني .

كان الفنانون كالصناع يلتفون حول أسانذتهم في أصناف ، ويتلقون ثقافتهم الفنية في « المشاغل » . وأخلاقهم أخلاق عمال فرحين جذلين يتخذون من حياتهم البسيطة وغذائهم ومزاحهم فرصة للابداع الفني .

وكانوا يشتغلون للبلاطات والبورجوازيين الأغنياء . ولذا كانوا على صلة بالإنسانيين . اهتموا بعلم الآثار ، ونسخوا النماذج القديمة وأخذوا عنها ، ودرسوا النظري والمهندس المعمار الروماني فيتروف ، وأقاموا العمود عوضاً عن الدعامة وتوجره بتاج قديم ، والقوس ، على شكل نصف دائرة بدلاً من القوس العقدي . واستعملوا التزيينات من أوراق شوكة اليهود والسعف والبيوض والحلزون ، والألبسة القديمة ، والعري الوثني ، عري الأبطال . وكانوا كالأدباء ، لم يستعبدوا القديم ليصبحوا له ارقاء ، بل كانوا يبحثون في الآثار القديمة عن انطباعاتهم الشخصية ، و « يحافظون خلال اقتباسهم على مفهوم أصيل للفن » .

كان هؤلاء الفنانون فرديين يريدون قبل كل شيء أن يعبروا عن عواطفهم الشخصية . وبعد أن كانوا يحاولون ، حتى ذلك التاريخ ، أن يعبروا أنفسهم في نظام المدرسة التي انتسبوا إليها ، أخذوا يضعون توافيقهم على الآثار الفنية ، وغداً هذا التجديد امراً مألوفاً وأحياناً مدعاة للفخر . ولم يخضعوا للمهندس المعمار بل ان كلا منهم كان يتطلع إلى الاستقلال ، وازداد على هذا النحو عدد التماثيل المنعزلة في الساحات العامة والاضرحة والقصور ، وأصبح التصوير غالباً تصويراً قائماً على مسند ، وطغى هذا للفن الفردي على غيره من الفنون الأخرى .

أخذ هذا الفن طابعاً جديداً وهو الطابع الاتباعي . وهذا الطابع يأتي من رؤية فن جديد ، ومن عاطفة جديدة نحو الشكل الحاصل عصر النهضة (٧)

مستلزمة من وثبة النهضة وتطلعها نحو تحقيق الكمال البشري والتمتع به .
 إن الموضوع الامامي ، في هذا الفن ، هو الانسان ، وفي الانسان
 الجسم البشري الجميل . وهذا الفن وثني ولو عالج موضوعات دينية :
 فقديسوه أبطال ، ومسيحوه ظافرون في الألعاب الأولمبية ، وعذاراه
 لحم ينتظر المداعبة . والجسم البشري الذي يريده عظيم بأبعاده ، كبير
 في حجمه ، ولم تكن الأشجار والأرياف والأبنية التي ترافقه الا متمات
 وتوابع جميلة . ان هدف هذا الفن الشكل ، والكيان الجسماني المؤله
 أو البطلي السامي الكامل . أما العظمة والكرامة البشرية فيظهران في
 الهيئه القوية والهوى العميق وذوق الأبهة . لقد أتاب العصر الاتباعي
 الأجسام العبة وسعة الاشكال والاعناق المستديرة والأوراك العريضة
 والصدور العميقة مناب الاجسام الهزيلة . واستعاض عن الألبسة القصيرة
 والمشدودة بالألبسة القديمة الثقيلة السابعة الساحة الشفافة التي تظهر قسما
 الجسم ؛ وعن الحركات السريعة والتوتر المفرط بالرصانة القديمة والتحفظ
 والرشاقة وفقدان كل جهد ظاهر والنبيل والحظ المرن وراحة الحركات ؛
 وعن الهوى المرسل والطيش المطلق بالرجاحة والحصافة والقياس .

ولم يظهر الحس بجمال الجسم البشري في كل مكان فحسب ، بل ان
 اللذة الشهوانية نفذت إلى البناء فقد امتعّض ، عن الأشكال ذات الزوايا
 والتخاريم الطائشة والحنايا الرشيقة والأعمدة المشوقة ، بالأشكال المستديرة
 التي تروّظ الاحساسات المفرطة ، وبالفواكه العذبة الناضجة ، وبالحمم
 الجميل المكتنز المرتجف باليد : كقوس نصف الدائرة والعمود والقبة والبناء
 المستدير والاكلیل وتزيينات الفواكه والازهار والايقونات والنقوش
 المدورة والحلزونية . وكثرت في كل مكان الأشكال القوية والممتلئة التي
 قدكرنا بتكوير الجسم البشري .

وقلب هذا المفهوم موضوعات علم الصور وقام مقام المسيح المتناول .
المنحني ، المتعب ، المرهق ، نصف آله قديم . وسادت فكرة البطولة
الاغريقية فظهر المسيح بطلاً ظافراً وامبراطوراً مؤلماً . وبدت العذراء
ظافرة تحيط بها الفتيات الجميلات العاريات . وفقدت المسيحية معناها في
هذا الفن ، الذي يبحث عن جمال الجسم البشري وظفر الرجل بقوة
المشعة والخوف من الألم والرافة والاستسلام ، ويتفجر بالكبرياء
واللذة والعظمة .

وهذا الفن إنساني في أسامه ، وإنساني بسيادة العقل البشري والانسجام
في الإبداع . ففيه كان الفنانون يبحثون عن العلاقات ، التي تساعد على
اعطاء انطباع بوجود توافق بين الأثر ومنطقه وحساسيته ، ويحاولون أن
يجدوا قواعد النسب في البناء ، والنسب المثالية للجسم البشري في التصوير ،
وهذا يعني أن الفن أصبح عندهم علماً .

لقد أنشأ الفن الاتباعي أبنية ومنازل ولوحات حسب المنطق البشري .
وفي هذه الآيات الفنية توجد دوماً فكرة غالبية تلحق التفاصيل بالمجموع ،
ونقطة واحدة مركزة يحوم حولها التركيب الفني ، ولا يمكن لجزء
منه أن يتغير دون أن يفسد منظر الكل ، وقد تم ذلك في نهوض
العمران المدني .

وكان هذا الفن يبحث عن النظام والتناظر والضبط ، ويريد أن
يجعل المكان متعلقاً بالإنسان وخاضعاً له . ويرى ذلك في كثرة الخطوط
الأفقية ، وفي المنظر القوي المتين الذي تعطيه الخطوط المنتظمة في النوافذ
والجباة والأعمدة والأقواس والأطناف عند مشاهدة قصور هذا العصر .
ففي أي أثر من آثاره نجد سيطرة الإنسان ، والاهتمام بقوة الإنسان ،
وتمتع الإنسان على الأرض .

وإذا ثبت هذا الفن على شواطئ المتوسط فتحت ظل الغيوم الشمالية ، وخاصة في فرنسا ، فهم ومثل خير تمثيل ، وهيات فيه الآثار الجميلة الاتباعية . أما في البلاد المنخفضة وألمانيا فقد وقفت الواقعة والحال عثرة في طريق الاتباعية . وإذا استثنينا دورير فقد نجح المصورون ، مثل هالوبين ، في تصوير الأشخاص وبروغيل الشيخ في رمم البلاد ، وحضر الابداعيون فيها فن الباروك .

عباقة الفن . - لقد كانت إيطاليا استاذة أوربة في القرن الخامس عشر الذي يسميه الإيطاليون « كواتروشنتو » ويمتاز في تاريخ النهضة الإيطالية بصفات تميزه عن غيره ، أهمها إقباله على العمل وحب اطلاعه العلمي وتحسين وسائله الفنية وأبحاثه العديدة في مختلف النواحي التي يدل عليها تنوع القرائح الفنية وتعدد الآثار . لقد انتاب كل فنان في هذا الدور تياران مختلفان ، أحدهما آخذ بالتناقض وهو تقليد العصر الوسيط ، والآخر عامل في الازدياد والنمو وهو الإقبال على القديم . وقد بلغت هذه النزعة أشدها في القرن السادس عشر : وإذا كان من شيء يمين نقوله إيطاليا للعالم في القرن السادس عشر فهو ما ظهر على أيدي ننانها من بنائين ومصورين ونحاتين . لقد بقيت إيطاليا مهد النهضة الحقيقي وأرضها المدرسية ، واحتفظ فنانونها بتفوق مواهبهم ، وفرضوا هذا التفوق شيئاً فشيئاً على البلاد الأجنبية .

وقد لعبت المدن دورها في هذا العصر ، وكانت مراكز للحياة الفنية . ومن الطبيعي أن يظفر الفن في مدينة روما التي لها من مجدها الغابر وآثارها وحفرياتها وأبنيتها ما يجعلها مدينة فن عظيمة . يضاف إلى ذلك الدور الذي لعبه الباباوات في تشجيع الفن والحث على الانتاج الفني .

وأشهر هؤلاء الباباوات جول الثاني (١٥٠٣ - ١٥١٣) ، فقد كان يحب العظمة في الفنون كما في السياسة . جمع حوله كبار رجال الفن من برامانته البناء (١٤٤٤ - ١٥١٤) ، الذي بنى كنيسة القديس بطرس حسب مخطط على شكل الصليب الاغريقي وحاول أن يوفق بين الأصول القديم في وضع الاعمدة والحاجات الجديدة . وعند موته عقبه رافائيل وأخيراً ميكيل آنجيلو . وكذلك كان الباباليون العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) ابن لوران الفاخر من امرة الميديشي . ففي عهد هذين البابوين كان هم الفنانين تزيين قصر الفاتيكان وبناء كنيسة القديس بطرس ، هذين الاثوين الذين بذل لها رجال الفن أحسن ما عندهم من عبقرية ونبوغ .

ولم تلعب روما وحدها دور تنشيط الفن بل كانت ميلانو تماثلها في دورها على يد لودوفيك لومور وابنه فرنسوا سفورزا . وكذلك البندقية ، فقد اشتهرت بمدرسة التصوير التي دامت حتى نهاية القرن السادس عشر .

وإذا أردنا أن نذكر رجال الفن في إيطاليا عصر النهضة فهم أكثر من أن يعدوا . لذا نقتصر على ذكر من طبقت شهرتهم الآفاق وهم لوفاردو فانتيشي ، ميكيل آنجيلو ، رافائيل ، تيسيان .

لوفاردو فانتيشي (١٤٥٢ - ١٥١٩) - كان لوفاردو ابناً غير شرعي لكاتب عدل في مدينة سان مينيانو التدسكو الصغيرة . ولد عام ١٤٥٢ في قرية فانتيشي الواقعة في أسفل وادي نهر الآرنو ، واليها ينتسب . التحق منذ حداثة بصنف المصورين ، وابدى استاذية عالمية بجامعة في التصوير والنحت والبناء والشعر والموسيقى والفلسفة والعلم ، وظهر وكأنه يحقق بعبقريته العالمية بمفج الانسانية الكاملة التي كان يحلم بها زعيم الأدب الانساني بتوارك ولا يتلمس ظلالها إلا في الماضي الاغريقي - الروماني

لقد صور لؤناردو لوحة « عبادة الرعاة » المحفوظة في متحف الاوفيس في فلورنسا ، و « عذراء الصخور » في متحف اللوفر في باريس ثم استدعاه الدوق لودوفيك لومور عام ١٤٨٣ من فلورنسا إلى ميلانو . وفيها صنع تمثال ابنه فرنسوا سفورزا ، وهو ممتط صهوة الجواد ، وقد تهدم هذا التمثال في حروب إيطاليا . ولكن لؤناردو كان يتابع في الوقت ذاته دراسة العلوم المختلفة من رياضيات وفلك وفيزياء وطب ونبات وجيولوجيا . وقد بدأ منذ عام ١٤٨٩ ، كما يتبين ذلك من مخطوطاته التي نالت من عام ١٤٨٩ إلى ١٥١٨ ، يعين لنفسه طرق العلوم وغاياتها المختلفة « ويفسر قوانين الطبيعة ، ويظهرها ككائنات ، ويطبق الطرق التجريبية بدقة واضحة وفهم دقيق ، ويتنبأ بمستقبلها وقوتها . ولكن لؤناردو بقي مرأى دون أن يكون له تأثير يذكر على معاصريه .

آثار لؤناردو فانتشي . - تظهر قوة التفكير في إيطاليا في آخر القرن الخامس عشر وأول القرن السادس عشر بصورة جليلة في أثر لؤناردو فانتشي العلمي . ولا شك في أن لؤناردو لم يؤلف أي كتاب ولم ينشر شيئاً ، ولم يكتب إلا لنفسه . وبينما كان يعمل لرجل فن ، كان يقضي فراغه بالكتابة ، وقد بدأ بها عام ١٤٨٩ وله من العمر ٣٨ سنة . ويبدو أنه كان يعيش منذ ١٤٨٣ في ميلانو حيث صور أعظم أثر له في التصوير وهو « العشاء الرباني » في كنيسة القديسة مريم ، الذي انهاء عام ١٤٨٧ . وكان يكتب بلا انقطاع ويجمع في دفاتره نتائج تفكيره ودراسته . وكتب أيضاً في فلورنسا من ١٥٠٠ - ١٥٠٢ بينما كان يصور « القديسة آنا » المحفوظة في متحف اللوفر « وكذا الجوكندا » وكتب أثناء اقامته القصيرة في روما عام ١٥٠٦ « وفي ميلانو بين ١٥٠٦ و ١٥١٣ . ثم عاد إلى روما عام ١٥١٣ وشغلته فيها تأملاته

كعالم وفيلسوف « حتى أن الباباليون العاشر يئس منه لأنه لم يعمل شيئاً في تزيين كنيسة الفاتيكان . وبعد واقعة مارينيان ، عام ١٥١٥ ، أخذه الملك فرنسوا الاول معه إلى فرنسا ، بعد أن رأى عبقريته الجامعة ، وأحله في قصر كلو بالقرب من آمبواز . وهنا صور « يوحنا المعمدان » . وفي العام ١٥١٨ انقطع عن الكتابة ومات في ٢ أيار ١٥١٩ .

وإذا نظرنا إلى صورته القليلة وكتلة كتاباته الضخمة استطعنا أن نستنتج . على الرغم من عبقريته الفائقة التي تظهر في فرسكة ميلانو ولوحات اللوفر ، أن لواناردو لم يقف للفن إلا شطراً صغيراً من نشاطه . فقد كان قبل كل شيء مفكراً وعالمًا عبقرياً يتخذ الفن وسيلة لايضاح علمه وأبحاثه ، وأهمية شريفة يتلهم بها في أوقات فراغه .

ميكيل آنجيلو (١٤٧٥ - ١٥٦٤) . ولد ميكيل آنجيلو بويوناروتي في ٦ آذار ١٤٧٥ في وادي نهر الآرنو الأعلى بالقرب من فلورنسا ، ونشأ في أسرة عربية كان يفخر بنبيلها . عاش في البدء في فلورنسا ، في حمص لوران الفاخر ، وتعلم التصوير في مشغل غيولاندايو عندما كان يلتهج أجمل أثر له وهو تزيين خورس كنيسة القديسة ماريا الجديدة (١٤٨٥ - ١٥٩٠) . وفي الوقت نفسه كان ميكيل آنجيلو يدرس صور مزاكتشيو على جدران كنيسة الكرملين . وقد علمته هذه الدراسة كيف يجمل ويتمم التعليم الذي يتلقاه في مشغل غيولاندايو . وبينما كان يدرس التصوير ، كان يتعلم النحت للفلورنسي المتعارف عليه في القرن الخامس عشر وهو التقليد الواقعي الذي عرف به دوناتللو . درس ميكيل آنجيلو الرخام القديم المحفوظ في قصر آل الميديتشي . وهذه الدراسة وجهته نحو الاشكال القديمة والجمال القديم . وكان ميكيل آنجيلو يجب الآداب والعلوم ، إلا أن حبه لهذه الاخيرة كان أقل من

حب لؤناردو فانتشى الذي كان عبقرية علمية قبل كل شيء . كان ميكيل آنجلو ، على عكس لؤناردو ، شاعراً ، كلفاً بالفكر الانساني . وكان على صلة بالاساقفة الانسانيين مثل مارسيل فيتشينو ، وبيك دولاميواندول ، وأنج بوليسين ، ومدرسة فلورنسا الافلاطونية . وقد أخذ العبادة الافلاطونية للجمال الصرف عن هذه المدرسة ، وتأثر بالبشرين ، وأقبل على أدب دانتي والكتاب المقدس وظل لها أميناً مخلصاً ،

وبعد هذه التربية الاولى لعبقريته ، ذهب ميكيل آنجلو إلى روما عام ١٤٨٦ وعرف فيها بأشياء قديمة وخاصة تمثال أبولون بيليفدير الذي عثر عليه حديثاً بعد الحفر في الحدائق البابوية . وهذا الأثر كشف له عن الجمال القديم بأشكاله الهائلة والمنسجمة . ثم عاد إلى فلورنسا وبقي فيها بضع سنين .

أما آثاره في النحت وهو في فلورنسا فكان لها طابع مزدوج : نلاحظ فيها البحث عن الجمال الوثني الصرف كما في تمثال « إله الحب النائم » و « باخوس التمل » ؛ وكذلك الجهد في التعبير عن العاطفة الدينية المسيحية التي تظهر « الشفقة » في تمثال العذراء مع المسيح الميت في كنيسة القديس بطرس في روما و « داود العظيم » المنحوت من الرخام الذي نصب في فلورنسا عام ١٥٠٤ أمام قصر الامارة .

وفي العام ١٥٠٥ استدعاه البابا جول الثاني إلى روما وظل حتى وفاته ١٥٦٤ يشتغل لحساب الباباوات . وفي روما يبدأ عهد جديد في تاريخ آثاره وعبقريته . وكان أول عهده فيها مليئاً بالجهد الواسع ووضع التصميمات وتحقيقها في النحت . فمن ذلك أنه باشر بنحت ضريح جول الثاني إلا أن هذا الاثر لم يتم ، وذلك لأن البابا جول الثاني كان غريب

الطباع متقلبا . فقد أجبر ميكيل آنجيلو على تصوير جدران القابلة الستينية وسقفها . ولبت يعمل في السقف مدة أربع سنوات من (١٥٠٨ - ١٥١٢) . وأصبح ميكيل آنجيلو ، وهو في روما ، أقوى مصور في إيطاليا . إلا أنه عاد إلى فنه الاول ، وهو فن النحت ، فنحت تمثال « موسى والأسيرين » . ثم اشتغل لحساب كليان السابع ضريح لوران وجوليان الميديتشي في فلورنسا . وطلب اليه البابا بولس الثالث أن يتم تزيين القابلة الستينية فصور على الجدار الداخلي للقبة الفرسة الواسعة التي موضوعها « يوم الحساب » وبقي يشتغل فيها من ١٥٣٦ - ١٥٤١ . ثم أتم بناء كنيسة القديس بطرس ، التي وضع مخططها الاول المهندس المعمار برامانته ، وبني فوقها القبة العظيمة التي يبلغ عرضها ٤٢ م وارتفاعها ١٢٣ م .

كان ميكيل آنجيلو نحائاً قبل كل شيء ، نحائاً بنحت الرخام . وإذا فكر ، فكر في الرخام ، وخاصة في رخام مقلع كرايه ، الذي رفع فيه عبقرية النحت إلى الدرجة العليا . اما فنه فلا يعرف في الطبيعة إلا الوجه البشري والعري وتمثيل الثياب . وقد مرت به أدوار هجر فيها النحت وعكف على التصوير ، إلا أنه بقي نحائاً في فكره وعبقريته ، يخرج نماذجه ويلقي بها بارزة في الهواء دون يحرقها من كل شيء تلتصق به .

أما مصادر فنه فمستوحاة عن القديم والعصر الوسيط . درس ميكيل آنجيلو آثار الاقدمين الرومانيين وتأثر بهم ونسخ عنهم وقلدهم . وإذا كان هم الفن القديم البحث عن الجمال الطبيعي فالنماذج ، التي أبدعها ميكيل آنجيلو ، تمثل فيها القوة والرشاقة . وأشخاصه رياضيون ، مقتولو السواعد ، ضحايا العضلات .

وورث ميكيل آنجلو عن العصر الوسيط المسيحي اهتمامه بالبحث عن التعبير المعنوي والاخلاقي .

وجمع ميكيل آنجلو بين هذين الفنين ، بين عبادة الشكل الجميل وقوة الجسم المرن ، وبين القلق العاطفي والهيجان الديني الذي يكبر الالم ويؤلمه ، وعبر عن فنه بسياه الوجه ويتنوع المواقف وأوضاع الجسم وحركاته .

ففى ميكيل آنجلو حياة مريرة اليمة . وكان يمازج علاقاته مع حماه الباباوات ومع تلاميذه المعجبين به ، كثير من النزاع والحسد والدسائس . ومرت به ظروف كان يشعر فيها بالحية والياس والمخاطط المعنويات ، وأحوال كان يتلىء فيها بالحماسة والشجاعة فيضع الخطط الكبرى والمشاريع العظيمة لدرجة تفوق قوة البشر . وكثيراً ما يتألم عندما يرى التباين بين ما حلم به وماحققه . انه كان ينظر دوماً إلى أعلى .

وعبقرية ميكيل آنجلو عبقرية فنان يحب العزلة ويكره البشر وينفر من المجتمع . ولكن يجب الا نبحث عن تفسير آثاره في حياته اليومية المريرة ، فما اشخاصه الجبابرة الغارقة في وهاد اليأس أو المنشجنة من شدة الالم أو الغضب الا تعبير للعواطف المثالية العلوبة التي كان يتطلع اليها ميكيل آنجلو .

رافائيل (١٤٨٣ - ١٥٢٠) - ولد رافائيل في ٦ آب ١٤٨٣ في أرينو . وكان أبوه جيوفاني سانشي مصوراً ضئيل العبقرية . أما هو فقد تعلم التصوير على يد مصور من فيروزه اسمه فانوكتشي وامم بلده غلب عليه فعرف بالفيروزي أو الفيروجي . وتدل آثاره الاولى على ما انطوت عليه نفس التلميذ من رقة وعذوبة . كما تدل على تقليد وتكرار لآثار استاذة . درس ، في فلورنسا من ١٥٠٤ - ١٥٠٨ ، مازاكتشي

وغير لاندايو ودوناتلو وغيرتي . وفي العام ١٥٠٨ ، أي عندما كان في الخامسة والعشرين من عمره ، استدعاه البابا جول الثاني إلى روما وعهد إليه بتزيين قاعات الفاتيكان . وقد استطاع بسهولة مدهشة أن يصور في ستة أشهر فريسكتين تلان على ما كان عليه من نبوغ وعبقريّة : الأولى « مدرسة أثينة » وقُدل على خلاصة تاريخ الفلسفة . والثانية « نقاش السر المقدس » أو « علم اللاهوت » التي تلخص تاريخ الكنيسة وتُناقى نجم رافائيل بعد ذلك وبسم له الحظ وصار يلقب بـ « الالهّي » ، وغداً وزيراً أعلى للفنون الجميلة في بلاط البابا ، وكثر عليه الطلب ، وأقبل عليه التلاميذ حتى لم يعد باستطاعته انجاز ما يطلب منه . وكثيراً ما كان يعهد إلى تلاميذه بإتمام ما بدأ من آثار .

واشتهر أيضاً بفرسكاته الكبرى مثل « جبل بارناس » و « نجاة القديس بطرس » و « تجلي الرب » التي لم يتممها بنفسه ، نظراً لوفاته ، بل أمّتها من بعده تلميذه جول رومان . ويضاف إليها لوحات عديدة ذات موضوعات مختلفة ومشاهد دينية أو ميثولوجية .

ومات رافائيل عام ١٥٢٠ وهو في أوج مجده على أثر حمى شديدة دأمته ولم تمهله كثيراً .

يشغل رافائيل مكاناً ممتازاً في تاريخ الفن . وهذه المكانة التي يحتلها تتضح بالزمن الذي عاش فيه الفنان وبطبيعة عبقريته . فقد تفتحت عبقريته عندما بلغت النهضة درجة النضج ، فكاث رافائيل أكثر تمثيلاً لعصره . وفي آثاره تشاهد ثمرة ثقافة القرن الخامس عشر . فقد استطاع بسهولة عظيمة أن يمثل علم أسلافه ومعاصريه ، حتى أنه عرف بشدة مرونته وقابليته للتأثر بسرعة . ولم يكتف بأن يكون تلميذاً مقلداً . بل أنه استفاد من نتائج متقدميه وأظهر آثاره بأبداع أصيل . وبالرغم

من حياته القصيرة جداً فقد كانت آثاره تدل على حذاقته الفنية وتكامله المستمر . لقد كان رافائيل يتبدل ويتطور من سنة لأخرى . وترك أثراً عظيماً ، ومات ومعين عبقريته لم يستنفذ جميع إمكانياته .

كان جهد رافائيل يوفق بين العالم القديم والمسيحية وان كان في مره يفضل بهاء الحكمة الاغريقية وانسجامها على جلال الحكمة المسيحية المهيبة . ولذا فانا نرى في آثاره الفنية تأليفاً منسجماً لجميع نزعات عصر النهضة ، هذا التأليف الذي تحدوه الرغبة المستمرة في التحسين والتكامل . ولعل أكثر ما يستهوي المتأمل هو هذا الانطباع الهادئ والصفاء المطمئن والعدوبة والسعادة التي نلمسها في روائعه . ورافائيل ، على عكس الواقعيين ، الذين يعملون في اظهار نماذجهم كما هي في الطبيعة ، كان مصدراً مثالياً يزين صوره طبقاً للفكرة التي في رأسه . . ومع هذا لم يعرف كيف ينظم اشخاصه في كل منطقي منسجم ويفسح المجال وراءهم . ولذا ففنه ينقصه عمق التفكير ، إلا أنه يدل دلالة واضحة على رقة الجمال وعدوبة العاطفة وصفاء الحواشي .

تيسيان (١٤٧٧ - ١٥٧٦) . - إذا كان فنانو روما وفلورنسا يتعمسون بجمال الشكل فان فنانى البندقية يتأثرون بتلاعب النور وانسجام الألوان . ولذا فهم مصورون وملونون ، وحبهم للون حدا بهم إلى الاهتمام بالمناظر . وأصالة البندقية تأتي عن اهتمامها بالتصوير . وأشهر أساتذتها تيسيان الذي كان متعلقاً بحكومة البندقية . جاء إلى روما عام ١٥٤٦ ، بعد أن استدعاه البابا بولس الثالث ، وفكر فيها بمنافسة ميكيل أنجيلو وكان يختلف عنه تماماً . وفي روما صور البابا بولس الثالث وبيير فارنزى واوكتاف فارنزى . ثم قام بزيارة إلى فلورنسا . وفي مانتو صور إلى آل غونزاغ لوحة « المسيح وحجاج ممواس » المحفوظة في متحف اللوفر .

والتحق بشارلكان في اوغسبورغ وأصبح له مصوراً . صور الامبراطور وهو على الحصان تحت سماء غائمة ، ثم عاد إلى البندقية وبقي محافظاً على ولائه لآل هابسبورغ حتى أن فيليب الثاني شمله بعطفه كوالده شارلكان وبقي في البندقية يعمل حتى وفاته .

كان تيسيان عبقرية خصة ، طرق في تصويره جميع الانواع ومختلف الموضوعات . وآثاره الفنية كثيرة جداً . اهتم منذ حداثة سنه برسم المناظر وبقي محتفظاً بذكرياته لجمال الالب في كادور التي تأملها وتمتع بمنظرها في طفولته . ولذا يلمس المتأمل في آثار تيسيان شعراً ينم عن جمال الموقع ، الذي أخذ منه المنظر ، وحقيقة النور .

واهتم تيسيان بتصوير الاشخاص . وقيمة فنه في هذه الناحية تظهر في نشاط الحياة الطبيعية التي يمنحها لاشخاصه . فقد كان مصوراً لكبار الشخصيات في عصره من امراء وباباوات واباطرة .

ولقد تيسيان ببيوته وباصرته إلى روح الشعر الوثني وعبادة الجمال وحب الطبيعة والحياة فصور الميتولوجيا وابدع فيها وبعث ديانة فينوس وجددها .

وكان في الوقت نفسه مصوراً مسيحياً استوحى عن الانجيل مشاهد وتركيبه . ولم يمنح مصور مثله ما منح وجه العذراء من جمال وحنان . وهو يعتبر من أشد العبقرات تمثيلاً لعصره ، عصر النهضة ، كما يعد ، مع فيلاسكينز المصور الاسباني ، (١٥٩٩ - ١٦٦٠) أكبر مصور ملون في جميع العصور . ولكن يجب الا نبحث في أثره العذب الهادي المنير عن الهيجان العميق المؤلم الذي نلمسه في آثار ميكيل آنجيلو

الفن في آخر القرون السادس عشر - فقد الفن الايطالي في أواخر

القرن السادس عشر قوة الابداعية . ولا يعني هذا أن إيطاليا فقدت رجال الفن ، بل مازلت أرضاً خصبة لكثير من الفنانين الموهوبين . ولكن أكثرهم أتموا ثقافتهم الفنية في الاكاديميات أي المدارس الفنية التي كانت تستوحي آثارها الفنية من الأساتذة ، الذين مر ذكرهم ، ومن كان على شاكرتهم . ولذا كان طابع الانتاج مدرسياً ذا جمال تقليدي لا يحرك العواطف ، ولا يهيج النفوس ، وتنقصه روح الابداع الحقيقي التي تميز رجل الفن ، ويعوزه الاخلاص الذي يعبر عن فكرة . ويسمى هذا النوع من الفن بالاكاديمي المدرسي .

غير أن البندقية شذت عن هذه القاعدة وبقيت وحاءة حتى نهاية القرن السادس عشر وذلك بفضل اساتذة الفن فيها من أمثال : تلتووة (١٥١٢ - ١٥٩٤) وفيرونز (١٥٢٨ - ١٥٨٨) .

البحوث الموسيقية الجديدة . - لقد تمت في عصر النهضة الأنواع الموسيقية التي أحدثت في العصر الوسيط ، ولم تظهر التأثيرات الجديدة إلا ببطء . وعلى هذا النحو ارتفع الموسيقى الايطالي باليسترينا (١٥٢٣ - ١٥٩٤) بالحانة المتعددة إلى درجة الكمال العظيم في خدمة الالهام الديني ؛ وكذلك امم الموسيقى الاسباني فينتوريا (١٥٤٠ - ١٦٠٨) .

وهذا النوع من الموسيقى المتعددة الاصوات في الاغان وجه الموسيقى الدنيوية فظهر فيها الاهتمام متابعة التعبير الشعري كما هي الحال في « المادريغال » . وفي هذا المعنى اشتهر في اوربة المؤلف الموسيقي الفرنسي كليمان جانكان في « زفرقة العصافير » و « واقعة مارينيان » ، أما الغناء الديني فهو من الهام لوثري وفيه يبحث عن الصفاء البدائي .

وقد اهتم الشاعر الفرنسي كليمان ماروب د مزامير ، كالفن الغنية بالتعبير الأدبي .

وبصورة عامة لقد تبوأ الموسيقى مكانها في الحياة الفنية في هذا العصر اكثر من أي وقت مضى . حتى أن كثيراً من المصورين والمهندسين المعاريين كانوا يتخذونها نموذجاً لكل شكل من أشكال الجمال . وأخذت الآلات الحديثة ، الأرغن والعود ذي الخمسة أوتار والكمان ، تغني الموسيقى بثروات فنية جديدة .

النهضة العلمية . - النهضة العلمية هي اكتشاف الطبيعة والانسان وترجع مصادرها إلى ما يأتي :

١ - حب الاطلاع على العالم الأرضي ، وقد أوحى به فردية العصر .
٢ - النشر وطبع المؤلفات العلمية القديمة . وقد جهزت هذه المؤلفات علماء العصر بالمعارف والمعلومات والأخبار العلمية الضرورية لانطلاق علمي جديد .

٣ - بحث وجهة نظر الجمال التي كانت عند القدماء . وقد أدى ذلك إلى انقاذ جمال مفاهيم فيثاغوروس وأرسطو .

أما من حيث وجهة النظر العلمية فقد لعب الاهتمام بالمنفعة دوراً واقعياً ، ولكن هذا الدور كان ثانوياً لا أساسياً . ولقد كانت لاطالياا الأولية في ميدان العلم كما كانت لها الأولية في الحركة الانسانية والآداب والفنون . وكان أهم الاكتشافات العلمية من عمل الايطاليين أو طلاب الجامعات الايطالية .

كانت الحياة العلمية في العصر الوسيط على درجة لا يمكن اهمالها ، ولكن الكشف العلمية فيها كانت نادرة . وكان المشتغلون بالعلم ، أمام حادث من حوات الطبيعة ، يرجعون إلى ارسطو عوضاً عن أن يلاحظوا

بأنفسهم . ولا نكران في أن أوربه شهدت ، منذ النصف الاول للقرن الحادي عشر ، نهضة علمية بلغت أوجها ، في القرن الثالث عشر ، تحت تأثير انتشار المعارف الاغريقية والعربية في الغرب الاوربي . وهذه النهضة ، وإن كانت تبدو نقطة انطلاق وبداية لظهور الفكر العلمي الحقيقي ، إلا أنها لم تكن بمكنه لولا الاتصال الوثيق بعين الحياة الثقافية الأمامي وتوئيد بذلك التراث الاغريقي ، الذي نقله العلماء العرب وصححوه وأضافوا إليه كثيراً من كشوفهم وأبحاثهم وتجاربهم . ولكن النهضة العلمية الحقيقية ، التي شهدتها أوربة بتقدم المنهج التجريبي ، لم تبدأ قبل القرن السابع عشر .

وهذا التقدم الذي نحا منهج الفكر العلمي الايجائي ما كان ليتناول سوى نفر محدود من العلماء . أما الكثرة الكثيرة من الناس فقد ظلت تؤخذ بالضللال والاباطيل وتعتقد بالحوارق وتأثير النجوم والقبة والعرافة والسحر وعمل الشيطان والمغيبات وما إلى ذلك من جنون جماعي ناشيء عن فقدان الفيزياء .

وكان الايضاح العلمي يقتضي ، أمام الاشياء الموضوعة ، أن يبحث عن الجنس أو النوع الذي تنسب إليه ، وأن يعرف ما إذا كان الشيء الموضوع عينياً . وفي الحالة التي لا يقع فيها تحت حواسنا أن يعرف ما إذا كان ممكناً أو مستحيلًا ، وما هو أسامي فيه أو عرضي ، وما هو مستديم أو زائل ، علته ومعلوله ، وما هي غايته ، أي لماذا وجد ، وما هو جوهره ومادته ، ما هو فيه بالفعل والقوة وبالضرورة الخ . وعندما يعرف النموذج الخالد للشيء يوجد الايضاح : ليكون الحديد والمغناطيس ، ففي وجود المغناطيس يكتسب جوهر الحديد خاصية غيبية وهي الخاصة المغناطيسية ، وطبيعة هذه الخاصة أن تجذب الحديد نحو المغناطيس . إذن

فالحاصة المغناطيسية علة خاصة وقصوى للحوادث الملاحظة . وهكذا نصل إلى العلم ابتداءً من ملاحظة الواقع .

وهذه المنظومة المنطقية لمفاهيم الفيزياء تعتمد على فكرة النهاية أي أن العالم منته في المكان ، وهو يتألف بصورة تبقي الأجناس فيها ثابتة مع تبدل الافراد . وهذا العدد الثابت للأجناس المؤلفة من أنواع ومن اختلافات معينة العدد يعني أن الكون منته ومغلق ومحدود . وقد ساد هذا النموذج من الايضاح في القرن السادس عشر في الكليات الجامعية ودام حتى القرن السابع عشر .

وإذا لم يكن ثمة سوى حوادث تحدث فايضاح الحادث لا يمكن أن يكون إلا بصلته بحوادث أخرى معينة . وقد نشأت فكرة العلم التجريبي في القرن الرابع عشر ، عندما أبدى الانكليزي غليوم أو كام بأنه عندما نجد أن حادثاً من الحوادث لا يمكن أن يحدث دون حدوث حادث معين آخر ، فإن هذا الحادث الثاني يمكن أن يسمى علة للأول : فافا وضع الجليد في الشمس أو في النار ، أو في الفرن ، أو بتماس مع اليدين ، لوجد أن الانصهار لا يمكن أن يحدث عن النور أو اللون أو المادة بل عن الحرارة وهي الحادث الذي يرافق الانصهار دوماً . ولكن العلة في هذه الحالة تكون علاقة حادث بسيطة دون أي تأثير فيزي ، أي ميكانيكية بسيطة لاتعلمنا شيئاً عن الطبيعة الخاصة بالاشياء وهدفها ، وفائدة هذا الايضاح هي أنه أكثر إيجابية من الوجهة العلمية ، وهذا ما لم يفعله الايضاح الواقعي .

وإذا وجد الاوكاميوت الباريسيون في القرن الرابع عشر صورة أولية لعلم التشريح والفيزياء الحديثة فإن حرب المائة عام وشقاق الكنيسة

عصر النهضة (٨)

الأكبر (الحيدة الكبرى) هدماً جهدهم ، وضاع القرن الخامس عشر في منطق ، صوري بيزنطي . وفي آخر القرن أفسدت فكرة العلم التجريبي قوة الايضاح الارسطاطاليسي للعالم دون أن تعوضه بايضاح آخر . ومن هنا ظهر اضطراب الافكار وعدم يقينها .

مصادر النهضة العلمية . - لقد ثابر المجهود العلمي الذي بدىء به في العصر الوسيط على سيره المعتاد ، ولكن حركة الانسانية امدته باندفاع جديد . وكان جميع علماء النهضة انسانيين حتى العاملين منهم كالجراح امبروازبارية . فقد عرف هذا الاخير العلم القديم ، عن طريق الترجمة على الاقل ، واستشهد بـ جالينوس ٥٤٣ مرة وهيبو قراط ٤٢٦ مرة . وجمعت مؤلفات القدماء ، مثل فيزياء ارسطو الذي طبع عام ١٤٩٥ ، وعلم حركات الكواكب لبطليموس (١٤٠٨) ، وكتاب بلين في التاريخ الطبيعى ، وكتاب تيوفراست في علم النبات (١٤٦٩) ، وطب جالينوس وهيبو قراط (١٥٢٦) ، وفيزياء ارخميدس (١٥٤٤) ، العلماء بكتلة من المواد كانت تنقصهم ، وخاصة بوجهات نظر جديدة فيثاغورية وافلاطونية وجمالية وهندسية : وذلك بأن يوصف الكون بتعابير العلاقات الرياضية ؛ فاذا وجدت نظريتان متعادلتان هندسياً فاكثرتا انسجاماً وتناظراً وجمالاً هي الاصح . وهكذا كانت النهضة العلمية ، كالانسانية ، علم جمال اقباعى (كلاسيكي) .

غير أن اكتشاف الكون يتطلب روح الملاحظة . وقد أتت هذه الاخيرة عن الطب . وحاول هذا العلم عبثاً أن يتقيد بطب جالينوس . فقد بدأ الاطباء بملاحظة المريض بانتباه . وكانوا يعرفون النظر والوصف وإيجاد العلاقات بين الأشياء التي رأوها . وساعدهم على ذلك أن القرن السادس عشر كان عصر تنقل للاساطيل والجيوش ، عصر الأوبئة الناشئة

عن أمراض لم يعرفها القدماء . ولما لم يقل هؤلاء شيئاً ، وجبت الملاحظة وإيجاد شيء ضدها . وتبين أن الأطباء ملاحظون صالحوون وانهم عقول حرة وجريئة . وكان على من يريد التعمق في العلوم ، بعد كلية الفنون ، أن يذهب إلى كلية الطب . وكان العلماء من كوبرنيك الفلكي ، وكاردان الرياضي ، واغريبا الجيولوجي ، وباراسيلس الكيماوي وغيسنر وروندوليت وغاليليه كلهم أطباء .

هذا ويمكننا أن نتصور سير العلم كما يلي : تصور تحققه الملاحظات ووصف الظواهر . ومن هذه يرتقي العقل البشري إلى الحركات الواقعية ، إلى الميكانيكية الحفية ، فيجد قوانين هذه الحركات ، ومن القوانين يرتفع إلى المبدأ الذي يوضحها . على أنه من الممكن أن تقطع هذه المراحل المختلفة دون أن يكون هنالك اكتشاف للعلاقات الرياضية : أي ان العلم كيفي بصورة محضة . وهذا العلم لا يكون علماً حقاً إلا عندما تفسر الميكانيكية والقوانين والمبدأ بعلاقات رياضية ، لان هذه العلاقات وحدها تساعد على الايضاح الدقيق والتنبؤ المحكم . وهكذا أحيى الفكر الرياضي العلوم الفلكية والفيزيائية في القرن السادس عشر .

علم الفلك . - كانت أعمال الفلكي كوبرنيك نهضة للفكر العلمي القديم ، ولذا تعتبر ثورة حديثة . فقد قبل العرف العام بالبدية المباشرة القائلة بثبات الارض ودوران الشمس والكواكب حولها . وكفل تعليم العلماء والفلاسفة والكنيسة بقاء هذه البدية . ومن هنا نرى دجراً الفكر الكوبرنيكي ، التي لاتصدق وتنزع الارض من أساسها وللقمي بها في السماء ، .

ولد كوبرنيك في ثورن في بوميرانيا في ١٩ شباط ١٤٧٣ وكان أبوه من كراكوفيا واه من ثورن .

درس كوبرنيك في جامعة كراكوفيا ، ومن ١٤٧٧ إلى ١٥٠٧ حتى الثانية والثلاثين من عمره ، في الجامعات الايطالية في بولون وبادوا وفيرونا ودرس الحقوق والطب وافلاطون . وفي بولون درس الفلك ، وعمل كاهن قانونياً في كاتدرائية فراونبورغ . وكان يقضي اوقات فراغه في الفلك . وفي ١٥٤٣ أي سنة وفاته نشر كتابه « دوران الافلاك السجوية » وأهداه إلى البابا بولس الثالث .

ولكن ماهي القوانين الهندسية التي تسود حركات الكواكب السيارة ونسمع بايضاح الحركات الظاهرية ، التي لوحظت في القديم وتنبى بكيفية حركة الكواكب في المستقبل . لقد وجدت منظومتان : الاولى منظومة اودكس تلميذ افلاطون وهي أن السيارات معلقة بكرات وحيدة المركز ، وتتحرك بحركات منتظمة ، ولها مركز واحد وهو الارض . والثانية منظومة بطليموس وهي أن الارض مركز الكون ، أن كرات السيارات تنتخب مراكزها في السماء انتخاباً مطلقاً .

أما كوبرنيك فكان يفهم الشكل الهندسي ، ويطبق على الكون وجهة نظر الجمال ، ويقول أن التكوير هندسياً هو الشكل الاكمل ، وجميع الاجسام تبحث عنه . اذن فالارض مدورة . والتكوير يؤدي بصورة طبيعية إلى الحركة والحركة الدائرية اكمل حركة . اذن فللارض حركة دائرية كسائر الكواكب .

وكان يشجع كوبرنيك في نظراته تلك النظريات المسبقة لحركات الارض ، التي وجدها عند القدماء مثل نيسيتاس وفيلولوس وهيراكليت بونت . وبعد أن تأمل وحسب كل حياته انتهى إلى منظومته الشهيرة وهي أن الكون منته ، محدود ، وأن الشمس في المركز منيرة وحولها الافلاك صلبة شفافة تحمل السيارات والارض . وهذه الافلاك كروية .

وتدور حسب شكلها لأنها مدورة . وحركة الكواكب لها مركز واحد وهو مركز حركات الأرض . وهكذا أوجد كوبرنيك هندسة منيرة ، كونية ، ضوئية ، حقيقية بالنسبة إليه ، وتوضح حركات السماء ، وذلك لأنها تمثل رياضي رشيق ومنسجم لحركات الكواكب السيارة ، ولأنها أجل من غيرها .

لاقى كتاب كوبرنيك ترحيباً ، وساعدت منظومته على حساب جداول عديدة صحيحة ، كالجداول المؤسسة على فرضية مركزية الأرض ، بل وكاملة . ولم يحدث بادئ بدء أثراً لثورة عندما أهداه إلى البابا بولس الثالث حتى أن « الراعي » اللوثري اوزياندر ، صديق كوبرنيك ، قدمه مقدمة بين فيها منظومة كوبرنيك كفرضية بسيطة تساعد على الحسابات . هي الحال في منظومة بطليموس . غير أن كوبرنيك كان مراقباً ضعيف الملاحظة ، ضعيف النقد ، فقد استخدم الملاحظات التي سبقته دون أن يضيف لها أو يحققها . ولكن « الراعي » اللوثري ميلانكتون عرف أهمية هذه الاكتشافات وكافحها في كتابه « الفيزياء » عام ١٥٥٢ . وبالتدريج رأى الفلكيون خصب مركزية الشمس ، وعرفوا أن كوبرنيك ضرب فرضيات مركزية الأرض ومركزية الانسان الضربة القاضية ، وأنه جرح مذهب ارسطو فأدماه من حيث أراد انقاذه ، وأث أثرة يسجل لإنهار عالم وولادة عالم جديد ، وإن الانسان ليس مركز الكون ، وإن الكون لا يدور حوله ، وإن النتائج الميتافيزيائية والدينية خرجت منه مع عداوة اللوثريين والكاثوليكين واعدام غاليليه وأثر ياسكال ؛ وكذا النتائج العلمية مع قوانين كبلر ، ومبدأ نيوتن وفرضية لابلاس في التكوين .

وحوالي آخر القرن كان جيوردانو برونو (١٥٤٠ - ١٦٠٠) يرى بأن النجوم شموس منشورة في الفضاء ، وان كل واحد منها مركز لمنظومة سيارات كمنطومتنا ، وان الشيء الوحيد الخالد في العالم الدائم التحول هو الطاقة الخالقة الكامنة في كل شيء . ولكن هذا الرأي في حالة الملاحظات والحسابات ليس سوى مجرد قنبؤ وليس علماً .

غير أن جداول السيارات عند كوبرنيك لاتعطي تمثيلاً صحيحاً لحركات السيارات الحقيقية ، ولذا وجد من الضروري القيام بملاحظات أصولية منظمة . وكان ذلك من عمل تيكبراهيه (١٥٤٦ - ١٦٠١) وهو شريف دانيمركي اشتغل في المرصد الملكي الدانيمركي في اورانديورغ (١٥٩٦ - ١٥٩٧) . وفي المرصد الامبراطوري في براغ ، ونشر فهوساً للنجوم عام ١٦٠٢ . ولم يستطع أن يوسع النظرية الكوكبية العددية على أساس النتائج التي توصل اليها فعهد بهذا العمل ، وهو على فرش الموت ، إلى كبلر .

ومع هذا فان التقويم الجولياني المستعمل كان مؤسماً على سنة شمسية أطول ب ١١ دقيقة و ١٤ ثانية . وقد وجد أن هذا الحساب في ١٢٨ عاماً سبق بيوم كامل السنة الشمسية الواقعية ، وان عيد الفصح ، الذي وقع في ختام مجمع نيقية واحتفل به في أول أحد بعد بدر الربيع كان يتعد عنه دون انقطاع . غير أن « مجمع ترانت » عهد إلى الكرسي البابوي أمر الاصلاح ، ونشر غريغوريوس الثالث عشر الاصلاح في عام ١٥٨٢ ، ثم اضيف له عشرة أيام فأصبح يوم ٥ تشرين الاول ١٥٨٢ يوم ١٥ تشرين الاول . ثم عمل جدول جديد واتفق في ذلك التاريخ الكنسي مع التاريخ الشمسي . ونشر الامبراطور عام ١٥٨٣ الاصلاح وبعده الكاثوليكيون . أما اللوثيريون فصرحوا بأن الشيطان يختبئ في هذا التقويم ، وان قبول تقويم البابا إنما هو الالتحاق بعهده المسيح . ثم ان

بطارقة الشرق المنشقين حرموا روما . وبعد ١٧٠٠ تبنت الدانمارك والقسم الاعظم من سويسرا البروتستانتية و د الاقاليم المتحدة ، التقويم الغريغوري ، وشابعته انكلترا عام ١٧٥٢ ؛ والسويد في ١٧٥٣ ، وبروسيا في ١٧٧٥ . أما الروس والاغريق فقد ابقوا على التقويم الجولياني الذي كان في أول آذار ١٩٠٠ متأخراً بـ ١٣ يوماً عن تقويم الغرب .

الفيزياء . - لقد شهد القرن السادس عشر نهضة النقاش في الحركة ، أساس فيزياء أرسطو ، وكان هذا عالماً بالحياة ، اجتماعياً يعتمد دوماً على ملاحظة الحياة اليومية والنظر إلى الكليات ، وخاصة مجموع الكون . وهذا الكون لا بد له من نظام ليصبح كل شيء ثابتاً ، وذلك لأن التجربة تعلمنا بأن كل متحرك على الارض لا يلبث أن يتباطأ ويقف . وترينا الملاحظة حركة الكواكب السرمدية المنظمة . وهي وحدها تستطيع أن تنقل الاجسام الارضية لان هذه الاجسام تنزع إلى الثبات وعدم الحركة ، وتتحرك لتستعيد حالتها الاولى . وترينا التجربة اليومية أن نقل الحركة يقتضي ثماً أو احتكاكاً أو ضغطاً أو سحباً ، وأن التأثير لا يكون عن بعد . فكيف نوضح اذن دوام حركة في متحرك منفصل عن المحرك ؟ كحجر ملقى أو كرة أو سهم أو جسم يسقط ، ان هذا لا يمكن الا بوجود دوار خلقتة الحركة في الوسط الذي يحيط بالمتحرك ويدفعه أو يسحبه . اذن لا يوجد فراغ ، والطبيعة تخشى الفراغ . ولو كان هنالك فراغ لاصبحت السرعة لامتناهية وهي ليست كذلك .

أما تلاميذ مدرسة غليوم اوكام ، أمثال جان بوريدان ، يقولوا أوريسم ، فقد بدلوا في القرن الرابع عشر بناء أرسطو حسب الاتجاه

العام الذي يعمل على مسلمات التجربة اليومية . لاحظوا المسافة التي يقطعها حجر أو رصاصة في الهواء ، والاثر الذي تتركه القذيفة برهة خلفها عندما تكون الشمس ، في منتصف المسافة بين الافق وسمت الرأس ، وتضيء الاثر بصورة مائلة ، وصرحوا بأن القذيفة تترك وراءها فراغاً ، والهواء لا يتحمل هذا الفراغ فينفذ فيه ويسحب المتحرك اليه إلى الوراء ليملاؤه ، وعليه فرد فعل الوسط لا يمكن إلا أن يعيق الحركة . ولشرح بقاء الحركة فرضوا « امبيتوس » أي انطباع الحركة وهو خاصة يكتسبها المتحرك ويستطيع بها ، إذا انفصل عن المحرك ، أن يستمر في حركته من تلقاء نفسه خلال مدة معينة .

لقد عرض مذهب ارسطو والمذهب الباريسي ونوقشا بشغف في القرن السادس عشر . وكان غاليليه في أول أمره « باريسياً » غير أن « الامبيتوس » لا يؤدي إلى مخرج ، فإذا اكتسبت المتحركات الخاصة وجب أن تسقط بسرعات ثابتة ومتناسبة مع أوزانها النسبية . الا ان غاليليه القى في العام ١٥٩٢ من البرج المائل في بيزا ثلاثة أجسام مختلفة الوزن فوصلت الأرض معاً . وبدا أن مذهب « انطباع الحركة » غير صحيح .

وحدثت في ذلك الحين نهضة فكر أرخميدس ، واخذ مجد العالم الاغريقي وتأثيره يعظم . وأولى تارتاليا وكاردان وغاليليه اهتمامهم أرخميدس ووضعوه في الصف الاول فوق أرسطو . وأفهمهم أرخميدس فيزياء مغايرة . أفهمهم أن الوقائع التي نشاهدها كل يوم ليست وقائع بسيطة وابتدائية . وأن سير السفينة المسحوبة ، وجري العجلة المقطورة على الطريق وغيرها إنما هي حركات غاية في التعقيد وانه يجب أن نضع أنفسنا خارجاً عن الواقع ونستعمل مفاهيم مجردة تناقض التجربة ، ونحن نعتبر بالتجريد

مستوياً مصقولاً بصورة مطلقة ، وكرة كروية إطلافاً ، وكلاهما قاس اطلاقاً ، فنرى أن الكرة تتحرك بتأثير واحد في الفراغ ، في المكان الهندسي المجرد ، أي في شرائط لا تتحقق أبداً ولا تقع ، أي وهمية ومضادة للتجربة . ولكن غاليليه يستنتج من هذا المفهوم أسس الفيزياء الحديثة في القرن السابع عشر .

الرياضيات . - وفي ذلك الحين ، الذي حصل فيه هذا التبدل الفكري ، كان الجهاز الرياضي آخذاً بالتكامل . فقد اكتشف الإيطالي تارتاليا (١٥١٠ - ١٥٣٧) حل المعادلات المكعبة التي عرف بها كاردان عام ١٥٤٥ ، وحسن الحساب التجاري . ووضع كاردان (١٥٠١ - ١٥٧٦ -) نظرية المعادلات وفكرة عن حساب الاحتمالات وأتاب الفلاماندي ستيفن الكسور العشرية عوضاً عن الستينية عام ١٥٨٥ ونشر جداول لحساب الفوائد البسيطة والمركبة . وكانت لديه فكرة عن تحليل القوى وتوازي القوى . وألف القاضي الفرنسي فيت (١٥٤٠ - ١٦٠٣) الجبر بلغة دولية باستعمال الحروف ، وطبق الجبر على علم المثلثات . وظهر فكر حساب اللانهايات .

الطب والعلوم الطبيعية . - لقد تمت علوم الكائنات الحية على يد الاطباء وظل جالينوس الاستاذ الاكبر ، ويذكر دوماً ، ويعتبر بالنسبة للكثيرين معصوماً . وذلك لأن مبدأه ، وهو أن الطبيعة التي تعمل بحكمة تامة دليل على صلاح الله وعلمه الكلي ، كان على اتفاق مع العقيدة المسيحية . غير أن روح الملاحظة الحرة والتفسير الحر بما في ذلك الحين . وفي الواقع ظهرت ترجمة جالينوس اللاتينية عام ١٤٩٠ . ثم طبعت نصوص جالينوس وهيو قراط الاغريقية عام ١٥٢٦ و ١٥٣٦ فوجد فيها جالينوس الحقيقي يعلن بأنه لم يشرح إلا الحيوانات ، وأن امتداد

النتائج إلى الانسان إنما هو فرضية كبرى تحتاج إلى تحقيق ، وميبر قراط الحقيقي الشغف بالتقدم والابحاث والتجارب . وأخيراً أن الأوبئة الكبرى ، التي انتشرت في القرن السادس عشر ، دعت إلى الملاحظة الشخصية دون الاعتماد على الاسائذة . وأصبح الايمان بالمعارف ، التي تكتسب بملاحظة الاشياء ، ينتقل من الاطباء إلى الجراح البسيط مثل امبراوزبارية ، إلى الصانع البسيط مثل برنارد باليسي . وقد كتب امبراوزبارية : « المعرفة شيء عظيم ولكن الروح في التجربة » . وصرح برنارد باليسي : لو أمعن الزائر النظر ساعتين في مجموعتي لعلم أكثر مما لو قرأ النظرين خلال خمسين عاماً .

لقد نشأت هذه الطريقة ولكن ينبغي الا يستنتج بأنها أصبحت شائعة . فقد تكلم امبراوزباريه عن مسم المر عوضاً عن أن يذهب اليه ويرى . ولم يشك برنارد باليسي بالحدود الضيقة للحس السليم الطبيعي إذا ترك على حاله ، وهو يعتقد بأن الحجارة لا يمكن أن تكون قاسية دون وفرة الماء ، لأن أقصى الحجارة توجد في البلاد المرتفعة والباردة والماطرة .

لقد قرأ هؤلاء التجريبيون كثيراً ، وهذا ماساءدهم على الملاحظة . ولكن الملاحظة تبقى مستحيلة في خصم الوقائع دون فرضية للأبحاث ، ودون أفكار مسبقة ودون أسئلة توضع . وهؤلاء النظريون الذين يحتقرهم باليسي هم الذين أتوا بمجموعة هذه الاسئلة .

ثم ان الامراض الجديدة أو المستجدة ، كالزهري الذي أتى كما يقال من امريكا على يد ملاحي كولومب ، والطاعون ، والتيفوس ، والحمى الوبائية الانكليزية ، والحمى الراشعة ، والسعال الديكي ، وفساد الدم ، وصفت وصفاً دقيقاً واعتني بها اعتناءً ناجعاً . وكان الايطالي فراكاستور عام ١٥٤٦ يعزوها إلى وجود أجسام صغيرة في الجسم

البشري لاتصل اليها حواسنا وتستطيع أن تتغل العدوى من جسم لآخر بالتامس ، وبواسطة المنزل ، وعن مسافة . غير أن هذا سبق لنظرية الجراثيم ، التي هي تركيب لملاحظات طويلة ، لم يرفق بأدلة تجريبية ووقع في زوايا النسيان .

التشريح وعلم الفيزياء (الفيزيولوجيا) . - كان الالماني غوثيه أندراخ (١٤٨٧ - ١٥٧٤) طبيب الملك فرنسوا الاول يدح الملاحظة المباشرة . وكان من تلاميذه اكبر المرشحين مثل سيلفيوس ، فيزال ، اوستاخيوس ، فاللوب ، سيرفيه ، وغيرهم . وبدأ التقاط الجنث وأعطى الصدمة الاولى البلجيكي فيزال (١٥١٤ - ١٥٦٤) . ففي كتابه في التشريح « تركيب الجسم البشري » هاجم جالينوس ، فاعتبر فقط غليظ القلب متعجرفاً وجاهلاً جاحداً . ولم يستطع بعضهم نكران الاكتشافات ، وعوضاً عن أن يعترفوا بان جالينوس يمكن أن يخطئ ، فاضوا أن يفترضوا بان الطبيعة تبدلت . واكتشف الاسباني ميشيل سيرفيه في ١٥٥٣ ، والابيطالي ريبالدو كولومبو في ١٥٥٩ ، دوران الدم الصغير . وأوجد علم التشريح المقارن . وفي ١٥٥٥ قابل بيلون هيكل عظم الانسان مع هيكل عظم العصفور . وأسس الابطالي فابريتشيو آكواباندانته (١٥٣٧ - ١٦٠٩) علم الجنين .

أما فن التداوي والمعالجة فقد ظل جملة كما وضعه جالينوس : من اعطاء المسهلات والنفث واستعمال بعض النباتات لتغيير الامزجة . وأسس السويسري باراسيلس (١٤٩٣ - ١٥٤١) الطب الكيماوي وقال ان جميع عمليات جسمنا كيماوية . إذا ظهر بها خلل فهذا يعني وجود رسوبات معدنية في الاعضاء ، ولاذابة هذه الرسوبات بحث باراسيلس

عن الجوهر والدواء الشافي لجميع الامراض الجسمية . غير أن أجل أدوائه كانت عمليات صرية .

علم النبات . - وحشت الحاجة إلى الدواء الابحاث النباتية . وبدأت مدرسة موبليه تعترف بمجموعات نباتية متجانسة كالقنطريون والطحالب والسراخس والحشيشيات والاكلييات والشفويات والقراشيات . غير أن هذا التصنيف الأولي الطبيعي يعتمد على حدس التشابه العام لاعلى تحليل أصولي للخصائص وعلى تعاريف واضحة دقيقة .

علم الحيوان . - أما علم الحيوان فقد بدا أكثر تعقيداً وحافظ على تصنيف أرسطو . وتألفت موسوعة غيسنر (١٥٥١) على مشاهات خارجية .

علم طبقات الارض (الجيولوجيا) . - وأدت دراسة الحيوانات إلى علم طبقات الارض . والمستعاثات ، حسب نظرية بلين ، أحجار ناتجة عن الصاعقة أو غرائب الطبيعة التي تعيد خلق نفسها . وأكد الايطالي فراكاستور عام ١٥١٧ أن المستعاثات بقايا الحيوانات التي عاشت في الواقع . وكان الفرنسي برنارد باليسني يدرس في العام ١٥٧٥ بأن الطبقات المستعاثية تنتج عن الترسب في قاع المياه .

لؤناردو فانلشي والطوق التجريبية . - أن أقل ما يقال في عصر النهضة أنه كان عصر تحليل وانتقال من قيود العصر الوسيط ، وعصر اعداد وتجهيز وانبثاق واثارة للفكر العلمي . ففيه قامت أولى المحاولات العلمية الحديثة والطرق التجريبية التي وضع حجر الاساس فيها لؤرناردو فانلشي .

كان لؤناردو منذ بدء تكامله عالماً محباً للمعرفة الصحيحة ولم يحب أو يحل من القدامى إلا العلماء والمهندسين والرياضيين والفيزيائيين والاطباء،

وهو وان لم يكن مدرساً إلا أنه لم يجهل التقاليد العلمية والتجريبية المتعارف عليها في مدارس العصر الوسيط مثل فيزيائي أو كسغوره في القرن الثالث عشر والرابع عشر وفيزيائي باريس في القرن الرابع . وقد هجرت هذه التقاليد في باريس منذ آخر القرن الرابع عشر ، واحتفظ بها في إيطاليا عند فئات قليلة من الرياضيين والعلماء الذين أخذ عنهم لؤناردو .

التجربة في نظر لؤناردو شرط أساسي لاغنى عنه لكل علم حقيقي ، فهي قادرة على التنبؤ بالمعلومات بعد معرفة العال . وكلمة التجربة لا تدل عنده على التجريب فحسب ، بل على مجموع الطرق التي تسمح بأحداثها وتفسيرها . وكان يستعمل مختلف الطرق ، وينوع التجارب لئلا نخدعه ظواهر المشابهة السطحية ، ويجادل ، مستعيناً بالاستقراء ، أن يرتفع من الحوادث الخاصة إلى القوانين العامة . ويرى أن العلم المؤسس على التجربة يجب أن يدخل الدقة والضبط واليقين الرياضي في القوانين التي يضعها ، وان يجد الرياضيات العامة التي تكمن تحت تنوع الحوادث . ومتى امتلكت قوانين الحوادث أصبح العلم مصدر القوة وتلا العمل النظر . ويقول لؤناردو في هذا الصدد « ادرس العلم أولاً ثم التطبيق الذي ينشأ عن هذا العلم » .

موسوعة لؤناردو العلمية . - لقد كان لؤناردو يعرف العلم الحقيقي وطرقه وغاياته وحدوده ولذا كان يحكم ببطلان العلوم التي لا تعتمد على التجربة ، ويطرح فيزياء أرسطو التي يجدها عند المدرسين وعند معاصريه لأنها تعتمد على تقليد ذكره الكتب ولا تعتمد على التجربة ، كما يطرح العلوم المزيفة مثل السيمياء والسحر وغيرها بما تساهلت به مدرسة فلورنسا ، ويريد تأسيس العلم الحديث على التجربة والعقل . وقد وضع لؤناردو قبل

غالبية بمائة سنة مبدأ الميكانيك ، وتناول علماء الاغريق والمدرسين الباريسيين في القرن الرابع عشر على سقوط الاجسام وتنبأ بقانون الجاذبية ، ودرس توازن السوائل ووضع مسألة جريان المياه الباطنية في الارض ، ونظرية تشكيل الامواج وانتشارها ، وتؤكد في هذه الناحية من وجود مشابهة بين الماء والهواء . وتطرق لبحث الصوت ، ودرس مسألة انتقال الاصوات ثم طبق نظرية الامواج على انتقال النور ، وأرجع الصوت والنور إلى حركات ، وقوانين انتشارهما إلى الميكانيك العام ، وبين أن هذا الميكانيك العام يتعلق بحركة الاجرام السماوية ، وطرح علم الفلك عند ارسطو ونظرية الكرات السماوية الموضوع بعضها ضمن بعض ، كما دل على ذلك بطليموس وذكر في الكوميديا الالهية لدانتي . ورأى أن الارض لا تشغل مركز العالم ، ودل على مشاهات بين الارض والقمر بعد أن درس الكلف عليها ، وقال أن هنالك قوة تترك الارض والقمر في الفضاء ، وأن قوانين التناقل تؤثر على سطح القمر والارض .

ويعد لؤناردو أول مؤسسي الجيولوجيا . فهو يعلم أن سطح الارض في تبدل دائم ، وأن الارض مرت في تشكيلات عديدة كسائر الاجرام السماوية ، وأن الاشياء التي تولد في المياه المالحه توجد في أعلى الجبال بعيداً عن البحار ، ويقبل بأن الحوادث الحالية توضح الحوادث الماضية ؛ ويعرف قوة الحت وأثرها في المناظر الحالية على سطح الارض ، وأن الجبال ترفع وتهدك بحركات الماء ، وأن الصخور الرسوبية ليست سوى طبقات متتالية من الطمي وضع بعضها فوق بعض بتأثير المياه .

وهو كعالم وفنان يحاول أن يبحث عى القوانين التي تسير حياة

النباتات والاجسام ويريد أن يرسم منظرها الخارجي ؛ وكعالم نباتي ، أن يدرس وضع الاوراق على الساق ، ويوضح خصائص النباتات بقوانين نموها ؛ وكفيزيولوجي درس التشريح طوال حياته . وفي كلو بالقرب من أمبواز حرر عام ١٥١٥ مقدمة الكتاب الذي حلم به ولم يكتبه ، وهو يتضمن حياة الانسان مذيكون جنباً إلى أن يصبح رجلاً راشداً وشرح الجثث وكأول من قام بالرسم التشريحي ومن أول مؤسسي التشريح المقارن . طبق الطريقة التحليلية ودرس العضو الواحد خلال تنوع الاجناس وتوصل للقول بأن جميع الحيوانات الارضية سويت حسب مخطط واحد . وفي الميكانيك وجد حادث الحركة في حوادث الحياة المعقدة ، وأرجع علم الغريزة (الفيزيولوجيا) إلى الميكانيك وقوانينه كالفيزياء وعلم الفلك . وقبل في علم الغريزة بدوران الدم ، إلا أنه ، على ما يظهر ، لم يفهم حركته بصورة صحيحة . وجعل الدماغ عضو الاحساس والتفكير . وهو أول من رأى العين غرفة مظلمة .

التطبيقات العلمية . - ولكن لؤناردو لم يكن نظرياً فحسب بل كان يبحث عن التطبيقات العلمية للنظريات ، ويرى أن الميكانيك قاعدة لكل علم وضعي في العالم كما هو أيضاً واسطة عمل للانسان . ويقول في هذا الصدد : « الميكانيك جنة العلوم الرياضية وبه يتوصل إلى ثمارها » . وفكره خصب بالاختراع كما في التجربة . وقد أنشأ كمهندس قنوات منطقة ميلانو ، واخترع آلات لحفر الأقبية وكري أعماقها ، والسدود لرفع الزورق . واستعمل قوة الماء المحركة ، وتخيل أوضاع الدولاب المائي ، وعرف قوة البخار المحركة ، وتصور مدفعاً تقوم فيه قوة توسع البخار مقام انفجار البارود . وما فتئ يرسم ويخترع ويحسن الآلات المختلفة لثختلف الصناعات ، ويفخر بحق أنه كان أول مهندس عسكري في عصره .

ودرس صنع المدافع ونخيل أجهزة للغوص في الماء وركوبه وأجهزة للطيران .
 نظراته العقلية العامة . - كان لؤناردو عالماً ، جامعاً ، مخترعاً
 لا يتسرب اليه الكلال ، يعرف كيف يتجاوز حقل العلوم التجريبية حيث
 أجاد فيه ايما أجاهه ليسمر نحو نظره العامة في الكون . وهو يقول :
 « تكمن تحت الحوادث رياضيات عامة كلية وعلى عقل الانسان أن ينفذ
 إلى رمح هذه الرياضيات العامة ، ومن صفات هذه الرياضيات وجود
 قوانين ثابتة ، وليس هنالك أي تدخل مفارق للطبيعة يقطع جريانها .
 وهذه الضرورة التي لا تتزعزع هي الحارقة الحقيقية . ولذا فهو لا يصدق
 بقصص الكتاب المقدس عن الحاق والطوفان .

إذن ففهوم لؤناردو عن العالم مفهوم عقلي لامسيحي . وما الرياضيات
 العامة التي تدبر الكون إلا صورة ظاهرية عنه وفي الواقع أن العالم
 كائن حي تحركه حياة خفية . وما الضرورة الظاهرية والطبيعية ، التي
 تنمو حسب قوانين الرياضيات العامة ، إلا تعبير عن ضرورة داخلية
 ومعنوية وعن غائية داخلية توجه العالم نحو الخير . ولذا يؤدي التأمل
 في نظام الكون إلى الله الذي نعرف عمله في القوانين العامة . وإن كماله
 الوحيد يستحق الحب المعقول ، عند حد تعبير لؤناردو .

اخلاق لؤناردو . - وعلى هذه النظريات في الفلسفة العامة يؤسس
 لؤناردو اخلاقاً فكرية ، ويقول أن الفضيلة بنت الحقيقة التي تطهر الروح
 وتعلمها ما يستحق أن يحب . وليست العاطفة هي التي تكتشفها بل
 العقل . أما العلم فيعرف الانسان بطبيعته وبالحدود المفروضة عليه وينصح
 للنفس بالرضى الذي يبعث فيها السلام والطمأنينة . ومع هذا فلا يكفي
 أن تحرر النفس من رغائبها ومشاكلها العابثة ، كما أن دستور الرواقين

« تحمل واستنكف ، لا يلائم عصرنا تستطيع البشرية فيه أن تفجر
بفتوحاتها وتشعر بأننا في تفتح شباب جديد . أن ما يريده لؤناردو
هو أخلاق نشيطة وساحة عمل رحبة تفتح للعمل البشري الذي
يسيره العقل .

وهكذا نرى أن لؤناردو يجمع بين فكر العلم الحديث ونظرة العلماء
الأقدمين في الكون ، ويبدو إلى جانب فيتشينو وبيك لاميراندول والصوفيين
والسالك في طليعة الفكر الحديث ووارثاً مبائراً لحكمة العصر القديم .
وقد اجتمع فيه ذكاء صاف نقاد وإنشائي معاً يقيد الحساسية والهوى
الايطاليين . وهذه الفلسفة المادئة الوديعه ، التي نشأ عليها لؤناردو ،
جعلته متسامحاً مع الناس ، غير مهبال بتقلبات الحوادث وغير عابئ
بأساة حروب إيطاليا التي كان شاهداً العيان .

العلوم الاجتماعية والسياسية . - لقد نشأت النهضة الايطالية عن
مفهوم جديد للإنسان ، وتناولت فيها العلوم الاجتماعية الحقيقية الأشكال
السياسية والاجتماعية وصنفتها وبحثت عن العلاقات الثابتة الدائمة بين الحوادث
الاجتماعية التي يتغير بعضها تبعاً للآخر ، وكان تأسيس العلم السياسي
على يد ماركيافيلي .

ماركيافيلي (١٤٦٩ - ١٥٢٧) . - ولد نيقولا ماركيافيلي في
فلورنسا في ٣ أيار ١٤٦٩ ونشأ في أسرة بورجوازية قديمة ، أسرة
ماركيافيلي ، وقد لعبت هذه الأسرة دوراً هاماً في التاريخ السياسي ،
ولم تنضم إلى أسرة الميديتشي واجتنبت أي نزاع معها . وقد كبر
ماركيافيلي في عهد لوران الفاخر وكان له من العمر ٢٣ سنة عندما توفي
لوران عام ١٤٩٢ .

عصر النهضة (٩)

أما ثقافته الفكرية فلا نعلم عنها إلا القليل ، ولم يكن مديناً فيها للانسانية المعاصرة للوران ، لأنه لم يكن على اتصال بالأكاديمية الفلورانسية وبافلاطوني فلورنسا مثل مارسيل فيتشينو وأبيك لاميراندول . غير أنه مدين قليلاً إلى تجديد الدراسات الاغريقية التي نشطت في فلورنسا في النصف الثاني من القرن الخامس عشر . قرأ السياسيات لارسطو ، وقرأ بوليب ولكن لاشيء يدل على أنه قرأها في النص الأصلي . لقد بقي ماكيافيلي رومانياً وغير اغريقي . فهو تلميذ القديم الروماني ، تلميذ قيت - ليف ، وموسع أثره التاريخي . قرأ خطب شيشيرون وكتبه في السياسة وقرأ فيرجيل لأن جميع تقاليد الماضي الروماني يعيش في أثره المسمى « الانياذة » . وهو سياسى قبل كل شيء ، كون ثقافته بتأمل التاريخ ودراسة العالم الحديث أي بما سمىه فيما بعد « التجربة الطويلة في الامور الحديثة والمطالعة المستمرة للأمر القديمة » .

دخل ماكيافيلي الحياة العامة في حزيران ١٤٩٨ عندما انتخب اميناً لسر المستشارية الثانية المكلفة بتأمين العلاقات الادارية مع المدن التابعة لفلورنسا . وفي ١٤ تموز عهد اليه بامانة سر ادارة الجمهورية دون أن يتغلى عن وظيفته الأولى . وعندما دخل ماكيافيلي الحياة السياسية كان جمهورياً في عواطفه ، يكره مزاجه كل حكم استبدادي ، جمهورياً في مذهبه ، يبني يقينه على التقاليد القديمة الفلورنسية والتقاليد القنصلية ومجلس الشيوخ في روما وعلى إدارة الجمهورية في روما وأثرها . وهذه الدراسة أدت به إلى الحكم على قيصر ، هادم الجمهورية ، وعلى الامبراطورية الرومانية واستبدادها ، وعلى التقاليد الامبراطورية التي مازالت تعيش في العالم الحديث بشكل الامبراطورية الرومانية الجرمانية .

ولم يكن ماكيافيلي الجمهوري من حزب سافونارولا الراهب الدومينيكي ،

غير أن جهد هذا الراهب في تأسيس ديموقراطية متزمنة في فلورنسا وضع أمام فكر ماكيافيلي مسألة غير منتظرة وهي الدور الذي يستطيع أن يلعبه ، في تاريخ الشعوب ، الملهمون البصيريون بالعواقب والصوفيون والأنبياء الذين يقضون على العادات والتقاليد وتراث الماضي ويجاولون أن ينشؤا المجتمع الانساني حسب وجهات نظر فكرية . فمن ذلك أن ماكيافيلي لا ينكر دور الرجال العظام الذين بدلوا فجأة مجرى التاريخ ، وفرضوا على الشعوب نظاماً جديداً ، ويقبل دون تردد بتدخل مشرع عبري . ونراه يقول : « لقد غلب الأنبياء المسلحون وملك الأنبياء العزل » . ولا يستطيع أي مصالح دولة أن يغلب بقوة الكلام وحدها أو الاقتناع أو الفكر بل تجب القوة المادية أيضاً . وهذه القوة المادية لم يعرف سافونارولا استعمالها أو لم يستطعها ، ومات كأنبيا اليهود وهم في نزاع مع ملوك امراثيل ، وحكم ماكيافيلي بأن محاولة سافونارولا فاشلة لأن القوة تنقصها . كان ماكيافيلي فكراً نقاداً يذهب إلى الشك والتهكم ، ويضحك من الآخرين ومن نفسه ، ويكره رجال الكنيسة ، ويحتقر الرهبان ويتهمم بالرياء والمداهنة والمكر والخداع . وقد كتب في رسالة مؤرخة في ٨ أيار ١٤٩٧ : « إن الراهب يتحين الظروف ليبيد ثلوثين أكاذيبه » .

ولكن ماكيافيلي يقبل بهذه الأكاذيب إذا كان العمل يبررها ، ويسمح لرجل العبقري أن يخدع الشعب لخير الشعب . غير أن عمل سافونارولا ، في نظر ماكيافيلي ، لا يستحق أن قدمه جميع الوسائط بما فيها الخداع . ولذا فتأسس الجمهورية المتزمنة لايهمه بسبب شجبه الكاثوليكية ، كما لايهمه الإصلاح في الكنيسة لأن الكاثوليكية لانهمه أيضاً . ولم يستمره المثل الأعلى الكاثوليكي ولا القداسة الكاثوليكية ، لا لأنه يجب الحياة

الرخيصة والتساية والذائد ، بل لأنه يتعلق بفكرة ويريد أن يضحى بنفسه في سبيلها ، وهي فكرة رجل الدولة وبناء المدينة البشرية والمحافظة عليها وتوسيعها دون أن يشغل نفسه بملكوته السماء . واتهم ماركسفايلي الاخلاق المسيحية بأنها أضعفت عند المحدثين الفضائل القوية التي كان يتصف بها المواطنون القدامى . فالزهد الرباني في نظره ليس سوى تشويه للدين . واتحاد المواطن والزهد ، كما حاول أن يحققه سافونارولا في جمهوريته المتزمتة ، كان في نظر ماركسفايلي مثلاً أعلى متناقضاً يدعو إلى اليأس ، ضيقاً . وفي الواقع أن الجمهورية المتزمتة لم تظهر بمظهر القوة لتحمي مؤسسها وتنقذه ، ولذا رفض ماركسفايلي أن يقبل بالاصلاح المدني والديني الذي حاوله سافونارولا . وبعد شهر من حرق هذا الاخير دخل ماركسفايلي الحياة السياسية أميناً لمر الدولة وانتدب مرات عديدة بمهام سياسية في فرنسا لدى لويس الثاني عشر سنة ١٥٠٠ ، ولدى قيصر بورجيا ١٥٠٢ ، وفي روما ١٥٠٣ ، وفي فرنسا أيضاً عام ١٥٠٤ .

كان ماركسفايلي واقفاً من قضايا إيطاليا وأوربه ، ولا يعلق أهمية كبيرة على فلورنسا ، التي يشتغل في خدمتها ، ويرى بأن نظامها نظام التغافل وترك الامور تجري وحبلها على غاربها كما اتفق ، لأن السلطة العامة فيها ضعيفة وعاجزة عن وضع حد للاطماع الشخصية وتنازع الاحزاب .

رأى ماركسفايلي أن الجمهورية الفلورانسية ضعيفة عسكرياً فأراد أن يجهزها بالسلاح ، ولا سيما بعد أن رأى إنيار الدول الإيطالية ، بعد الغزو الفرنسي ، في حروب إيطاليا ، وخيانة الجنود المتطوعين الاجانب ، كالويسريين الذين خانوا لودوفيك لومور . وهذه الفكرة جعلته يحاول

لإنشاء جيش وطني في فلورنسا بعد أن رأى أن هذه الفكرة تحققت في روما في عهد الجمهورية ، حيث كان المواطن جندياً يزاوِل الفضائل العسكرية ويحافظ على فضائله مواطناً ؛ وفي العصر الوسيط ، حيث كانت المدن الإيطالية الحرة فرق أهلية ؛ وفي العصر الحديث ، في الكانتونات السويسرية حيث يخدم المواطن الحر في الفرق الأهلية (مليشا) . ولذا حاول ماكيافيلي أن يؤسس فرقة أهلية تتألف من مختلف طبقات السكان ويعودها على النظام العسكري المتين . ولكن هذا الإصلاح لم يتم إلا ببطء ، لأن المواطنين اعتادوا ، منذ زمن طويل ، على أن الدفاع عن الجمهورية أمر لا يعنهم بل هو من شأن الجنود الممتهنين للعسكرية . وكان من الصعب عليه أن يطلب إلى الفلورنسيين كثيراً من الجهد والتضحيات .

وسقطت حظوة ماكيافيلي منذ عودة آل الميديشي إلى الحكم في فلورنسا في آب ١٥١٢ . وفي العام ١٥١٢ وضع كتابه « الأمير » وعرف فيه نموذج الحكم الذي استوحاه عن الحكم اليوناني والامارات الإيطالية في العصر الوسيط والمعاصر ، وأراد أن يكون « استبدادياً مستنيراً » بعيداً عن أي وازع أخلاقي أو ديني ، ويعمل على إيجاد الدولة وبقائها والحفاظة عليها .

كان ماكيافيلي من الإيطاليين الذين يشكون النفوذ الاجنبي ، وكان من تقاليد إيطاليا القديمة « أن تقبل ، في حدود أساسها القصوى ، بتدخل زعيم تبعته العناية الالهية ليكون فداء لها ، ولذا رأى ماكيافيلي أن يقدم كتابه إلى أمير ويدعوه لأن يلعب دور الفادي ويجرر إيطاليا من البربرة ويباشر العمل ، ضد الاجانب ، الذي بدأ به البابا جول الثاني ولم يحسن قيادته .

فكر ماكيافيللي أن يقدم كتابه إلى جوليان الميديتشي ابن أخ ليون العاشر . إلا أن جوليان لم يكتوئ لذلك ولم يشأ أن يقوم بدور القادي لاطاليا المتألبة على البرابرة وعاجلته المنية في آذار ١٥١٦ . عندئذ علق ماكيافيللي آماله على لوران بن بطرس الثاني الذي أصبح عام ١٥١٧ دوق اوربينو بفضل مساعدة ليون العاشر . واخيراً اهدى ماكيافيللي كتابه إلى لوران ودعاه إلى القيام بعمل الإصلاح والقضاء في ايطاليا . ولكن لوران ، على ما يظهر ، لم يعلق أهمية كبرى على قراءة هذا الكتاب ومات في سن السابعة والعشرين في أيار ١٥١٩ .

ومنذ هذا التاريخ هجر ماكيافيللي أحلامه في عمل الأمير وفكر في فلورنسا وأراد أن يقدم ، لحكومة آل الميديتشي ، نصحه في إصلاح النظم الجمهورية في فلورنسا . فإذا تم هذا الإصلاح وجب أن يزولوا ويعدلوا عن كل سلطة حقيقية في المدينة .

والف ماكيافيللي كتابه « خطب عن تيت - ليف » ولم يتمه . واستخلص من الكتب الأولى لتاريخ تيت - ليف قواعد الحكم وإصلاح الدولة الجمهورية . واتم عام ١٥٢١ حواراه عن « فن الحرب » . ثم تقرب شيئاً فشيئاً من آل الميديتشي ودخل في خدمتهم وكتب بناء على طلبهم بين ١٥١٢ - ١٥٢٥ « تاريخ فلورنسا » وانفصل رويداً رويداً عن الجمهوريين الذين لم يعودوا يبتونه آمالهم ، ونحوه في سنة ١٥٢٢ بعيداً عن المؤامرة التي دبروها لقلب للنظام . وانصرف ماكيافيللي إلى خدمة آل الميديتشي ونصحهم بأن يوطدوا ، تحت ظواهر نظام الامارة ، جمهورية حقيقية في فلورنسا ، اعتقاداً منه بأن ذلك يفيد الحريات في فلورنسا كما يفيد ايطاليا . وبعد ظفر شارلكان في واقعة بافيا بشهرين جاء ماكيافيللي في نيسان ١٥٢٥ إلى روما وقدم للبابا كليمان السابع

« تاريخ فلورنسا » واستشاره البابا عن الوضع واسترشد بنصحه فأشار عليه أن يجند سكان رومانيو الاشداء . وارسله البابا إلى غيشاردون حاكم هذه المقاطعة ، وكانت الصعوبات كثيرة والبابا متردد فلم يعمل شيئاً . وكل ماعمله ماكيافيلي بعد أن استأذن البابا ان جعل اسوار فلورنسا بحالة تستطيع فيها مقاومة الحصار .

وفي ١٦ أيار ١٥٢٧ قام الجمهوريون بحركة ادت إلى فرار آل الميديشي واعادة الجمهورية في فلورنسا على شكلها القديم الذي كانت عليه عام ١٤٩٤ . ووجد ماكيافيلي في حالة سيئة مشبهة في نظر الجمهوريين ، فرأى أن كل أمل قد ذهب ، وكانت صحته معتلة ، ومرض في ٢٠ حزيران ومات بعد يومين في ٢٢ حزيران ١٥٢٧ .

كتاب الامير . - كان كتاب « الامير » ، نتاج التفكير الحار في مقدرات ايطاليا . فقد عرف ماكيافيلي ان العالم السيامي والاخلاقي السائد قد انتهى اجله ، وان عالماً جديداً حل محله ، واراد ان تدخل ايطاليا هذا العالم الجديد .

ان غاية « الامير » مضاعفة وهي أن ماكيافيلي يدل على الغاية ويدل على الوسائط التي تؤدي إليها . الغاية هي توحيد ايطاليا ، والوسائط هي مجموع الطرق التي يتألف منها مذهب الواقع السيامي .

الغاية . - لقد تألم ماكيافيلي في كتاب « الامير » لاطاليا التي تزوج تحت حكم البرابرة فطلب إلى قارئه أن يوحدها ويخلصها . والغاية التي يقترحها في كتاب « الأمير » ، تدخل منطقياً في تيار التفكير الحديث بين فلسفة التاريخ ونظرية الدولة .

يرى ماكيافيلي أن أحسن نظام هو النظام الاقوى أي النظام الذي لا تكون فيه الدولة هي الاقوى في علاقاتها مع مواطنيها ، بل النظام

الذي يخول الدولة اعظم قوة عسكرية ، ويجعلها قادرة على الدفاع ضد الاجنبي ، وعند الحاجة أن تقوى على حسابه ؛ وأن النظام الديموقراطي في نظره خير نظام ، لأن المواطنين فيه يراقبون الدولة ، ولأن حريتهم تضمن لهم سيادة القوانين . ويقول : « ترينا التجربة ان المدن لم تعظم قوتها وثروتها إلا عندما كانت حرة » .

وبما يجدر ذكره أن تأسيس الجمهورية ليس هو الحد الأخير لتطور الدولة لأن كثيراً من الافراد يثرون بصورة فاحشة وتكون لهم مكانة اجتماعية واقتصادية عظيمة ، فيحاولون استخدام الدولة لمصالحهم في ظل الحكم الديموقراطي ، وعندئذ تنقلب الحال من الجمهورية إلى نظام إساءة استعمال الحرية والتمرد ، وهو شكل مشوه للجمهورية . ولكن المشرعين الأقوياء يستطيعون أن يضعوا العثرات في سبيله باصلاح الدستور بين حين وآخر .

الواسطة . - والوصول إلى هذه الغاية المرسومة يرى ماركيافيلي ان المرحلة الاولى ، وهي تأسيس الدولة الايطالية ، لا يمكن قطعها إلا بامير ، وان الملك في نظره ، يؤمن المرور من الماضي إلى المستقبل . ومن الملاحظ أن ماركيافيلي كان أبعد من أن يفكر بأن جميع الوسائط صالحة إذا بلغت الغاية المتوخاة . لقد أنشأ ماركيافيلي علماً سياسياً تجريبياً وبين أن هذا العلم السياسي لا يفيد في معرفة الوسائط المؤدية إلى الغاية ، مهما كانت ، بل هو موضوع في خدمة التطور التاريخي . وإذا صح بأن أناساً استعملوا هذا العلم في اتجاه معاكس لحركة التاريخ فإن ماركيافيلي يسميهم آئين .

وإذا قرئ « الامير » بامعان أمكن معرفة مايجب أخذه من الواقع ومن الماركيافيلية التي يريد العامة منها أن الغاية تبرر الوسطة . لقد

كان ماكيافلي واقعياً ولا شك ، ولكننا لانجد عنده هذا الواقع العامي الذي ينسبونه إليه . أما الماكيافيلية في المفهوم العامي الشائع فليست إلا نتاج اساءة الفهم عند الأجيال المتعاقبة ، خلال أربعة قرون لما اراده ماكيافلي .

غيشاردن (١٤٨٢ - ١٥٤٠) . - كان غيشاردن ، مثل ماكيافلي ، فلورنسيا مؤرخاً ورجلاً سياسياً عملياً . اشتغل سفيراً في اسبانيا وحكم رومانيو بامم شارلكن ، ولعب دوراً خطيراً أثناء حرب عصبة كونياك ورأى عن قرب رجال السياسة وكيف يتلاعبون بمقدورات العالم . فضعف في نفسه الايمان . كتب في مذكراته السياسية والمدنية ، التي بقيت طويلاً مربية ولم تنشر ، ما يلي . « أستهي أن أرى ثلاثة أشياء قبل موتي وهي : جمهورية منظمة جيداً في فلورنسا ، وإيطاليا متحررة من البرابرة ، والعالم محرر من ظلم الكهان . ومها قيل في بلاط روما فهذا القول أقل من الحقيقة . وأني أحب مارتن لوثر أكثر من نفسي إذا كان من ثورته إجبار هؤلاء المجرمين على التخلي عن رذائلهم وعن سلطتهم » .

ولكن غيشاردن يرى أن من الجنون أن يستسلم الانسان للهوى ولو كان هذا الهوى كريماً سامياً ، وأن العقل في الفطنة والحذر الذي لا يدعو إلى التراجع أمام الغنى . ولذا دخل في خدمة البابا كليمان السابع بكل ما أوتي من مواهب ، ثم أصبح مستشاراً لآل الميديشي بعد أن رجعوا إلى الحكم بفضل جنود الامبراطور شارلكت . وهو لايتوانى عن خدمة أي نظام لايجبه ولا يريد مادام قانتاً بما حوله . وهذا الريب البائس ، الذي نجده عند غيشاردن دليل أكيد على الأعياء وعدم المبالاة والاهتمام التي منيت بها إيطاليا وشهدتها على مسرح تاريخها الخاص .

واشتهر غيشاردن بتأليفه في التاريخ . فقد ألف د تاريخ ايطاليا من ١٤٩٢ - ١٥٣٠ ، ونشر بعد وفاته عام ١٥٦١ ، وفيه يقص حروب ايطاليا التي شهدتها في حياته . ولا يخرج في سياسته عن الربب للأسباب التي ألمعنا اليها .

توماس مور . - وفي العام ١٥١٦ نشر الانساني الانكليزي توماس مور (١٤٨٠ - ١٥٣٣) د اليوتوبيا ، وقد استوحاها من التطور الرأسمالي الانكليزي ومن د جمهورية ، افلاطون .

واليوتوبيا جزيرة نائية تخضع لنظام دكتاتوري شيوعي ، جميع خيراتها مشاعة ولا يحق للمواطنين فيها أن ينتقلوا ، وهذا ما يجعل رقابة العمل والاستهلاك مستعيلة ، وينتخب الموظفون فيها انتخاباً ، وبشاور اليوتوبيون في جميع القضايا الهامة بطريق الرفيراندوم . ويفرض دين الدولة الاعتقاد بكائن أعظم وعبادة مدنية . وينتخب فيها الاكليروس . وهو يختار ، من بين العمال المثقفين الذين يقومون بالأعمال الفكرية ويقدمون المرشحين إلى الوظائف . وتوجه الحكومة الاقتصاد حسب خطة الانتاج ، ولها حق حصر التجارة الخارجية . ويساعد الطوبائيون أي اليوتوبيون جيرانهم على التطوير ويعملون منهم دولاً بحمية . وفي رأيه أن كل شيء صالح حيال الأعداء كوضع جائزة لمن يأتي برأس زعمائهم ، وإثارة الفتن عندهم .

جان بودن . - وفي العام ١٥٧٦ نشر الاسباني الفرنسي جان بودن الموظف الملكي والنائب في مجلس المملكة العام كتاب د الجمهورية ، قد تأثر بمدرسة بادوا ، وكان مقتنعاً بنظام الكون ووجود حتمية كلية شاملة ، وجهد في البحث عن قوانين اجتماعية سوسولوجية وأراد أن يؤسس علم السياسة أخذ من الأخبار التاريخية والجغرافية العامة الوقائع بينها واستنتج منها القوانين . وصف أولاً أشكال الحكومات

وتواليها الضروري ورأى أن الجمهورية هي الأمة المنظمة . وتتألف هذه من الأمر التي أقام زعمائها شيئاً مشتركاً (كأن يكون ملكاً ، أو ثروة أو حصناً أو قوانين أو عدلاً) ودولة ذات سيادة . والسيادة هي السلطة التي تضع القانون وتلقيه . والمتصرف بالسيادة يتغير . ويمكن أن تكون الجمهورية ملكية ، أرستقراطية أو ديمقراطية . غير أن الدولة والحكومة شيان مختلفان : ويمكن للدولة الملكية أن تحكم ديمقراطياً إذا حولت الألقاب والوظائف إلى جميع المواطنين دون اعتبار طبقتهم الاجتماعية . أما ما يتعلق بمناقب ومثالب الحكومات وتواليها فإن بودن يوضح ما كفافيلي وينوعه دون أن يبدل خطوطه الكبرى . ومع هذا فهو يرى أن الملكية خير حكم لأن السيادة لا تنشخص حقاً إلا في الملكية . أما الديمقراطية فسيء متناوب ومغرض وغير كفؤ ، والأرستقراطية سيء منقسم .

ولكن يمكن للشعب أن يبلغ كامل تفتحته في شكل سياسي قليل الجودة في ذاته إذا وافق هذا الشكل خلق الشعب . وهذا الخلق يتأثر بالعرض الجغرافي والارتفاع والرياح والحصب والطابع القومي الناشئ عن ثلاثة عناصر . العرق والجغرافية والتاريخ . وهذا الخلق يمكن أن يبقى منفصلاً عن الشروط التي ولدته بشكل ثقافة قومية . وعلى الحكومة أن تسير في اتجاه الطبيعة . ولكن النظم يمكن أن تبدل الخلق ، والثقافة أن تتغلب على الطبيعة ، ومقارنة الوقائع تساعد على مثل أعلى وعدل طبيعي . وتحقيق هذه الأمور إنما هو هدف يرمى إليه وغاية يراد بلوغها .

على هذا فقد أوجد بودن الطريقة المقارنة والسياسة التجريبية . وهكذا نرى أن مجموعة كاملة من العلوم أخذت معالمها ترسم وتنجلي ،

وان كل هذه الحركة في الأبحاث توحى بفكرة جديدة ، فكرة غربية ، فكرة اللانهاية ، التي ستهدم نهائياً الارسطاطاليسية وخط التفكير القديم .

أزمة النهضة . - انتهت النهضة بدور أزمة تبعاً لأزمة الرأسمالية وأزمة الدولة والحروب الدينية وفكرة اللانهاية . وقد بدأت هذه الأزمة في ايطاليا منذ نهب روما ١٥٢٧ . أما في غيرها فكانت متأخرة . وفيها اتجه الفن نحو فن الباروك . وبعد أن أمت الإنسانية إحدى نزعاتها المستديرة انتهت بربوبية طبيعية . فقد نزل مونتيني في كتابه « المحاولات ١٥٨٨ - ١٥٩٦ » بالعقل البشري إلى سوية عقل الحيوانات ، وهدم المفهوم القديم في تسلسل الخلق : الله الخالق والملائكة والانسان ثم باقي المخلوقات . ولم يخول إلى الله عملاً في عالم تسود فيه الصدفة والثروة ، ووضع الدين جانباً في حياتنا اليومية حتى أصبح لا يجدي نفعاً في ضبط السلوك البشري ، وقال أن الطبيعة تكفي نفسها بنفسها ، ومهما يكن عقلنا قاصراً فان حكمنا الشخصي يبقى ، مع ذلك ، في آخر الأمر ، الشيء الوحيد الذي نستطيع أن نعتمد عليه ، وقاعدة تفكيرنا الوحيدة وقاعدتنا الوحيدة في الحياة ، لأن ما يبقى في هذه الازمة هو الانسان .

الفصل الرابع

النهضة الاقتصادية

النهضة الاقتصادية حادث من أهم الحوادث التي تميز أوربة في القرن السادس عشر . ولفهم هذه النهضة يجب أن نرى طابع الحياة الاقتصادية حوالي آخر القرن الخامس عشر . وهذا الطابع نراه في الانتاج والمبادلات .

الانتاج

الانتاج الزراعي . - كان الأمير الاقطاعي في كل إمارة يحتفظ بقسم من أراضيه يفلحه لحسابه الخاص بواسطة العمال الزراعيين ويوزع الباقي منها على الفلاحين . وكان الفلاح على أرضه مزارعاً وراثياً . ويجب أن يميز هنا نوعين من الفلاح :

١ - الفلاح الحر ، وكان ملزماً بدفع الاتاوات الاقطاعية إلى الأمير والقيام بالسخرة . ويمكنه أن يترك اقطاعه بعد أن يوفي التزامه .

٢ - القن ، وكان ملزماً بدفع الاتاوات والقيام بالسخرة ، وليس له حرية ترك الأرض ، ولا حرية الزواج دون موافقة الأمير . وفي الواقع كانت القنانة آخذة بالزوال في آخر القرن الخامس عشر في أوربة أو على الأقل في أوربة الغربية .

الانتاج الصناعي . - كان هذا الانتاج يتأمن بشكل يشترى

فيه الصناعات الأولية والآلات وبشتغلون وحدهم أو مع بعض العمال (الرفقاء) ويبيعون انتاجهم الى المستهلكين مباشرة ودون وسيط .

وكان لكل صناعة هيئة ، لان الصناعات ، في كل مدينة ، ينظمون أنفسهم في رابطات أو جماعات حرفية تسمى « الجوراند » ثم أطلق عليها فيما بعد اسم « الاصناف » .

لقد كانت الجوراند هيئة مغلقة يخضع أعضاؤها ، ويسمون « المعلمين » ، الى بعض الشروط ، كأنجاز أثر نفيس ودفع رهن الانتساب . كما يخضع نشاط هؤلاء المعلمين الى أنظمة شديدة تضعها الرابطة : مثل نظام الصناعة (الفبركة) ، ونظام العمل من حيث مدة العمل وعدد العمال في كل مشغل ، وأحياناً تعيين الحد الاعلى للأجرة . ومن جهة أخرى كانت الجوراند تملك امتيازاً خاصاً وهو الحصر الذي تخوله إياها الحكومة . وغاية هذا النظام أن يؤمن الى المعلمين « حظوظاً متساوية » ، لاجتناب المنافسة ، والى المستهلكين المساواة في المنتجات .

لقد كان الانتاج الصناعي منظماً ، ولكن أنظمة الصناعة داخل الجوراند كانت تجعل التقدم الفني غير ممكن عملياً ، أو على كل حال صعباً جداً .

بيد أنه يجب أن نذكر أن جميع الحرف لم تكن منظمة على شكل جوراند لأن بعضها كان حراً . وفي الحقيقة أن حصر الجوراند لم يطبق الا في المدن ، وفي بعض الاحيان في ضواحيها . أما في الريف فكان تعاطي الحرف حراً .

المبادرت

كان تبادل المنتجات الزراعية والصناعية بين المناطق قليلاً في العصر الوسيط لأن الاقتصاد كان ضيقاً والمعاملات التجارية لا تجري إلا في نطاق محلي .

ولكن الأسواق العامة الموسمية تمت ، منذ القرن الثالث عشر ، وتشكلت طبقة من التجار تشتري وتبادل وتبيع . وقد عظمت أهمية هذه الطبقة خاصة في الجمهوريات الإيطالية وفي مدن الهانز والبلاد المنخفضة حيث كانت التجار يلتفون في رابطات . وإلى جانب أصحاب الثروة القديمة العقارية كان لهذا العالم من التجار ، الذي لا يملك أرضاً ، سبباً خاصاً . وكان كل عالم من هذين العالمين غير قابل لتفوذ الآخر .

غير أننا نرى ، في القرن السادس عشر ، تبديلاً في الحياة الاقتصادية بسبب نمو النشاط التجاري . ومن المحتمل أن يكون لهذه الثورة الاقتصادية أسباب نفسية كالرغبة في زيادة « اللذات الأرضية » والنجاح في الأعمال والحصول على أرباح طائلة . وقد قيل في هذا الصدد أن السياسة الاقتصادية القديمة قد تصدعت بقوة المصلحة الفردية . ولكن الاندفاع الحامس كان بتأثير الاكتشافات الجغرافية الكبرى أي بالاتصال الذي تم بين أوربه والقارات الأخرى .

لقد شهدت العصور القديمة والعصر الوسيط كثيراً من الرحلات الذين جابوا أنحاء العالم واستطاع التاجر البندقي ماركوبولو برحلته . التي قام بها في آخر القرن الثالث عشر ، أن يكتشف آسيا والصين خاصة ، ويضمن كتابه « العجائب » كثيراً من المعلومات التي يختلط فيها عنصر الاسطورة بالملاحظة العينية . ومنذ ١٤٢٠ أخذت الرحلات البحرية تتوالى ، ولكن

في نطاق محدود لا يتجاوز المناطق الشاطئية . أما الاكتشافات الجغرافية الكبرى فقد كسرت جميع هذه القيود وانطلقت في الآفاق البعيدة .

الاكتشافات الجغرافية الكبرى

اسباب الاكتشافات

كان تأثير الاكتشافات الجغرافية الكبرى عظيماً في تاريخ العالم ، ويتضح خاصة بالتوسع الاقتصادي . الذي طبع بطابعه اوربه ، في النصف الثاني من القرن الخامس عشر . فقد كانت الشعوب الأوروبية بحاجة إلى المعادن الثمينة وإلى التوابل التي لا تنتجها القارة ويمكن أن تجهزها بها آسيا الشرقية والجنوبية - الشرقية .

وكانت اوربه تستورد هذه الحاصلات الآسيوية منذ القديم وقبل الاكتشافات الكبرى ، ولكن بطرق غير مباشرة . وبنتيجة ذلك كانت تستورد منها كميات محدودة وتدفع ثمنها غالباً ، فضلاً عن أن تأسيس الامبراطورية العثمانية في آسيا قد سد ، إلى حد ، الطرق البرية والبحرية في وجه التجارة الأوروبية مع البلاد الآسيوية . وكانت التجارة تسير في طريقين : الأولى قارية وهي « طريق الحرير » وتسلكها القوافل فتصل الصين وآسيا الوسطى بالبحر الأسود وسورية ؛ والثانية بحرية وهي « طريق التوابل » التي تذهب من الموانئ الصينية فسيلان والبحر الأحمر ومنه إلى الاسكندرية .

وكانت هذه المنتجات الآسيوية ، في طريقها إلى اوربه ، تمر بأيدي التجار العرب الذين يبيعونها في الاسكندرية أو في موانئ البحر المتوسط الشرقية أو الموانئ الإيطالية إلى البنادقة خاصة بعد أن دمر هؤلاء اسطول جنوة واستولوا على مراكزها التجارية .

إذن يوجد نوع من حصر عربي - بندقى . وهذا الحصر كان يسمح للوكالات التجارية في الاسكندرية ببيع المنتجات بأسعار مضاعفة لما تباع به في الهند وشرقي آسيا وجنوبها الشرقي ؛ وكانت غاية سكان اوربه الغربية أن يتخلصوا من هذه الحصر بالعثور على طريق تؤدي مباشرة إلى البلاد المنتجة دون عبور البحر المتوسط . وللوصول إلى هذه الغاية كان عليهم أن يغامروا في المحيطات . ولم يكن هذا ممكناً لولا تقدم العلوم وخاصة الرياضيات وعلم الفلك والملاحة البحرية ورسم المصورات الجغرافية . وقد ساعدت البوصلة والاسطرلاب ، اللذان كانا يستعملهما العرب ، على الملاحة في عرض البحار . كما ساعد تقدم صناعة السفن على صنع سفن جديدة ذات أربع سوارى ، تسمى « كارافيل » ، أكثر مرعة وأشد مقاومة لمجاهة العواصف في المحيطات .

ومهما قيل في هذا الموضوع فإن تجارة التوابل ، بطريق المحيط الهندي والبحر الأحمر ومصر ، التي يسلكها الملاحون العرب وأعوامهم البنادقة في البحر المتوسط ، لم تنقطع ولم تهدد جدياً في القرن الخامس عشر ؛ وإن امكانيات التموين لم تكن أقل من الحاجات . إلا أن الخوف ، الذي يملك النفوس من أن ترى هذه التجارة منقطعة يوماً ما ، قد لعب دوره ولكنه لم يكن جازماً قاطعاً .

ولاخلاف الآن في أن السبب الاول لكل هذا الطوفان حول العالم ، الذي لم يسبق له مثيل ، هو شيء آخر غير فرضية « الجوع إلى التوابل » ، انه « العطش إلى الذهب » .

كان الغرب في آخر القرن الخامس عشر يعاني أزمة اقتصادية . وذلك أن نمو المبادلات ، يشجعها الهدوء النسبي ، الذي ساد العلاقات

عصر النهضة (١٠)

بين الامم ، منذ آخر حرب المائة عام ، أخذ يصطدم بعوز متزايد للمعدن الثمين . فقد بدت موارد المناجم في أوربه لاتفي بالحاجة ، لان الطلب كان يفوق العرض باستمرار : ففي المانيا عاود استثمار المناجم أعماله بعد أن توقف منذ عهد الرومانيين . وفي فرنسا شجع لويس الحادي عشر البحث عن الذهب في رمال أنهار جبال البيرونية والسيفين . وفي ايطاليا ، وخاصة في جنوة ، كانت الاهتمام منصرفاً إلى شذور الذهب الذي يأتي من منطقة السودان على القوافل إلى موانئ مصر والمغرب العربي . وكان القلق يساور النفوس فتتساءل عن مصدر هذا الذهب . وكان الرحالة يتجهون ، لهذه الغاية ، نحو أوساط أفريقية ، مثل مالقانت . فقد قام برحلة عبر الصحراء الكبرى ومضى قدماً حتى توات . ولكنه لم يوفق إلى بلوغ مايريد لان سكان البلاد كتموا عنه أمر استخراج الذهب في الجنوب على ضفاف نهر سغال .

هذا ولا يعزب عن البال كريستوف كولومب ، مكتشف أمريكا ، كان جنوباً وقضى شبابه في خدمة مؤسسة سانتوريون التي كانت تصنع الاجواخ والانسجة الحريرية وأخذت على عاتقها نفقات رحلة مالقانت إلى افريقية . وإذا فقد عاش كريستوف كولومب في وسط يهتم بالمال والمعادن الثمينة . ولا شك في أن ذهنه قد تفتح باكراً على هذه الامور ، حتى أنه في إقامته الاولى في البرتغال ، من ١٤٧٤ إلى ١٤٨٤ ، كانت يهتم خاصة بالبحث عن الذهب وبامكان اكتشاف مناجم جديدة عبر العالم .

وقبل هذا التاريخ بخمسين عاماً قام البرتغاليون بفتح وتصوير شواطئ افريقية القريبة منهم ، وامتدوا على طول الشاطئ الغربي ، ووصلوا إلى

مصب نهر سنغال ، وأسسوا مركزاً تجارياً بحرسه حصن في جزيرة آرغوان بالقرب من الرأس الأبيض . ومنه أخذوا يتاجروا بالذهب والرقيق . واستطاعوا ، في العام ١٤٥٥ ، أن يحصلوا على امتياز بابوي يخولهم الاختلاف إلى هذه الاصقاع والمتاجرة معها . وعلى أثر هذا الحادث وضعت قضية جديدة وهي تموين البلاد المكتشفة أو التي ستكتشف في المستقبل .

وعلى شاطئ غامبيا تأسس عام ١٤٨٤ موقع المينا أو القديس جورج المينا أو منجم ملك البرتغال ، كما يقال في فرنسا ، حيث يشترى الذهب الذي يجمعه سكان البلاد من الأنهار المجاورة . ثم توالى الحملات والرحلات الاستكشافية إلى أن توصلت أوربه إلى فتح طريق الهند واكتشاف العالم الجديد .

الحوادث الأساسية

وهذا الجهد ، الذي بذل للبحث عن طريق بحرية للهند ، أدى إلى الاكتشافات الكبرى . وكان في طريقين أساسيتين :

أ. (طريق المحيط الأطلسي بالطواف حول القارة الأفريقية . سلك هذه الطريق البرتغاليون في رحلاتهم المنظمة تنظيماً أصولياً ونخص بالذكر منهم بارتولومه دياز . فقد وصل إلى رأس الرجاء الصالح عام ١٤٨٧ ؛ وفاسكو دوغاما ، الذي توصل إلى كالكوته على شاطئ الهند (٢٠ أيار ١٤٩٨) . ومنها أخذت السفن محمولها بالتوابل والحاصلات الأخرى وقفلت راجعة . وهكذا دخل طريق الهند في التاريخ الأوربي .

ب (طريق الغرب ؟ ويراد بذلك أن يعبر المحيط الأطلسي للوصول إلى القارة الآسيوية ، وذلك لأن أوربه كانت تجهل في ذلك الحين ،

وجود القارة الاميركية . وكان يظن أن المسافة ، التي يجب قطعها للوصول إلى آسيا عن هذه الطريق ، أقصر بكثير مما هي عليه في الواقع . وقد اكتشف هذه الطريق كريستوف كولومب الجنوبي الاصل ، وكان يشتغل لحساب الملكية الاسبانية . وكانت أولى رحلات كولومب عام ١٤٩٢ وفيها توصل الى كوبا وسن دومينغ ، كما توصل برحلته التي قام بها فيما بعد الى شاطئ فينزويلا الحالية .

وبفضل كولومب اكتشفت القارة الاميركية . وبما لا شك فيه أن كولومب كان يبحث في رحلته عن الذهب في « بلاد الهند » . وقد ظن أثناء رحلته الاولى أنه توصل الى الهند ولم يفكر باكتشاف عالم جديد ، كما لم يقدر الاسبانيون عظمة اكتشافهم الا أخيراً .

ثم قام آخرون ، غير كولومب ، يكتشفون البحار وأراضي العالم الجديد . وتوالت السفن تسير على هدى الرائد الاول ، وظلت الاسطورة تضع بلد الذهب « الدورادو » في مكان ما في الجنوب وتتناقلها الألسن فتلهب الخيال وتشعذ الهمم .

كانت هذه الرحلات عاملاً قوياً في دفع نشاط البرتغاليين والاسبانيين . فقد بادر البرتغاليون باستثمار اكتشافهم للطريق الجديدة للتوابل بواسطة المحيط الهندي . فمئذ ١٥٠٤ انجبت من لشبونة اثنتا عشرة سفينة نحو آسيا . وكانوا يهدفون الى أن يحل الحصر البرتغالي محل الحصر العربي - البندي . ولذا كانوا يكتمون أمر رحلاتهم وعلاقاتهم التجارية التي يعقدونها مع البلاد المكتشفة ويعملون على تأسيس مراكز ومستودعات تجارية ، وخاصة في غووا الهند ، وعلى تنظيم تجارتهم . ويمكن القول أن النفوذ الاقتصادي البرتغالي في الهند قد تأسس منذ العام ١٥١٩ .

وحاول البرتغاليون ان يوسعوا علاقاتهم التجارية الى أبعد من الهند .

- ففي عام ١٥١٧ وصلت السفن البرتغالية الى كاتتون . وفي عام ١٥٢٢ ذهب البوكرك للبحث عن التوابل في جزر الصوند ومولوك . وفي عام ١٥٤٢ صاقت السفن البرتغالية اليابان حيث كان الدايمو يشترون منها الاسلحة النارية . وفي عام ١٥٥٢ اقام البرتغاليون في جزيرة ماكاو حيث كان التجار الصينيون يبيعونهم الحرير ويشترون منهم التوابل والانسجة القطنية والافيون .

وهكذا نرى أن البرتغاليين ظلوا قرابة ٣٠ سنة سادة التجار في بحار آسيا وافريقية ، وأسسوا على شواطئها مراكز تجارية ترتبط بالبرتغال مباشرة ، وتوالي من رأس بوجادور الى جزيرة مولوك .

أما الاسبانيون فكانوا في الوقت نفسه منهمكين بالقارة الامريكية . ولم يجدوا فيها التوابل ، ولكنهم وجدوا المعادن الثمينة من ذهب وفضة . ومن هنا نشأت فكرة الفتح . ولقد قال فرناند كورتيز ، أحد من دفعهم حب المغامرة فجاء يبحث عن الثروة في هذا العالم المجهول : دلم آت الى هنا فلاحاً لزراعة الارض ، وانما اثبت باحثاً عن الذهب . ولقد عرف هذا الفتح بحملة كورتيز التي قوضت امبراطورية الآزتيك بالاستيلاء على مكسيكو عام ١٥٢١ ، وبحملة فرنسيسكو بيزارو ، وآلماغرو اللذين أوغلا في امبراطورية الانكا عام ١٥٣٢ وانتهى الأمر بنهب عاصمتها كوزكو في ١٥٣٣ . وقد توصل الاسبانيون الى هذا الظفر بسهولة بالرغم من ضعف عددهم ، لأنهم كانوا لايتجاذزون بضع مئات . والفضل في ذلك يرجع الى تفوق سلاحهم . ولم يخل هذا الفتح من أعمال العنف والتخريب والابادة والافناء .

ومع هذا لم يتوصل الاسبانيون الى ايجاد طريق مباشرة للهند . وما رحلة ماجلان ، وهو برتغالي وصديق لالبوكرك ، في خدمة الاسبانيين

عام ١٥١٩ ، وطوافه حول القارة الاميركية ، واجتيازه المحيط الهادي ،
الا في سبيل هذه الغاية . ولكنه أودى في جزر الفيليبين في نيسان
١٥٢١ في حربه مع السكان الاصليين ، وتمت هذه الرحلة من قبل أحد
أعوانه دل كانو ، الذي عاد إلى اسبانيا عن طريق رأس الرجاء
الصالح . وكانت هذه الرحلة اول جولة حول العالم (١٥١٩ - ١٥٢٢)
وعندما أبحرت كانت تتألف من ٥ سفن و ٢٦٥ رجلاً ، ولم يرجع منهم
الا ١٨ رجلاً وسفينة واحدة واسمها « النصر » . وقد توصلت هذه
السفينة إلى جزر الملوك وشعنت منها التوابل وباعتها فغطت جميع النفقات
التي تكلفتها الرحلة .

لقد أدت هذه الجهود المبذولة إلى تشكيل امبراطوريتين كبيرتين لكل
منها طابعها الخاص .

٢ - الامبراطورية الاسبالية ، وتضم نحو عام ١٥٤٠ جزر الأنتيل
وامريكا الوسطى وكاليفورنيا وفلوريدا وشاطئ فينيذويلا والمضاب العليا
في بيرو وشيلي ، ويضاف لها في العام ١٥٦٠ منطقة ريودولابلاتا . وقد
نظمت ادارة هذه الامبراطورية منذ تأسيسها وشرع باستثمار مناجمها
وأراضيها الزراعية على أيدي المغتربين الاسبانيين ودامت الحال هكذا
خلال ثلاثة قرون .

٣ - الامبراطورية البرتغالية . وتشمل موانئ متفرقة على ساحل
افريقية الشرقية في موزامبيك وشاطئ الخليج العربي والهند وجزر الصوند
وميناء ماكاو في الصين . وعدا ذلك ، حافظ البرتغاليون في المحيط الاطلسي
على جزر الرأس الاخضر ، وجزيرة الصعود (١) والقديسة هيلانة وبعض

(١) اكتشفت هذه الجزيرة في يوم الصعود ولذا سميت بهذا الاسم .

أراضي على شاطئ إفريقيا وأخيراً البرازيل . ولكن سكان البرتغال ، وهم مليون نسمة ، كانوا قليلي العدد لا يستطيعون أن يمدوا بنفوسهم هجرة حقيقية . ولذا فإن الامبراطورية البرتغالية ، على نقيض الامبراطورية الاسبانية ، كانت تتألف من شبكة بسيطة من المحطات في المناطق الشاطئية ، ولم تستطع ان توغل في داخل البلاد المكتشفة وتفتح أراضي واسعة . وهذا مايفسر لنا الانحطاط السريع الذي منيت به الامبراطورية البرتغالية ، لأن البرتغال أهلكت نفسها بعمل كاث ، في الحقيقة ، أعظم بكثير مما في وسعها .

نتائج الاكتشافات

لقد كان لهذه الاكتشافات الكبرى التي وطدت الاتصال بين أوربه والقارات الأخرى نتائج هامة نجلها فيما يلي :

(١) النتائج السياسية . - وهي ان « الشعوب المستعمرة » أصبحت دولا كبرى . وقد عرفت الدول الاوربية بسرعة ضرورة الحيلولة دون هذا التضخم ، الذي جعل هذه الدول الكبرى الناشئة تفوق غيرها بمراحل . وهذا ما يوضح كيف ان التوسع الاوربي ادى إلى منازعات دولية .

(٢) النتائج الدينية . - وهي أن « الشعوب المستعمرة » حاولت نشر دينها في البلاد التي اكتشفتها . وقد أفادت الديانة الكاثوليكية خاصة من الاكتشافات لان اسبانيا والبرتغال بلدان كاثوليكيان . وكانت البعثات الدينية عاملا في هذا التوسع الديني .

(٣) النتائج الفكرية . وهي أن الناس ، الذي جرى بين أوربه والقارات الاخرى ، ساعد على تقدم بعض العلوم كعلم الاجتماع والنبات

ودراسة الاقوام (الاثنوغرافيا أي دراسة ووصف الامم المختلفة من حيث الظواهر المادية لنشاطها) . ولكنه وسع خاصة أفق الاوربيين بفضل الملاحظات ، التي استطاعوا تسجيلها ، عن حضارات وديانات القارات الاخرى . فحتى ذلك التاريخ كانت الحضارة الاغريقية - اللاتينية في أعين الاوربيين مركز البشرية ، ولكن الاكتشافات بدلت هذه المفاهيم بظهور مفاهيم جديدة .

٤ (النتائج الديموغرافية . - وهي أن أعمال المناجم والاغراس في أمريكا كانت تتطلب أيدي عاملة بعد أن قضى الاسبانيون على السكان الاصليين أو على حضارتهم . ولذا كان الاسبانيون يشرون زنج افريقية ويأثون بهم الى أمريكا ، وأسسوا بعلمهم هذا تجارة الرق التي وسعها الملاحدون الانكليز فيما بعد ، ودامت حتى القرن التاسع عشر ، ونقلت ملايين الزنوج الى العالم الجديد ، ووضعت « قضية الملونين » .

٥ (النتائج الاقتصادية . - ان العلاقات التي تمت بين أوربه والقارات الاخرى كانت ذات نتائج عظيمة في الاقتصاد العالمي ، وأول هذه النتائج وأهمها تحول طرق التجارة العالمية بين أوربه وآسيا ، فقد أضاع البحر المتوسط مكانته الاولى التي كانت له في القديم وحل محله المحيط الاطلسي . ورأت جنوة ومرسيليا ، وخاصة البندقية ، دوركسوف وانحطاط . ولبثت الحالة هكذا حتى القرن التاسع عشر ، الى أن فتحت قناة السويس واستعاد البحر الابيض المتوسط جزءاً من مكانته .

ومع هذا فان البحر المتوسط لم يفقد مكانته تماماً ، فما زال محافظاً على أهميته لانه مازال طريق الحرير . ولكن هذه الاهمية تعد ضئيلة اذا ماقيست بأهمية موانئ الاطلسي مثل لندن وبريستول وانقرس وروان وبوردو .

والحادث الهام في هذه المواصلات هو انتقال الثروة ، ونهوض الحياة الاقتصادية الاوربية وخاصة بين ١٥٢٠ و ١٥٦٠ . ومن الممكن أن يقال ان ثورة اقتصادية حقيقية حدثت في ذلك التاريخ . وقد ظهرت هذه الثورة جلياً فيما يأتي :

١ - تدفق الثروات . ان العلاقات الاقتصادية التي تأسست بين اوروبا والقارات الاخرى أحدثت تدفقاً في البضائع (السلع) وتدفعاً في المعادن الثمينة .

أ (تدفق السلع . - لقد استطاعت التجارة البحرية أن تأتي بالبضائع الآسيوية بكميات كبيرة لم تكن لتستطيعها التجارة القديمة ، أي تجارة العرب والبنادقة ، فقد أخذت آسيا تجهز أوروبا مباشرة بالتوابل ، التي نظمت تجارتها في البرتغال بشكل حصري يد الدولة ، وبالإحبار الثمينة والعطور وغيرها . ومن جهة ثانية أخذت القارة الاميركية تجهز أوروبا بالتبغ والسكاكاز والسكر .

وكانت هذه السلع تأتي الى « المستودعات الكبرى » في موانئ لشبونة واسبيلية وقادس . ولكن توزيع هذه البضائع في اوروبا لم يكن بأيدي الاسبانين والبرتغاليين ، بل كان بأيدي الهولنديين الذين كانوا مجهزين بجميع الوسائل . وبفضلهم أصبحت آنفوس مدينة تجارية عظيمة حتى للمنتجات غير الاوربية ، وأخذ التجار الالمانيون ، الذين كانوا يذهبون سابقاً الى البندقية للبحث عن المنتجات الآسيوية ، يبحثون عنها في آنفوس أو لشبونة .

ونتيجة هذا الحادث هي أن آثار الاكتشافات ظهرت مباشرة لا في اسبانيا والبرتغال فحسب ، بل في البلاد المنخفضة ، وذلك بتأسيس تيارات تجارية جديدة .

وكانت تجارة هذه السلع الاستعمارية تأتي بأرباح باهظة وتقدر غالباً بأكثر من ٢٠٠٪ وتغذي نشاط أصحاب السفن والتجار . وقد أصبح لدى هؤلاء ، بفضل الأرباح الجسيمة التي حصلوا عليها ، رؤوس أموال عديدة ويمكنهم ان يوظفوها في مشاريع أخرى .

ب (تدفق المعادن الثمينة . - لقد لعب استئجار القارة الاميركية دوره الاساسي في هذا الشأن . فاكتشاف مناجم الذهب في بيرو والمكسيك وخاصة اكتشاف مناجم الفضة في بوتوزي ، التي فتحت عام ١٥٤٥ ، كان حادثاً عظيم الأهمية ، لأن متوسط الانتاج السنوي للفضة ، الذي كان ٩٠٠٠٠ كغ عام ١٥٢٠ ، بلغ ١١٩٠٠٠ كغ حوالي العام ١٥٨٤ .

وأدى تدفق هذه المعادن الثمينة الى ارتفاع الاسعار ، اولاً في اسبانيا منذ ١٥٢٥ ، ثم في فرنسا ونيثا فشيئاً في بلاد أوربه الغربية الاخرى . وتسارع ارتفاع الاسعار حوالي منتصف القرن ، واستغربه اهل العصر ، حتى ان جان بودن ، القاضي والكاتب السيامي الفرنسي ، ذكر في خطاب له عن « أسباب الغلاء الفاحش في فرنسا عام ١٥٧٤ » ، ولاحظ جيداً أن تدفق المعادن الثمينة كان « السبب الاصيل والوحيد تقريباً » في غلاء الأسعار . ولكن هذا الغلاء وسع نطاق الأعمال والمصالح . ومن جهة ثانية ، كان الأوروبيون ، مقابل هذه السلع والمعادن الثمينة ، يجهزون السكان الأصليين بالبضائع وخاصة الأقمشة والأجواخ . وهذا الطلب الجديد ، بالنسبة إلى أصحاب المصانع الأوروبية ، حدا بهم إلى زيادة انتاجهم ، ودعا إلى كثرة الوسطاء الذين ينقلون هذه المنتجات الصناعية ويبيعونها ثانية إلى المصدرين .

٢ - الاشكال الحديثة للحياة الاقتصادية . لقد أدى انتقال البضائع

والنقود إلى تراكم الأرباح العظيمة في أبدي التجار ، ففقدوا أصحاب ثروات ضخمة . وحاولوا أن يستعملوا رؤوس الأموال الجاهزة لديهم بشكل مثمر يدر ربحاً عليهم . فمن ذلك أنهم أخذوا يشترون الاراضي ويشيدون الأبنية ، كما بحثوا أيضاً عن أماكن أخرى يوظفون فيها أموالهم . وعلى هذا النحو ظهرت أشكال جديدة للحياة الاقتصادية .

(أ) الاشكال الجديدة للمشاريع . - لقد ظهرت ، في القرن السادس عشر ، صناعة من نوع جديد إلى جانب الصناعات التقليدية التي تشكلت في نطاق الجوراند . فقد نظم أصحاب المصانع والفبارك أعمالهم في الارياف . وكانوا يشترون المواد الاولية ويؤجرون الانوال للقرويين ويشغلونهم لحسابهم .

ظهرت هذه الصناعة خاصة في بلاد الفلاندر وانكلترا . كما وجد هذا الشكل الجديد في صناعة استخراج الفلزات المعدنية والطباعة . وهذه الصناعة الجديدة ، التي نجد فيها التاجر صاحب مصنع ، هي صناعة رأسمالية .

(ب) دور المصارف . - لقد أفاد أصحاب البنوك من رؤوس الاموال الجاهزة ، وكانوا يدفعون إلى الرأسماليين فائدة ثابتة مقابل ما يوظفون عندهم من مبالغ ، وقد ظهر هذا النوع في اوغسبورغ في المانيا الجنوبية . وشهدت البنوك نمواً عظيماً في ايطاليا وخاصة في المانيا . ولعب أصحاب البنوك دورهم ، وأصبح شأنهم كبيراً ولا سيما بعد ازدياد حاجة سادة أوربه إلى المال . ففي اسبانيا والبرتغال أنفقت الحكومات مبالغ جسيمة لتجهيز أساطيلها التجارية وارسالها إلى البلاد البعيدة ، ورأت نفسها مضطرة للاستدانة من أصحاب البنوك ريثما تأتيا الارباح التي تنتظرها من بيع السلع . وفي فرنسا والامبراطورية المقدسة كان الملوك يمدون أيديهم إلى هذه البنوك للحصول على الموارد الضرورية لسد نفقات الحروب .

وهكذا نرى ، في القرن السادس عشر ، تأسيس نظام اقتصادي يتصف ببعض الصفات الجديدة من تجمع النقد في أيدي فئة قليلة من الناس وهم كبار التجار وأصحاب البنوك ، واستعمال المال في شراء أكداش البضائع أو القروض بالفائدة . وهذه هي طلائع الرأسمالية كما نعرفها في القرن التاسع عشر ، لأن رأسمالية القرن السادس عشر كانت رأسمالية تجارية ومالية ، ولكننا نرى فيها ظهور النبتة الاولى للرأسمالية الصناعية .

على أن هذه الثورة الاقتصادية كان لها نتائج هامة من الوجهة الاجتماعية .
 أ) عند طبقة النبلاء ، لأن هذه الطبقة في أوربه أو على الأقل في فرنسا والمانيا ، أصبحت فقيرة . كانت تتقاضى من فلاحها اتوات الاراضي وأجورها نقداً ثابتاً لمدة طويلة قد تبلغ ٩٩ سنة ، بينما كانت سعر الحياة آخذاً بالارتفاع ، حتى اضطر النبلاء أن يستعطفوا الملك ليبدلهم وظائف في البلاط أو وظائف عسكرية . وبالتالي أصبحت طبقة النبلاء منوطة بالسلطة الملكية .

ب) عند المعلمين ، سواء رؤساء أصناف الحرف أم أصحاب الصناعة الذين أثروا ونزعوا الى جعل « العملية » صعبة المنال ليحجزوها لأولادهم وأنسابهم ، فالتسعت بذلك المسافة بين المعلمين والرفقاء .

ج) عند التجار الذين رحبوا أرباحاً ضخمة .
 وهكذا نشاهد تشكل طبقة بورجوازية غنية لها شأنها ، ونخص فيها أصحاب البنوك الذين لعبوا دوراً عظيماً .

ولكن هذه الثورة الاقتصادية كان لها صداها في الحقل السياسي .
 ١ - ان دور الاكتشافات الكبرى يسجل بداية تاريخ عام للعالم . ففي القرن السادس عشر تم التماس بين القارات بعد أن بقيت حتى ذلك

- ١٥٧ -

الحين منعزلة عن بعضها ، وفيه بدأت اوربه تبسط نفوذها على العالم .
٢ - ان اتساع المبادلات غير قيمة الدول الاوربية . فمن ذلك أن
البلاد المنخفضة أصبحت ذات مكانة في السياسة الدولية أكبر بكثير مما
تسمح بالتفكير به ابعادها الجغرافية ، وهذا يرجع إلى الدور الرأسمالي
الذي كان يلعبه تجارها في الاعمال التجارية .

٣ - ان الاشكال الجديدة في التنظيم الاقتصادي كسرت إطار التقليد
المتعارف عليه في العصر الوسيط ، وساعدت على نمو الاستقلال الفكري .
مثال ذلك : ان الطبقة البورجوازية الغنية كانت ترغب في أن يكون
للدولة نظام نافذ ، والا يكون النفوذ لطبقة النبلاء وحدها في هذا النظام ،
أي أنها أخذت تنافس الطبقة الارستقراطية وتتطلع إلى الادارة والحكم .

★ ★ ★

الفصل الخامس

النهضة الدينية

الاصلاح البروتستاني

كان انقسام الوحدة الدينية ، في أوربة ، في القرن السادس عشر ، من أهم الصفات المميزة لبدء الازمنة الحديثة . وكان هذا الشقاق نتيجة لازمة الاصلاح الديني ، الذي قام به المصلحون الدينيون عندما رفضوا قبول بعض النقاط الاساسية في مذهب الكنيسة الكاثوليكية وأسسوا كنائس جديدة انفصلت عن الكنيسة الرومانية وتوسعت ودامت إلى يومنا هذا .

لقد كان هذا الانفصال الحديث البروتستاني أشد خطراً على الكنيسة الام من انفصال الكنيسة الشرقية الارثوذكسية عام ١٠٥٤ لأن هذه القطيعة لم تشمل في الواقع إلا أناساً لم يخضعوا في السابق إلى روما .

أسباب الاصلاح البروتستاني . - لفهم هذه الاسباب يجب أن نلاحظ الحالة العامة التي كانت عليها الكنيسة في آخر القرن الخامس عشر .

يلاحظ ، في الاوساط المتعلقة بأعذاب الدين والمتمسكة باخلاص في العقيدة ، قناعة ترمي إلى ضرورة اصلاح اصول الحكم والادارة في الكنيسة وفي طرق التنقيف الديني عند الاكليروس وعند المؤمنين . وهذه القناعة تظهر في نزعتين مختلفتين : فقد كان البعض يهتمون خاصة

بمعالجة المساواة التي يرونها في ادارة الكنيسة ؛ وكان الآخرون يعنون خاصة بتقوية الثقافة الدينية .

فكرة الإصلاح في ادارة الكنيسة . - لقد كان يبدو للناس أن الباباوات ، في حكم الكنيسة ، يضعون نصب أعينهم جمع أكبر قسط ممكن من المال من الاكليروس ومن الشعب ، وذلك لأن البابا ، رئيس الكنيسة ، كان في الوقت ذاته زعيماً زمنياً وبحاجة إلى موارد تؤمن نفقات بلاطه ، الذي يعد أفخم بلاط في أوربه ، ونفقات سياسته الايطالية . وهذا ما يفسر لنا فداحة الضرائب التي يفرضها الباباوات ، والتجارة بالمناصب الدينية وبيع صكوك الغفران .

ومن جهة أخرى ، كان تعيين الاساقفة ورؤسائهم يجري بموجب اتفاق بين البابا والحكومات الاوربية . وكثيراً ما كانت الحكومات ترشح لمثل هذه الوظائف امراء وبورجوازيين أغنياء لا يهتمون بوظيفتهم الروحية ، ولا يقيمون في اسقفياتهم ، بل ينصرفون إلى التمتع بالاموال التي تدخل عليهم .

وكثيراً ما اعترض ، على هذه الاعمال ، بعض عناصر الاكليروس ، وخاصة من كانوا منهم تابعين إلى طريقة الاديرة ، وألحوا على ضرورة الإصلاح ، الذي بدأت حركته تظهر ، منذ القرن الرابع عشر ، وأدت إلى اتجاه في الرأي يرمي لإصلاح عام في الكنيسة . ففي مجمع بال الذي عقد عام (١٤٣١ - ١٤٤٩) صرح الكاردينال جوليان سيواريني بضرورة إصلاح الكنيسة في رئيسها وأعضائها . وهذه الضرورة قبلت عامة في فرنسا والمانيا والبلاد المنخفضة في آخر القرن الخامس عشر . ويتلخص برنامجها فيما يلي :

أ - تخفيض الضرائب ، وذلك يكون بتخفيف البذخ الذي ينعم به بلاط روما .

ب - إلغاء العرف الذي يجعل المناصب الدينية العليا في صالح الأمراء .
ج - توطيد النظام بين أعضاء الاكليروس ، وذلك بتربيتهم تربية قوية . وهذا الاصلاح يمكن تحقيقه في النطاق الذي يتطلبه الدين الحنيف حتى ان أعضاء الاكليروس ، الذين يفضلون هذه الاصلاحات ، لا يتعرضون الكثير من القضايا الهامة ، ولا يضعون على بساط البحث والمناقشة قضية سلطة البابا ونظم الكنيسة ، وأقل من هذا أيضاً قضية سلطة العقيدة . وبالرغم من ذلك فان الكرمي الرسولي لم يفكر باجراء هذا الاصلاح ، لأن زعماء الكنيسة كانوا منهمكين في المنازعات السياسية ، وكان الباباوات في آخر القرن الخامس عشر وأول القرن السادس عشر ، ينصرفون عن وظائفهم الدينية ، التي هي من صميم اختصاصهم ، ويهتمون بالمصالح العامة المسيحية . فمن ذلك أن حياة الكسندر السادس بورجيا (١٤٩٢ - ١٥٠٣) كانت مشينة تدعو إلى الشك ، وأن جون الثاني (١٥٠٣ - ١٥٢١) كان محارباً يلبس الخوذة ويقود الجيوش في الحروب الايطالية ، وأن ليون العاشر (١٥١٣ - ١٥٢١) جعل روما مركزاً مضيقاً للنفقة ، وفي عهده نشبت الثورة الدينية على يد مارتن لوتر .

فكرة الاصلاح عند الانسائيين . - أما في الأوساط الفكرية فقد قامت حركة جديدة أشد خطراً على الدين من غيرها ، وهي حركة الانسانية . لأن الانسانية ، كما رأينا ، كانت مظهرأ من مظاهر النهضة يتمثل بهذا الجهد الذي يبذل في سبيل التحرر من أنظمة العصر الوسيط الفكرية والعودة إلى دراسة القديم دراسة مباشرة ليرى كيف كان تفكير المؤلفين القدماء في الانسان والكون .

ظهرت هذه النزعة الجديدة في الانسانية التقدمية في ايطاليا ، منذ منتصف القرن الرابع عشر ، على يد لورانزو فاللا وبيك دولا ميранدول ، اللذين طبعا الأصول الحديثة في التفسير ، التي تعتمد على الفلسفة والتاريخ والنصوص القديمة . ويعتبر لورانزو فاللا أول من دشن الدراسة الانتقادية في النظم الدينية واصولها في تفسير الكتاب المقدس .

وامتدت هذه الحركة الانسانية إلى البلاد المنخفضة على يد ارزموس ، الذي عرف لورانزو فاللا وبيك دولا ميранدول . ففي كتابه المسمى « كتاب الفاسد المسيحي » ، الذي نشره عام ١٥٠٤ ، يوسع الفكرة القائلة بأن اللاهوت الحديث يجب أن يعتمد على دراسة الكتاب المقدس وحده ، ويجب أن يكون دارس الكتاب المقدس فقيهاً في اللغة ومؤرخاً . وامتدت هذه الحركة إلى فرنسا على يد لوفيفر ديتابل ، وقد ذهب هذا إلى ايطاليا وتعرف ببيك دولا ميранدول ، كما امتدت إلى انكلترا على يد جون كوليت الأستاذ في جامعة او كسفورد .

كان هؤلاء الانسانيون يحترمون من الوجهة الدينية تعاليم الكنيسة ولا يريدون ، في الأصل على الأقل ، أن يقطعوا علاقتهم مع الدين الخفيف ، إلا أن طرقهم كانت ، بطبيعتها ، تؤدي إلى زعزعة النظام الفكري في الكنيسة ، وذلك لسببين :

١ - لأنهم طبقوا على النصوص الدينية القواعد الانتقادية التي طبقوها على النصوص الدنيوية ، وأرادوا أن يخلصوا النصوص المقدسة مما علق بها ، مع الزمن ، من اضافات تدعو إلى الشك ، ويفسروها تفسيراً يرجعها إلى معناها الحقيقي . ويزعمون أنهم يتوصلون إلى تعاليم المسيح والحواريين الحقيقية بابعاد الاحاديث غير الصحيحة والأساطير . وجهدهم هذا يؤدي عصر النهضة (١١)

ولا شك إلى « إعادة النظر » في مصادر المذهب المسيحي .

٢ - لأنهم كانوا يقومون بهذا الجهد بسلطتهم الخاصة باسم الحقوق ، التي منحوها الفكر الانتقادي ، ويتوسعون في تطبيق حرية التفسير ، التي تحرر المؤمنين من القواعد القاسية التي وضعها اللاهوتيون في العصر الوسيط .

وهذه المحاولة تؤدي إلى قبول حرية الفكر الديني التي تفتح إلى هدم الاعتقاد بسلطة البابا ، وهذا مالا يرضى عنه الكرسي الرسولي الذي لا يسمح بس هذه السلطة . وأمل الانسانيون أن لديهم من التأثير ما يجعل البلاط الطبري يسير في الطريق التي يسرون فيها ، وزادهم اعتقاداً بهذا الرأي ما لمسوه عند البابا من عدم اهتمام لما يعملون .

وقد نتساءل أي السببين كان له شأن أعظم من الآخر ، هل هو كفاح المساواة في إدارة الكنيسة أو كفاح الأفكار المتعلقة بالحركة الانسانية ؟ لقد كان المؤرخون في السابق يعلقون أهمية كبرى على السبب الأول ، ولكنهم ، في الوقت الحاضر ، ينجحون إلى اعطاء الأهمية للسبب الثاني ؛ ولا يشكون في أن الاستياء ، الذي سببه فساد الإدارة في الكنيسة ، قد ساعد على حركة الإصلاح .

وقد أخذت فكرة الإصلاح في الكنيسة شكلاً ثورياً بتأثير بعض الاشخاص وخاصة مارتن لوتر .

مارتن لوتر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) - ولد مارتن لوتر في ١٠ تشرين الثاني سنة ١٤٨٣ في ايشلين في اقليم ساكس ، بالمانيا ، في المنطقة العليا المشجرة التي تمتد من هارتز إلى تورنجه . كان أبوه هانس ، في بداية أمره ، فقيراً ثم تحسنت حاله ، لاشتغاله في إدارة منجم . وتربى لوتر

في طفولته تربية صارمة وشديدة . ففي مانسفلد ثم في ماغدبورغ تعلم على يد « اخوة الحياة العامة » قواعد اللغة والتأويل . وأتم دراساته اللاتينية في إيشلبن . وفي عام ١٥٠١ دخل جامعة ارفورت لدراسة الحقوق تنفيذاً لرغبة أبيه . ويبدو أنه لم يكن على اتصال وثيق بالإنسانين الذين يهتمون بالدراسات القديمة الأدبية ويزدرون الاعتقادات الشعبية .

نشأ لوثر شديد الحساسية ، ملتهب الخيال ، قلق الفكر ، يخامرهُ الخوف من الذنب والشيطان ورهبة العدل الآلهي . وقد حدث له حادثان ولدا عنده أزمة نفسية : فقد صديقاً عزيزاً عليه ، وفاجأته ، في ٢ تموز ١٥٠٥ ، صاعقة ، وهو في الريف ، كادت تختطفه ، فخاف أن يموت وعليه ذنب ، وبعد خمسة عشر يوماً على هذا الحادث ، أي في ١٧ تموز ١٥٠٥ ، دخل دير الاوغستين في ارفورت وسمج له رئيس الدير أن يتابع دراسة اللاهوت ثم عين استاذاً لهذه المادة في جامعة فتامبرغ ، على خفاف الألب ، في ساكس الشمالية ، واكتسب بفصاحته شهرة عظيمة .

وفي عام ١٥١٠ زار روما وقضى فيها شهراً ، وكانت في نظره المدينة المقدسة التي تشع منها على العالم تعاليم المسيح والفضائل الروحية . زار المعابد والمصليات والدياميس . ولم يخامرهُ شك في حقيقة النظام الكاثوليكي السائد بالنسبة لتعاليم المسيح . ولم تأخذه أبهة النهضة ، ولم يعنف الفن إذا كان في خدمة الدين . غير أن الطابع العصري والسيامي والعسكري في بلاط جول الثاني وبهارج الاحبار في روما أثارت دهشة هذا الراهب المتكشف الكلف بالحياة الباطنية ، الذي لا يعرف من عصره سوى المدارس الصغيرة في ماكذبورغ وايزناخ وهيئات الاديرة في ارفورت وقتامبرغ . رأى في روما أن القداسات قصيرة بينا الأعياد والاستقبالات

طوبية . ولم يدر من فضائح البلاط البابوي إلا ما نقل اليه . غير أنه ولى وجهه عن كل هذه الأشياء وبقي ابناً مخلصاً للكنيسة الرومانية .

لقد دخل لوثر الدير خوفاً من قضاء الله وظن أنه يستطيع أن يعيش براحة في أداء واجباته الدينية ، ولم يكن للصوم والتهجد وممارسة الزهد والنسك من تأثير فاعل على وجدانه المعذب لأنه لم يجد فيها يقين السلام . ولكنه قرأ آية في رسالة القديس بولس إلى أهل رومية وهي : « البار بالايان يحيا ، فاطمأن وبني مذهبه : « السلام بالايان وحده لا بالأعمال » ، هذا المذهب الذي هو أساس العقائد عند جميع الكنائس البروتستانتية . وفي العام ١٥١٥ - ١٥١٦ أخذ يوسع هذه الرسالة أمام تلاميذه ويعرض أفكاره الأساسية .

حدث صكوك الغفران . - الغفران في الأصل هو افتداء المؤمن ذنبه بالصوم أو الامتناع عن بعض المأكول ، أو هو العفو الذي تمنحه الكنيسة للمؤمنين لتكفير عن ذنوبهم . وقد حدث في سنة ١٥٠٦ أن البابا جول الثاني كان بحاجة إلى المال لاثام بناء كنيسة القديس بطرس ، ففكر في أن يحصل عليه بواسطة صكوك الغفران التي يمنحها للمؤمنين مقابل ما يدفعونه من أموال تصرف لأعمال البناء . وفي العام ١٥١١ عاد ليون العاشر ووعد بالغفران أيضاً ، حتى أن هذا الغفران يمكن أن يمتد إلى الأرواح المعذبة في المطهر ، وعهد بأمر الدعوة إلى الرهبان الدومينيكيين واختار لألمانيا الشمالية الشاب البوت براندبورغ ، رئيس أساقفة ماينس ، على أن يتولى آل فوغر ، صياقة أوغسبورغ ، حفظ الاموال التي تدفع لقاء بيع صكوك الغفران . ولكن التبشير بهذه الصكوك ، الذي قام به الراهب تيتزل الدومينيكي ، أخذ شكل الدعاية لمعاملة تجارية ، بعد أن عرضت صكوك الغفران للبيع أمام كوات البنوك .

ومن الملاحظ أن الاعتقاد الذي يستند اليه مبدأ صكوك الغفران يتعارض مع فكرة « التبرير بالايمان وحده » ، التي وجد فيها لوثر السلام الذي ينشده . لقد كان لوثر كأرزموس وهوس وويكيليف ينزع إلى ديانة داخلية ، أي إلى عبادة فكرية ترجع الطقوس والاعمال الدينية إلى رموز . ويبدو أن تيتزل كان يؤكد بامم البابا بأن الكنيسة الكاثوليكية تعلق الفكرة بحرفية النصوص . غير أن لوثر رأى أن وجدانه يميل عليه أن يظهر هذا الخطأ الذي من شأنه أن يهدم جوهر الفكرة المسيحية . وفي ٣١ تشرين الاول ١٥١٧ أعلن على باب كنيسة فسامبرغ خمسا وتسعين نظرية ضد صكوك الغفران . وهذه النظريات كانت أساساً للاصلاح البروتستانتي .

تتعلق هذه النظريات في جوهرها بذهب السلام بالايمان وحده أي « التبرير بالايمان » . لأن العفو أو السماح الذي يمنحه الكرسي الرسولي لايور المذنبين ، وان الذين يضعون آمالهم في صكوك الغفران أناس حكم عليهم بالشقاء إلى الأبد . وان الاساقفة والحوارنة واللاهوتيين ، الذين يسمعون بهذه الامور الضالة ، سوف يعترفون أمام الله بجرمهم . وعوضاً عن أن يبشر بصكوك الغفران كان من الواجب أن ينادى ، أمام المؤمنين ، أن البابا لو علم بالعبارات التي تقدم بها هذه الصكوك وبالمساومات التي أوجدت من أجلها ، لفضل أن يرى كنيسة القديس بطرس خراباً يباباً من أن يراها تبنى بجلد شياهه ولحمها وعظمها . ومع هذا فان لوثر لم يندفع بأفكاره حتى النهاية . فقد كان يؤمل ، مثل لوفيفر ديتابل أو ارزموس ، ان الكنيسة الرومانية تعرف كيف تجد في نفسها القوة الكافية للرجوع إلى الحق . ولم يتعرض لوثر لصدقات الكنيسة باللوم لأنها عمل من أعمال البر والاحسان ودليل على الايمان

الحي . ولم يطالب بعد بالحرية المسيحية أو العبادة بالفكر ، وما زال يؤمن بفضائل القداست الكاثوليكية ويقبل بمراتب الكنيسة ويعترف البابا بالسلطة العليا فيما يتعلق بنظام الكنيسة أو العقيدة ويضع بين يديه مذهبه الجديد .

وبقي لوثر ، خلال سنتين ، يوسع النتائج الثورية للمبادئ التي وضعها . واستمر النزاع في قضية صكوك الغفران واستمرى الجامعات . وقام تيتزل منذ كانون الثاني ١٥١٨ يوسع النقاش في نظرياته ، التي يخالف بها نظريات لوثر ، ويؤيد المذهب ، الذي نادى به البابا وهو أن البابا سيد المجتمع الديني والمفسر الوحيد للكتاب المقدس ، وأنه يعلو على الكتاب المقدس أيضاً لأن الكنيسة تدعو إلى حقائق لا توجد فيه صراحة . ولكن لوثر عارضه في آب ١٥١٨ بمقرراته . وهو وإن أبقى على التبرير بالايمان وحكم على صكوك الغفران بالبطلان من جديد فما زال يقبل بحكم روما في قضايا العقيدة : وإذا بقي الكتاب المقدس في نظره مصدراً معصوماً لكل اعتقاد ، فهو لا يطرح التقاليد المتوارثة عن آباء الكنيسة والجامع ورسائل الباباوات في قضايا الخلاف ، ولا يجزأ أن يميز بين البابا المعصوم ، عندما يتكلم طبقاً للمجامع الدينية وآباء الكنيسة ، والبابا غير المعصوم ، الذي يمكن أن يقرر أحكاماً جائرة عندما يتكلم باسمه الخاص ، لأن واجب الاطاعة فرض على المؤمن ، ولأن الاصلاح الضروري للكنيسة هو من عمل الدول المسيحية بأجمعها ، والله وحده أعلم بهذا اليوم الذي يجري فيه مثل هذا الاصلاح . وليوهن لوثر على طاعته للبابا أهدى كتابه إلى ليون العاشر . ولكن البابا لم يكن متهيباً لمثل هذا النقاش ، ولم يرفيه سوى نزاع رهبان ، وندب للتحقيق راعياً دومينيكياً وهو سيلفيستر مازولينى ، وقد نشر هذا الأخير كتاباً اسمه « سلطة البابا » أو « سلطة

- ١٦٧ -

الحبر الاعظم ، دعم فيه ، دون تطرف ، ولكن بمحذاقة ، نظريات
تيتزل ودعا مارتن لوثر للشول أمام محكمة روما . وبعث البابا برسالة
إلى مندوبه الكاردينال كيتان يطلب اليه فيها أن يستدعي لوثر اليه ويحصل
منه على تصريح بسحب كلامه . وفي هذه الحالة تبطل دعوة الشول إلى
روما ، ولكنه أبى .

هددت الكنيسة لوثر بشتى الاحكام المخيفة فصرح علنياً منذ تموز ١٥١٨
في خطاب له عن مدى تأثير قوة « الطرد من الجماعة » أو « الحرمان »
والقضايا التي تضعها أمام وجدانه . غير أن الحل الذي طمّنه كان هو
الحل الذي هدأ في الاصل قلق المفكرين المسيحيين ، الذين كانوا على خلاف
مع تعاليم الكنيسة ، أي الحل الذي أيد جان هوس في كونستانس
وسافونارولا عندما أقصي عن الكنيسة ، ويتلخص في : « أن الطرد من
الجماعة يحرم المسيحي من المشاركة الخارجية والجسمية مع المؤمنين ولكنه
لا يقصيه عن الكنيسة اللامرئية وعن الله » ، وإذا توجب عليه أن يحترم
الحكم الذي يؤخذ بحقه وألا يجيب عنه بالشدّة ، فيجب عليه ألا يخضع
عندما يكون العدل والحق موضع المنفعة . وأخذ انتقاد لوثر يشتد
ويتضح ويؤكد رداً على مازولينى « بأن الكتاب المقدس مصدر وحيد
لكل حقيقة » . وفي تشرين الاول ١٥١٨ لم يعدل عن رأي من آرائه
أمام كاتان . وعاد إلى فتانبرغ وقطع علاقاته مع الممثل الرسمي للبابا
في ألمانيا (١٥٢٠) عندما التقى أمام طلاب الجامعة مرسوم الحبر الاعظم
بالنار . ولقد كان من الممكن أن يسوى الخلاف بين البابا ولوثر لولا أن
أن سوء نية الدومينيكيين من رجال روما قد أبعد كل تقارب بين الطرفين .
لقد احدثت احتجاجات لوثر صدى عظيماً في كل أوربة الكاثوليكية .
ففي ألمانيا ، دعمه الانسانيون بشغف زائد . وفي انكلترا ، ألفى أنصاراً

وعبذين مثل جون كوليت . وفي فرنسا ، مثل لوفيفرديتابل . وفي هولنده ، بين أصدقاء اوزموس في كليات لوفن . وفي أديرة مالين وبروج وأنفرس عند البورجوازيين من مؤسسي الرأسمالية الحديثة والمتحررين فكرياً . غير أن اوزموس روتزدام ، وان لم يعنف لوثر ، رفض أن يستحسن مذهب اليه .

افكار لوثر . - كان لوثر يطالب في الكتب التي نشرها باصلاح الكنيسة ، في رئيسها وأعضائها ، وباصلاح العقيدة ، ويرى أن الاعمال الدينية تفيد المؤمن في تعويده على النظام والتهذيب ولا تمنحه استحقاقاً أمام الله ، لأن الاعمال الدينية والحركات الخارجية في التقوى والعبادة لا تؤمن سلام الانسان ، بل الايمان بالله وبالمسيح . وان « أفضل الاعمال الحسنة وأنبها وأعظمها هو الايمان بالمسيح » .

بسط لوثر العبادة إلى حد عظيم فأصبحت اتصالاً شخصياً بين المخلوق والخالق ، ورأى أن ينشر الكتاب المقدس باللغة الألمانية ليكون في متناول الجميع ، وهذا ما فعله . ولم يعترف للكهنة بفضل الوساطة بين الله وبين المؤمنين ، بل اعتبرهم ادلاء بسطاء أكثر علماً من غيرهم ؛ وعليهم أن يعيشوا كسائر الناس ويتزوجوا ويؤسسوا عائلة . والغى الاكليروس النظامي وحياة الدير .

وأراد العودة بالكنيسة إلى حياة البساطة والبداية الاولى ، وأخذ يشذب ما علق بها من اضافات على ممر العصور ، واحتفظ بالعقائد والأعمال التي أقرها السيد المسيح نفسه ونقلها « العهد الجديد » . وتسامح لوثر في بادئ الأمر مع مر « التوبة » ، ولم يعترف بعد ذلك إلا بالسريرين اللذين أقرهما المسيح وهما التعميد والمناولة بعرضها : الحبز والخمر ، وأبطل عبادة العذراء والقديسين والايمان بالمطهر . وهكذا بسط لوثر

الدين فأصبح مثلاً أعلى لدين حنيف داخلي ينطوي فقط على التأمل بالكتاب المقدس وحوار وجدان المؤمن مع المسيح .

ثم نظم لوثر ومن حوله « الكنيسة اللوثرية » ، واقتصرت العبادة فيها على قراءة الكتاب المقدس وتفسيره وتوسيعه وغناء « الزامير » جماعة . وكان لجوقة التراتيل اللوثرية دوراً رئيسياً في نمو الموسيقى الألمانية .

وقد لعب شخص لوثر دوراً هاماً وحاسماً في حركة الإصلاح الديني فهو الذي أوجد الانقسام . ولا شك في أن المذهب الذي أتى به قد تم بمصلحين أشد منه جرأة ، مثل زونغلي في زوريخ وكالفن في فرنسا وفي جونيف ، غير أن محاولة لوثر كانت حادثاً أساسياً في الإصلاح البروتستانتي .

ظروف نجاح الإصلاح . - لقد فصلت ثورة المصلحين ، عن إدارة الكرسي الرسولي الروحية ، القسم الأعظم من اوروبا الوسطى والشمالية . ففي ألمانيا تمت القطيعة مع البابا عندما انتخب شارلكان امبراطوراً . وأقلق هذا النزاع شارلكان لأنه كان كاثوليكياً وخشي أن تصبغ ألمانيا موطناً للفوضى ، فاستدعى لوثر إلى فورمز ، ورغب اليه العدول عن رأيه فرفض بحزم زائد ، فوضعه الامبراطور خارجاً عن الامبراطورية في ٢٢ أيار ١٥٢١ أي حرره من التمتع بحقوقه وأمره أن يغادر فورمز فوراً واعتبره هرطقياً . ولذا يمكن ايقافه وحرقه بعد أن تنتهي مدة جواز سفره ، لولا أن ناخب ساكس نقله مرأ إلى قصر فارتبورغ حيث بقي مختبئاً مدة سنة ترجم فيها الكتاب المقدس إلى الألمانية . وكان لهذه الترجمة نجاح عظيم لأنها كتبت باللغة الألمانية الشعبية التي يفهمها الجميع .

لعبت حركة لوثر تأييد طبقة البورجوازيين ، وذلك عن قناعة دينية

منهم ، وتأييد طبقة النبلاء ، وفي هذه الحالة لم تكن الأسباب دينية فحسب ، بل لأن طبقة النبلاء الألمانية ترى أن روما كانت تسيء لهم في كثرة الضرائب ؛ وتأييد الامراء الالمانيين . وقد دعم هؤلاء حركة الاصلاح لأسباب سياسية ، وذلك لأن هذه الحركة فسحت أمامهم مجالاً لإعلان استقلالهم حيال الامبراطور شارلكان ومكنتهم من تعصير املاك الكنيسة أي حجزها لصالحهم . ومع ذلك فأت أكثرية الأمراء ترددت ، بعض الزمن ، في الانضمام إلى حركة الاصلاح ، ولكن هذا التردد زال عندما قام لوثر أثناء ثورة الفلاحين في المانيا الجنوبية عام (١٥٢٤) ، يدافع عن النظام الاجتماعي ويحكم على هذه الثورة بالبطلان ، فكان سبباً في قيام أزمة اجتماعية في المانيا عندما خرج لوثر من فارتبورغ . فقد رأى المستأثرون في تهجمات لوثر على الكنيسة مشجعاً وفرصة للقيام بالثورة لتعسين حالهم : فمن ذلك أن الفرسان من طبقة النبلاء الفقيرة ثاروا على الاغنياء من يورجوازيين واكليركيين . وهاجم بعضهم ١٥٢٢ أراضي رئيس اساقفة تريف ، الذي كاث في الوقت نفسه ناخباً لها ، وهاجم الآخرون المدن الغنية في منطقة سواب ، إلا أن الطبقة النبيلة العليا والبورجوازية سحقت هذه الحركة وقضت عليها بالقوة (١٥٢٣) .

وتبع ثورة الفرسان عصيان الفلاحين . فقد أصغى هؤلاء لبعض المتحمسين ممن كانوا ينادون ويشرون بأن حاث الوقت ودقت ساعة « امبراطورية المسيح » التي يقضى فيها على الكافرين ، وليس ثمة ملوك أو أمراء أو كهان بل الجميع سواسية والأموال ملك مشترك فيما بينهم .

بدأت هذه الحركات من منطقة بحيرة كونستانس وانتشرت بسرعة في المانيا الجنوبية والغربية وأدت إلى احراق كثير من الاديرة والقصور

(١٥٢٤) . وخاف لوثر من هذه الفظاعات وحاول أن يمنعها بالنصيحة والارشاد والتهديد . وأخيراً أخذت هذه الحركات وقتل عدد عظيم من الفلاحين .

ولكن ماحصرم على الفرسان والفلاحين بالقوة كان حلالاً لمن اعتنق مذهب لوثر ؛ فمن ذلك أن فاختي ساكس وبراندبورغ وبالاتينا ولاندغراف هس ودوق ميكلامبورغ وبوميرانيا وغيرهم وضعوا أيديهم على أموال الكنيسة وضموها إلى أملاكهم أي عصروها ، وأهم هذه التعصيرات ما قام به سيد الطريقة التوتونية ، البوت براندبورغ ، من أمرة آل هوهنتسولرن ، فقد استولى على أملاك هذه الطريقة التي يرأسها ، وحوّلها إلى دوقية وراثية وهي « دوقية بروسيا » التي كانت نواة أولى لمملكة بروسيا . (١٥٢٥) .

اعتراف أوغسبورغ . - كانت هذه الأزمات تتوالى وشارلكان عنها في شغل ، لأنه كان منهمكاً في حروبه مع فرنسا الأول ولذا لم يستطع أن يقف في سبيل توسع الإصلاح في ألمانيا . ولكن منذ أن بدأت مفاوضات الصلح ، عام ١٥٢٩ ، التي أدت إلى صلح كامبريه دعا الامبراطور مجلس الديباط إلى سير وتقرر أن يسمح لمذهب لوثر (اللوثرية) في البلاد التي انتشر فيها ، على أن يمنع تأسيسه في خارجها . فاحتج على هذا القرار خمسة أمراء وأربع عشرة مدينة . ومن هنا نشأ امم المحتجين « بروتستانت » نسبة إلى أشياع المذهب الجديد المنفصل عن الكنيسة الكاثوليكية .

ولقد حاول شارلكان في السنة التي قلمها أن يرد البروتستانتين إلى الكاثوليكية واجتمع الديباط في أوغسبورغ للبحث عن وسيلة للوفاق والتفاهم وتهدأ البروتستانتون للمناقشة وأوضحوا مذهبهم وعرفوه بدقة ، وترك

لوثر إلى الانساني ميلانكتون ، أحد تلاميذه المخلصين والمعتدلين ، أن يدون المذهب البروتستانتي فدونه في ٢٨ مادة عرفت باسم « اعتراف اوغسبورغ » وهو يعتبر العقيدة الاولى للكنيسة البروتستانتية .

وحاول المعتدلون من كل حزب أن يوفقوا بين وجهتي النظر ، إلا أن كل محاولة من هذا النوع باءت بالاخفاق . ولقد قال لوثر : « إن التوفيق بين المذهبين شيء مستحيل ، اللهم إلا إذا تخلى البابا عن بابويته » . وجدد دباط اوغسبورغ الحكم على لوثر وأشياعه ، فاضطر البروتستانتيون إلى الدفاع عن أنفسهم وألفوا حزباً سياسياً . وهكذا تشكلت عصبة شمالكلد (١٥٣١) بناء على اقتراح ناخب ساكس ولاندغراف هس ، وانقسمت المانيا ، منذ ذلك الحين ، إلى حزبين متعادين يضطهد أحدهما الآخر ولا يعرف تجاهه أي تساهل . ففي الدولة التي تأسس فيها البروتستانتية كانت الكاثوليكية تطرد منها والعكس بالعكس . بما أعقب حروباً دينية وأهلية في المانيا .

صلح اوغسبورغ (١٥٥٥) . - لقد أراد شارلكان قبل أن يتنازل عن العرش أن يؤمن السلام في المانيا فمنح أخاه فرديناند سلطات واسعة ، كان منها أن عقد مع اللوثرين صلح اوغسبورغ (١٥٥٥) . وبمقتضى هذا الصلح حصل الامراء اللوثريون على حرية العبادة وملكية الاراضي التي عصفروها سابقاً في العام ١٥٥٢ ، على أن يتخلى كل أمير كنسي عن كل أملاكه إذا اعتنق البروتستانتية في المستقبل .

ولم يوطد صلح اوغسبورغ دعائم الحرية الدينية في المانيا ، حتى ولا التسامح الديني لأن هذا الاتفاق ، الذي اعترف به لوثر والبروتستانتون والكاثوليك ، كان يخول الامراء الحق في فرض دينهم على رعاياهم .

ثم ان صلح اوغسبورغ وإن اعترف باللوثرية فهو يصرح رسمياً بانقسام

المانيا إلى حزبين : كاثوليك وبروتستانت لم ينته النزاع بينهما . يضاف إلى ذلك أن هذا الصلح يحوي في داخله على يزور للشقاق في المستقبل ، لأن اللوثريين كانوا يحتجون على مبدأ التخلي عن الاملاك إذا غير الامير الكاثوليكي دينه . ولذا فان انقسام الامبراطورية والحروب الاهلية التي اجتاحتها أدت إلى إضعاف قواها وحالت دون ما تطمح اليه من دور في السياسة الاوربية . فقد كانت أرضها في بدء القرن السابع عشر ، كما كانت ايطاليا في بدء القرن السادس عشر ، ميدان حرب بين الدول الاوربية الاخرى .

الاصلاح في البلاد الاسكاندينافية . - كان تأثير لوثر عظيماً خارج ألمانيا . فقد غدت الافكار اللوثرية ، في البدء ، حركة الاصلاح في سائر البلاد الاوربية . غير أن هذا التأثير عارضه تأثير المصلح السويسري زونغلي ، وقضى عليه خاصة تأثير المصلح الفرنسي كالفن . وبالرغم من ذلك فما زالت فئة بعض المراكز التي تدين باللوثرية مثل بوهيميا وهونغاريا العليا وترانسلفانيا وبولونيا . ولكن البلاد التي تأصلت فيها اللوثرية ، كما في ألمانيا ، كانت البلاد الاسكاندينافية ، لأنها تأثرت بلاهوتيين أتوا دراستهم في فتامبرغ ، بل لأن الاصلاح كانت تساعد ، كما في ألمانيا ، في الوقت نفسه ، ظروف سياسية ومصالح الامراء والطبقة النبيلة .

ففي السويد ، كان الاصلاح نتيجة لثورة الوطنية ، التي قادها غوستاف فاذا (١٥٢١ - ١٥٢٣) ، سليل ملوك السويد الاقدمين ، على الدانمارك ، وكان منها أن نودي به ملكاً . فقد عاد من فتامبرغ الاخوان أولاف ولوران بيترسون في العام ١٥١٨ ولوران أندره وأخذوا يبشرون باللوثرية في السويد . وحمام غوستاف فاذا ، وكان ميل إلى حركة الاصلاح واشترك بها علانية منذ ١٥٢٤ . غير أنه كان بحاجة إلى

- ١٧٤ -

المال في مملكة خربتها الحروب ، ورأى أن الكليروس يملك ثلثي أراضي المملكة فقرّر في ديت (دباط) فيستواس عام ١٥٢٧ وضع أموال الكنيسة تحت تصرف الدولة واصلاح المساويء الكنسية .

ولم بشأ الدباط أن يسايره في رأيه فأصر على التنازل عن العرش لمن لم يلب طلبه . وحذا النبلاء حذوه في تعصير املاك الكنيسة . وما لبث غوستاف فاذا أن أعلن أن اللوثرية أصبحت ديناً للدولة وهكذا صار الملك رئيساً للكنيسة والدولة .

وفي الدانمارك ، كان نجاح أفكار الاصلاح ، التي انتشرت في (١٥٢٢ - ١٥٢٥) على يد اللاهوتيين ، مثل جان توزن ، الذين درسوا في فتامبرغ ، أشد منه في السويد ، وذلك أن كريستيان الثاني ملك الدانمارك اذبح عن العرش عام ١٥٢٣ في الوقت الذي كان يتقرب فيه من روما ليحصل على مساعدة شارلكان ضد السويد ، ولكن خلفه فريدريك الاول ، وكان على وفاق مع الطبقة النبيلة ومع المدن على تحقيق الاصلاح بمصادرة أموال الكنيسة ، كما حصل في السويد ، قطع العلاقات مع روما في العام ١٥٢٧ في دباط أودوانسي الذي قرر التسامح الديني وزواج الكهان وانتخاب الاساقفة من قبل مجلس الاسقفية والتنازل عن نصف ضريبة العشر إلى الملك . وثبتت الشروط في ٢٣ مادة في كوبنهاغن عام ١٥٣٠ . وأصلحت الكنيسة الدانماركية أخيراً على أسس لوثرية ، واعترف بها رسمياً في العام ١٥٣٧ .

الاصلاح في سويسرا الالمانية وسهل الراين . - كانت بعض المدن الكنسية تؤلف جمهوريات حقيقية صغيرة في سويسرا الالمانية والسهل الالبناني . ومن هذه المدن بال ، زوريخ ، ستواسبورغ ، كولمار ، سيلبستات ، وكانت في أول القرن السادس عشر مراكز للانسانية

الاصلاحية . وتختلف هذه المدن عن غيرها ، لأن علماءها كانوا رجال كنيسة . وكانت هذه الفئة من المفكرين تضم عقولاً قوية تتأمل بثقافتها العميقة وعقليتها الثاقبة واهتمامها الخاص . وقد عرف كل منهم الافكار اللوثرية وتأثر بها ، كما اثر كل منهم في الآخر والفوا جميعاً امره فكرية .

اولريخ زونجلي (١٤٨٤ - ١٥٣١) . - كان زونجلي أقوى هؤلاء المصلحين شخصية ، وإذا عرضنا أفكاره فلنأخذ نعرض تقريباً أفكار المصلحين السويسريين والرينانيين . كان زونجلي خوري غلاريس من ١٥٠٦ إلى ١٥١٦ ثم أصبح خوري زورينخ في العام ١٥١٨ وأخذ يبشر بالانجيل وما لبث أن أصبح زعيماً دينياً وسياسياً وعسكرياً . وكان وطنياً ورجل دولة وإنسانياً حاول أن يوفق بين المسيحية ودين القديم ويسائل الايمان يقين الحقيقة .

تلخص أفكاره في أنه اطرح فكرة السر . وليس التعميد والعشاء الرباني في نظره إلا رمزين ، والمؤمن الذي « يتناول » يكوّن على اتصال روحي بروح المسيح . وأرجع العبادة إلى قراءة الكتاب المقدس والوعظ ، والمناولة . وجعل الشعب ، أي مجلس المؤمنين ، حكماً في توافق أعمال كل مؤمن مع هذا المعنى ، والكنيسة الديمقراطية تختلط بالدولة الديمقراطية . وفي العام ١٥٢٤ تبنى مجلس زورينخ اصلاحه ، ومنها انتقل هذا الاصلاح إلى بال وبيرون الخ ... ولكن هذا الاصلاح لم يكن في نظر الكثيرين حلاً نهائياً . لأث مفهوم زونجلي للأمرار بصورة خاصة يبدو انه يبدو انه يبعد الله .

ولا يقبل زونجلي إلا بكل ما أمر به الكتاب المقدس . ونتيجة لذلك حذفت الصور في ١٥٢٤ من الكنائس ، حتى ان بعض تلاميذه طالب بحذف تمثال السيد المسيح المصلوب . وحذفت القداسات ، والحفلات

الدينية ، وما دخل في الدين عن طريق العرف والتقليد ، والاثالث مثل النافوس والمذبح والشموع ، وابطلت الأعياد عدا عيد الأحد ، وأهيدت الديانة إلى بساطتها البدائية من قراءة الكتاب المقدس والوعظ ونوزيع العشاء الرباني ، ولم يقبل بأي قداس أو احتفال ديني ما لم يكن المسيح قد أقر وضع نظامه .

وتجاوز تأثير زونغلي حدود زورينغ إلى الكانتونات السويسرية الاخرى وإلى المانيا الجنوبية . فقد أراد أن يجعل من زورينغ مركزاً سياسياً يمتد أثره في المانيا والنمسا وحاول لذلك الحصول على مساعدة ملك فرنسا . ولكن دعاية زونغلي اصطدمت بمقاومات كاثوليكية ، حتى ان فرديناند النمسا شكل اتحاداً مسيحياً ، في ٢٢ نيسان ١٥٢٩ ، مع خمس كانتونات ، ضد عصبة زورينغ وستواسبورغ وبيرون وكونستانس ، وظفرت جماعة زورينغ في أول الامر ، ، لكن مالبت أنصارهم أن غلبوا على أمرهم في واقعة ثانية ولقي زونغلي حتفه فيها . وكانت هذه الواقعة كافية لعلولة دون تحقيق آماله . ثم ان وساطة ملك فرنسا والكانتونات الاخرى أدت إلى صلح كابل ، وفيه اعترف بالسيادة الدينية في كل كانتون مع منح الاقليات الدينية الضمانات الكافية لسلامتها . وأوقف موت زونغلي توسع سياسته في سويسرا وعطل انتشار مذهبه في خارجها ، إلا أنه بقي حياً وسيأتي المصلح كالفرن ويحيي مبادئه ويبعد اليها النشاط من جديد .

الاصلاح في فرنسا . - لقد وضعت قضية الاصلاح الديني في فرنسا كما في غيرها قبل ظهور لوتر . غير أن الجهود ، التي بذلت في عهد شارل الثامن لاصلاح الجامعة والاديرة في باريس واجتماع لجنة الاصلاح في نور عام ١٤٩٣ ، لم تعط سوى نتائج ضئيلة ومحدودة في الاكايروس العصري . ولذا فالجمال واسع للاصلاح . وقد بدأ هذا الاصلاح بتوسع الحركة

الانسانية ، التي فتحت للفكر المسيحي آفاقاً جديدة على يد لوفيفر ديتابل لما كان له من أثر عظيم في فرنسا . كان استاذاً في كلية السكاردينال لوموان في باريس ، وناشراً ، ومفسراً ، ومتوجهاً للكتب المقدسة والفلاسفة القدماء وصوفي العصر الوسيط . كان معتدل الطباع ، ولكنه جريء التفكير ، وتوصل إلى مفهوم ارزموس ، الذي يرمي إلى مسيحية انجيلية تنقيد بتعاليم الانجيل ، كما فهم لوثر جيداً . وعندما نشر هذا المصلح نظرياته كان يوجد في فرنسا مدرسة اصلاحية ذات نزعة جذرية .

لقد أوحى لوفيفر بالمحاولة التي قام بها غليوم بريسونه أسقف موعام ١٥١٦ ليحقق في اسقفيته تجديد دينياً مثالياً . ثم ان بريسونه جذب اليه لوفيفر مع كثير من تلاميذه مثل فاثابل وجيوار روسل وغليوم فاريل . ويتلخص اصلاح اسقفية مو في اعادة النظام إلى الاكليروس وفرضه على الحوارة والاهتمام بتربية الاكليركيين وتنظيم الوعظ والارشاد . وهذا الوعظ يقوم على التبشير ببسائء المسيحية الانجيلية الحنيفة وعلى التبوير بالايان وعدم كفاية الاعمال .

ولكن هل يمكن أن يؤدي تأثير لوفيفر وتلاميذه ، بمساعدة الملك ، إلى اصلاح سلمي ؟ وهل لتلاميذ لوفيفر ، ان لم يكن هو نفسه ، أن يوجدوا في فرنسا حركة هرطقية تنزع إلى الانفصال لو لم تنشب الثورة اللوثرية أولاً في المانيا ؟ الثابت أن ثورة لوثر لاقت تحييداً في فرنسا ، فقد انتشرت فيها آراءه وآراء كارلشتاد وزونفلي وبوسر وغيرهم من المصلحين بسرعة لأنها كانت تتضمن آراء لوفيفر ، وظلت فكرة امكان 'الاصلاح تشغل الازهان ، وكان يرى أن يتحقق هذا الاصلاح بصورة تدريجية وداخلية بمساعدة السلطة الملكية وان يفرض على روما دون قطيعة .

وكانت السياسة الملكية تغذي هذا الوم . بيد أن الحوادث دلت على أن فرنسوا الاول لم يكن منهيئاً للانفصال وللساندة هذه المهرطقة الجديدة بصورة صريحة . فقد كان متمسكاً بوحدة الايمان في ملكته ومتعلقاً بالمحافظة على العبادة والنظام التقليدي في الكنيسة ولا يقبل بحركة دينية عفوية وشعبية ضد السلطات القائمة . واهتم بنهضة الآداب عن فوق طبيعي وحب للبعد وكانت اخته مارغريت آنغوليم ، دوقة آلانسون ، ثم ملكة نافار ، متدينة صوفية تشاركه في ميوله وتشجع هذه الحركة . بيد أن سياسة فرنسوا الدينية كانت متعلقة بالضرورة بسياسته العامة . فنذ أن وقع الكونكوردات (١٨ آب ١٥١٦) لم يكن له أي مصلحة في قطع العلاقات مع روما . وكانت علاقته مع البابا ومع البروتستانتين الالمان منوطة بنزاعه مع شارلكان . أما ابنه هنري الثاني فكان فكراً محدوداً ومتديناً متأثراً بؤثرات كاثوليكية ، ولكنه بقي محافظاً حتى عام ١٥٥٩ على سياسة التحالف مع البروتستانتين . وهذه السياسة الملكية وان كانت كاثوليكية في الحقيقة فقد كانت تعطف على فكر الاصلاح ومضطرة إلى محابة الرأي البروتستانتي في الخارج .

يبرز في تاريخ الاصلاح الديني ، في فرنسا ، قبل الحروب الدينية ، دوران : الدور الاول يمتد حتى ١٧ - ١٨ تشرين الاول ١٥٣٤ ويتصف بحركة اصلاح سلمية يساعدها الملك والبلاط . وفي الدور الثاني أخذت النزعات الجذرية تسيطر على هذه الحركة واصبح الملك أكثر استعداداً للاضطهاد واشتد هذا الميل عنده حتى آخر حكمه .

انتشرت حركة الاصلاح منذ عام ١٥٢٠ ووصلت مختلف المناطق وخاصة الأوساط المدنية والعمال والبورجوازية وقام بالتبشير الكهان والربان . وكانت ليون مدينة تجارية قريبة من الحدود مفتوحة للأجانب

وفيه مطابع عديدة ومتنوعة لتكون مركزاً للنشاط الديني الجديد . وقد انتقلت آثار لوثر في كل مكان مع كثير من الكراريس التي كتبت باللغة العسامة . غير أن كلية باريس الدينية قاومت هذه الحركة بتوجيه من عميدها نوثيل بيذا . ثم صدر أمر ملكي في ١٨ آذار ١٥٢١ وأيده في حزيران قرار من البرلمان ، ينص على عدم طبع شيء أو نشره قبل الحصول على إذن مسبق ، وحكم على نظريات لوثر بالبطلان وحرق كثير من آثار الانسانيين . يضاف إلى ذلك أن ثورة الفلاحين ، التي قامت في المانيا وأخذت طابعاً شعبياً ، أقلت البلاط وتقرب الملك في عام ١٥٢٤ من كليمان السابع . وبعد واقعة بافيا تهاأت الوصية لويو سافوا (أم فرنسوا الأول) إلى الضرب بشدة على الحركة . وفي ٢٠ آذار ١٥٢٥ أقر برلمان باريس نوعاً من محكمة تفتيش تتألف من عضوين من أعضائه ومن عضوين من كلية اللاهوت ، وتمتع بصلاحيات في جميع الاسقفيات حتى أن لوفيفر وجيوار روسل فرأ إلى ستواسبورغ ، وساور القلبي جماعة (مو) فتفرقت ، وطبقت اعدامات في أماكن مختلفة .

ولكن هذا الاضطهاد يعد بسيطاً لما أعقبه من اضطهادات ضد رجال الاصلاح ومن تبعهم . فقد بدأ الاضطهاد على أثر قضية « المناشير » التي وجهت ضد القديس واعلنت في الليل والصقت حتى على باب غرفة الملك في آنبواز . وفي ٢١ كانون الاول ١٥٣٤ أقر الملك أن يشكل في البرلمان لجنة مؤلفة من ١٢ مستشاراً لحاكمة المراهقة ، وكانت هذه اللجنة تجتمع في غرفة اطلق عليها اسم « غرفة السعير » . وأوجد فرنسوا الأول نوعاً من تمييز بين أنصار الاصلاح المتعلمين والمعتدلين وبين المراهقة . إلا أن هذا التقسيم كان اصطناعياً لأن التسامح ، الذي كان يتمتع به المعتدلون ، أفاد المراهقة ، حتى أن أمر البحث عن هؤلاء ومحاكمتهم

كان منوطاً بسلطات محلية حيادية تميل إلى الإصلاح غالباً . ولم يستطع البرلمان ، وكنية اللاهوت (الصوروبون) في باريس مطاردة المهرطقة في كل مكان . يضاف إلى ذلك أن الملك ، بعد شهر من الاضطهاد ، اضطره علاقاته مع عصبة شمالكد ومحاولته التوفيق بين البروتستانتين الالمان أن يتساهل مع أنصار الإصلاح في بلده . وفي ١٦ تموز ١٥٣٥ صدر مرسوم بالعفو ممن يرتد عن دينه الجديد خلال ستة أشهر . ولم يراع هذا الشرط وامتدت المهرطقة البروتستانتية في جميع أنحاء المملكة . وهكذا اخفقت حركة الإصلاح المعتدلة على يد لوفيفر ديستابل بعد أن قادتها العناصر المهرطقية المتطرفة . ولكن حركة الإصلاح أخذت شكلاً أصيلاً على يد مصلي آخر أصلب عوداً وأقوى شكيمة وهو كالفن .

حنا كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤) . ولد حنا كوفن (وكالفن اسمه باللاتينية) في بلدة نويون في منطقة بيكارديا في فرنسا ، ونشأ في أسرة بروجوازية غنية خدمت في الكنيسة . ويبدو أن كالفن أتى متأخراً بالنسبة إلى غيره من المصلحين ، وبدأ دراساته في وقت ظهرت فيه مختلف مفاهيم المسيحية الإصلاحية على يد لوفيفر وارزموس ولوتر وكارلشتاد وزونجلي وبومر وغيرهم ، ولذا كان بإمكانه أن يقارن بين مختلف هذه المذاهب . كانت ثقافة كالفن قرية وواسعة وفي الوقت ذاته انسانية ومدرسية . فمن سنة الرابعة عشرة إلى التاسعة عشرة كان في باريس قليداً في كلية المارش حيث تأثر بالانساني مانورن كورديه ثم في كلية مونتغو وكانت تضم أساتذة موهوبين وأكثرهم اسبانيون ، حيث حصل ثقافته المدرسية واستطاع أن يتعمق في دراسة الحكماء الاوكاميين من أمثال سكوت والقديس بونافانتور والقديس توماس الاكرويني . درس الحقوق في ارلثان وبروج دون أن يتغلى عن دراسة اللاهوت . وفي بروج درس

الاغريقية عن الألماني ملخيور فولمار اللوثري المذهب . وفي العام ١٥٣٢ تابع في باريس دروس الاساتذة الملكيين مثل دانيس وفاتابل وبوده . ولكن نزاع أمرته مع السلطات الكنسية قوتى في نفسه النزعة إلى الإصلاح . فقد طرد أبوه من الجماعة عام ١٥٣١ ثم أخوه بعد ذلك لرفضها الأمرار وفي العام ١٥٣٢ قبل كالفن أفكار الإصلاح وأظهر تشييعه لها في العام التالي واضطر لمغادرة باريس بضعة أشهر واجتمع بلوفيفر و روسل في نيواك (في مقاطعة اللوت والغارون) . وفي آخر العام ١٥٣٤ ذهب إلى ستراسبورغ ومنها إلى فريبورغ (في سويسرا) والتقى بارزيموس ، ومنها إلى بال حيث أقام .

وفي بال نشر ، في آذار ١٥٣٦ ، الطبعة الأولى اللاتينية من كتابه « النظام المسيحي » الذي اشتهر به وعرف بأنه أقوى وأكمل أثر في الديانة البروتستانتية في ذلك العهد . وقد طبع هذا الكتاب في حياة كالفن ٢٥ مرة . وأهم طبعاته الاساسية هي طبعاته اللاتينية الثلاث : طبعة بال ١٥٣٦ و ستراسبورغ ١٥٣٩ ، وجنيف ١٥٥٩ .

أما الطبعة الأولى فقد قدمت برسالة اهداء إلى فرنسوا الاول ، وفي فصلها الاخيرين أثنى على المصلحين الفرنسيين ، الذين اتهمهم الملك بالفتنة والشغب والعصيان ، ويرر كالفن عملهم وناشد الملك أن يعترف بأنهم اتباع الأنجيل الحقيقي والايمان الخالص . والطبعة الثانية ذات طابع مذهبي . وقد أفاد كالفن من تجاربه في النقاش والجدل بعد اقامته الاولى في جوفيف ، وعنها وضع « النظام المسيحي » باللغة الفرنسية ونشره عام ١٥٤١ .

مذهب كالفن . - ينطلق مذهب كالفن من مذهب لوتر ويتناول

نقاطه الأساسية : التبشير بالإيمان ، والعبادة البسيطة التي تقتصر على الصلاة والوعظ ، والاعتماد على الكتاب المقدس وحده .

ولكن كالفن ذهب إلى أبعد مما ذهب إليه لوثر . فقد قاده عقله المنطقي والقانوني إلى الحدود القصوى في أفكاره ، حتى عد لوثر بجانبه معتدلاً . كتب لوثر بشأن التائبين وتزيين الكنائس : « لافضل للصور ولذا لاداعي للثورة عليها » . أما كالفن ، على العكس ، فقد جرد الكنائس من كل زينة وأبهة ، وأرادها معابد ، يجدران عارية ، لا يرى فيها سوى الكتاب المقدس موضوعاً على منضدة ، ولا يسمع فيها غير « كلام » الله وغناء المزامير تقوم به جوقة المؤمنين . ويتألف الكليروس من « رعاة » أي قسس سواسية فيما بينهم ، ويقومون بالتبشير والوعظ والارشاد .

ولم يبق كالفن من الأمرار القدسية سوى صرين : التعميد والقربان المقدس (الافغارستية) ، ورفض ، بشكل لا يدع مجالاً للشك أكثر من لوثر ، صر التوبة . ولكن بينما يرى لوثر في المناولة « حضرة » المسيح تحت ظواهر الخبز والخمر ، فإن كالفن لا يرى فيها سوى « حضرة » روحية محضة ومشاركة فكرية .

ويلج كالفن أخيراً على فكرة الجبرية والإيمان بالقضاء والقدر التي يتضمنها مذهب لوثر ، ولكن كالفن يوسعها بمنطقه المعروف إلى أقصى نتائجها ، ويقول : ان الانسان ضعيف وقميء ومحكوم عليه بالشقاء بشكل لا يمكن علاجه بسبب الذنب الاصلي ، وهو لا يستطيع شيئاً في سبيل سلامه ، وغير مسؤول عن أعماله . وهذا ما يجعل كالفن على خلاف مع الانسانين الذين يتقون بالانسان وبامكان اصلاحه . ويقول : إن ارادة الله أي العناية الإلهية وحدها هي التي تنقذ المخلوقات البشرية

البائسة . الانسان لاثمي ، والله كل شيء ، وهو المجيد العظيم . وإذا
نسبنا إلى أنفسنا بعض الفضل فهذا يعني اننا سلبناه مجده وعظمته . ان
الله يورثنا ويعفو عنا وينجيننا نحن الذين لا نستحق إلا الشقاء الأبدي .
إن الله ينجيننا من العذاب ولكنه لا يرد لنا حريتنا . انه يعرف منذ
الأزل مصير كل إنسان ويتنبأ به . ويمسح عفوه لأتاس ويحبه عن
آخرين . والايان المتخذ المبرر إنما هو رمز العفو الالهي لمن اصطفاه على
غيره . وهذا الايمان يجب أن يكون مصحوباً عند الانسان بحياة التقوى
والتقشف والزهد والحذر في كل لحظة من اغراء الذنب . إن الله خير
ويفعل الخير ، ولكن من الذي يفعل الشر ؟ يقول كالفن إن الله
لا يسمح بفعل الشر ، ولكنه أراد الشر . لأن للشر دوراً في هذه الحياة
الدنيا يلاعبه ولا ندري به . لقد أراد الله سقوط آدم . وعصا آدم وبه ،
فعبثانه اطاعة لأمره . والانسان لا يستطيع شيئاً ، ولا يعمل عملاً صالحاً
جوهرياً ، ولا يؤثر فيما قدره الله عليه . وهكذا قلته في فكرة العناية
الربانية عند كالفن بالجبرية والايان بالقضاء والقدر خيره وشره من الله
تعالى . ولكن هذا التوسع في التفسير أوقع كالفن في التناقض وعدم
الانسجام ، غير أنه كان يخرج من المأزق وينصح الانسان ألا ينفذ إلى
جميع الأمور .

ولم يكن كالفن رجلاً متديناً فحسب ، بل كان أيضاً رجلاً اجتماعياً .
واستخلص من الكتاب المقدس أخلاقاً عملية وسياسية .

الأخلاق . - أما الأخلاق فتعرف بثلاث كلمات : قناعة ، عدل ،
تقوى ، وتعين لنا ما يجب علينا نحو أنفسنا ونحو الآخرين ونحو الله ،
وتتلخص بتعاليم قانون الوصايا العشر . وهذه الأخلاق تؤدي إلى وضع

يختلف عن الزهد المسيحي المعروف ، إذ يمكن للانسان أن يملك ويكسب ويتمتع بالحياة ملء شعوره ووجدانه ، ولكن الذي يحرمه الله هو اساءة الاستعمال لا الاستعمال . ولذا فان أخلاق كالفرن ترمي إلى تهذيب الطباع وتقويم الاخلاق ولا تدع مجالاً للاندفاع في الميول الطبيعية ، وتريد أن تنظم الخير على الارض وتصونه من كل رجس .

ويرى كالفرن ، كلوثر ، أن خدمة الله واجبة في العمل الذي خصصه لكل انسان . ومهما يكن هذا العمل مهنة أو وظيفة أو خدمة ، فيجب القيام به بشكل ملائم .

وتجدر الإشارة هنا إلى الاختلاف بين مفهوم لوثر ومفهوم كالفرن لأن هذا الأخير يعتبر تقدماً بالنسبة للأول . فقد نشأ لوثر قروياً راهباً بعيداً عن أمور العالم ولا يخرج عن نطاق العائلة ، ولذا فهو في غريزته يكره حياة الاعمال والمصالح والبنوك ورجال المال . وصاحب المصرف في نظره مراب . أما كالفرن فقد نشأ وتربى في وسط الاعمال والمال وأدرك أثر الثورة الاقتصادية التي حدثت في القرن السادس عشر ، الذي يعيش فيه ، وكان انسانياً يعرف أن النظم والاوزاع تختلف حسب البلاد والعصور ، وأن الحظر المفروض على اليهود لا مسوغ له عند مسيحي عصره ، وأن التجارة غير ممكنة دون القرض بالفائدة ، وأن المال ليس أقل قيمة من أي شكل من أشكال الغنى كالأطيان والعقارات وغيرها .

ولكن كالفرن ، الذي يعتبر من أنصار الرأسمالية ، يختلف عن كالفرن الأخلاقي الذي يحترم الانسان ويدعو إلى العدل والاحسان . فهو يرى أن القرض بالفسادة إلى الفقراء جرم ، وينصح بأن من الاحسان أن نقرض اناساً معوزين لا أمل لنا بتحصيل المال منهم . وإذا كان كالفرن مجدداً جريئاً من الوجهة النظرية فقد كان في الواقع مجدداً خجولاً ، لأنه

برر الفكر الرأسمالي ودسه في المفهوم المسيحي للحياة عن غير وعي . وكما قال عنه بعض المؤرخين : لقد كان كالفن ، رغمًا عنه ، ودون علم منه ، أحد مبدعي الاقتصاد الرأسمالي في الأزمنة الحديثة .

السياسة . - وبني كالفن مذهبه السيامي على كلام الكتاب المقدس . فهو يرى أن الدولة ضرورية في حياة البشر لأن الناس بعد الذنب الأصلي ليسوا أرواحاً نقية ؛ ولأن تعاملهم ووجودهم مع بعضهم يتطلب نظاماً لأمرهم . والدولة خير دواء لذلك ، لأنها ليست اختراعاً من اختراعات البشر وإنما هي عمل من أعمال العناية الإلهية . ولذا فالسلطة الحاكمة ليست مندوباً عن الشعب بل نائباً عن الله الذي يخولها جميع الحقوق التي تمارسها السلطة الشرعية . وهذه الحقوق تقابلها واجبات وتنحصر في كلمة واحدة وهي العدل . وليست غاية القانون البشري تحديد العلاقات بين الناس فحسب بل تنظيم أمور الدين أيضاً . ومن هذا الاتحاد بين الحق العام والأخلاق يصل كالفن إلى الحكم الإلهي .

ويقابل حقوق الدولة وواجباتها حقوق الأفراد وواجباتهم فلها عليهم حق الاحترام والطاعة ولو لم تكن أهلاً لذلك ، لأن الظلم شر ولكن العصيان ذنب عظيم ، ولذا يستطيع الشعب أن يطالب بالعدل لا أن يأخذ حقه بنفسه . بيد أن هناك حالة وحيدة تكون الثورة فيها مشروعة وهي حالة الأمير الكافر الذي يضطهد الرعية ويريد أن يصرفها عن خدمة الله ، ففي هذه الحال لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

ولكن ما هو النظام الذي يفضل كالفن . انه يفضل نظام حكم المجالس التي يراقب بعضها بعضاً . وهو النظام الذي طبقه ونفذه في كنيسه . وإذا أراد كالفن سلطة حاكمة قوية شديدة ، فقد كان قانعاً في الوقت نفسه بحرية المحكومين ، لأن حق الفرد كحق الآخرين صادر

عن الله . وبالرغم من أنه لم يكن ديموقراطياً إلا أن أفكاره والصورة ،
التي أراد أن يسهم فيها المؤمنون بالحكم ، تساعد ، دون إرادة منه ،
على تهيئة الفكرة الديموقراطية .

الكنيسة . - لقد ساعدت نظرة كالفن الحقوقية والاجتماعية على
تنظيم الكنيسة الوضعية الارضية التي أسسها المسيح وبحكمها . وتعاليم
هذه الكنيسة هي للتبشير بكلام الله واقامة الحفلات الدينية . يشارك
فيها من قبل مذهبها وقوانينها ؛ خصائصها واحدة لأنه لا يمكن تمزيق
المسيح ؛ عامة لأنها تتوجه إلى جميع الناس ، معصومة ومقدسة ، لأن
المسيح مؤسسها . وعلى هذا النحو تتوطد الكنيسة بين الله والانسان .
لأن المسيحي أصبح داخلاً في نظام الكنيسة وفيها يجد السلام الذي ينشده .

يتألف الكليروس الكنيسة الكالفنية من الشخصيات الآتية :

١ - الشيوخ أي الاساقفة ويتولون ادارة اموال الكنيسة وتنفيذ
نظامها مع القسوس .

٢ - القسوس وهم « الرعاة » ويتولون أمر السهر على الارواح .

٣ - الشماسون ووظيفتهم مساعدة الفقراء وتوزيع الصدقات .

وتؤلف الكنيسة طائفة ، ويجب أن تكون لهذه الطائفة أنظمتها
وشرطتها ، وأن يقوم المجلس المالي بأعباء السهر على النظام ، ويتألف من
الاساقفة (الشيوخ) والقسوس . وهو العجلة الاساسية في الطائفة
الانجيلية ، فهو يعد الأنظمة ويراقب أمور العبادة ويقضي في الحصومات
ويلفظ أحكامه من إخطار ونصح وتوبيخ أمام الشهود ، وطرده من الجماعة .
وعلى هذا النحو تبعد اللا أخلاق والمهرطقة من مدينة الله . على أن الشدة

لا تنفي الاعتدال . ولذا يجب أن يترك للجرم امكان الندم والعودة إلى حظيرة المؤمنين .

وتؤلف كل كنيسة وحدة لا علاقة لها برجل أو دولة أو شعب . وليس فيها تسلسل مراتب أو طبقة بمتازة . فالقسوس سواسية وكذلك الاساقفة والشماسون . ويشترك العلمانيون والقسوس في أعمال الكنيسة وإدارة مصالحها .

والمساواة سائدة بين الكنائس . ففي كل منطقة يجتمع القسوس ويعقدون مجالس اقليمية . وفي كل دولة تعقد المجالس الدينية للدولة مجالس مشروعة ومقدسة . ومن هنا يرى الاختلاف الظاهر بين نظام الكنيسة الرومانية ونظام الكنيسة الكالفنية ، فنظام الكنيسة الرومانية نظام بسيط نفوذ وتسلسل وطبقات . ونظام الكنيسة المصلحة هو نظام اتحاد كنائس رئيسها واحد وهو المسيح ، وقاعدتها واحدة وهي الكتاب المقدس . ولاجتماع الفوضى في الكنيسة سببت من الطائفة حرية اختيار القسوس وعهد بالانتخاب إلى الشيوخ في المجالس لانتقاء الأكفاء .

ولكن كيف يجب أن تكون العلاقات بين الكنيسة والدولة ؟ انها علاقات مساواة بين عالمين مختلفين : على الكنيسة أن تتولى أمر الاوضاع ، وعلى الدولة ألا تتدخل في الامور الدينية والاخلاقية ، بل أن تدعم الكنيسة . ولما كان كل منها يقوم بالدفاع عن « شرف الله » لذا يجب على الدولة أن تضع نظامها في خدمة الكنيسة .

وهكذا وجدت الكنيسة المصلحة ، بفضل كالفن ، طريقها السوي وأخلاقها وحكومتها ، ولم يعد الاصلاح بعد الآن نزعة أو اثماً بل ديانة ذات عقيدة ، وبإمكانه أن يقابل روما وجهاً لوجه ، وإذا اقتضت

الحال ، أن يناضلها وحظه كحظها ، كما أصبح بإمكانه أن يندفع في فتح العالم والتبشير بالدين العتيق الجديد .

كالفن في جونيف . - عندما انتهى كالفن « النظام المسيحي » ، جاب كثيراً من مدن اوربه الغربية وانتهى المطاف به أخيراً إلى جونيف ، وكان فيها المصلح فاريل وهو عضو قديم في جماعة مو .

أمر ك فاريل كالفن في عمله وبين له أن يقامه في جونيف واجب وجداني يتعم عليه ، وعندئذ تقدم كالفن للعمل بعزم الشباب ، وكان عمره سبعاً وعشرين سنة ، تحدوه قوة إيمان متين ، وشأت الاقدار أن تجعل منه مصلحاً ورجل دولة .

رأى كالفن أن الإصلاح يجب ألا يكون دينياً فحسب بل اخلاقياً أيضاً . غير أنه كان مصلحاً قاسياً لا يعرف الهوادة ، وأدت شدته بالجونيفيين إلى طرده مع فاريل . وعندما استلم أشياعه الحكم استدعوه من ملجئه في ستراسبورغ فعاد وأقر تأليف لجنة دينية مهمتها انتخاب القسوس وعزلهم ، ومحكمة وظيفتها السهر على الاخلاق القويمة ، وحرم الالعب والبذخ في الملبس والمأكل والمشرب واعتبرها ظاهرات شيطانية ، ولاقى في تطبيق هذا النظام وقبوله مقاومة عنيفة . ولم يكن كالفن رحماً بخصومه وبين لا يشاطره اعتقاده : فمن ذلك أنه أمر بقطع رأس جاك غرويه لأنه اتهم كالفن بالرياء ومذهبه بالجنون . وكذا الطيب العالم الاسباني ميشيل سيرفه حاول أن يدحض النظام المسيحي وينكر الثالوث الاقدس . وعندما مر من جونيف أوقف وحكم عليه بالموت وأحرق حياً (١٥٥٣) . وليزيد كالفن في قوة حزبه منح حقوق المدينة إلى كثير من اللاجئين الفرنسيين . وقد بدل دخول هؤلاء البورجوازيين المحدثين

الاكتوية في المجالس وأثار عاصفة شديدة من المعارضة ، ولكنها أخذت بالحكم والتعذيب (١٥٥٤ - ١٥٥٥) .

ولبت كالفن ، حتى وفاته ١٥٦٤ ، يمارس دكتاتورية حقيقية سياسية ودينية واخلاقية . وغدت جونيف ملجأ المصلحين وروما البروتستانتية ومدينة كالفن « بابا جونيف » ، كما يقولون ، ومركزاً فكرياً هاماً تشع منه حركة الاصلاح . فقد أنشأ فيها كلية جامعية وعهد بإدارتها إلى تيودور بيز أحد تلاميذه وسميت فيها بعد أكاديميا (سنة ١٥٥٩) وكان الطلاب يقدون عليها للدراسة من كل أنحاء اوروبا . وكانت لهم بمثابة مدرسة كهنوتية كبرى يتخرجون منها وهم يلتهمون ايماناً وحماة للتبشير بالمذهب الكالفني في أي مكان يدهوم الواجب اليه .

توسع الكالفنية . - خرجت الكالفنية من جونيف وانتشرت في كل اوروبا وخاصة في فرنسا وهولندا وايسكوسيا (سكوثلندا) . ويمتاز هذا المذهب عن اللوثة بنصرته فكرة استقلال الاقباع ، خلافاً للمذهب لوثر ، الذي يترك للأمير سلطة على اقباعه . فذهب كالفن اذن مذهب ديموقراطي ، ولذا كان سادة اوروبا أعداء له وخصوصاً .

في فرنسا . - ظهرت الكالفنية في فرنسا في عهد فرنسوا الاول . ولم يناهضها الملك ، في أول الامر ، لما عرف عنه من مؤازرة النهضة العلمية الحديثة ، ولما كان عليه من صلة بالبروتستانتين في المانيا ضد شارلكان . ولكن الاضطهاد عاد بعد تقارب فرنسوا الأول من شارلكان في صيف عام ١٥٣٨ . وسيطر على البلاط آنذاك أنصار الضرب على أيدي البروتستانتين . ولكن في آخر سنوات ملكه حدثت مذبحة الفودوين (نسبة إلى بطرس فالدو أو بطرس فر ، وهو تاجر من ليون نشر الهرطقة الفودوية التي ذاعت في القرن الثاني عشر ، وهي هرطقة

تدعو إلى الفقر وترك لكل انسان حق تفسير الانجيل) في كانون الثاني ١٥٤٥ حيث قتل ٨٠٠ شخص وهدمت ٢٢ قرية . غير أن الاضطهاد الحقيقي بدأ منذ عهد هنري الثاني (١٥٤٧ - ١٥٥٩) لفرط تعصبه للكاتوليكية . ولكن هذا الاضطهاد لم يمنع من انتشار الكالفنية ، وكان يساعدها على ذلك اشتراك السلطات المحلية أو اهلها ، لأنه لم يكن للسلطة الملكية أو الكنيسة وسائل الرقابة عليها . وتقدمت خاصة ، بين ١٥٤٠ و ١٥٦٠ بانتساب بعض الامراء الكبار اليها .

في البلاد المنخفضة . - وفي البلاد المنخفضة ، التي كانت تابعة لاسبانيا ، كانت البورجوازية العليا على صلة بأراء ارزموس روتدام ولذا اعتنقت البروتستانتية بسهولة . وكانت مشايعة الاصلاح فيها عن قناعة دينية . ولكن يجب ألا ننسى أن اعتناق الدين الجديد كان وسيلة لمقاومة الحكومة الاسبانية التي كانت في نزاع مع البورجوازيين والنبلاء في البلاد المنخفضة على مسائل ادارية وسياسية .

في سكوثلانده (ايكوسيا) . - انتشرت الكالفنية في ايكوسيا على يد جون نوكس (١٥٠٥ - ١٥٧٢) تلميذ كالفن . وكان يشجع نفوذ الاصلاح اليها أسباب سياسية واجتماعية . فنذ أن قتل جاك الخامس عام ١٥٤٢ قام النبلاء الايكوسيون المصلحون يناوئون الملكة الوصية على العرش ، ماري غيز الفرنسية ، وعلى رأسهم جيمس ستورات وهو ابن طبيعي لجاك الخامس . يضاف إلى ذلك أن الكنيسة الايكوسية كانت غنية فطمعوا في وضع يدهم على أموالها . وأخيراً تم الاتفاق بينهم عام ١٥٥٧ . وفي ١٥٦٠ اعترف البرلمان رسمياً بالاصلاح بعد وفاة الوصية دون أن يكتث لعواطف ابنتها الملكة ماري ستورات التي كانت في فرنسا وتزوجت فرنسوا الثاني ملك فرنسا ابن هنري الثاني . ونظمت

الكنيسة الايكوسية وفقاً لكنيسة جونيف ، إلا أن الكنيسة الايكوسية عرفت بامم الكنيسة المشيخية ويديرها مجلس من الرعاة الشيوخ .

في انكلترا . - انتشر الاصلاح في انكلترا على يد ملكها هنري الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٧) من امرة نودور . غير أن قطع العلاقات بين الكنيسة الانكليزية والكنيسة البابوية لا يتعلق ، في الحقيقة ، بأسباب دينية بل بأسباب شخصية وهي قضية طلاق الملك هنري الثامن التي دعت لذلك . إلا انه يجب ألا يذهب عن البال ان الافكار في انكلترا كانت مهياة لقبول الاصلاح منذ المحاولات التي قام بها ويكليف وتلاميذه اللولارديون في القرن الرابع عشر . فقد كان ويكليف استاذاً في جامعة اوكسفورد يبشر بقوله أن الملك له الحق أن يضع يده على أملاك الكنيسة إذا كان رجال الدين يسيئون استعمالها ، ثم قادته أبحاثه إلى دعم الرأي القائل بأن تفسير النصوص المقدسة ليس خاصاً بالبابا ورجال الدين فحسب ، بل بكل مؤمن نال حظاً وافياً من الثقافة . ومن أعماله انه ترجم الانجيل إلى الانكليزية . هذا فضلاً عن أن جامعة اوكسفورد كانت منذ أول القرن السادس عشر مركزاً للحركة الانسانية المسيحية التي قامت على يد جون كولين وتوماس مور .

هنري الثامن ومشكلة الطلاق . - كان هنري الثامن يدعي المعرفة في المسائل اللاهوتية . ففي سنة ١٥٢١ ألف كتاباً ضد لوثر ، فنحه البابا لقب « حامي الدين » . غير أن هنري الثامن مالبت أن يدل وضعه سنة ١٥٢٧ بمناسبة طلاقه . فقد سبق أن تزوج سنة ١٥٠٩ أرملة أخيه البكر ، كاترينا آرغوانه ، بيد أن هذا الزواج لم يتم إلا بعد سماح البابا جول الثاني به لأنه وجد أن هنالك قرابة بينه وبين كاترينا . وبعد

- ١٩٢ -

مضي ثماني عشرة سنة على زواجه خامره شك في صحة هذا السماح فرغب إلى البابا كليمان السابع أن يفسخ الزواج . وفي الحقيقة ان هنري الثامن استهوه آنسة من وصفات الشرف عند الملكة ، اسمها آن بولين فأراد أن يكون طليقاً ليستطيع الزواج بها . وطال امر القضية في بلاط روما ، وسرّف البابا الاجابة على الطلب ، لأن كاترينا آراغونه قريبة للامبراطور شارلكان صاحب النفوذ في ايطاليا . غير أن هنري سئم هذا الابطاء في الجواب ، وقرر قطع العلاقات مع روما ، وفسخ زواجه من كاترينا ، وتوج آن بولين ملكة على انكلترا (١٥٣٣) . رد البابا عليه بالطرد من الجماعة فلم يكتوئ لذلك وطلب إلى البرلمان التصويت على قانون التفوق الذي يضع الكنيسة الانكليزية تحت سلطة الملك العليا (١٥٣٤) . وبعبارة اخرى لقد جعل الملك نفسه بابا بملكته ، واتخذ فكرة اصلاح المساويء حجة فوضع يده على أموال الاكليروس النظامي . ثم باع أو أعطى قسماً منها إلى النبلاء فأصبحوا سنداً قوياً للنظام الديني الجديد .

على ان هنري الثامن وان انفصل عن البابوية فقد زعم انه بقي مخلصاً للمذهب الكاثوليكي ، الذي دافع عنه ضد لوثر . ففي قانون المواد الست (١٥٣٩) عرف العقائد التي أراد فرضها على رعاياه . وكانت هذه العقائد عقائد كاثوليكية تماماً . وأنذر أن كل معارضة لهذه المواد الست تؤدي إلى العقوبة بالموت .

ووجدت في انكلترا فتنان لم ترضيا بالخضوع لهذا القانون : الكاثوليك والبروتستانت ، وذلك لأن الكاثوليك لا يعترفون برئيس رومي غير البابا . ولأن البروتستانت كانوا يرفضون أكثر العقائد التي حافظ عليها الملك . ولذا كان هنري الثامن يشق أو يقطع رؤوس الكاثوليك باعتبارهم خونة ويحرق البروتستانت لأنهم هواطقة . ومن ضحايا هذا الاضطهاد

توماس مور الذي كان مستشاراً للملكة ورفض بنبل أن يصوت على قانون التفوق (١٥٣٥) .

ولبت انكلترا بعد هنري الثامن تتقلب بين الكالفنية في عهد ادوار السابع (١٥٤٧-١٥٥٣) والكاثوليكية في عهد ماري تودور (١٥٥٣-١٥٥٨) ابنة كاترينا آرغوانه وزوجة ملك اسبانيا فيليب الثاني ، وقد أرادت أن توطد الكاثوليكية في البلاد بسفك الدماء حتى لقت ماريًا السفاحة .

الديانة الانغليكانية . - غير أن الديانة الرسمية لم تصبح قطعية إلا في عهد إليزابث (١٥٥٨ - ١٦٠٣) ابنة آن بولين . فقد سلكت سياسة دينية شبيهة تقريباً بسياسة ابيها ، إلا أنها في (١٥٦٣ - ١٥٦٤) نظمت الاصلاح في انكلترا بـ « قانون الـ ٣٩ مادة » وهو يعتبر شرعة الديانة الانغليكانية . وهي ديانة متوسطة ، بين الكاثوليكية والبروتستانتية ، أثبتت مذهب كالفن ولكنها حافظت على نظام تسلسل الاساقفة وعلى قسم من مظاهر الاحتفال الكاثوليكي . وهذا ما يوضح لنا معارضة الكنيسة الرومانية لها وعداوة الفرق البروتستانتية في انكلترا ، لأن هذه الفرق لم تتكيف مع نظام الكنيسة الانغليكانية الجديدة من جهة ، وفسرت الكتاب المقدس وفهمت العبادة بشكل مغاير من جهة أخرى . وقد كثر عدد هذه الفرق ، وأهمها فرقة « الأطهار » التي تشكلت خاصة في الشمال بتأثير من كنيسة ايكوسيا المشيخية .

الاصلاح في بلاد البحر المتوسط : في ايطاليا واسبانيا . - لم يلق الاصلاح في ايطاليا كبير نجاح وذلك لأن الكالفنية واللوثية اصطدمتا بالاصلاح الكاثوليكي وبالنزعة العقلية التي حدت بالكثيرين إلى نفى العقيدة المسيحية . وفي العام ١٥٥٥ ضاع كل أمل بالاصلاح .

عصر النهضة (١٣)

- ١٩٤ -

وكذا الأمر بأسبانيا التي بقيت متمسكة بكاثوليكيها . وقد وضع كل من هذين البلدين علمه ومواهبه في خدمة الإصلاح الكاثوليكي .

الإصلاح في أوربه الوسطى والشرقية . - نفذت أفكار الإصلاح مبكرة ، منذ (١٥٢٠) إلى أوربه الوسطى في البلاد الخاضعة لآل هابسبورغ ، ولكن البروتستانتين فيها لم ينتسبوا بصورة كلية إلى هذه الكنيسة أو تلك بل كانوا يسلكون في الإصلاح مسلكاً متوسطاً يهتونه بأنفسهم يأخذون اللاهوت والطقوس والانظمة عن مذاهب مختلفة ثم يؤلفون بينها .

وفي بلاد بوهيميا ومورافيا ولوزاس كان النفوذ للكاثوليك والعدد للبروتستانتين ، وكان هؤلاء كنائس لوثوية وكالفنية .

وفي هونغاريا ، التي احتلها الاتراك وجزؤوها ، لم تعصف ريح الانقسام ولكن منذ ١٥٤٥ نظمت الكنيسة فيها بشكل كالفني من نوع خاص .

ونفذت الكالفنية الشعبية من جبال الكاربات وتسربت إلى رومانيا في فويفوديا وترانسلفانيا التابعتين للسلطان ، ووجدت في رومانيا الديانات الثلاث : الارثوذكسية ، الكاثوليكية ، الكالفنية ، دون أي اضطهاد وما ذلك إلا لسياسة التسامح التي سلكها الأتراك العثمانيون في هذه البلاد .

وفي بولونيا انتشرت الكالفنية في أول الأمر للتساهل الذي أبداه ملكها جان سيجيسموند . ولكن هذا الظفر كاث قصير الأمد بسبب الانقسام الذي حصل في صفوف الشعب . وفي عام ١٥٦٠ غلبت الكالفنية على أثر تطبيق مقررات مجمع ترانت وعادت بولونيا إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية بفضل جهود اليسوعيين .

وصفوة القول ، إذا راهينا بعض الاستثناءات ، نجد في العام ١٥٦٠ ان بلاد البحر المتوسط بقيت سليمة ؛ والمانيا الشمالية والبلاد الاسكندنافية لوثيرة وخاضعة للأمراء . والبلاد التي تأثرت بالكالفنية هي : بريطانيا العظمى ، البلاد المنخفضة ، سويسرا عدا كانتونات الوسط ، هونغاريا ، بوهيميا ، المانيا الريفانية ، بولونيا موقتاً ، أكثر من نصف فرنسا .

ان تاريخ العام ١٥٦٠ أسامي في تاريخ الكالفنية ، فيه بلغ الاصلاح حده الأقصى في اوروبا . وفيه خرجت البروتستانتية من عزلتها وألفت حزباً سياسياً قوياً . ولم يعد امكان لانخاض حل متوسط . فأمام حشد الاصلاح وقف حشد الكاثوليكية . وانبرت الحنفية الرومانية تناهض الحنفية البروتستانتية ، فلا مراعاة ولا تساهل تجاه أي انقسام وخروج على الكاثوليكية . وستكون الحرب الأهلية في فرنسا والحرب القومية في البلاد المنخفضة مظهراً جديداً للنزاع بين المصلحين والكاثوليك وبين الملك وأتباعه المتمردين . وستنضم ولا شك إلى فكرة الايمان المنافع الزمنية والاهواء البشرية .

الاصلاح الكاثوليكي

لبث روما طويلاً تشهد حركة الاصلاح دون أن تبدي حراكاً ، وذلك لأن الحروب المستمرة منذ ١٥١٩ حالت دون انعقاد مجمع ديني بعيد إلى الكنييسة وحدتها باصلاح داخلي فيها وفي عقائدها ، فضلاً عن أن الكرسي الرسولي نفسه كان منهمكاً في السياسة كسائر الأمراء . فقد كان الكسندر السادس بورجيا (١٤٩٢ - ١٥٠٣) وجول الثاني (١٥٠٣ - ١٥١٣) منصرفين عن واجباتها الروحية ، يعيشتان ملكين لاهمهما إلا الحياة الدنيا . حتى ان مجمع لاتران ، الذي انعقد عام ١٥١٢ ،

ضم ما يقرب من مائة حبر ، وأكثرهم ايطاليون ، لم يبد أي رغبة في
تبدیل الحالة الداخلية للكنيسة ، لأن هذا الوضع يلائم الأمر الايطالية
الكبرى ، التي جعلت من الكرسي الرسولي ووارداته اقطاعاً حقيقياً ،
وكل ما أجراه من اصلاح هو أنه ألغى الجمع بين عدة وظائف كنسية
كانت تثير الشك والفضيحة . ولم يحدث أي اصلاح جوهری يستحق
الذكر . وسبب ذلك أن ما تشكو منه الكنيسة كان متعلقاً بالباباوات .
فقد سلم هؤلاء أمر إدارة الكنيسة إلى السلطات الزمنية وتركوها تحت قبض
وظائف ليست من اختصاصها : ففي اسبانيا مثلاً نظمت محكمة التفتيش
من قبل الملك فرديناند والملكة ايزابل عوضاً عن أن تقوم الكنيسة بمثل
هذا العمل . وفي ١٥١٦ وقعت كونكوردات بين البابا ليون العاشر
والملك فرنسوا الاول وترك البابا اليه أمر تعيين الأساقفة والاكباء . وفي
١٥١٨ تخلى لهنري الثامن عن ادارة الكنيسة الانكليزية وجعل من وزيره
ولزي مندوباً عنه في انكاترا . وفي العام ١٥٢٠ قام شارلسكان بالضرب
على أيدي المراطقة في البلاد المنخفضة عوضاً عن الكنيسة . كما حاول
أيضاً في عام ١٥٢١ أن يصرف الكرسي الرسولي عن سياسته الايطالية
فانتخب البابا أدرين السادس (١٥٢٢ - ١٥٢٣) . وحاول هذا الحبر
الاعظم أن يدفع خطر اللوثة فترك للأمراء الألمانين خمس واردات الكنيسة .
وان ما قام به البابا بولس الثالث (١٥٣٣ - ١٥٤٩) ، من محاولات
في تقريب وجهات النظر بين أنصار الاصلاح والكاثوليكين ، لم يؤد إلى
حل بعيد المنشقين إلى حضن الكنيسة الرومانية . وعندئذ قرر البابا بولس
الثالث النضال ، وبدأت في الأفق حركة جديدة ترمي إلى أنه يجب على
الكنيسة أن تصالح نفسها لتستطيع مقاومة خصومها ، حتى ان كثيراً من

أخبار الكنيسة كانوا يدعون إلى الإصلاح الكاثوليكي . وتبنى البابا بولس الثالث هذه الفكرة واتخذ لإصلاح الكنيسة ثلاثة اجراءات وهي :

- ١ - الاعتراف بجمعية اليسوعيين .
- ٢ - تنظيم محاكم التفتيش .
- ٣ - عقد مجمع ترانت عام ١٥٤٥ .

الطرق الديرية . - كانت الكنيسة ، عند كل أزمة تهددها بالخطر ، تلثفت إلى نفسها وتستجمع قواها . ويتمثل رد الفعل عندها بإنشاء الطرق الرهبانية ، فمن ذلك أن رهبان كلوني والاورين ، في القرن الحادي عشر في عهد بابوية غريغوار السابع ، أخذوا على عاتقهم إصلاح الكنيسة عندما همت فيها المساوئ والمفاسد . وفي القرن الثالث عشر لقي البابا اينوسان الثالث مساعدة الفرنسيين في مكافحة الهرطقة التي انتشرت في الحواضر المدنية ، ومساعدة الدومينيكيين الذين أقروا نظرية السلطة البابوية وشرعية العقوبة بالموت ضد الهرطقة ، ونظموا محاكم التفتيش .

وفي هذه المرة ، أي في القرن السادس عشر الذي تشكو فيه الكنيسة أزمة الانحلال الأخلاقي ، ظهرت طرق جديدة أخرى : فمن ذلك أن الفرنسيين جددوا طريقةهم وانتظموا تحت اسم العكوبوشين ١٥٢٦ نسبة إلى الاسكيم الذي يضعونه على رؤوسهم . ومن الطرق التي تأسست حديثاً طريقة للتيمانين ١٥٢٤ (بالنسبة إلى أسقف تيانو الكاردينال كارافا الذي أصبح فيما بعد بابا بام بولس الرابع) وطريقة الاوداتوريين (١٥٤٨) التي أسسها فيليب نيري . وقد أحدث من ١٥٢٤ إلى ١٦٤١ ما لا يقل عن خمس عشرة طريقة ترمي إلى بعث الحياة الدينية وتثقيف الاكليروس وتعويد على النظام والتقوى والصلاح والقيام بأعمال الاحسان .

على أن الطريقة التي كتب لها أن تلعب دوراً هاماً في التاريخ هي طريقة اليسوعيين التي أسسها اغناطيوس لويولا .

اغناطيوس لويولا - ولد اغناطيوس لويولا على الأكثر في آخر العام ١٤٩١ من أسرة نبيلة اسبانية من بلاد البشكنس (الباشك) في قصر لوبولا الذي يحمل اسمه في التاريخ . دخل في خدمة الملك فرديناند مرافقاً ثم جندياً ، وأصابه في الدفاع عن قصر بامبلون ، ضد الفرنسيين ، في ٢٠ أيار ١٥٢١ ، جرح اضطره للعدول عن الحياة العسكرية . وكان في فترة استشفائه يطالع الكتب الدينية ، فأعجب بالقديسين فرانسوا أسيز ودومينيك ، مؤسسي طريقتي الفرنسيسكيين والدومينيكيين ، وهما من طرق المتسولين . وأحب اغناطيوس أن يقلدهما ويكون جندياً للمسيح . وفي ٢ شباط ١٥٢٨ ذهب إلى باريس وأقام فيها ست سنوات . وهناك ظهر تأثيره في نفوس رفاقه . فقد جمع حوله ستة طلاب ثم ذهبوا معاً إلى قابلية القديس دوني في حي موثارتو ونذروا أن يقوموا بالفضائل الرهبانية الثلاث ويؤدوا القدس ، ويرصدوا أنفسهم لسلام الأرواح . وإذا استحال الحج إلى الأراضي المقدسة فإنهم يقدمون خدمتهم للبابا . وقضوا سنتين لإتمام دراستهم الكنسية . ولم يستطيعوا الذهاب إلى فلسطين ، وبعد أن قاموا بالوعظ والارشاد في أراضي البندقية قرروا أن يخدموا البابا وأطلقوا على أنفسهم « جمعية اليسوعيين » ١٥٣٧ . وبعد ثلاث سنين من تأسيس هذه الجمعية أي في ٢٧ ايلول ١٥٤٠ اعترف البابا بولس الثالث بهذه الجمعية ووضع أعضائها تحت حماية الكرسي الرسولي . وفي ٢٣ نيسان ١٥٤١ انتخب اغناطيوس جنرالاً لها وأقسم بين الولاء والطاعة بين يدي البابا .

جمعية اليسوعيين . - كان نظام هذه الجمعية نظاماً عسكرياً يتطلب

من أعضائه الاطاعة الغمياء والتنازل الكلي عن إرادتهم الخاصة والثقافة العميقة . وعقد هؤلاء العزم على سحق الاصلاح والانسانية والمرطقة والفكر الحر ، ليؤمنوا الخضوع التام إلى الكنيسة الرومانية ، وقرروا أن يكافحوا العقل بسلاح العقل .

نظموا عملهم في التعليم ليكافحوا التعاليم الكالفنية . وجعلوا برامج كلياتهم مفتوحة للثقافة الجديدة ، ولكن تحت رقابتهم . وأخذوا عن الانسانية شكلها لا روحها وعقلها . ولتقنوا الاكليروس من جميع البلدان أسسوا في روما كلية جرمانية ومدرسة كهنوتية انكليزية ومثلها لليونان والوارنة . وفي ١٥٨٠ كان جـانـزال الجمعية اليسوعية يأمر على خمسة آلاف يسوعي في ٢١ اقليماً و ١٤٤ كلية .

تختلف هذه الطريقة عن غيرها من الطرق الديرية في انها طريقة عمل وكفاح وانخراط في المجتمع لاصلاحه ، وأعضاءها كتاب وأساقفة وأطباء وعلماء ومبشرون يهدفون الى فرض نفوذهم على الطبقات الموجهة في البلاد الاوربية ومحاولون جهدهم كسب مودتها وثقتها والسهر على عدم التعرض لمصالحها . وقد امتد تأثيرهم على كثير من الجامعات ، وسعوا لاحلال الفلسفة المدرسية محلها اللاتني بها دون أن يضعوها بالفكر الجديد . ولم يقتصر عملهم على أوربة فحسب بل أرسلوا البعثات إلى مستعمرات البرتغال والهند واليابان . ولكن شدة تعصبهم وعدم تسامحهم وتكبرهم ، أدت في العام ١٥٨٠ ، إلى توقفهم عن العمل في البلاد الجديدة .

قاوموا حركة الاصلاح بما أوتوا من عزم ونشاط . فمن ذلك ان الأب كانيزوس أوقف تقدم الاصلاح في المانيا وسويسرا ، ومما سعيه وضعت الجمعية اليسوعية يدها على جامعة انغولشتاد (١٥٥٦) ودبلنغن (١٥٦٣) كما انه أسس كليات كبرى في فريبورغ وفيينا وبراغ ومونيخ ووسع عمله في بولونيا وليفونيا وترانسلفانيا .

وبالرغم من معارضة جامعة لوفن الشهيرة بكاثوليكيته فان الجمعية اليسوعية أسست لها فروعاً في البلاد المنخفضة (١٥٥٦) وأحدثت في دوييه مدرسة اكليزيكية انكليزية - ايرلندية لتقاوم الجزر البريطانية .

وفي البرتغال ، عظم تأثيرها في عهد جان الثالث . وفي اسبانيا انشأت كليتها ، التي كانت بمثابة حصن منيع للدين الحنيف ، إلى جانب جامعة سالامنكا .

وفي ايطاليا ، كان تأثيرها عظيماً وعميقاً حتى ان عقليتها الاستبدادية التي فرضتها على القلوب والأفئدة ، خنقت كل تفكير حر وجعلته يتقيد بالشكل أكثر من تقيده بالجوهر .

وفي فرنسا ، لاقت مقاومة الغاليكانية (أي الكنيسة الفرنسية الكاثوليكية) والبولان ؛ وهذا لم يمنع تأسيس ما لا يقل عن ١٤ كلية في المملكة كانت أداة لاستبداد هنري الرابع .

وهكذا استطاعت جمعية اليسوعيين ، بفضل الجهود التي بذلتها ، أن تروء إلى الكنيسة روح النظام والدين الحنيف ، وتبعث فيها هموميتها وقوة نموها . وحاولت أن تخضع الدولة إلى حلطة روما ، وقامت بنشر الثقافة المثينة ، إلا انها كانت تراقبها وتسهر على منع كل تشبث يؤدي إلى التحرر الفردي . وفرضت سيطرتها الكلية ؛ حتى انها قضت على الحركة الانسانية حينما كتب لها النجاح والظفر . وإذن فقد كان عمل الجمعية اليسوعية خدمة المصلحة الكاثوليكية العامة وخدمة الكنيسة وخدمة البابا .

محكمة التفتيش . - هي محكمة أسست في العصر الوسيط للبحث عن المهرطقة ومحاكمتهم . وقد وضع مجمع فيرونه (١١٨٣) الأسس التي بنيت عليها هذه المحكمة ، ثم امتد تأثيرها في سائر البلاد المسيحية الاوربية

ولكن هذا التأثير أخذ يضعف مع الزمن إلا في اسبانيا ، لأنها كانت سياسية وبيد الملك .

وفي ٢١ تموز ١٤٥٢ أعادها البابا بولس الثالث إلى العمل ووضعها تحت رقابته في ايطاليا . وكان البابا يارس رقابته على هذه المحكمة بواسطة اللجنة المقدسة . وتتألف هذه اللجنة من ستة كرادلة يرأسهم البابا نفسه ، ومهمتها السهر ، في جميع البلاد الكاثوليكية ، على الدين الحنيف . فهي تقوم بوظيفة الشرطة فيما يتعلق بالأمور الدينية . وكانت أحد الكرادلة مفتشاً أكبر وهو الكردينال كارافا . وكان رسول البابا في اسبانيا وهو الذي نصح البابا بتأسيس هذه المحكمة على النمط الاسباني . وكان باستطاعة المفتشين العامين أن يجوبوا مختلف البلاد ويتمتعوا بسلطات واسعة تخولهم حتى الحكم بالموت . ولا يستثنى من هذا التفتيش أحد بل كان يخضع إليه الاكليروس النظامي والعصري وسائر المسيحيين في سائر البلاد . وقد عهد بمحاكم التفتيش إلى الدومينيكيين . وبينما كانت اليسوعيون يقومون بحراسة الدين والدفاع عن العقيدة بالارهاب . وظفرت محكمة التفتيش في كل مكان إلا في البندقية التي قاومت مقاومة جديّة لأنها تعتبر ان ثروتها ناجمة عن صفتها العالمية وأنها موطن لأبناء العالم منها تنوعت مذاهبهم .

قامت هذه المحكمة في عملها بكل شدة وصرامة ولم تكتف بجاربة الاصلاح بالنار بل أرادت أن تختق الحرية العلمية والفلسفة . أسست في العام ١٥٥٩ لجنة الثبوت ووظيفتها أن تنظم قائمة بأسماء الكتب التي تحرم قراءتها . فمن ذلك انها حكمت بالحرمان على ٧٢ طباعاً وأحرقت كميات كبيرة من الكتب ، وبذا تحول الاصلاح الكاثوليكي إلى مكافحة النهضة .

ومع هذا فقد استقبلت محكمة التفتيش بسهولة ، وذلك لأنها ظهرت بالنسبة إلى الطبقات المالكة وسيلة عليا للدفاع عن النظام ، لا ضد المهرطقة فحسب ، بل ضد النظريات الاجتماعية الانقلابية الهدامة . وكان نجاح اليسوعيين ، في أوساط المجتمع الراقية والعليا ، ناجماً عن هذا السبب نفسه وهو الخوف من الشيوعية التي لبثت خلال عشرة أعوام من (١٥٢٥ - ١٥٣٥) تدعو الطبقة الكادحة في المدن للقيام بأعمال التخريب والعدوان .

وإلى جانب هذه اللجان شكل البابا بولس الثالث لحماية الدين لجنة الدعاية ، وكانت هذه اللجنة تبعث بالرسائل إلى مختلف الدول ، وتخطط التمثيل الدبلوماسي بضرورة الكفاح ضد البروتستانتية ، وتضع عنها مندوبين على طول الحدود الدينية كما هي الحال في لومرن وكولونيا (١٥٨٠) وفارسوفيا وبروكسل ١٦٠٦ .

مجمع ترانت (في منطقة التيرول الإيطالية) . - ان تاريخ هذا المجمع الديني هو تاريخ خلاف مستمر ، بين الكرسي الرسولي الذي لا يقبل بأن المس العقيدة التقليدية في شيء ولا فيما يتعلق بسلطته الخاصة على الكنيسة ، وبين الامراء المنقسمين فيما بينهم ولكنهم يرغبون باصلاح العقيدة ويرون أن هذا الاصلاح ضروري لتوطيد السلام الديني ويكرهون مزاعم الباباوات الاستبدادية . ولكن المجمع انتهى إلى اصلاح الكنيسة الرومانية طبقاً لارادة البابا . واتضح ظفر الكرسي الرسولي بوحدة الكنيسة واستمرار سيادة الفاتيكان . وأول ظفر له أنه منع انعقاد المجمع خارجاً عن ايطاليا وفي مدينة ربا تكون عرضة للتأثيرات الخارجية ؛ والظفر الثاني حمله المجتمعين على التصويت بعدد الرؤوس لا بعدد الدول كما في مجمع كونستانس (١٤١٤) وبال (١٤٣١ - ١٤٤٩) وذلك

ليحفظ للكنيسة صفتها العامة ويبعد عنها النزعات القومية . ولكن هذا الاجراء لم يمنع ظهور التأثير الايطالي والروماني في المجمع ؛ وهناك ظفر ثالث للبابا وهو أن شارلكان كان يطلب منذ عشرين سنة انعقاد هذا المجمع ولم يفتح إلا في ١٣ كانون الاول ١٥٤٥ بعد أن وقع الصلح في كريبي بين شارلكان وفرنسوا الاول وعاد السلام إلى اوربه . وكانت شارلكان يريد أن تقوم الكنيسة باصلاحات جذرية تقضي على المساوىء ، وأن ينظر المجمع بالواسطة التي يمكن أن تعيد البروتستانتين إلى الكنيسة الكاثوليكية . ولكن الكرادلة الايطاليين والاسبانيين ، الذين يتمتعون بالاكثوية في المجمع ، أثاروا قبل كل شيء قضية العقيدة ، ولذا أخذ المجمع وضعاً حازماً وصرح بأن الاكليروس له وحده الحق في تفسير العقيدة والكتب المقدسة ، فانقطع كل رجاء في التوفيق .

ثم توقف المجمع عن الانعقاد سنة ١٥٤٩ بسبب الحوادث السياسية ولم يجتمع إلا في ١٥٦٠ بعد صلح كانو - كامبريزي وانتهت جلساته عام ١٥٦٣ .

تنقسم المقررات التي اتخذها المجمع إلى قسمين : قسم يتعلق بالعقائد وقسم يتعلق بالانظمة .

العقائد . - كان عمل المجمع متجهاً ضد البروتستانت . فقد امتنع عن الفصل في المسائل التي كانت موضع جدل بين علماء اللاهوت الكاثوليك ، وشرح بتعاريف واضحة النقاط التي هاجمها البروتستانت ، وصرح ان مصادر الايمان هي الكتاب المقدس وما يتممه من أحاديث ، وان النص ، الذي يجب أن يعتمد عليه الكاثوليك ويعتبروه أصلياً صادقاً ، هو نص الفلغاظة أي الترجمة اللاتينية التي قام بها القديس جيروم في القرن الرابع الميلادي للنص الأغريقي السبعيني . وأبقى الامرار

السبعة التقليدية وهي : التعبيد ، التثبيت (الميرون) ، القربان المقدس ، التوبة ، المسحة الأخيرة ، الكهنوت ، الزواج ، التي أرجعها البروتستانتيون إلى اثنين . وأثبت الحضور الحقيقي للمسيح في سر القربان المقدس ، وأبقى مذهب المطهر الذي أطرحه البروتستانتيون ، واجلال الصور ، وعبادة القديسين التي اعتبرها البروتستانتيون كعبادة الاوثان . وبينما انفصل البروتستانتيون عن روما ، أعلن الجمع أن كل كاثوليكي يجب عليه الطاعة الروحية للبابا خليفة القديس بطرس ونائب السيد المسيح ، وان كتاب « قواعد الدين المسيحي » الذي حرره شارل بوروميه ، رئيس أساقفة ميلانو ، يضع هذه العقائد في متناول الجميع .

العمل التنظيمي . — أما ما يتعلق بنظام الكنيسة فقد اهتم الجمع باستئصال المساوئ الصارخة وأبقى التعاملات التي ذمها البروتستانتيون . فمن ذلك أنه أبقى استعمال اللغة اللاتينية في الصلاة والقداسات العامة وعزب الكهان . ومن جهة أخرى ، حرم الجمع بين وظائف متعددة ، وقرر أن يقيم الكهان والاساقفة في كنائسهم واسقفياتهم ويبشروا في كل اسبوع مرة واحدة على الأقل ، أي في يوم الاحد ، يوم القداس الاكبر . ولا يمكن للاكليركي أن يكون اسقفاً ما لم يكن له من العمر ٣٠ سنة وكاهناً ٢٥ سنة . وجعل اللباس الكهنوتي اجبارياً . وأوصى الجمع بتأسيس المدارس الاكليركية لتثقيف الفتيان الذين يرغبون أن يكونوا كهاناً في المستقبل ، وأوصى بفتح مدرسة في الحورية ، كنيسة القرية ، لتعليم الاطفال مجاناً .

وإذا كان الاصلاح البروتستانتي أدى إلى تأسيس كنائس خاصة معتمدة على مبدأ « حرية العقيدة » ، فإن الاصلاح الكاثوليكي كان همه بقاء مبادئ الوحدة والسلطة في الكنيسة . ولذا رفض السماح باستعمال

اللغة الوطنية في القداس والاحتفالات ، وأبقى اللغة اللاتينية لغة عامة مشتركة ، ووجد كتب صلوات القداس التي تضم صلوات للقداس لكل أيام السنة ، وكتب الفروض الكنسية ، التي يجب على الكهان قراءتها كل يوم . وأقر سلطة البابا على الكنيسة لأن الكنيسة جسد واحد ويجب أن يكون لها رأس واحد . وأعلن مجمع ترانت أن البابا راعي الكنيسة ، وأنه يتمتع بالسلطة الواسعة في إدارة الكنيسة العامة ، وأنه المفسر الوحيد للكتاب المقدس ، وأنه يعلو على الجميع ، وإن كل ما في الكنيسة يجب أن يصدر عن البابا وينتهي إليه . ولذا فإن سلطة البابا ، التي أطرحها البروتستانتيون ، رسخت قدمها أكثر بما في السابق .

أما الإصلاح الداخلي للكنيسة فلم يحقق في المجمع ، بل ترك إلى سلطة الكرسي الرسولي ليعمل على تجديدها . ولبت روما أكثر من قرن جهادة في القيام بأعباء رسالتها الروحية وإنشاء المدارس الكهنوتية وإصلاح الاديرة وتأسيس الطرق الجديدة .

وهكذا سجل مجمع ترانت نهضة كاثوليكية مؤسسة على سلطة البابا وسلامة العقيدة وصرامة النظام الكنسي .

وأوقف مجمع ترانت حركة التطور التي حدثت في الممالك الأوروبية وكانت ترمي إلى إنشاء كنائس وطنية . ولذا اضطدت مقررات المجمع في هذه الممالك بمقاومات عنيفة : ففي فرنسا ، مثلاً ، عارضت الكنيسة الغالكانية بقبولها . وفي إسبانيا ، لم تقبل إلا بعد أن قيدتها بالابتعاد شيئاً في النظام القائم ، كما هي الحال في البندقية . وفي البرتغال والنمسا وبولونيا ، قبلت بتامها ، وأرجعت همومة الكنيسة ، وفرضت على الدول بالرغم من معارضتها .

وبفضل هذه الحطة الحازمة ، التي سلكتها الكنيسة الكاثوليكية في

الاصلاح ، استطاعت أن توقف حركة الاصلاح البروتستانتي وتحديث بقطة دينية كاثوليكية ، وان لم تستطع رد جميع المنشقين إلى حضن الكنيسة الرومانية . يضاف إلى ذلك أن الكنيسة وجدت حلاً للزمة الدينية وذلك بالرجوع إلى الدين الكاثوليكي الحنيف وما رافقه من تنظيم . ولكن المنازعات الدينية ، التي لم تظهر بعد إلا بشكل نقاش وجدل ومجالس واضطهادات ، ولدت مباشرة حروباً طويلة وفضيحة أهلية وخارجية وأمدت النزاع السيامي الاوربي بغذاء جديد . ففي فرنسا ، بدأت الحروب الدينية . وفي اسبانيا ، كانت الامور تجري طبياً لمآرب سياسية وضرورات تقضي بالدفاع عن امبراطورية غنية ، ولكنها بدأت تصطبغ بصبغة حرب صليبية كاثوليكية ، وتزيد في شدة التنافس الاقتصادي بين اسبانيا وانكلترا . وفي ألمانيا ، كان امتداد المنازعات الدينية ، بعد صلح أوغسبورغ ، والدفاع الكاثوليكي ، الذي شنته البلاد النمساوية والبافاريا تحت ادارة اليسوعيين ، سبباً في حرب الثلاثين عاماً (١٦١٨ - ١٦٤٨) .

★ ★ ★

وصفوة القول ان البروتستانتية اصطدمت منذ ظهورها بمقاومات . وهذه المقاومات تنقسم إلى قسمين : مذهبية وحكومية ، أدت الاولى إلى تقوية الحنفية المصلحة وتححر الفكر الديني والفلسفي وقيام الكنيسة الرومانية ، وأثارت الثانية اضطهادات وحروباً دينية وأوقفت توسع الديانات الانجيلية في أوربه .

ولم يكن للدفاع الكاثوليكي سوى نتائج محدودة ، لأن تأثير الملوك أخفق من الناحية العملية : ففي ألمانيا لم يستطع شارلكان التغلب على عصبة الامراء البروتستانتين ، واعترف بموجب صلح اوغسبورغ (١٥٥٥) بوجود البروتستانتين في المانيا عملاً بالمبدأ ، الذي يحول الأمير فرض دينه

على اتباعه ، واضطر إلى قبول التعصيرات التي أجراها الامراء في اموال الكنيسة ، ولذا تخلى عن فرض الوحدة الدينية على الامبراطورية الجرمانية الرومانية المقدسة .

ولم ينجح في البلاد المنخفضة في وضع حد للوثنية وخاصة الكالفنية ، التي استمرت في تقدمها ، حتى ان المحاولات التي قام بها لضرب على أيدي المشيقي كانت سبباً في قيام البلاد المنخفضة ضد الحكم الاسباني . وفي فرنسا ، كانت سياسة الملوك متروكة : فقد كانت مقاومة فرنسوا الأول منقطعة . ووقف هنري الثاني موقفاً حازماً ضد الكالفنية إلا أنه لم يوفق هو وأخلافه في القضاء على الدين الجديد ، لأن مرسوم نانت ١٥٩٨ بعد الحروب الدينية حول البروتستانتين حق العباداة .

أما دعاية الكرمي الرسولي فكانت نتائجها متباينة حسب موقف الحكومات : ففي انكلترا ، حيث كانت الحكومات تعارض الكنيسة الرومانية ، أخفقت الدعاية ، ولكنها نجحت في بعض بلاد اوربه (بافاريا ، رينانيا ، بوهيميا) بفضل مساعي اليسوعيين الذين أهدوا إلى الكاثوليكية المناطق التي انفصلت عنها . ولذا فان أهمية الشروط السياسية هي التي تبدو في نجاح الاصلاح .

وبعد فكيف كانت خارطة أوربة الدينية في النصف الثاني من القرن السادس عشر ؟ ان بعض البلاد أو المناطق ، التي خرجت عن طاعة البابا والكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، هي : المانيا ، حيث نجد أن ثاني الدول الالمانية قد اعتنقا الديانة اللوثرية ؛ واسكاندينافيا حيث أصبحت اللوثرية ديانة رسمية للدولة .

وفي انكلترا صارت الكنيسة الانجليكانية كنيسة الدولة .

- ٢٠٨ -

وفي سويسرا نجد أن المناطق الجبلية في الوسط (وعددها سبع على اثنين وعشرين) بقيت كاثوليكية .

ونجد في البلاد ، التي بقيت كاثوليكية ، جزراً ونوى ممن دانوا بالديانة الكالفنية المصلحة كما هي الحال في فرنسا والبلاد المنخفضة وبوهيميا وحتى هونغاريا .

والجدير بالذكر ، في هذه القطيعة التي كسرت الوحدة الدينية الكاثوليكية ، هو أننا لا نجد في الجماعات البروتستانتية وحدة ، لأن الإصلاح أدى في كل دولة من الدول إلى تشكيل عدة كنائس انجيلية ، لا رابطة بينها إلا الاعتماد على الكتاب المقدس ، ولكنها بقيت ملحدة بالدولة . وتعتبر هذه النقطة هامة من الناحية السياسية ، لأن خضوع الكنيسة الكاثوليكية في الدولة لكنيسة روما يوجد على هذا الشكل دولة ضمن دولة .

وإذا نظرنا إلى الإصلاح من الناحية الاقتصادية نرى أنه لعب دوراً نشيطاً ، وذلك لأن كالفن قبل ، خلافاً للاهوتيين الكاثوليك ، بشرعية القرض بالفائدة ، واعتبر جهد الانسان في سبيل الحصول على الثروة والغنى أمراً طبيعياً وحلالاً ، حتى ان بعض علماء الاجتماع يرون في روح البروتستانتية عنصراً أساسياً لنمو الرأسمالية .

★ ★ ★

الفصل السادس

نهضة الدولة

تشكل الدول الكبرى . - لقد كانت أوربه ، في العصر الوسيط ، تؤلف نوعاً من جمهورية مسيحية يوجهها الامبراطور في الأمور الزمنية والبابا في الشؤون الروحية ، ويتبادل الاثنان العون . ولكن هذا المفهوم أخذ يضعف مع الزمن وفقد قوته وأصبحت أوربه وحدة حضارية واحدة دون أن تكون وحدة سياسية . ولم يعد لسلطة البابا تلك المكانة التي كانت لها في النفوس ، ولم يعترف بها في كثير من البلدان الأوروبية . ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل ان بعض البلدان شقت عصا الطاعة عليها وخرجت على نظامها الديني وأخذت تكافحها . وكذا الحال فيما يتعلق بسلطة الامبراطور ، فقد كانت محدودة في الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة ، وأصبحت عدماً في خارجها في الدول التي لا يحكمها بصفة عاهل صاحب سيادة أو أمير . وظهرت فردية النهضة في السياسة بتنظيم أوربه في جمع من الدول يسود التوازن بينها ، أي ان كل واحدة مساوية في الحقوق للأخرى ، كأفراد أحرار أخلاقهم متشابهة ، ومثلهم الأعلى واحد ، بالرغم من المنافسات القائمة بينها . وقد حلت هذه المساواة بين الدول محل نظام التسلسل المتعارف عليه في العصر الوسيط .

وبدأ الاتجاه نحو تشكل الدول الكبرى ، منذ العصر الوسيط ، لبلوغ هذا التوازن الجديد بين الدول الأوروبية . فقد أخذت بعض الدول ، كفرنسا مثلاً ، تضع تحت سلطة الملك المباشرة بلاداً تابعة كان عصر النهضة (١٤)

امراؤها يحاولون أن يجعلوا منها أمماً متميزة ، مثل دوقية بورغونيا عام ١٤٩٣ ، ودوقية بروقتانيا عام ١٥٣٢ ؛ وتشكلت اسبانيا من وحدة مملكة اراغونه ومملكة قشتاله بزواج فرديناند وايزابيلا عام ١٤٦٩ . وانحدت في بريطانيا امارة الغال (ولز) مع بلاد الانكليز وخضعت لارادة واحدة عام ١٥٣٦ . وفي الامبراطورية المقدسة كون الأمراء من اماراتهم دولاً حقيقية . وظلت ايطاليا منقسمة ، كسابق عهدها ، لأن دولها تأسست منذ البدء تأسيساً قوياً وتحورت من كل رابطة تربط فيما بينها ، وساد علاقاتها التوازن الدولي قبل أن تتشكل الدول الكبرى .

الملكية المطلقة . - لقد نما تطور معظم الدول الاوربية في عصر النهضة منحى الملكية المطلقة ، التي يشخص فيها الملك المثل الأعلى القومي ، ويتمتع حقاً وفعلاً بصفات السيادة أي بسلطة سن القوانين واقامة العدل وفرض الضرائب واعداد جيش دائم وتعيين الموظفين والحكم على الاعتداء على الاموال العامة وخاصة على السلطة الملكية بأحكام استثنائية صادرة عن سلطته بوصفه قاضياً أعلى . ولم يأت مفهوم الملكية المطلقة ليهدم بل ، ليضاف الى المفاهيم القديمة ، التي سبقته ، كمفاهيم العقد والعرف المعروفة في العصر الوسيط ، والناظمة للعلاقات بين الملوك وتابعيهم الخاصين ورعاياهم .

ولقد لعبت العاطفة الوطنية دورها في تشكل هذه الدول الحديثة في اوربه وكانت تختزج بشكل غريب مع الوطنية المحلية وعاطفة الولاء للأمبر لمتبوع صاحب السيادة في أمارته . كما ساعد على تفتح هذه الوطنية القديمة جداً النضال ضد الأجنبي بما ولد عند الشعوب من شعور بالمنافع المشتركة ، وعمل الموظفين الملكيين الدائب ، والعلاقات الاقتصادية الجديدة ، وتأثير

الانسانين على رجال البلاط وكبار النورجوازيين . وقد زادت الانسانية هذه العاطفة الوطنية ، المتولدة في أمم 'مرد من تفاعل الانسان مع البيئة ، دقة ووضوحاً وشكلاً . وبما لا شك فيه أن الملوك أفادوا من هذه العاطفة كثيراً وعرفوا كيف يوجهونها لصالح شعوبهم وصالحهم الخاص

يرجع تقدم الملكية المطلقة في هذا العصر الى الأسباب التالية :

- ١ - إلى رغبة الملوك الطبيعية في زيادة سلطتهم ونفوذهم على رعاياهم .
- ٢ - إلى انتشار الحقوق الرومانية ، وذلك أثر من آثار النهضة . فقد أتت هذه الحقوق ، منذ القرن الثالث عشر ، بفكرة الامير المطلق ، الذي يركز جميع السلطات بشخصه وتكون إرادته هي القانون ولكن الاقبال على دراسة القديم أعطى الحقوق الرومانية في القرن السادس عشر نهضة جديدة وأضاف اليها فكرة البطل القديمة ، فكرة نصف إله مهيمن ومحسن . ولقد نجحت الحقوق الرومانية في هذا السبيل لأنها عبرت عن النزعات العميقة لدى المعاصرين . وكان البطل نموذج الكائن ، الذي تشعر الشعوب بحاجة لأن تهب نفسها له . ولقد كان مذهب الحكم المطلق يستجيب لهذه الحاجات السائدة في تلك المجتمعات ويلبي رغباتها .

- ٣ - إلى الصراع القائم بين الأمم في ذلك العصر ، لأنه كان يتطلب ضرورة وجود سلطة قوية تأخذ على عاتقها كل شيء وتقرض نفسها في الداخل لتأمين عدم قيام المنازعات الداخلية ، ولتستطيع الانصراف الى بسط نفوذها وسلطتها في الخارج ، لاسيما وأن الدول ، بعد ان تمت وحدتها ، أخذت تشن الحروب في سبيل تفوقها السامي والاقتصادي .

- ٢١٢ -

وكانت الحرب تفرض تقوية السلطة ووجود حكومات قوية تتخذ قرارات مريعة تنفذ على عجل في كل مكان .

٤ - إلى تركيب الامم الاوربية نفسها . فقد كانت الطوائف والاقاليم والبلاد والمدن والقرى والهيئات والطبقات الاجتماعية : من اكليروس وطبقة النبلاء والطبقة الوسطى وهيئات الضباط والجامعات والاصناف الحرفية في تنافس دائم فيما بينها دفاعاً عن مصالحها . ولذا كان على الملك أن يكون قوياً ليستطيع الحكم في خلافاتها وينسق أعمالها في سبيل الخير العام الذي يفيد منه الجميع في ظل النظام الملكي الجديد .

٥ - إلى المنافسات القائمة بين كبار الامير الاميرية في مختلف البلاد الاوربية . وهذه المنافسات بقية من بقايا العصر الوسيط وعواطفه واعرافه . فقد اوجدت الروابط التبعية لهذه الامر زبائن يتقانون في خدمتها وطامعين يعيشون على حسابها . وكان هؤلاء وأولئك على استعداد للخيانة والموت في سبيلها . هذا بالإضافة إلى أن الروابط العائلية كانت قوية . فقد كان الامير يطمع في الزواج من ابنة عم له ، ولو كانت بعيدة ، ليؤمن لنفسه حماية ابيها ورعايته وانعامه . وبالمقابل كان عليه أن ينذر نفسه لخدمة هذا الامير الاب ، ولو كانت هذه الخدمة ضد الملك . وكان الملك يجد ، بدوره ، حول كبار هذه العائلات ، زبائن مخلصه تتفانى في خدمته ضد من يثور عليه من الامراء ، كما يجد بين منافسيهم أنصاراً له وأعدائاً .

٦ - إلى نزاع الطبقات . فقد كانت الطبقتان : البورجوازية الناشئة والارستقراطية النبيلة في تنافس دائم ، وكان الملك بحاجة إلى البورجوازيين ،

فهم يجزونه بالمال وبالموظفين ، ويقدمون له طاعتهم ومساندتهم ضد الامراء الاقطاعيين . وكانت السلطة الملكية تغدق على تجارهم النعم بقروضها وتعهد الاراضي الملكية والتزام الضرائب الملكية وحصر الاستغلال والحماية ضد قوانين الكنيسة على الربا وضد العوائق الاميرية للتجارة وضد الاصناف . وانقذت السلطة الملكية كذلك معلمي الحرف باعطاء اصنافهم وضعاً قانونياً وحماية قضائية ، وبدفاعها عن زبائنهم ووارداتهم ضد الرأسماليين . وحث أيضاً البورجوازيين التجار وبورجوازي الحرف ضد الطبقة الكادحة الجديدة . وكان حلم هؤلاء البورجوازيين أن يصبحوا نبلاء ، وكان الملك وحده يستطيع أن يبيء لهم أسباب الترفيع ، وتغيير طبقتهم الاجتماعية بتحويلهم وظائف عامة منبلة ، ومنعهم اسقفيات واريات (اديرة) ، والانعام عليهم برسائل النبل ، والسماح لهم بالتصرف باقطاعات نبيلة . وهكذا كان البورجوازيون ينتقلون من طبقتهم إلى طبقة النبلاء ، ويصبحون ارسقراطيين . ولكن هؤلاء البورجوازيين المتنبلين يحافظون على عاداتهم البورجوازية في حب الكسب والاقتصاد والحيسوية . وبالمقابل كان بعض النبلاء يتبرجون عن طريق زواج بناتهم ببورجوازيين أو تزوجهم ببورجوازيات . ووجدت على هذا النحر طبقتان نبيلتان : الطبقة النبيلة القديمة ، وهي طبقة نبيلة السيف تحتقر غيرها ، أنفة ، متغطرة متعالية ؛ والطبقة النبيلة الجديدة التي توصلت إلى النبل بعد طول العناء ، وبعد ممارسة اعضائها المهنة العسكرية ، وبعد التعريف بصفاتها ومواهبها .

ولم تستطع الطبقة النبيلة الدفاع عن نفسها ، ضد البورجوازية ، لولا

فضل الملك عليها ، لانه لم يكن على العموم لهذه الطبقة من مهنة نبيلة غير مهنة السلاح ، ولذا كانت تهمل أراضيها وحقوقها الاقطاعية . هذا بالاضافة إلى أن انخفاض قيمة النقد قلل الاتاوات المحددة نقداً . وكان باستطاعة هذه الطبقة النبيلة أن تعيش على أراضيها ومن الاتاوات التي تأتيها عيناً ومن خدمات فلاحها ، ولكن حياة البلاطات الملكية والاندية في المدن ، والحملات العسكرية الخارجية البعيدة كانت تستهويها وتجذبها ، فهدمت نفسها بها ؛ فضلاً عن أن البذخ التزام أميري ، وأن النبل يفرض عليها الظهور بالمظهر اللائق . والسعة في الانفاق تقليد نبيل ، ولكنه أصبح بالتدريج ضرورة ملحة بعد أن أخذ صعود البورجوازية يفرض نفسه . وكانت دور النبلاء تعج بالخدام والخدامات ، والاعراس فرصة للحفلات الراقصة والمبارزات والمساجلات وما إلى ذلك من أهبة في الحياة وفي الموت ، وكل هذا يتطلب من النبلاء نفقات باهظة ينوون بحملها . ولذا كان الأمير مضطراً للدخول في خدمة الملك متوسلاً إليه أن يجد له وظيفة تتناسب ومكانته الاجتماعية ، كأن يعينه حاكماً على إقليم أو حصن أو قائداً لكتيبة أو موقع بسيط ، أو حارساً متنقلاً مع الملك ، أو يخصص له مربياً يعتاش منه . وهكذا نجد في المنطقة الواقعة في غرب نهر الايلب وجبال الآلب الدينارية تناقص الاقطاعات ، وازدياد الطبقات النبيلة ، وقلة الأمراء الذين يمارسون السلطة العامة في أراضيهم ، وزيادة الفئات الاجتماعية التي قامت بوظائفها العسكرية والحكومية خير قيام ، ففتحها الملك بصفة وراثية مكانة أعلى والقباً متسلسلة : أدواقاً ومراكيز وكونتات وبارونات وشارات وامتيازات شرفية وغيرها . وعلى هذا النحو نجد أن نزاع الطبقات ربما كان عاملاً أساسياً في نمو الملكية المطلقة .

- ٢١٥ -

حدوده الحكم المطلق . - ولكن يجب ألا نبالغ في قيمة هذا الحكم المطلق لأن الملاحظ أن سلطته الفعلية ونفوذه الحقيقي على الحياة اليومية وعلى كل من رعاياه أقل مما للحكومات الديمقراطية الحرة في القرون التاسع عشر على مواطنيها . فالقانون الالهسي المسيحي ، والقوانين الأساسية في المملكة التي تعبر عن بعض شروط الحياة ، وقوانين حقوق البشر ، والقوانين التي تكفل الملكية والهيئات والطوائف وعقودها واعرافها وامتيازاتها ، ان كل هذا يحدد سلطة الملك ، كما يحددها ايضاً عدد صغير من موظفي الملك وصعوبة المواصلات . وكانت الحكومة المركزية تمارس نفوذها . ولكن هذا النفوذ اقل تأثيراً واستمراراً ونفاذاً مما في ايامنا . وكان الامراء والهيئات والجمعيات يقومون تحت اشراف الملك بكثير من الوظائف التي انتقلت اليوم ليد الدولة .

وفي الواقع استطاع مبدأ الحكم المطلق بمتزجاً بفكرة العقد والعرف ودون الافراط ، الذي ابداه في عهد تيودوس وجوستنيان ، ان يسير معاً جماعات بشرية مختلفة لم يتم تكوينها بعد ، لانها كانت في دور من تاريخها يعتبر بالنسبة لها دور حياة أو موت . كما ساعد هذا المبدأ على تحقيق التوازن في شروط بالغة التجزئة والانقسام ، وعلى الحفاظ على حياة الممالك الاوربية وسط النزاع ، وعلى تدريجها نحو دولة مركزية موحدة ضرورية لتقدمها ورقياً . وسندرس ، فيما يلي ، تطور الدول الاوربية تبعاً لظروف الملكية المطلقة .

نموذج الدولة المتطورة

الملكية الفرنسية

وحدة الارض الفرنسية . - يتبدى تاريخ فرنسا الحقيقي منذ معاهدة فردن عام ٨٤٣ م أي منذ انقسام امبراطورية شارلمان بين احفاده الثلاثة ، أبناء لويس الثاني ، وهم لويس الجرمانى ، لوثير ، شارل الأصغر . وكان نصيب هذا الأخير القسم الغربى المحدود بالبحر المحيط الأطلسي ، ويشمل حوض الايسكو والسين والوار والغارون وجمال البيرونه إلى حدود نهر الايبر .

وقد خلف الأميرة الكارولنجية ، التي ينتسب اليها شارل الأصغر ، على عرش فرنسا سنة ٩٨٧ م ، الاميرة الكابسية التي دامت حتى سنة ١٣٢٨ وخلفتها اميرة فالوا التي هي فرع من السلالة الكابسية . واهم الحوادث ، التي وقعت في عهد هذه الاميرة ، حرب المائة عام (١٣٣٨ - ١٤٥٢) التي نشبت بين فرنسا وانكلترا وكان من نتائجها ضعف سلطة الامراء الاقطاعيين وتوطيد سلطة الملك وإذكاء العاطفة الوطنية والروح القومية .

ودام حكم اميرة فالوا من ١٣٢٨ على يد فيليب السادس وانتهى بانتهاء حكم الملك هنري الثالث (١٥٨٩) . وبموته انتقل العرش إلى اميرة بوربون على يد هنري الرابع ملك فرنسا (١٥٨٩ - ١٦١٠) .

وتلذمت وحدة فرنسا في بدء الأزمات الحديثة تقدماً عظيماً بعد أن ضمت اليها دوقية بورغونيا بموت شارل الجسور (١٤٧٧) ، وأدبجت فيها بطريق الارث مقاطعة بروفانس ومين (١٤٨٠) . وبزواج شارل

الثامن وآنا بروثانيا ضمت بروثانيا إلى فرنسا وتم ذلك نهائياً في عهد فرانسوا الأول (١٥٣٢) ، وكذلك بوروبنيه (١٥٢٧) ومارش (١٥٣١) ، وارااضي البريت ونافار عندما اعتلى العرش هنري الرابع ١٥١٩ .

ويبدو أن مصور فرنسا ، في فاتحة القرن السادس عشر ، يشبه كثيراً مصورها الحالي إلا من جهة الشمال الشرقي حيث توجد الاسقفيات الثلاث : تول ، متر ، فردن . وقد احتلتها جيوش هنري الثاني (١٥٥٢) واعترف بانضمامها نهائياً إلى فرنسا في مؤتمر وستفاليا (١٦٤٨) .

وتقرر ضم كاليه (١٥٥٩) وأصبح نهائياً بموجب معاهدة تروا في ١١ نيسان ١٥٦٤ .

ومن هنا يظهر أن تشكل الملكية الفرنسية قد تم في تاريخ طويل حتى أصبحت تؤلف كلا متجانساً ، وبلداً آملاً بالسكان نسبياً ، له مدينة أصيلة ، وله طابعه الخاص . وقد فرضت وحدة اللغة فيه بموجب براءة فيلار كوتيريه (١٥٣٩) التي قضت بتعميم لغة شمال نهر اللوار على لغة البلاد التي في جنوبه ، لغة أوك . ولا شك أن مثل هذا العمل له أهميته في الوحدة القومية ، لأن وحدة اللغة مقوم أساسي من مقومات الأمة والدولة .

غزو البلاط . - من مظاهر غزو الملكية توسع بلاط الملك . ففي القرن السابق كان بلاط كثير من الأمراء ، كبلاط دوق بورغونيا ، يفوق كثيراً بلاط الملك . أما الآن فقد أصبح بلاطه دون منازع ، وفي الوقت ذاته ، مركز الحياة السياسية والحياة العصرية ، ويستهيوي الكثيرون ممن يتوقون إلى السلطة وحياة اللذائذ .

كان البلاط ، كما في عهد الكابسين ، يتألف من مجموع الموظفين القائمين في خدمة الملك ، وكانوا مرتبين حسب طبيعة وظيفتهم على :

المائدة ، الغرفة ، الحظيرة ، الصيد ، وغيرها ، تحت زعامة رؤساء يسمون الموظفين الكبار وهم : السيد الأكبر ، رئيس الغرفة الأكبر ، السائس الأكبر ، الصياد الأكبر وغيرهم . وفي عهد فرنسوا الأول ازداد عدد الخدم ازدياداً فاحشاً ، وجلهم من النبلاء . وكانت الملوك وكبار الأمراء ، الذين تربطهم بالملك رابطة الدم ، يوظفون الأشراف خدماً لغرفتهم أو سواها لحظيرتهم . وكان للملك أيضاً بيته العسكري وحرسه المؤلف من ٨٠٠ رجل ، وأكثرهم من النبلاء ومن أشراف بيت الملك ، ورماة الحرس ، والحرس الإيكومي والحرس السويسري وكان لكل من الملكة وأم الملك دارها المتميزة عن دار الملك . وكانت نساء وبنات الأمراء يخدمن فيها بصفة سيدات وآنسات شرف .

ويضم البلاط أيضاً كثيراً من الشخصيات الأخرى : ويأتي أولاً الموظفون الكبار الذين كانوا رؤساء وظائف سياسية : مستشار ، قائد أعلى ، الأميرال الأكبر ، أعضاء مختلف المجالس الملكية ، أمراء الدم أي أمراء الأميرة المالكة ، وأخيراً شخصيات يحلو للملك أن يراهم إلى جانبه دون أن يكون لهم أي عمل يقومون به . وهكذا وجد في حاشية الملك وبلاطه عدة ألوف من الأشخاص يعيشون من خيرات الملك . ولذا كان البلاط يستنفد قسماً كبيراً من موارد المملكة .

حياة البلاط . - لم يكن للبلاط اقامة ثابتة ولا اقامة عادية . فقد كان فرنسوا الأول ، عن ذوق وعن ضرورة ، ملكاً سياراً ينتقل من مدينة لأخرى ، ومن قصر لآخر ، من فورتينبلو إلى آمبواز ، إلى بلوا ، إلى شينونسو ، إلى شامبور .

وتجلى في حياة البلاط كثرة البذخ والالعاب والذائد المتعددة على

الدوام وأكثرهما أهمية ، كما في العصر الوسيط ، الصيد ، الجورت ، المبارزة ، وبعض الألعاب مثل لعبة التنيس . وكانت التسلية العصرية : الاستقبالات ، والحفلات الراقصة ، والحفلات الموسيقية (الكونسرتو) والتمثيل المسرحي ، الذي ازدادت أهميته في المجتمع الحديث . وكان القصر يضم كثيراً من السيدات اللواتي يلعبن دوراً هاماً في السياسة .

الملكية والنظم الملكية . - إن ما يلاحظ ، في آخر القرن الخامس عشر ، في فرنسا ، هو توطيد السلطة الملكية . فقد ظهرت فرنسا نموذجاً للملكية المطلقة التي تتمتع بإدارة مركزية ، بعد أن قضى الملك لويس الحادي عشر على جميع المقاومات الداخلية . غير أن هذه السلطة الملكية لم تأخذ بعد طابعاً غير شخصي ودبلوماسياً (بوروقراطياً) كما يلاحظ ذلك عندما يصل الحكم المطلق إلى ذروته ، بل إن شخص الملك وموقف حاشيته المباشرة كانا يلعبان دوراً هاماً . ومن الصعب في الغالب الكشف عن طباع الملوك على حقيقة بدقة . لذا يجب الحذر والشك بالأقوال التي ترددها الكتب التاريخية وعدم قبولها على علاتها . فقد كان شارل الثامن (١٤٨٣ - ١٤٩٨) غنيماً ، كريماً ، يحب الأدب ، وبتذوق الفن ، ولكنه كان ينقاد إلى مقربه مثل فيسك وغرافيل وبريسونته . وقد ألح على شعبية لويس الثاني عشر كثيراً ولقب بأبي الشعب ، وفاخر معاصروه بفكره الاقتصادي وذكروا أن ضريبة التائي (على الاملاك والواردات) لم تزد في عهده . ولكن سياسته الخارجية في آخر سنوات حكمه اضطرت به إلى الاستدانة ورهن الحقل الملكي . وكانت صحته ضئيلة ولا يملك أي مؤهل للعمل ، إلا أنه كان لطيفاً رقيقاً ، يسير سياسته جورج امبواز وفلوريوند روبرت . ويقال أيضاً إن لويس الثاني عشر اهتم بتحسين العدالة وقرر إعادة النظر بالأعراف .

أما فرنسوا الاول فقد ولد عام ١٤٩٤ ، واعتلى عرش فرنسا في العام ١٥١٥ ، وتوفي عام ١٥٤٧ . كان ملكاً محباً للرفاه والبذخ وحب الظهور والمغامرات ، شجاعاً ، اثانياً ، مسرفاً . ويبدو أن البطانة أثرت تأثيراً شديداً على حكمه ، ويضاف إلى ذلك تأثير الحيللات من أمثال الكوننيس دوشاتوبريان ودوقة ايتامب وتأثير المحظيين ، مثل بونيفه ، الذي أصبح أميراً ، وموممورانسى ماريشال فرنسا ، وكذلك تأثير البيت اللوريني مثل كلود غيز والكردينال جات مع رجال الحكم مثل فلوريوند روبرته والمستشار دوبرا . وكان هنري الثاني عظيم الجثة ، ضخم العضلات ، يحب الصيد والمبارزة والرياضة ، إلا أنه كان حزيناً ، حاد المزاج ، لا يستطيع السيطرة على أعصابه .

وبعد وفاة هنري الثاني أصبحت الملكة ماري دوميدتشي وصية بامم بنها القاصر شارل التاسع حتى ١٥٦٣ ، ثم مستشارة . وكثيراً ما شجبت طرقها في الحكم واتهمت بالخداع . غير أن أمثال هذه الصفات لم تكن فادرة في ذلك العصر . وعذرنا الوحيد أنها وجدت نفسها أمام نزعات وميول حزبية متضاربة فلم يسعها إلا أن تسلك هذه السياسة لتستطيع الحفاظ على التوازن بين الاحزاب لصالح السلطة الملكية .

واستلم بعدها الحكم شارل التاسع (١٥٦٣ - ١٥٧٤) و ثم هنري الثالث (١٥٧٤ - ١٥٨٩) إلا أنها مختلفان عنها تماماً . فقد كان شارل التاسع ملكاً مستقيماً ، ولكنه غضبي المزاج ، يحب الصيد ، قليل الدماعة . وهنري الثالث ، على العكس ، كان ذكياً ، مثقفاً ، خداعاً ، يحب اللذائذ رغم تظاهره بالتقوى .

الحكم الملكي . - لقد شهدت العقود الاولى من القرن السادس عشر تقدم السلطة الملكية وسيرها باتجاه الحكم المطلق ، رائدهما في ذلك

نظرية الحقوق الرومانية القائلة « ان ما يطيب للامير هو القانون » .
ولم يفكر أحد بمنازعة الملك سلطته : ولقد قال بارلمان باريس إلى الملك
فرانسوا الاول « ان منازعتكم السلطة إنما هو نوع من التجديف ، اننا
نعلم بأنكم فوق القوانين » .

وتجلى ظفر الحكم المطلق بتعطيل مجلس المملكة العام ، ولم ينعقد
ولو مرة واحدة خلال هذا الدور ، الذي فقدت فيه الأمة كل وسيلة في
مراقبة الحكم الملكي ، ولم يبق لها للاعراب عن أمانها وشكاواها إلا
مجالس اقليمية تضال دورها مع الزمن وفقدت أهميتها .

الحكومة المركزية . - لقد ظل نظام الحكم في هذا العهد كما
كان عليه في عهد شارل السابع . غير أنه يمكننا أن نلاحظ في هذا
الدور ، نزعة مزدوجة ترمي إلى تركيز السلطة والتفخص في الوظيفة .
وكما في السابق ، كانت تساعد الملك في الحكم موظفو التساج الكبار
ومجلس الملك أو مجلس الدولة . وكان هذا المجلس يضم ، عدا المستشارين
الرسميين ، بعض الأمراء والأحبار الذين يعينهم الملك . وفي الواقع
كانت القرارات الهامة تقوم بها لجنة صغيرة تؤلف مجلساً اطلق عليه اسم
« مجلس القضايا » ويتألف من بعض محظي الملك ومقريه .

ولم يكن في ذلك العصر شيء مما يشبه نظام الحكم فيما يتعلق بعمل
الوزراء والوزارة ، بل كانت السلطة شخصية ومنوطة بالملك وحده ،
ولم يكن ثمة وزراء إذا استثنينا « المستشار » وكان وزير العدل . ومع
هذا فقد وجد عدة أمناء في مجلس الملك وأخذ شأنهم يعظم مع الزمن .
من ذلك أن هنري الثاني عين أربعة أمناء وعهد إلى كل منهم الاهتمام
بشؤون جزء من أجزاء المملكة . وقد سمى كل منهم أمين الدولة .
وكان هؤلاء بمثابة وزراء الملك .

ادارة الاقاليم . - لقد ظل عمال الملك في الاقاليم كما في السابق ويسمى الواحد منهم حاكماً (باي) في ولايات الشمال ، و (سينيغال) في ولايات الجنوب ، وعددهم يقارب المائة . وقد جرى في ادارة الاقاليم ما يماثل التخصص في الوظائف الذي جرى في الحكومة المركزية . فمن ذلك أن « الحكام » كانوا يدلون بسلطة العدل إلى قائممقامين صدينيين في الدعاوى المدنية ، وإلى قائممقامين جزائيين في الدعاوى الجنائية .

وفوق هؤلاء الحكام وجد في بعض الاقاليم موظفون ملكيون ينتقون من بين الامراء العظام ويسمون الحكام العامين ، ثم اطلق عليهم فيما بعد حكام الاقاليم . وكانت وظائف هؤلاء الحكام عسكرية في الغالب ، وتكون في المقاطعات القائمة على الحدود . غير أن هؤلاء كانوا ينزعون إلى توسيع سلطانهم ، وكان الملوك يجذرونهم ولا يثقون بهم . ولذا لجأت الملكية إلى تشديد الرقابة عليهم بارسال مفتشين خولتهم صلاحيات وسلطات غير عادية ، وقد اطلق على هؤلاء امم مقوضين .

السلطة القضائية والبرلمانات . - كانت المحاكم « برلمانات » تمارس السلطة القضائية العليا مع ما يرافقها من وظائف عامة أو ادارية ، وكانت جميع الدعاوى تستأنف لديها . وأهم هذه البرلمانات برلمان باريس وتمتد سلطته على جميع أراضي الملك . وله حق التسجيل وهو أن البراءات الملكية والأعمال الحكومية ، كالعاهدات مثلاً ، يجب أن تدون في سجل البرلمان لتصبح مقبولة شرعاً . وعن هذا الحق نشأ حق آخر وهو الملاحظة ، أي الحق في ابداء الملاحظات إلى الملك فيما يتعلق بالأعمال المسجلة . واستطاع البرلمان ان يصبح نوعاً من هيئة تشريعية ، وان يعارض الملك باسم التقاليد الملكية ، التي يدعمها بتبثيلها وصيانتها والحفاظ عليها . وإذا أبدى البرلمان بعض المقاومات العارضة ، فقد كان خير

دعامة للملكية ، هذا مع العلم بأن للملك الكلمة الاخيرة فيما يتعلق بالاصول القضائي . وكان لديه منذ آخر القرن الرابع عشر المجلس العدلي الاكبر إلى جانب مجلس الحكومة . وهو نوع من محكمة عليا يرفع اليها الملك جميع الدعاوى التي يراها ذات أهمية خاصة وكما كان مجلس النجوم عند آل تيودور في انكلترا ، كان المجلس العدلي الاكبر آلة طيعة في يد الملك الفرنسي .

ويتفق تقدم التشريع مع نمو العدل الملكي . فقد حث فرانسوا الاول وهنري الثاني العمل الذي بدىء به منذ شارل السابع في اعادة النظر في الاعراف ونشرها . ويقصد من هذه الاعراف العادات القضائية الخاصة بكل بلد من البلدان التي لا تطبق فيها « الحقوق المكتوبة » أي الحقوق الرومانية منذ قرون . وقد تم هذا العمل في عهد هنري الثالث ، وكان عظيم الاهمية لانه جعل القوانين في متناول الجميع . ونصت براءة فيلار كوتيريه ، التي اذاعها فرانسوا الاول عام ١٥٣٩ على ان جميع أعمال كتاب العدل وأصول الدعاوى والمحاکم والاحكام التي كانت تحرر باللاتينية حتى ذلك العهد ولا تفهمها الاكثيرة الساحقة من المتداعين ، يجب ان تحرر باللغة الفرنسية . وهذا التدبير أمن ظفر اللغة الفرنسية على اللاتينية واللغات المحلية ، وساعد على تقوية وحدة المملكة .

نظام المالية . - ان كثرة الموظفين والحروب ومصاريف البلاط والاعیاد وبناء القصور كانت تتطلب مبالغ جسيمة من المال . غير أن نظام المالية كان على درجة من التعقيد يصعب معها كل مراقبة فعلية . فقد وجد نظام خاص لكل صنف من اصناف الواردات : الواردات العادية من املاك الملك ، والواردات غير العادية أو حصيلة الضرائب

الثلاث الاساسية : المساعدات (رسوم البيع) ، وضريبة الملح (غابيل) ، والتاي على الأشخاص أو على الأراضي ، والشؤون غير العادية أو الضرائب الناشئة عن الوسائل الاخرى .

وفي عهد الملك فرانسوا الاول تقرر تركيز جميع الواردات في صندوق عام سمي « خزانة التوفير » واقم في قصر اللوفر (١٥٢٣) وخولت اليد العليا في ادارة المالية كلها إلى شعبة من مجلس الملك سميت « مجلس المالية » . ولجاية الضرائب من الاقاليم حوفظ على النظام المتعارف عليه . بعد تبسيطه ، وهو نظام « الدوائر العمومية » وتنقسم بموجبه المملكة إلى أربعة دوائر عامة مالية ، على رأس كل منها مدير عام ، وتنقسم بدورها إلى عدة ناخبيات يدير كلًا منها موظف ملكي يدعى « المنتخب » .

وإذا نظم الملك القواعد المالية فقد نسي نفسه ولم يضع قاعدة لاسرافه . وقد كتب فيه سفير البندقية يقول « انه يصرف بسخاء زائد ودون اي قاعدة » . ولذا كانت الضرائب ، رغم ازديادها ، لتكفي ، وصندوق المالية في عجز دائم . وبقيت احوال على هذا النحو في عهد من خلفه من الملوك . وسيؤدي الامر إلى زوال الملكية أخيراً بنتيجة سوء الحالة .

ولمجاية العجز القائم كان الملك يسلك جميع الوسائل التي تؤمن له المال : ففي ١٥٢٢ ولاول مرة طلب فرانسوا الاول من رعيته ان يقرضوه المال على ان يدفع لهم فائدة بسعر ٨٪ ويعتبر هذا القرض أول نموذج لقروض الدولة وبداية لما يسمى « الدين العام » .

وهناك وسيلة اخرى للحصول على المال ، وكانت مطبقة في القرن السابق ، وهي بيع الوظائف ، وذلك يكون باعلان بيع الوظائف العامة ، كوظائف الجباة والحاازين ، والقضاة ... وغيرهم . وكان شراء هذه الوظائف يعود على اصحابها بالفوائد ، فمن ذلك انهم يعفون من الضرائب ، ويحصلون على فوائد شرفية ، ويصبحون نبلاء . ولذا استهوت

هذه الوظائف البورجوازيين . ولا شك في ان بيع هذه الوظائف له نتائج سياسية واجتماعية خطيرة . والنتيجة المباشرة له ازدياد عدد الموظفين إلى حد عظيم ، حتى أصبح الميل إلى الوظيفة صفة مميزة للشعب الفرنسي ، وادى الامر إلى ضياع الثروة العامة ، لان البورجوازيين تخلوا عن الاعمال المنتجة كالزراعة والصناعة والتجارة وانجسوا نحو الوظائف . وادى الامر أيضاً إلى كثرة الوظائف الممتازة التي كانت تثقل كاهل المكلفين بالضرائب .

ومن جهة ثانية كان هؤلاء الموظفون يدفعون ثمن وظائفهم نقداً ، ولذا يعتبرون أنفسهم مالكيين لهذه الوظائف ويحاولون أن يورثوها ابنائهم كجزء من اوتهم ، وكان الموظف يستقيل من وظيفته لصالح ابنه ، او يحصل على سماح خاص يستطيع به نقل وظيفته اليه . وهكذا ادى بيع الوظائف بالتدريج إلى وراثة الوظائف وتآليف نوع من طبقة وراثية أخذت سلطتها تنمو مع الزمن وتنزع إلى الاستقلال وتعارض المكية نفسها .

الحالة الاجتماعية والنشاط الاقتصادي . - لقد حكمت الملكية فرنسا في هذا العصر حكماً استبدادياً مطلقاً واستطاعت ان تلحق بها جميع الطبقات المتنفة في المجتمع . فقد ألحقت الطبقة النبيلة ووظيفتها خادمة في البلاط ؛ والاكليروس بعد ان خولتها الكونكوردات التصرف بالمناصب الدينية وبفوائد الكنيسة ؛ والبورجوازية ، فقد استطاعت أن تسخرها لخدمتها بواسطة الرشوة وبيع الوظائف . وبنتيجة هذا التطور ، الذي بدأ منذ العصور السالفة ، تحول المجتمع الاقطاعي السائد في العصر الوسيط إلى مجتمع ارسقراطي وملكي في الازمنة الحديثة . ولم يبق عصر النهضة (١٥)

من الامر الاقطاعية الكبرى ، عندما اعتلى فرانسوا الاول العرش ،
الا امرة واحدة كان باستطاعتها مناوئة السلطة الملكية وهي امرة آل
بوربون . فقد كان الدوق شارل بوربون ، زوج حفيدة لويس الحادي
عشر ، يملك تقريباً كل فرنسا الوسطى ، التي تضم بوربونية ، أوفيرن ،
لامارش ، لوبوجوليه . وقد عينه الملك فرانسوا الاول قائداً أعلى
للجيوش الفرنسية ، وكان هذا الدوق في اراضيه ملكاً حقيقياً ، عاصمته
مدينة مولتن ، وله بلاط وحرس وحكومة وقضاة . غير أن زوجته
سوزان توفيت في العام ١٥٢١ فقامت الملكة لويز صافوا تنازعه في قسم
من أملاك سوزان هذه فغضب بوربون وتفاوض مراراً مع شارلكان لعقد
حلف معه ، وكاد الملك يقبض عليه لولا انه فر الى ايطاليا (١٥٢٣)
وانحاز إلى صف الامبراطور ، فصدرت أملاكه وضمت إلى اراضي
الملك . وهكذا أنهت خيانة بوربون وحدة الارض الفرنسية .

ولما مات شارل بوربون لم يعد باستطاعة أحد من الأمراء ان يحاول
منازعة الملك السلطة . بل انهم على العكس فكروا بالتقرب منه والدخول
في خدمته ؛ وأخذوا يسمون الاشراف .

ويرجع هذا التحويل إلى ثلاثة أسباب أساسية :

١ - إن استقلال الأمراء على أراضيتهم ، أي ممارسة سلطتهم العليا ،
لم يكن ممكناً . فقد كانوا محاطين بالموظفين الملكيين ، يراقبونهم
ويتدخلون بينهم وبين تابعيهم ويقيمون العدل باسم الملك عندما تستأنف
الدعوى لديهم .

٢ - فقر الطبقة النبيلة ، وقد ظهر للعيان منذ آخر حرب المائة
عام وما زال بازدياد ، وما فتئت تفتقر في القرن السادس عشر بسبب

تدفق المعادن الثمينة من العالم الجديد وانخفاض قيمة الفضة ، وتفاقم خطر التضخم النقدي .

٣ - حاجة الأمراء الى المال ، لأن حملات ايطاليا فتحت أمامهم حياة سهلة رخصة ناعمة ومزخرفة ، وأبدعت مוזات جديدة وغالية فأرادوا تقليدها ، وأخذوا يتقربون من الملك لأن الحياة حوله كانت زاهية مزدهرة . ومن جهة ثانية ، كانوا يطمعون بالتقرب من حضرته لينالهم من كرمه هدايا ورواتب ومخصصات يستطيعون بها تأمين المال الذي يعوزهم .

وكان من نتيجة ذلك أن تحولت طبقة اقطاعية الامراء إلى طبقة نبيلة مخلصه للملك ، وأصبح الملك يوزع حسب مشيئته القاب النبيل بعد أن كانت في السابق متعلقة بتملك بعض الاقطاعيات . فمن ذلك أن الملك جعل كلودغيز دوقاً بعد أن كان أحد أمراء اللورين ، وجعل من آن موغورانسكي ، البارون البسيط ، أميراً وحاجباً للملك ثم قائداً أعلى لجيشه ، ونال هذا حظوة واسعة وأصبح يملك ما يقدر ب ٦٠٠ اقطاع .

وكما كان الملك سيد الطبقة النبيلة كان أيضاً سيد الاكليروس ، وذلك بفضل الكونكوردات التي وقعها فرانسوا الاول والبابا ليون العاشر في العام ١٥١٦ . ودامت هذه الكونكوردات سارية المفعول حتى الثورة الفرنسية ، ونقض أحكامها الاساسية بالا ينتخب الاساقفة والآباء من قبل الاكليروس بل ان الملك يعينهم تعييناً ويقرم البابا في وظائفهم .

ويبدو لنا من هذه الكونكوردات أن المناصب الكنسية أصبحت توزع حسب هوى الملك على محظيه ومقربيه ، حتى ولو كانوا علمانيين ، وكان هؤلاء يتصرفون بموارد الأسقفية أو الأبوية ، باعتبارهم مديري لها ،

دون أن يقوموا بأي وظيفة دينية . وبأني بعدم الاكليروس الحقيقي وكان يعيش في حالة فقيرة بائسة ولا يكتم استياءه من هذه الأعمال المفزحة ومن العيشة الضنك التي يجيها .

على أن الكونكوردات وان كان منها أن أفادت الملك واعترفت بسلطته على الكنيسة ، فقد نجم عنها نتيجتان خطيرتان .

الاولى : انها ساعدت على توسع حركة الإصلاح في فرنسا ، لأث رجال الدين كانوا يهتمون وظائفهم الروحية وينصرفون إلى حياة العصر .
الثانية : انها قسمت الاكليروس إلى طبقتين مختلفتين . فمن جهة الاكليروس الأعلى الارستقراطي الداخل في حاشية الملك . ومن جهة اخرى الاكليروس الادنى الشعبي المعروف بميله الديموقراطية .

وتحت هاتين الطبقتين المتنازعتين ، الاكليروس والنبلاء ، تأتي الطبقة الثالثة وضم سواد الشعب الفرنسي من بورجوازيين وعمال وفلاحين ولم تبدل في هذا العصر شروطهم الاجتماعية كثيراً . وتخلص الفلاحون من نظام القنانة ولم يبق منه الا القليل في بعض المناطق . وتفاقم الانفصال بين المعلمين والعمال في الحرف ، فقد كان هؤلاء العمال في شروط منخفضة ومن الصعب بل ومن المستحيل عليهم الخروج منها . واستمرت البورجوازية في عملها ونشاطها الاقتصادي وزيادة ثروتها ونفوذها . وبما لا شك فيه أن هذه الطبقة لم يكن لها تلك المكانة السامية في مجالس الحكومة في عهد فرانسوا الاول وهنري الثاني ، إلا أنه كان باستطاعتها أن تشتري الوظائف والقاب الشرف . فقد اتصلت بالملكية اتصالاً وثيقاً ، وفي الوقت ذاته ، أخذت تتدخل في حلقة اصحاب الامتيازات . ومن جهة اخرى كانت بعض الوظائف ، مثل وظائف الحكام في البرلمان تخول صاحبها النبيل ، وكان هذا النبيل من حيث المبدأ متعلقاً بالوظيفة ولا

يتحول عنها . غير أنه في الواقع كان ينتقل كالوظيفة نفسها . وتشكلت ، بالتدريج ، إلى جانب طبقة نبل السيف ، طبقة نبل اللباس (روب) البورجوازية الأصل التي أخذت تحتل شيئاً فشيئاً مكانتها في المجتمع وفي الدولة .

النشاط الاقتصادي . - كان من نتائج السلام الداخلي في المملكة الفرنسية ، بعد القضاء على الاقطاعية ، ان نشطت حركة التوسع الاقتصادي . فقد كانت فرنسا بلداً زراعياً والزراعة فيه متقدمة ، والسطح المزروع بازدياد يوماً عن يوم . وكانت تنتج من الحنطة ما يجعلها تصدر قسماً منها ومن الفواكه وخمر بوردو وبورغونيا واورلثان .

ولم يكن النمو الصناعي بأقل أهمية من النمو الزراعي . فقد كانت مدينة ليون من انشط المدن واغناها ، وأصبحت وباريس مركزين رئيسيين للطباعة . وفي عهد فرانسوا الاول أصبحت مع مدينة تور مركز صناعة الحرير . غير ان أهمية ليون تأتي عن مصارفها ومعارضها . كان أصحاب المصارف فيهما من كل جنسية ، ويأتي في الدرجة الاولى الفلورانسيون ، الذين جعلوا ليون من أكبر أسواق أوربة المالية . وكانت أسواق هذه المدينة ملتقى للفلامانديين والالمان والاسبانيين وذات أهمية خاصة في عمليات القطع التي تم فيها .

ولكن هذا النمو الاقتصادي لم يخل من الازمات . وهذا يرجع إلى ارتفاع سعر الحياة النامي عن تدفق المعادن الثمينة وانخفاض سعر النقد المستمر ، بينما لم تزد اجور العمال بالنسبة نفسها . ومن هنا نشأت خلافات شديدة في بعض الاحيان ، أشهرها اضراب ليون عام ١٥٣٩ . وقد دام هذا الاضراب أربعة أشهر . وانحاز بمثل الملك إلى جانب أرباب العمل وقضى على اضرابات العمال وتجمعاتهم بالقوة تحت طائلة العقوبات

- ٢٣٠ -

الشديدة من سجن وتعذيب . وحلت جمعيات العمال ، التي تسمى اخويات ، بمرسوم صدر عام ١٥٣٩ .

وتجلى النشاط الاقتصادي أيضاً على متن البحر . فبيناخولت الامتيازات الأجنبية التوسع في التجارة مع بلاد الشرق ، الذي أفادت منه مرسيليا ، كانت موانئ الاطلسي تحاول الافادة من الاكتشافات البحرية الجديدة . ولم يكن ميناء لوهافر ، الذي أسسه فرانسوا الأول عام ١٥١٧ ، سوى ميناء حرب ، وكانت الامة لبناء يوردو ولاروشيل ، والنشاط البحري يد بحارة ديب وسن مالو . ومن أصعب السفن الاغنياء آنغرو وهو من ديب ، حاول بتشبهه الخاص منازعة الاسبانيين والبرتغاليين تجارة الهند والعالم الجديد ، وذهبت سفنه حتى سومطره (١٥٢٩) واستحوذت على عدة سفن اسبانية . غير أن آنغرو لم يلق أي تشجيع أو دعم لمشاريعه من قبل فرانسوا الاول أو من هنري الثاني ومات منكوباً عام ١٥٥١ .

يد أن فرانسوا الاول كان يهتم بالرحلات الاستكشافية بين حين وآخر . ففي ١٥٢٣ - ١٥٢٤ اكتشف فلورنسي يدعى فيرازانو شاطئاً امريكا الشمالية ، وكان يؤمل أن بالامكان إيجاد طريق للهند كما فعل ماجلان في الجنوب . وبعد ستة أعوام كلف نوبياً من سان مالو يدعى جاك كارتيه باكتشاف أصقاع الأرض الجديدة ، التي كان يرقدها صيادو سمك المورو من بروتانيين ونورمانديين ، فاكتشف مصب نهر سان لوران وتوصل إلى كندا (١٥٣٤ - ١٥٣٥) . وكانت الفكرة متبعة آنذاك إلى استعمار هذه البلاد ، التي تشبه الأرض الفرنسية والتي سموها فرنسا الجديدة . وكلف جاك كارتيه عام ١٥٢١ أن يسوق إليها المستعمرين ذوي الارادة الطيبة ممن اشتهروا بالمهارة الفنية والصناعية . ثم عدل عن هذه

المؤسسات الاولى عام ١٥٤٤ ، إلا أن جاك كارتيه دل على الطريق التي سلكها الاستعمار الفرنسي في بداية القرن السابع عشر .

مظاهر النهضة في فرنسا . - لم يكن التجديد ، الذي تم في القرن السادس عشر في فرنسا ، في عالم الفكر والآداب والفن ، بأقل منه في العالم السيامي والاجتماعي والاقتصادي .

لقد كان الفكر في القرن السادس عشر يمتاز باصلاح مزدوج ، الاصلاح البروتستانتي والاصلاح الكاثوليكي ، وقد وقف كل منها في وجه الآخر وأفاد كل منها الحياة الروحية ، غير أن حركة أخرى قديمة الجذور ارتسمت وزادت النهضة في تسارعها واندفاعها وهي الحركة الواقعية أو الوضعية ، وقد وجدت هذه الحركة بعد ليوناردو فانتشي تعبيرها عند اناس مشهورين يأتي في الدرجة الاولى منهم بودن وكوبرنيك وفيزال .

أما جان بودن (١٥٢٠ - ١٥٩٦) فقد ولد في آنجيه وأسس ما نسميه اليوم « العلوم الانسانية » وآثاره ترمم منهج التاريخ وتلقي على الحوادث الاقتصادية أنواراً تزيد في وضوحها وتجعل التنبؤ بها ممكناً .

وكوبرنيك البولوني ، كما رأينا ، ولد في تورن في ١٩ شباط ١٤٧٣ ومات في ٢٤ أيار ١٥٤٣ ولم يكن فلكياً عبثياً فحسب بل انه لامس كل شيء بصورة فائقة . فقد بحث في الطب والاقتصاد السيامي وجميع الافكار الموجبة التي تحرك العالم .

وآندره فيزال ولد في بروكسيل عام ١٥١٤ وتوفي ١٥٦٤ . جدد التشريع بالملاحظة ودرشن مذهب التجريب الحقيقي وبدأ بعلم الحياة الجديد . وكانت هذه العقول متقدمة سابقة لعصرها فلم تقبل افكارها ولم تستقبل بارتياح . غير أن هنالك بجائين أقل جرأة منهم ولكن عملهم كان مباشراً

وظاهراً مثل روندليه صديق رابليه ، فقد شاد في مونبليه أول مدرج للتشريح . ودرس جورج آغريكولا طبقات الارض والمعادن . ووضع أمبرواز باربيه (١٥١٧ - ١٥٩٠) الجراحة في مرتبة العلم الحقيقي ودشن عَصَبَ الشرايين . وأوجد آندره باليستي مرصعة الحزف وتعمق في (العمل ، وعارض به (النظر) . وكان أحد هذين الرجلين كاثوليكياً والآخر هيغنونياً (بروتستانتيًا) ويمثلان بحق اسهام فرنسا في الحركة الدولية لعصر النهضة . ويضاف إلى هؤلاء اثنين دوليه المشهور بأرائه الجريئة (١٥٠٩ - ١٥٤٦) وجان بواسونيه وغليوم بوديه .

وقد تحسنت الآداب الفرنسية بهذا الجو العام لعصر النهضة . ومن الادباء كالفن وكان يكتب الفرنسية بوضوح ورشاقة . واليه يجب أن نضيف مؤلفين ناشرين عظيمين وهما رابليه ومونتيني .

ولد فرنسوا دابليه حوالي العام ١٤٩٤ بالقرب من شينون وكانت عقلاً واضعاً متزناً . دخل الدير شاباً ودرس فيه أكثر مما صلى ، ثم صار راهباً فرنسيسكانياً وفي آخر العام ١٥٢٠ تعمق في دراسة الاغريق وراسل بوديه الذي يعتبر أكبر رجال جيله في الدراسات الهلنية . ثم استاء من قساوة الحياة الفرنسيسكانية وحصل من البابا كليمان السابع على السماح بالانتقال إلى أبوية البنديكطين (طريقة القديس بندكت) في مايوز ، وحماه الاسقف جورج ابستيساك واصطحبه في رحلاته ، ولبس لباس الكاهن العصري وذهب لدراسة الطب في مونبليه (١٥٣٠ - ١٥٣١) حيث يرى تسجيله في سجل الكلية . ثم ذهب في العام ١٥٣٢ إلى ليون وتعاطى فيها مهنة الطب . ثم عاد في العام ١٥٣٧ إلى مونبليه . وبدل دفتر السجل على نواله درجة الدكتوراه . وقد اجتمع فيه علم الطب بالانسانية ، وكانت رسائله نشيطة مع رجال الحركة الانسانية وخاصة

مع ارزموس زعيم هذه المدرسة . وقد نشر في ليون لأول مرة كتابه « غارغانتوا » ، وبداية « بانثا غرويل » ، وكان أثره الاول مغفلاً . والثاني كان بامم منتحل (الكوفريباس نازيه) . ولاقى هذا الكتاب نجاحاً عظيماً وأعيدت طبعته مراراً . وهكذا انتشرت كتب رابليه برواياته الخالدة التي جعلت منه علماً من أعلام الأدب الفرنسي بل الأدب العالمي . نرى في آثاره هجاء تاماً لمجتمعه ، ونقداً جريئاً لجميع الافكار والنزعات والذائل والعيوب والاختطاء ، ومسلية انسانية للقرن السادس عشر كما هي حال آثار بالزاك في القرن التاسع عشر . وفي الوقت الذي يخدم فيه أفكاره كان يخدم السياسة الملكية أي السياسة القومية فيؤمن لنفسه بذلك سنداً وعضداً . كان مع الملك ضد البابا ومع الملك ضد الامبراطور . وشجع على حركة فرنسا نحو كندا والقارات الجديدة . والمغامرات التي يتحدث عنها تدهو الى الاهتمام بأراضي المحيط الاطلسي . وأهاجيه لاذعة تتناول عدم التسامح والرياء وتكافح في سبيل الحرية وتفيد في المناقشات الفلسفية في الحضارة والاخلاق .

أما هونتئين فقد ولد في بيار يغور من امرة غنية ، وقد شاء ابيه ان يجعل منه عالماً فقياً ، فرباه تربية كلاسيكية ، وثقف ثقافة متينة ، وقضى حياته بالقراءة والمطالعة والتأمل ، وشغل عدة مناصب في الدولة ثم اعتزل اخيراً في قصره . ومات على أثر التهاب شديد في اللوزتين في ١٣ ايلول ١٥٩٢ .

صدر له في العام ١٥٨٠ في بورجو كتاب « المحاولات » ، وفيه يتجلى جهد التفكير والثقافة الفكرية والقلق المعنوي في القرن السادس عشر .

والى جانب هذين العلمين يأتي فريق من المؤلفين الناصرين يسير في

ركابها ونخص بالذكر منهم الاسقف الصالح آميو الذي ترجم بلوتارك
وبطرس شارون مؤلف كتاب « العقل » وغيرهم .

وفي عالم الشعر انطلق الفكر التحرري في الآداب الفرنسية بقوة
ووضوح . ويأتي في درجة الشرف في هذا الحقل رونساو وحلقة
الشعراء السبعة .

ولد رونساو في قصر لابوا سونيير بالقرب من فاندوم في ١١ ايلول
١٥٢٤ . كان حاجباً ، ثم أصيب بالصمم فعكف على الدراسة وتعمق
في دراسة المؤلفين القدماء . وغدا زعيم حلقة الشعراء السبعة . واكتسب
بتأثيره على الحلقة ملكية ادبية ، فمثل بنشوة الظفر وتوصل إلى الشعر
الغنائي والملحمة بقصيدته الشهيرة المسماة الياذة الفرنسية « لافرانسياد » .
ولكن هذه الآثار كانت ضئيلة ، واعترف الشاعر بذلك . غير أنه كان
شاعراً حقاً رقيقاً شريطة الا يقنع شيطانه الشعري المختص « بالانواع
الصغيرة » ولا يضاهيه أحد في هذا الحقل . فالهامه العذب واسلوبه الطلي
بذكرائنا بفكرة النهضة في نقاوتها الحاصة وشبابها الحبيب . ونلمس في
آثاره حسن الابقاع والقافية والموسيقى . ولم يكتب أحد ماكتبه رونساو
في الحب والاسف والورد والشيخوخة والزمن الفاني والشباب وما إلى
ذلك من هذه الأغراض .

الفن . - كانت النهضة الفرنسية بنت النهضة الايطالية وتعتبر من
هذه الناحية نتيجة هامة من نتائج حروب ايطاليا . فقد أخذ كل من
شارل الثامن ولويس الثاني عشر وفرانسوا الاول وفرنسانهم بجمال الحضارة
الايطالية . وعندما عادوا إلى فرنسا ارادوا أن يروا فيها ما شهدوه في
ايطاليا . لقد اشترى شارل الثامن من فلورنسا تحفاً فنية بما يقدر بنصف
مليون فرنك ، كما اصطبغ معه ٢٢ فناناً . واخذ فرانسوا الاول من

إيطاليا مجموعة من الرخام القديم ، وطلب إلى رافائيل ولؤناردو فانتشي عدة لوحات ، وجذب معه لؤناردو إلى فرنسا . وكان قصره في فونتينبلو يضم جالية من الفنانين الإيطاليين مثل فرانسيسكو بريماييكشيرو وروسو وبينفينوتو تشيليني . وكان أفراد الرعية يشاركون الملوك في حماسهم للفن ورجاله . وغدا الفن موضة أخذت بلهم وتملكتهم ، الأمر الذي أثر على الفن الفرنسي فحول .

وفي الحقيقة كان التحول بطيئاً ولاقى مقاومة . وسبب ذلك أن فرنسا كانت بلداً فنياً له تقاليده الفنية ورجاله . ويمكن أن نـمـيز فيها آنذاك مدرستين فنيتين ودورين فنيين هامين . ففي الدور الاول ، الذي يمتد حتى منتصف القرن ، كانت المدرسة ، التي تستوحى منها من التقاليد الفرنسية ، عظيمة التأثير ، ولم تتأثر بالفن الإيطالي إلا قليلاً . أما في الدور الثاني فقد طغى الفن الإيطالي مع المدرسة التي تستوحى من التقاليد القديمة ، وأصبح الفن الفرنسي فناً كلاسيكياً دون أن يفقد صفاته الخاصة الفرنسية من تذوق للوضوح والضياء والبساطة والرشاقة . وحس القياس .

وترجع فرنسا في مجدها الفني في عصر النهضة ، كما في العصر الوسيط ، إلى مهندسيها المعماريين ونحاتيها . ولم يكن فيها مصورون ، عابرة ، كما في إيطاليا . فقد اشتهر مصوروها برسم الأشخاص مثل فرنسوا كلويه . وكانوا يرسمون صوراً صغيرة بالألوان الزيتية أو بقلم الرصاص ولكنها كانت عجيبة الصنع في الدقة والوضوح .

البناء . - كانت النهضة الفنية في فرنسا بنائية عمرانية بني خلالها قليل من الكنائس ، لأن الاتجاه كان منصرفاً نحو بناء الابنية

المدينة ، مثل القصور البلدية والقصور الفخمة التي تصلح لاقامة الحفلات والاعياء .

كان فن البناء في أوله اميناً على التقاليد القومية ، ولم يخرج عن اطاره هذا إلا قليلاً . وكان المهندسون المعمارون يستوحون فنههم ، في بناء القصور الجديدة ، من القصور القديمة الفرنسية وخاصة في وادي اللوار في منطقة آنجو وتورين الملقبة بحديقة فرنسا . ومن هذه القصور قصر آمبواز الذي بدىء ببنائه في عهد شارل الثامن ، وقصر بلوا في عهد لويس الثاني عشر ، وقصر شامبور قصر فرانسوا الاول وقصر شينونسو وغيرها .

ومع هذا فقد ظهرت منذ ذلك الدور موضة جديدة في تفصيلات التزيين وتيجان الأعمدة والسطوح أو في زخرفة المنازل . وقد ظفر الفن في اسلوبه القديم في عهد هنري الثاني .

وكانت آثار هذا الاسلوب البديع المسمى « اسلوب النهضة » من عمل ثلاثة فنانيين معماريين : بيير ليسكو ، جان بولان ، فيليب دولورم ، وقد ذهب الثلاثة إلى ايطاليا ودرسوا الاوابد القديمة واستوحوا منها .

كان بيير ليسكو باريسياً نبيل اللباس ومعماراً موهوباً . رسم مخطط قصر اللوفر وبدأ ببنائه . وقد قرر الملك فرانسوا الاول ان يقوم هذا القصر حوالي العام ١٥٤٧ مقام قصر شارل الخامس القديم . ولم يتم قصر اللوفر الا بعد مائة وخمسين سنة أي في عهد لويس الرابع عشر ، فكان أثر النهضة الاصيل ، وفيه تتجلى دقة البناء والتناظر وجميع العناصر المستوحاة عن القديم بمتزجة بالرشاقة النادرة والاهتمام بالاسلوب ونقاوة الخطوط .

وكان فليبير دولورم ابن فنان من ليون ، وقد تمتع بشهرة زائدة ، إلا أن آثاره العظيمة فقدت . بنى قصر التويلري للملكة كاترين دوميدتشي بعمونة جان بولان ، إلا أن هذا القصر احترق عام ١٨٧١ ولم يبق منه شيء . وقصر آنيث بالقرب من مدينة دروو وهو قصر ديانا بواتيه وقد حرق أثناء الثورة الفرنسية .

وكان جان بولان بناء عند موثورانسى القائد العام للجيش ، ثم أصبح مهندساً معماراً عند الملكة كاترين دوميدتشي . وقد بنى لموثورانسى قصر ايكون بالقرب من باريس . وقد استوحى فنه من معبد جوبيتر في روما .

النهضة . - وكان النحاتون كالمعماريين على فئتين : بعضهم ظل اميناً للتقاليد الفرنسية والآخرون تأثروا بالفن القديم الايطالى . ومن أشهر النحاتين : ميشيل كولومب ، وهو بروتانى نحت فانت ضريح دوق بروتانيا أبي الملكة ؛ وليجييه ريشيه ، وهو من بلاد اللورين ، نحت دفن المسيح في ضريحه في كنيسة سن مييل ؛ وبير بولتان وقدر عرف بالواحه النافرة ومثال ضريح فرانسوا الاول في سن دوني ؛ وجان غوجون وكان معاوناً إلى فليبير دولورم في انيت ، وبير ليسكو في قصر اللوفر وكان مثلها كلاسيكياً قحاً ، ويبدو أن مجموعة الاسلحة ، التي نحتها على واجهة اللوفر ، وقد أخذ فنها عن أقواس الظفر الرومانية . أما أشخاصه : ديانا آنيث و إلسهات نبس الابراء ، في باريس فتبدو عارية أو لابسة البسة فضفاضة متموجة مرنة على الطراز القديم ؛ وجورمن بيلون نحات شارل التاسع وكاترين ميدتشي . وفنه مستوحى من القديم في التماثيل البرونزية التي تزين ضريح هنري الثاني ، كما أنه يرجع ، في بعض الاحيان ، إلى الفن الفرنسي المألوف . وبعض آثاره ، كتمثال المستشار بيواغ ، معروفة بواقعيتها القوية .

الحروب الدينية

كان الاصلاح الديني في اوروبا حادثاً من الحوادث الرئيسية الهامة في تاريخ القرن السادس عشر فقد قاومت الكنيسة جميع هرطقات العصر الوسيط ، غير أنها مالبت أن تمزقت دون مقاومة . ولاشك في أن الاصلاح الكاثوليكي أتى متأخراً وبطيئاً ، ولكنه أفاد الكاثوليكية ، على أي حال ، وادخل في حظيرة الكنيسة قسماً من المحتجين ، أو على الأقل ، ابقى وحافظ على البلاد التي مازالت تعتنق الكاثوليكية ديناً . وبالرغم من أن مجمع ترانت يسجل نقطة انطلاق في نشاط الكنيسة واسترداد ما فقدته من قوة ، فقد أخذت الاوضاع الدينية تتعارض مع بعض ، وقامت الحلفاء المسلحة وسط غليان الافكار واصطدام العقائد والمذاهب وتنافس الاطماع ، وانبعثت عنها الحروب الدينية .

لقد بلغت الشدة في هذه الحروب منتهى العنف والفظاعة وأصاب فرنسا ما أصابها من أخطار جسيمة مع أنها لم تكن عاملاً وموطناً لها . كان لوثير ألمانياً . وكان كالفن فرنسياً ، غير أنه وان يكتب بالفرنسية ويعتبر من اكبر الكتاب باللغة الفرنسية ، ففي جونيف ، أي في خارج فرنسا ، كان مركز عمله وقطب انتشار مذهبه . ولقد اجتاحت العاصفة الدينية فرنسا ولكنها تماسكت و « ظلت ابنة الكنيسة البكر » ، ولم يمنع ذلك من حدوث اثنيية دينية بعد الوحدة .

بواذر الحروب الدينية . - لم تقض ثلاث سنوات على توقيع معاهدة كانو - كامبريزي إلا ودخلت فرنسا في حروب أهلية فظيعة ، مبعثها الاهواء والاحقاد الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت أو كما يسمون

أنفسهم بابويين وهوغنوت^(١) . وقد دامت هذه الحروب أكثر من ثلاثين عاماً من (١٥٦٢ - ١٥٩٣) .

انتشرت الديانة الكالفنية بسرعة في فرنسا في عهد هنري الثاني ، واعتنقت هذا المذهب الأصناف المتواضعة والبورجوازيون المسالمون مع عدد عظيم من الأشراف وخاصة في جنوب فرنسا وغربها . واعتناق النبلاء فكرة الإصلاح يعتبر حدثاً عظيم الأهمية ، لأن العمال والصناع والبورجوازيين لا يمكنهم مقاومة الاضطهاد إلا بالاستسلام والرضا بالأمر الواقع . أما النبلاء ، وهم جنود من ولادتهم ، فيقاومون بالسيوف . وبعد أن توطد السلام بين فرنسا وإسبانيا قل نشاطهم الحربي وأصبحوا بدون عمل . وباعتناقهم الكالفنية ديناً أصبح الحزب الكالفي حزباً سياسياً عسكرياً متنبهاً للحرب في سبيل الذود عن إيمانه . ومن هنا نشأت الحروب الدينية .

وفي مثل هذه الظروف القلقة المضطربة كانت فرنسا بحاجة إلى ملك قوي الشكسية ، ولكن بعد أن توفي هنري الثاني فجأة عام ١٥٥٩ شهدت فرنسا عهدي وصاية متواليين ، ذلك لأن فرانسوا الثاني كان حدث السن وله من العمر عشر سنين . ولاشك في أن هذه الظروف توفق حتماً الاطماع والتنافس والمكايد لتملك السلطة وتشكل الأحزاب التي تمثل المنافع الشخصية والسياسية والدينية . وقد وجدت آنذاك ثلاث أمور كانت تدعي بأسهامها في حكم المملكة ، وهي : آل بوربون ، آل مونمورانسي ، آل غيز .

أما آل بوربون فهم من أنسال القديس لويس (لويس التاسع) أي أمراء الدم . وكان كبيرهم انطوان بوربون ضعيف الشخصية متردد

(١) إن كلمة هوغنوت Huguenots لقب أطلق على البروتستانتين من اتباع كالن ، وهو مأخوذة عن الكلمة الألمانية Eidgenossen وتعني « المتحدون » .

الطبع ، وقد أصبح ملك نافار بزواجه من جان البريت بنت مارغريت انغوليم . وكان الابن الثاني شارل مطران روان وكاردينالا . وكان الثالث لويس طموحاً مشاعياً يلقب بأمير كوندو وقد اعتنق واخوه انطوان الكالفنية منذ عام ١٥٥٨ .

وكان آل موغورانسى عريقين في نبلهم وثروتهم وعلاقاتهم الزوجية ويؤلفون أعظم امرة وأقواها بين أمر الامراء في المملكة وبسموث انفسهم باعتزاز وفخر « بارونات المسيحية الأوائل » . وزعيم هذه الامرة القائد العام موغورانسى الشيخ وكان مشاوراً للملك فرانسوا الثاني الذي يسترشد برأيه ويعمل بنصيحته ، وكذا الحال في عهد هنري الثاني . وكان هو واولاده كاثوليكين متحمسين وغيورين على كاثوليكيته . غير أن اثنين من ابناء أخيه وهما الاميرال كوليني وأنديلو زعيم المدفعية العام اشتبرا بجهها للجنديّة واعتنقا ، كأمر كوندو وأخيه انطوان ، المذهب الكالفني (١٥٥٨) .

وكان آل غيز احفاد ادواق اللورين ، فهم إذاً من أصل أجنبي ، لأن اللورين كانت مرقبطة بالامبراطورية الجرمانية ، ولكن أراضيهم كانت في فرنسا ، وأهمهم من آل بوربون أميرة الدم ، وسبق لأبيهم أن خدم فرانسوا الاول بشجاعة وبسالة . وكسب كبيرهم فرانسوا غيز مجده بالدفاع عن ميتر وأخذ كاليه . وكان أخوه الاصغر منه شارل ، كاردينال اللورين مطران رنس ، ويعتبر أغنى حبر في فرنسا . وقد رأينا في عهد هنري الثاني كيف ان الاخوين تقاسما مع موغورانسى ثقة الملك والسلطة . وكانا شديدي التعلق بالكاثوليكية ولا يقل طموحها الشخصي عن هواها الديني . وقد قربت وحدة الايمان آل بوربون من كوليني ، واعترف بهم الكالفنيون زعماء عليهم . كما أن وحدة الايمان يمكن أن

تقرب آل مونمورامي من آل غيز . غير أن تنافس الاطماع حال دون هذا الاتحاد . وكان لكل امرة سياستها الدينية . وقد ظهر آل غيز منذ البدء كاثوليكيين متعنتين ، وآل مونموراسي على الأكثر معتدلين متسامحين .

فرنسوا الثاني ومؤامرة آمبواز . - ان اعتلاء فرانسوا الثاني بن هنري الثاني عرش المملكة جعل آل غيز سادة فرنسا . فقد تزوج فرانسوا الثاني ماري ستيفارت قريبتهم ، واستطاعت هذه أن تسيطر على الملك فترك إلى عميه الدوق والكاردينال التبعة في كل شيء . وكان آل غيز يطبقون المراسيم الصارمة الشديدة ضد البروتستانتين . فمن ذلك ان آن بورغ ، أحد المستشارين في برلمان باريس ، ندد بسياسة الاضطهاد في حضرة هنري الثاني ، وتجراً على لومها بشجاعة فكان جزاؤه الشنق والحرق . غير أن البروتستانتين لم يستسلموا للاضطهاد يعمل فيهم دوت مقاومة ، ودبروا مؤامرة يتزعمها شريف بسيط يدعى لا رينودي وزعيمها السري أمير كوند ، وكانت هذه المؤامرة ترمي إلى خطف فرانسوا الثاني لاقصائه عن نفوذ آل غيز . وقد علم كالقن بمجريات الامور في هذا المشروع وعبأ حاول تعنيفه ، وقال في هذا الصدد « ان نقطة الدم التي تسفك ستسيل منها انهار تغمر فرنسا » . وبالرغم من ذلك فان هذا المشروع ظل حياً ، ولكنه أخفق لحيانة أحد المتآمرين . وعند ذلك وضع آل غيز الملك في قصر آمبواز آمناً وقبض على المتآمرين وأغرق من أغرق وقتل من قتل (١٥٦٠) . وسلك آل غيز سياسة صارمة ليقطعوا دابر كل خطر يهدد بالحرب الاهلية ، ووقفوا كوند ، واحالوه إلى المحكمة ، فحكم عليه بالموت للغيانة العظمى ولم ينبج إلا بموت الملك الفتى ،

عصر النهضة (١٦)

الذي أودى إثر مرض مفاجئ، وله من العمر خمسة عشر عاماً (كانون الاول ١٥٦٠) .

أحدث هذا العمل استياء عاماً وهدم سلطة آل غيز . وكان الملك الجديد شارل التاسع ، الابن الثاني لهنري الثاني ، حدث السن وله من العمر عشر سنوات . واستطاعت الملكة الأم كاترين دوميدتشي بجذاعتها ان تقصي أمير النسب ، انطوان بوربون ، وتستولي على الوصاية وحتى هذا التاريخ لم تلعب كاترين دوميدتشي أي دور سياسي ، وكان لها من العمر أربعون سنة وتتمتع بشهرة طيبة ، ولكنها تحب السياسة التي ابعدت عنها ولا تعرف للدين أي وازع ولا رادع . وكانت عاطفتها المسيطرة عليها وحبها الاموي وارادتها تدفعها إلى جعل كل شيء في مصلحة أولادها ، وأرادت أن تؤمن لنفسها كل ذلك بهدوء فسلكت سياسة التوازن ، واعتمدت على آل بوربون ضد آل غيز وقربتهم اليها بعفوها عن أمير كوند . وادركت من جهة ثانية بأن الاهواء الكالفينية والاهواء الكاثوليكية يمكن أن تهدد السلطة الملكية ، فحاولت أن تسلك سياسة مصالحة وتساهل . وكان مشاور الملكة في هذه السياسة الجديدة ميشيل دولوبيتال ، وكان رجلاً عاقلاً معتدلاً انضجته السنون وحنكته التجارب ، مخلصاً للملكة . وجعل همه توطيد احترام السلطة الملكية .

ولتهينة المصالحة الدينية عقد الاساقفة والرعاة مجمعاً دينياً في بواستي (ايلول ١٥٦١) وكان يمثل الكالفنيين تيودور دوبيز صديق كالفن ، ويمثل الكاثوليك كاردينال اللورين . غير أنهم اختلفوا في نقطة اساسية تتعلق بالعقيدة في الافخارستيا فجعلت كل تفاهم غير ممكن . ومع هذا فقد أذاعت كاترين مرسوم التسامح في (كانون الثاني ١٥٦٢) وبموجبه منع البروتستانتيون حقوق الاحتفال علانية بعبادتهم في خارج المدن وفي الارباب .

ولكن سياسة الاعتدال لم تنجح أيضاً كسياسة الشدة والصرامة ،
فضلاً عن ان فكرة التسامح والتساهل كانت غريبة ولم يرض عنها عدد
عظيم من الكالفنيين والكاثوليك . ففي جنوب فرنسا ، حيث كانت
الاكتوبة بروتستانتية ، أعمل الكالفنيون القوة ضد الكاثوليك . ففي
مونبيه جدفوا الكنيسة واغلقوها وقتلوا فيها خمسة عشر شخصاً (تشرين
الاول ١٥٦١) ، وكانت المشاهدات الدموية تقوم في كل مكان . وبعد
شهر تقريباً من اعلان مرسوم التسامح الآنف الذكر أي في آذار ١٥٦٢ ،
مر دوق غيز في فاسمي في مقاطعة الشامبانيا ، فأعمل رجال حاشيته
السيف في جماعة من الكالفنيين يحتفلون بعبادتهم في أحد الانبار . وما
لبثت هذه المشادة ان انقلبت إلى مذبحه وقع فيها اكثر من مائة كالفني
هابين قتيل وجريح .

ومذبحه فامي ، التي احتفل بها الكاثوليك كنصر وظفر لهم ، اثار
الاحقاد والكراهية وكانت بادرة للحرب الاهلية .

صفات الحروب الدينية . - يقدر عدد الحروب الدينية بثماني حروب :
أربع منها في حكم شارل التاسع (من ١٥٦٢ إلى ١٥٧٣) ، وأربع
منها تحت حكم هنري الرابع (من ١٥٧٤ إلى ١٥٩٣) وكانت هذه
الآخيرة اكثر تعقيداً من الأولى لأن القضايا السلافية تدخلت في
القضية الدينية .

كانت هذه الحروب ، وخاصة الاولى ، فظيعة بالغة منتهى المهجية
والفضاعة . لأن كلا من الجانبين يحاول أن يثأر لنفسه ولا يتوانى عن
ارتكاب القتل دون اشفاق ، وكانت هذه الاعمال تقوم فيها بشكل
مذابح وشنق وقتل اكثر منها في واقعة حربية حقيقية . ومن جهة ثانية
كانت لهذه الحروب الدينية صفة سياسية ، لأن مبدأ السلطة الملكية قد

اختلف فيه وأصبح منازعاً . ففي بعض مناطق الجنوب كانت الحركة البروتستانتية في الوقت ذاته حركة حرة ديمقراطية . وعندما تشكلت العصبة قامت افكار بمائلة عند الكاثوليك وزعموا بانهم يريدون أن يعيدوا إلى المملكة حرياتها القديمة .

واندفعت الاهواء الدينية فبلغت الذروة وكسفت أمامها العاطفة القومية . لأن كلا الجانبين كان يدعو الاجنبي لنجدته ، وذلك يكون إما بطلب معونة الملوك مثل البزايت وفيليب الثاني وامراء المانيا ، واما باستئجار المرتزقين الايطاليين والسويسريين والالمانيين بمن لا يباليون بالدين ولا يتورعون من الانتقال من معسكر لآخر في سبيل اجر اعلى . ففي واقعة ايفوي كان نصف فرقة الفرسان في الجيش الكاثوليكي يتألف من فرسان خفاف من الفلامانديين والايطاليين والالبانيين والاسبانيين ورماحة الفاللون والالمانيين .

ولم تؤد أي حرب من حروب الدين إلى نتائج حاسمة لأن كلا الخصمين لم يكن في حالة يستطيع معها الاجهاز على الخصم وضربه بالضربة القاضية . فقد كان الكالفينيون أقلية ولم يستطيعوا أن يظهرروا على سواد الأمة الكاثوليكية . ولم يستطع الكاثوليك أن يقضوا على الكالفينيين لأن هؤلاء كانوا موزعين في كل انحاء فرنسا . وكان جنوب فرنسا ، ويضم حوض اكييتانيا واللانغدوك ، موطن مقاومتهم الاصلي . وفيما عداه نجدهم في الاوفيرن وبورغونيا ونيفرنيه . ولم يكن هنالك مركز حيوي يمكن لضربة واحدة أن تقضي عليهم . وهذا ما ساعد على استمرار مقاومتهم .

الحروب الاولى . - دامت الحرب الاولى عاماً من ١٥٦٢ إلى ١٥٦٣ . وفيها شابت كاترينا دوميدتشي حزب الكاثوليك وطلبت مساعدة ملك اسبانيا . كما طلب زعما الجيش البروتستانتى ، كوندو وكوليني ، نجدة

اليزابث ملكة انكلترا ، ومقابل هذه المساعدات أخذت ميناء لوهافر في ايلول ١٥٦٢ . وجرت العمليات الاساسية بين نهر السين واللوار . أما ملك نافار فقد ارتد إلى الكاثوليكية وأصابه جرح وقضى نحبه في حصار روان . ووقعت الواقعة الكبرى في دودو وكان غيز فيها غالباً وكونده أسيراً .

وبعد بضعة أسابيع وبينما كان فرانسوا غيز محاصر اورلثان ومهاج بروتستانتى اسمه بولترو دو ميرو بسهم فأرداه قتيلاً ، وقام هنري غيز ابن الضحية وانهم كوليني بتدبير هذه الجريمة ، فاحتج كوليني مستعجلاً ولم ينع هذا من الفرع بموت خصمه . وانتهت الحرب ببرسوم آمبواز (آذار ١٥٦٣) ، وكان هذا المرسوم أقل حرية من مرسوم كانون الثاني الذي سبق ذكره ، إلا أنه جعل فرنسا تتمتع بالسلام خلال أربع سنوات . ولتوثيق الصلح بين الكاثوليك والبروتستانت اندفع الجانبان لاسترجاع لوهافر من أيدي الانكليز .

الحرب الثانية والثالثة . - غير ان تحاسد الزعماء الكاثوليك والبروتستانت وسوء ظنهم ببعضهم في البلاط الملكي أدى في العام ١٥٦٧ إلى معاودة الحرب . وقتل مونمورانسي في واقعة سن دوني لتخليص باريس بعد أن حاول كونده حصارها . وعاد السلام في العام ١٥٦٨ وما لبث أن انفصمت عراه . وتجمع الكالفينيون في هذه المرة في جنوب غربي نهر اللوار وغلبوا على أمرهم مرتين في جارانك وفي مونكونتور ١٥٦٩ . وظلت الحرب دون نتيجة . وقد جرح كونده في جارانك واستسلم ، إلا أن ضابطاً من ضباط دوق آنجو اخو الملك شارل التاسع ، قتله . ولكن كوليني بقي متين الاعصاب متمسكاً وأصلح جيشه وعادوا الحرب ، ثم حصل اعياء عام ، وملت كاترينا فعادت إلى سياسة السلام .

وفي ٨ آب ١٥٧٠ وقعت مرسوم سان - جومين وخولت بموجبها البروتستانت أربعة مواقع أمينة يقيمون فيها حامياتهم وتسمى « مواقع الأمن » ، وأهمها مونتوبان ولاروشيل التي أصبحت عاصمة فرنسا المورغنوتية . ويبدو ان كلا الطرفين جنح لسياسة التسامح والسلم ، وجرت مفاوضات ادت إلى عقد زواج مارغريت فالوا اخت الملك وابنة كاترين بالملك الشاب هنري ثامن زعيم الحزب الكالفيني وله من العمر خمسة عشر عاماً . واستدعى الملك شارل التاسع كوليني إلى مجلسه . واستطاع هذا بما أوتي من خبرة سياسية وحسنة في الحروب وبعد نظر ان يزيد في نفوذه لدى الملك الشاب .

وكان من جملة المشاريع ، التي يغذيها كوليني لدى الملك ، المشروع الذي يرمي إلى معاودة النضال ضد آل هابسبورغ . وكما كان الماريشال فيفيل قبل عشرين عاماً يشير على هنري الثاني ، كذلك اشار كوليني على الملك أن يلقي بجنوده في آرتوا والفلاندر ويضع يده بيد الثوار في البلاد المنخفضة . فلاقى هذا المشروع تحييد شارل التاسع . الا ان هذا المشروع أخاف كاترين دوميدشي وراأت أن من التهور مهاجمة ملك اسبانيا القوي . والذي أخافها أكثر من ذلك هو أنها فقدت كل نفوذ على ابنها كما فقدت سلطتها . فاتفقت مع هنري غيز عدو كوليني الألد ولم تتردد في الالتجاء إلى الجناية في القضاء على هذا الخصم . وفي يوم الجمعة الموافق ٢٢ آب ١٥٧٢ أي بعد أربعة أيام من زواج هنري ثامن ثامن بمارغريت فالوا أطلق عيار ناري على الاميرال كوليني إلا أنه اخطاه ، فحقق الملك من هذا العمل وأقسم لينتقم له دون رافة أو رحمة .

مذبحة سان بارتلمي . - وعن محاولة الاغتيال هذه خرجت جريمة من أفظع الجرائم التي عرفها التاريخ . فقد أمر الملك باجراء تحقيق

للكشف عن المسبب بالضرر ، وخافت كاترينا أن يعرفها التعقيب فلم تر بداً ، للخلاص من هذه المشكلة ، من مذبة عامة لزعماء البروتستانت . ووسوست للملك حتى جعلته يعتقد أن الموهغوت يدبرون المؤامرة على حياته وإن السلام غير ممكن إن لم ييدهم جميعاً . وبعد أن قاوم الملك طويلاً انتهى به الأمر إلى أن قال « اقتلهم بل اقتلهم جميعاً حتى لا يبقى أحد منهم يؤاخذني على ذلك » . وعندئذ اتفق دوق غيز مع بلدية باريس واتخذ جميع الاستعدادات الضرورية على أن تبدأ المذبحة في الساعة الرابعة صباحاً من يوم الأحد في ٢٤ آب ١٥٧٢ ، يوم عيد القديس بارتلمي . وفي الليل ، حوالي الساعة الثانية صباحاً ، ارتاب بعض البروتستانتين من حركة الجنود ، التي كانت تجري ، فاقتربوا من قصر اللوفر فاطلقت عليهم النار وكانت هذه إشارة الخطر .

وفي اللوفر أمر شارل التاسع بقتل أشرف البروتستانت الذين كانوا في ضيافته لحضور زواج هنري بوربون دونافار بمارغريت فالوا أخت الملك . وسبق هنري نافار إلى غرفة شارل التاسع وخير بين الموت والكاثوليكية فارتد لانقاذ حياته . وكانت الحطة مدبرة لقتل الزعماء إلا أن الاوباش من الشعب انضموا إلى الجنود واعمالوا القتل بالبروتستانت وأصبحت المذبحة عامة ، ولم يستثن منها النساء والاطفال . وما حل وقت الظهر إلا وبلغ عدد القتلى الالفين وصحب النهب والسلب أعمال القتل . وحاول الملك عبثاً إيقاف هذه الفظائع التي دامت إلى يوم الثلاثاء في ٢٦ منه .

وحذت المدن الاخرى حذو باريس : فقد دام القتل في اورلئان ثلاثة أيام . وفي ليون كان عدد القتلى بين ٧٠٠ و ٨٠٠ قتل . ومن الصعب تحديد عدد القتلى جميعاً ، ولكن عددهم يتجاوز ثلاثة آلاف

ضحية . على أن بعض حكام الملك رفضوا تنفيذ اوامره فحالوا دوث سفك الدماء .

الحرب الرابعة . - ولكن هذه المذابح لم تأت بالنتيجة المتوخاة منها وهي القضاء على الحروب الاهلية . وبالرغم من أن الكالفينيين حرّموا من زعمائهم فلم يفت ذلك في عضدهم ، بل شكروا السلاح ودافعوا عن أنفسهم واطّار شارل التاسع أن يعقد معهم الصلح ويمنحهم الحرية الدينية (١٥٧٣) . وبعد ذلك بعام واحد أي في ٣٠ أيار ١٥٧٤ توفي شارل التاسع ، اثر نزاع بينه وبين نفسه من جراء مذبحة بارثلمي التي بقي تحت ضغط كابومسها ، وعدد السل كيانه حتى قضى عليه .

هنري الثالث والعصبة . - وبعد وفاة شارل التاسع اعتلى العرش هنري الثالث ثالث أولاد هنري الثاني وهو دوق أنجو سابقاً ، وكانت كاترين ميدتشي تفضله على غيره من أخوته . وقد انتخب ملكاً على بولونيا ، وعندما علم نبأ وفاة أخيه غادر كراكوفيا بسرعة وعاد إلى فرنسا وأخذ امم هنري الثالث .

كان عمر هنري الثالث آنذاك ثلاثاً وعشرين سنة . كان ذكياً روحانياً متحدثاً جيلاً معروفاً بذوقه السليم وثقافته الفكرية ، إلا أنه كان ، جشعاً لاحول له ولا قوة ، متنقلاً من حياة التقى والزهد إلى حياة الخلاعة والمساخر ، وقد أدت رقة طباعه ووقاحة محظيه الذين يسمون « مينيون » إلى كره الناس له واحتقارهم إياه .

الحرب الخامسة . - وبالرغم من نصائح كاترين ميدتشي ، فان المملكة وقعت في ظل هذا الملك الضعيف في فوضى قامة . وزادت الامور تعقيداً منذ مذبحة سان برثلمي وانفجرت عن حرب دينية خامسة (١٥٧٤ - ١٥٧٦) .

فمن جهة ، نظم الكالفينيون قوامهم ليعسوا الدفاع عن أنفسهم ، والتفوا حول « الاتحاد الكالفيني » . وكان هذا الاتحاد ينقسم إلى عدة « حكومات » ، ولكل حكومة زعيمها الحربي ويجلسها المكلف بإدارتها وجباية ضرائبها . وهناك مجالس عامة تعقد لتأمين الارتباط بين مختلف الحكومات . وكان البروتستانتيون على هذا النحو ، يؤلفون في داخل المملكة ، نوعاً من جمهورية اتحادية . وكما قال من بعد ريشليو « دولة داخل دولة » .

ومن جهة ثانية ، انقسم الكاثوليك إلى قسمين : فإلى جانب الكاثوليك المعتنقين ، الذين يوجههم آل غيز ويريدون إبادة البروتستانتين ، قام كاثوليك آخرون معتدلون أثارتهم المذابح وخافوا على المملكة من الدمار والحرب من وبال الحروب الأهلية . وكان هؤلاء الوطنيون المتبصرون بعواقب الأمور يرغبون بالعودة إلى نظام التسامع والسلام الديني ، فالفوا حزب المستأجرين أو السياسيين ، ومن زعمائهم أحد أبناء مونمورانسي واسمه دامفيل حاكم اللانغدوك ، وفرنسوا دوق آلنسون آخر اخوة هنري الثالث وكان يلقب بـ « السيد » ، وهو لقب منيع في القرن السادس عشر إلى أخ ملك فرنسا ومن تبعه في الولادة .

وقال السياسيون والبروتستانتيون واشتد ساعدهم واستطاعوا أن يفرضوا على هنري الثالث مرسوم السلم في بوليو (١٥٧٦) وبموجبه يخول البروتستانتون حرية العبادة في كل فرنسا ، عدا باريس وثمانية مواقع على أن يكون عددهم في البرلمانات نصف عدد الكاثوليك . وفوق ذلك قلد هنري نافار حكومة غوين ، وأمير كوندé الشاب حاكم بيكارديا . كما حصل دوق آلنسون على أنجو وتورين وبيروتي . وما علمت كثوية الكاثوليك بمرسوم بوليو إلا واعتبروه بجحفاً وضاراً بمنافع المملكة ومصالح

الدين . فمن ذلك أن سكان بيكارديا اعتصبوا ليعولوا دون دخول كوندو وتولى حكم المقاطعة ، ودعوا في الوقت ذاته جميع كاثوليكبي فرنسا لتأليف « الاتحاد المقدس » المسيحي لخدمة الله القدسة وطاعة صاحب الجلالة » . وهذا هو أصل تشكيل العصبة (١٥٧٦) .

واستجيب لداعي عصبة بيكارديا . وتشكلت الرابطات في كل مكان وتكتلت في اتحاد فدرالي ، وكان زعيم العصبة هنري غيز فارساً لامعاً وزعيماً صالحاً وقد لقب بـ « الاشج » اثر جرح أصابه في وجهه خلال الحرب السابقة . غير أن هنري الثالث رأى من الحكمة أن يعترف بالمنظمة الجديدة وينادي بنفسه زعيماً لها . وبما لاشك فيه ان تشكل هذه العصبة يؤلف خطراً على المملكة ، لأن رجال العصبة الفروا حزباً سياسياً يرمي إلى تحديد السلطة الملكية وتهديم الحكم المطلق . وكانت لهم منظمته العسكرية وزعمائهم المختارون وقد بايعهم على الطاعة التامة ، وحاولوا كالبروتستانتين تأليف « دولة داخل دولة » .

الحروب السادسة . - ودفعت العصبة هنري الثالث ولكنه استأنف القتال ضد البروتستانتين دون حماسة . وكان على رأس هؤلاء البروتستانتين الملك الشاب هنري نافر ، فقد فر من البلاط ، في شباط ١٥٧٦ بعد تهديده ، وارتد الى الكالفنية وكان عمره آنذاك ثلاثاً وعشرين عاماً وعنده من الشجاعة والقوة والجرأة ما يجعله الزعيم المنشود دون منازع .

وكان من الصعب الحفاظ على الاتحاد بين البروتستانتين والسياسيين وقامت حرب سادسة (١٥٧٧) وسابعة (١٥٧٩ - ١٥٨٠) دون نتيجة . واضطر البروتستانتون إلى قبول سلم أقل فائدة من مرسوم يوليو . ومع هذا فقد دام السلم أربعة أعوام . غير أن موت دوق آلنسون عام ١٥٨٤ اثار جميع الاهواء . وبموته أصبح هنري نافر

المرطقي المرتد وريثاً شرعياً للتاج ، واضطرب لهذا الاحتمال جميع الكاثوليك .

وبالمقابل تمت « العصابة » وعظم شأنها وأخذ سكان المدن بتأثير الدعاة يدخلون فيها أفواجا . وأخذ هنري غيز على عاتقه أمر تنظيمها وإدارتها وعارض الوريث البروتستانتي بوريث شرعي كاثوليكي وهو الكاردينال بوربون . أما في الواقع فكان غيز يحلم بالتاج لنفسه . وأخذ ينشر لوائح يذكر فيها صلة القربى البعيدة بين أمراء اللورين وشارلمان ، وإن الكاثوليكين أناس غصبون . وفي الوقت ذاته كان غيز يفاوض فيليب الثاني وعقد معه حلفاً مريباً ، واستحصل من البابا سيكست الخامس على مرسوم يصرح فيه أن هنري نافار غير أهل لتسلم عرش فرنسا . وأخيراً أرسلت العصابة إلى الملك انذاراً واجبرته على منع الديانة الكالفنية في فرنسا (١٥٨٥)

الحرب الثامنة ويوم المتاريس . - وانطلقت من هذا الانذار الحرب الثامنة والأخيرة ودامت ثلثي سنين (١٥٨٥ - ١٥٩٣) وتدخل الاجنبي فيها بصورة نشيطة . ولم تمر فرنسا منذ حرب المائة عام بأزمة كهذه الازمة التي اجتازتها لأن وحدتها واستقلالها وسلامتها القومية كانت عرضة للخطر .

وما فتئ نفوذ هنري غيز وشعبيته في ازدياد عظيم . وقد قال أحد المعاصرين « ان فرنسا كانت مأخوذة بهذا الرجل ، ومن القليل جداً أن نقول انها كانت عاشقة له » . وقد ظفر هنري نافار على جيش الدوق جويوز أحد محظي الملك في واقعة كوترا (١٥٨٧) ، إلا أن هنري غيز أحرز انتصارين على البروتستانتين في شامبانيا ومجده الفرنسيون كأنه

مكابة (حامى الدين اليهودي وقاهر ملك سورية انتيوخوس في القرن الثاني قبل المسيح) الجديد و « سند الكنيسة » .

وفي باريس خاصة ، حيث كان العصبويون كتلة قوية ، فكر كثير منهم بخلع هنري الثالث . وقد أحس الملك بالخطر فمنع الدوق من الهجر إلى « باريس » ولكن انصاره دعوه مرأ . ونحطى غيز منع الملك ، واستقبلته باريس استقبال الظافرين . وعندما اتى الملك بجنوده وادخلهم المدينة قامت فيها مشادة حقيقية . ففي ١٢ أيار ١٥٨٨ الذى سمى « يوم المتاريس » شكا الباريسيون السلاح وأقاموا المتاريس في الشوارع واحاطوا بجند الملك وقتلوا منهم مايقرب من ستين رجلاً ودفعوا بتاريسهم حتى أبواب اللوفر . واضطر هنري الثالث ، لتهدة الحالة ، إلى الاستبعاد بدوق غيز ، ثم فر من باريس وذهب إلى شارتر .

وفقد الملك نفوذه على عاصمته واعيته الحيلة أمام قوة منافسه بعد أن أخذ شأن هذا الأخير يعظم يوماً عن يوم . ولم يكن في وسع هنري الثالث إلا أن لجأ إلى الحاداع وطلب الصلح وسمى دوق غيز نائب المملكة العام .

وكان هنري الثالث بحاجة إلى المال فاضطر إلى دعوة مجلس المملكة العام في بلوا (تشرين الاول ١٥٨٨) . وبدأ فيه هنري غيز ملكاً حقيقياً . وكانت اخته السيدة موبانسيه تظهر ، كما يقولون في كل مناسبة ، المقص الذى ستجز به فاصية هنري الثالث يوم خلعه واستكانه الدير . وشاعت الأقوال عن خطف الملك ونقله إلى باريس . غير أن هنري الثالث وجد أنه لا يستطيع الامان على نفسه إلا بالجناية . وقبل وقفة عيد الميلاد ، في ٢٣ كانون الاول ، دعا هنري غيز إلى مجلسه فقام اليه اشراف حرمه وطعنوه بخنجر ارداه قتيلًا .

وفي يوم الجنازة كتب هنري الثالث إلى مفوض البابا « أنا الملك الآن وقد صممت الا احتمال السباب والاذى والاكرام » . وفي مساء اليوم الثاني قامت ثورة باريس وتآلفت فيها حكومة ثورية من ستة عشر عضواً يمثلون احياء المدينة وعقدوا مجلساً اعلنوا فيه سقوط هنري الثالث الحائث ، القاتل ، المجدف ، المرطقي ، السيموني ، الساحر ، مبدد الخزينة العامة وعدو الوطن ، واعترفوا بالكاردينال بوربون ملكاً ، ولما كان هذا سجيناً عند هنري الثالث لذا عينوا أخ هنري غيز ، دوق ماين ، نائب المملكة العام . وانضم القسم الاعظم من المقاطعات إلى هذا القرار الذي اتخذوه (١٥٨٩) .

ولم يبق أمام هنري الثالث الا ان يتصالح مع هنري نافار ، وتم الاتفاق بينهما وأتى الملكان لحصار باريس . وفي غرة آب ١٥٨٩ تقدم راحب متعصب اسمه جاك كليان ودخل على هنري الثالث وطعنه طعنة فجلاء في بطنه كانت القاضية . واعتبر هذا الجرم ثأراً للعصبة .

وبموت هنري الثالث انطفأت امرة فالوا . وقد اعترف الملك قبيلاً وفاته بأن وارثه الشرعي هو هنري بوربون ملك نافار . واخذ الناس يتساءلون أي العاطفتين أقوى وأعلق في نفوس الفرنسيين : التعلق بالملك الشرعي أو التعلق بالديانة التقليدية ؟

هنري الرابع والعصبة . - حاول الملك الجديد ، هنري الرابع ، عبثاً بتصريح رسمي اعلن فيه عزمه على بقاء الديانة الكاثوليكية والاستئناس برأي « مجمع صالح شرعي » . وقد تخلى عنه كثير من الامراء الكاثوليك ، كما تخلى عنه نظراً لتصريحه ، وقسم من الكالفينيين . وتناقص عدد جيشه فبلغ النصف واضطر إلى رفع الحصار عن باريس .

وكان خصمه ، فيليب الثاني ، يدعم العصبة ويقدم لها الجنود والمال فأصبحت أقوى من قبل . وكانت إلى جانبها باريس ومعظم المدن الكبرى في المملكة مع البوملانات . ولكن هنري الرابع لم يكن بالرجل الذي يدخل اليأس قلبه . فقد كان يضم ، إلى صفاته الروحانية والحربية ، حساً دبلوماسياً تاماً وجرأة عسكرية ، واستطاع أن يتغلب على اكبر المصاعب بفضل قوته وصبره واعتداله ومرونته .

فكو هنري الرابع أولاً بالانسحاب نحو الجنوب حيث كانت قوى الكالفنيين الاساسية . غير أن احد ضباطه قال له : « ومن يظنكم ملك فرنسا عندما يرى إرادتكم مؤرخة في ليموت ؟ » ، وعندها انسحب إلى نورمانديا . وهذا ما جعله في متناول المساعدات الانكليزية ، وفي متناول باريس أيضاً ، لأن امتلاكها كان اسامياً بالنسبة اليه لأنها عاصمة المملكة وحسن خصومه .

ولاحقه دوق ماين إلا انه كسر في آرثك' بالقرب من ديب (ايلول ١٥٨٩) وحاول بعدها هجوماً على باريس إلا انه اخفق . وفي السنة التالية (آذار ١٥٩٠) أحرز نصراً ميبناً في ابفري ، وفي حملة شديدة خرق صفوف ماين وجعله في حالة لا يستطيع معها القتال . وهذا الظفر ساعد هنري الرابع على التقدم لمحاورة باريس . ورأى أخذ المدينة بقطع طرق المواصلات وتهديدها بالجماعة . غير أن جنوده كانوا قليلي العدد لفتحها عنوة . ودام الحصار أربعة أشهر ، ولم يكن لدى الباريسيين من المؤن مايكفيهم سوى شهر واحد فاستماتوا في الدفاع ، وهذا ماساعد دوق بارما الكسندر فارنيز على المجيء من البلاد المنخفضة مع جيش اسباني لنجدة الباريسيين ؛ الامر الذي اضطر هنري الرابع الى الانسحاب إلى نورمانديا مرة ثانية .

ولم يكن كل من الحزبين على درجة كافية من القوة ليستطيع بها سحق الآخر ، ودامت العمليات العسكرية مدة عامين . واستفاد الاسبانيون من ذلك فأقاموا في فرنسا . وبطلب من مجلس الستة عشر اقاموا حامية في باريس (١٥٩١) . وقام الكسندر فارنيز بحملة ثانية ضد هنري الرابع في نورمانديا وأجبره على رفع الحصار عن روان (١٥٩٢) ولكنه لم يستطع أن يفيد منه بشيء حاسم ، وجرح في واقعة كوديبك ومات متأثراً بجراحه . وظلت الحالة مضطربة . ومات ملك العصبة ، شارل العاشر ، كاردينال بوربون في عام (١٥٩٠) . وعمل فيليب الثاني مافي وسعه للمناداة بابنته ايزابلا ملكة ، وكانت هذه حفيدة هنري الثاني . وانقسم رجال العصبة على انفسهم أمام هذه المزاغم الأجنبية . فقد كان المنعصبون يقدمون الدين على الوطنية ، ولكن الاكثريه لم تر هذا الرأي

على ان هذه المزاغم الاسبانية كان منها ان اذكت العاطفة القومية وقسمت رجال العصبة فأفاد من ذلك هنري الرابع . وعندما انعقد مجلس المملكة العام في باريس عام ١٥٩٣ ، بناء على دعوة مايين اقيموا خلفاً لشارل العاشر ، رأى هنري الرابع ان يفيد من هذه الفرصة السانحة . وبينما كان فيليب الثاني متعنتاً في دعوته إلى انتخاب ايزابلا ولم يقبل بزواجها بامير فرنسي قبل أن تتوج ملكة ، قام هنري الرابع واعلن ، على لسان مطران بروج ، عزمه على اعتناق الكاثوليكية . وفي ٢٣ تموز ١٥٩٣ صبا علناً بين يدي مطران بروج في كنيسة سن - دوني .

وبدلت الردة كل شيء ، فقد هدمت آمال فيليب الثاني وحدثت الاضطراب في صفوف العصبة . أما فرنسا فلم تكن لتريد شيئاً أكثر من

- ٢٥٦ -

السلام ، وما كان منها الا أن رجبت بهذا الخبر السار ، واعتوف قسم كبير من المملكة بالملك هنري الرابع . وقد رأى هذا الا يستمر في القتال واشترى خضوع الباقيين بالمال ولو كلفه غالباً . فمن ذلك أن دوق بربسك حاكم باريس سلمه المدينة مقابل عصا المارشالية ومائتي ألف ليوة ، ودخل هنري الرابع باريس دون حرب .

أما فيليب الثاني فلم يحارب في فرنسا حتى الآن الا كمساعد للعصبة ، ولكنه أخذ بعد ذلك يقاتل لحسابه الخاص فأعلن هنري الرابع عليه الحرب وانقلبت الحرب الدينية إلى حرب نزاع بين البيت الفرنسي والبيت النمساوي ، ودامت هذه الحروب ثلاثة أعوام وكانت ميادينها بورغونيا حيث هاجمها الاسبانيون من فرانش - كورته ، ثم في بيسكارديا . وبالقرب من ديجون في فونتين فرانسيز در هنري الرابع حملة الاسبان المستبسلين (١٥٩٥) ، غير أن الجيش الفرنسي غلب في دوللان في بيسكارديا . ونضبت قوة الخصمين ، ولم يعد بالإمكان متابعة القتال للحصول على نصر حاسم ، ففضلا للمفاوضة وعقدوا معاهدة فيرفن (في ١٣ أيار ١٥٩٨) التي وطدت من جديد بنود معاهدة كاتو - كامبريزي .

السلام الديني وموسوم نانت: ١٣ نيسان ١٥٩٨ . - ولكن القضية الدينية ما زالت بحاجة إلى حل . وكانت تسويتها من أصعب المشاكل ، لانه كان من الصعب تهدئة الحواطر في داخل المملكة بعد أربعين عاماً في الحروب الأهلية والكراهة والقتل والدماء . وانقض الاتحاد الكاثوليكي من حول هنري الرابع ، بعد ان ارتد عن دينه ، ووقف منه موقفاً معادياً . وبعد مفاوضات شاقة دامت طويلاً توصل هنري الرابع إلى اقتناعه بقبول مرسوم نانت .

لقد اذيع المرسوم قبل صلح فيرفن بشهر أي في ١٣ نيسان ١٥٩٨ . وهو يضمن للبروتستانتين حرية الوجدان وحرية العبادة في جميع المملكة ، والمساواة المطلقة مع الكاثوليك في الوصول إلى جميع الوظائف ، وإيجاد مجالس نصفية في البرلمانات مؤلفة من قضاة نصفهم كاثوليك والنصف الآخر بروتستانت .

وتنازل هنري الرابع للبروتستانتين عن ضمانات سياسية وعسكرية . فقد ترك لهم الحق ، خلال ثمانية أشهر في احتلال مائة موقع حصين لهم ، وعقد مجالس عامة للحزب . وهذه الامتيازات ، التي لم تذكر في مرسوم نانت ، لا تخلو من الخطر لأنها كانت تساعد الكالفنيين على بقائهم حزبا منظمًا في قلب المملكة .

لقد قيل عن مرسوم نانت أنه يستحق أن يعتبر تاريخاً في تاريخ العالم لأنه دشن عهد التسامح والتساهل الديني وفي الواقع ان الرعايا في جميع الدول : في ألمانيا وانكلترة واسبانيا كانت مضطرة ، تحت طائلة النفي ، إن لم يكن تحت طائلة الموت ، ان تدين بديانة مليكها كاثوليكية كانت ام بروتستانتية . أما فرنسا فكانت الاولى التي تبنت نظام الحرية الدينية ولقد قبلت فرنسا بهذا النظام ، لا عن احترام حقيقي لحقوق الوجدان ، بل لأنها كانت مضطرة لقبوله بحكم العقل والفتنة اللذين امتاز بهما هنري الرابع . على ان مرسوم نانت ، وان كان عادلا وموفقاً في أحكامه الاساسية ، إلا انه لم يبق حسن القبول من كثير من الكاثوليك ، حتى ان هنري الرابع بذل كل ما في وسعه من رجاء وتهديد لدى البرلمانات حتى حصل على حق التسجيل لهذا المرسوم . واضطر ان يمنح الكاثوليك امتيازات ، كما هي الحال في عام ١٦٠١ عندما استدعى اليسوعيين إلى العودة إلى المملكة بعد ان طردوا منها .

حالة فرنسا بعد الحروب الدينية . - لقد قال الفقيه الحقوقي باسكيه اثر انتهاء « الحروب الدينية » : « من قام اربعين عاماً ثم استيقظ لا يرى فرنسا وانما يرى جثة فرنسا » وهذا القول غير مبالغ فيه ، لان السنوات التي قضتها فرنسا في الحرب الاهلية جعلتها خراباً واستنفدت قواها المنتجة والنشيطة .

كانت الخسائر المادية جسيمة ، لان الاعمال الحربية دمرت البلاد . ولقد قال هنري الرابع في العام ١٥٩٥ : « ان المزارع واكثر القرى خلو من السكان مخاوبة » . فقد ترك الفلاحون أعمال الزراعة والفلاحة وانصرفوا إلى السلب والنهب وطغت حركة العصيان في عدة مناطق ونهدمت الطرق والجسور والمعابر . وتعطلت الصناعة والتجارة في المدن ، وكثير المتسولون والمرضى والعجز والمقعدون وامتلأت بهم المستشفيات ، وعظم دين المملكة ، ولا تكاد الضرائب توفي الدائنين حقوقهم . ولم يبق شيء لنفقات الحكومة الضرورية .

وإلى هذه الخسائر المادية يجب أن نضيف الخسائر السياسية : « إذ لم يبق شيء من سلطة فرانسوا الاول وهنري الثاني المطلقة . وكان الحكم في الاقاليم كالملوك يقيمون الجنود ويجبون الضرائب ويحولون وظائفهم إرثاً لأولادهم ، وهذا نوع من اقطاعية جديدة . وكان أعضاء البرلمانات من رجال العصبه بسلكون تجاه الملكية مسلکاً استقلالياً معارضاً . وطردت المدن الموظفين الملكيين وجعلت تدبر امورها على يد منتخبيها . وبينما كان الناس لا يفكرون قبل خمسين عاماً ببناءوة السلطة الملكية ، ظهرت عدة كتب تقول ان الامة فوق الملك ولها الحق بقتله . حتى ان كتاباً كانوا يفاخرون بجهنابة جاك كليمان ، قاتل هنري الثالث ، ويعتبرون فعله « عملاً بطولياً والهيّياً » .

العمل التنظيمي . - ومنذ ان اقر مرسوم فانت ومعاودة فيرفن السلام في الداخل والخارج انصرف هنري الرابع الى تنظيم فرنسا وارجاع السلطة الملكية .

كان هنري الرابع في ذلك الحين في عفوان قوته ونضج عقله . وله من العمر خمس واربعون سنة . اشتهر بشجاعته ومواهبه كرجل حرب وبساطته واندفاعه وحماسه ودقة تفكيره وسرعة فهمه للرجال . ولقد قال : « كثيرون من خائوفي يجبن ولكن قليلون من خدعوتي » وما كان ليحمل الحقد على أحد ، ولا يسعه الا ان يستعمل اعداءه بالامس . اذا اعترف بمواهبهم وفكر ان باستطاعتهم ان يؤدوا اليه خدمة جيدة . جمع حوله ائاماً من مختلف الاحزاب : من الهينغوت ، مثل سولي ، ومن الكاثوليك المعتدلين ، مثل الكاردينال اوسا ، ومن رجال العصبة مثل الرئيس جانن وفيللروا .

وعرف انه يكره أعمال السلطة ، وهذا ما ساعده على القيادة والامر . فقد كان يعرف كيف يعطي إلى اوامره مظاهر الرجاء ولا يالو جهداً في شكر من بطيعه . ولكنه كان يولي ارادته ويريد أن يكون مطاعاً مهاباً .

ارجاع السلطة الملكية . - لقد سلك هنري الرابع في سياسته مسلكاً رشيداً دون ان يترك مجالاً للحوادث مُفاجئة . وكان يقدق الكلام الطيب والوعود دون أن يتمسك بشيء ، واستطاع على هذا النحو أن يسترجع جميع الامتيازات الممنوحة سابقاً ويوطد سلطته المطلقة في جميع المملكة .

أما مجلس المملكة العام الذي اجتمع عدة مرات أثناء الحروب الدينية ووعده هنري الرابع بانعقاده فلم يدع ابدأ . واكتفى امراء

الدم بوظائف البلاط بعد ان اقصوا عن مجلس الملك الذي ينظر بشؤون الحكم . وذكر الملك احكام الاقاليم بان وظائفهم عسكرية وعليهم ألا يحشروا انفسهم في القضايا المالية أو العدلية ، ولم يعلق أي أهمية على حريات المدن بل قيدها حسب هواه .

وهناك مثال يدل كبار المملكة على ان زمن الفوضى والاضطراب قد مضى : فمن ذلك ان المارشال بيرون ، حاكم بورغونيا ورفيق هنري الرابع في الحرب ، استهواه الطموح فتآمر اولاً مع دوق سافوا ثم مع ملك اسبانيا . فسأحه الملك في المرة الاولى . واشتروط عليه في المرة الثانية الاعتراف بكل شيء ، غير أن بيرون انكر فعكس عليه بالموت واعدم (١٦٠٢) .

سولي . - وكان اكبر مساعد للملك هنري الرابع في عمله التنظيمي ماكسميليان دوبيتون ، وقد سماه الملك دوق سولي ، وكان رفيق الملك منذ صباه ثم أصبح أخلص أصدقائه . وكان سولي رجل حرب إلا أنه كان في الوقت ذاته رجلاً عملياً ، وعنده ما يكفي من الحس العملي وتفهم القضايا . وكانت الحروب الدينية فرصة سانحة له تتحوله القيام بكثير من العمليات المفيدة . وكان هنري الرابع بحاجة إلى المال ومعجباً برفيقه وببتيديره وحسن تصرفه بالامور فعهد اليه في عام ١٥٩٨ بإدارة المالية مع لقب مفوض .

ثم تقلب سولي في المناصب بين كبير مصلحة الطرق في فرنسا ومفوض أعلى للحصون والانشاءات وسيد المدفعية ، وهذا ما جعل سولي وزيراً للمالية والاشغال العامة والحربية .

المالية . - كان سولي ادارياً ثرياً ومقتصداً شديداً ، وقد استطاع بما اوتيته من حسن ادارة ان يوطد النظام في المالية . فقد أغلق صندوقه

في وجه المستجدين والملك نفسه عندما يرى أن مصاريفه لا مبرر لها أو مبالغ فيها . وطلب أن تكون الحسابات مقيدة بدقة ، كما منع الموظفين من كل ورقة مالية ودب في قلوبهم الرعب وحال دوت ارتكاب جريمة من هذا النوع . ولم يتردد في الالتجاء إلى الطرق المعتادة في جباية الاموال والبحث عن موارد جديدة مثل الرمم السنوي ، الذي فرض على موظفي العدلية والمالية مقابل تحويلهم نقل وظائفهم إلى ورثتهم . وهذا اعتراف صريح منه بوراثة الوظائف . وعهد بجباية الرمم السنوي إلى جاب يدعى بوليه ، وسميت هذه الضريبة باسمه ضريبة البوليت ودامت حتى الثورة الفرنسية .

الزراعة . - اهتم هنري الرابع بالفلاحين ، وربما كان اهتمامه في هذه الناحية يرجع إلى أنه عاش بين ظهرانيهم في ييارن ، ولكن الهم من ذلك يرجع إلى أنه كان يعتبهم القوة الأساسية في الدولة لأنهم يطعمونها ويمدونها بالجنود . وكان سولي يشاركه هذا الرأي ، ولقد قال « الرعي والفلاحة ثديان يغذيان فرنسا ، وهما مناجم يبرو وكنوزها ، ولذا اتخذ عدة تدابير لصالح الفلاحين . فقد خففت عنهم التكاليف ، واجل دفعهم للضرائب ، وخففت ضريبة الثاي ، وحرر على عمال الجباية مصادرة الحيوانات والادوات الزراعية لعدم دفع الضريبة ، وعلى النبلاء الصيد في حقول الحنطة والكروم ، وضرب على ايدي رجال السلب والنهب وقطاع الطرق .

وفي الوقت ذاته حاول الملك ابعاد النبلاء عن البلاط واعادتهم إلى حياة الحقول ، لانه لم يشأ أن يكونوا عاطلين عن العمل يصرفون الاموال في اللبئخ والتلف . وسعى أن تكون حياة الريف موزة عصرية . وقد

الف المهندس الزراعي اوليفيه دومربناء على طلبه كتابه « مسرح الزراعة والعناية بالحقول » ، عام ١٦٠٠ وكان يقرأ عليه كل يوم قسماً منه .

الصناعة . - وأراد هنري الرابع أن يجعل من فرنسا أيضاً بلداً صناعياً . فحاول أن ينشط الصناعات القديمة ، التي وقعت في حالة انحطاط ، مثل صناعة الاجواخ والاقمشة ، ولكنه اهتم خاصة بصناعات الزينة . وكانت يصفى إلى نصائح لافيا وهو رجل أعمال تعلق بالدار الملكية وعينه الملك عام ١٦٠٢ مراقباً عاماً للتجارة . واسس معامل للسجاد والزجاج والبلور والجلود المذهبة والأقمشة الناعمة وامدها بالمال والجوائز ونشط صناعة الحرائر التي كان لها منذ القديم أهمية كبرى في ليون وتور . واتخذت عدة تدابير لادخال اغراس التوت في فرنسا لتربية دود القز . ولكن هذا العمل كان مؤقتاً ، ولما مات هنري الرابع زالت معظم صناعات الزينة .

التجارة والاستعمار . - واتخذ سولمي عدة تدابير لتفيد التجارة الداخلية : عبد الطرق وبنى الجسور والمعابر وشرع بحفر قناة برمار التي أريد منها وصل نهر السين باللور عن طريق نهر اللوانغ . ولكن الملك كان أكثر جرأة من وزيره ، ولذا كان يرغب أن تهتم فرنسا بالتجارة البحرية أيضاً ، وأن يكون لها مستعمرات كاسبانيا والبرتغال . فعقد معاهدات تجارية مع انكلترة وتركيا وتشجع على تشكيل شركة تجارة الهند (١٦٠٣) واستأنف محاولات استعمارية جديدة في امريكا الشمالية وخاصة في كندا .

صعد قبطان البحرية الملكية صاموئيل شامبلان نهر سن لورانس واكتشف جنباته حتى البحيرات الكبرى ، وبنى حصناً ومخزناً على هضبة صغيرة تشرف على النهر وعلى مضيقه عند مصبه . وقد سمي هذا المسكن

الذي بني كيببوك (١٦٠٨) ، ويعني ذلك باللغة الهندية لأهل البلاد « الضيق » . وكانت هذه الاعمال بداية الاستعمار الفرنسي المتواضع في كندا . كانت هذه البلاد مغطاة بالغابات وبالمراعي تترادها الجواميس ، وتخترقها الانهار الغزيرة المياه الغنية بكلاب البحر التي يبحث عنها لفرائها ولكن لا يوجد فيها مناجم ذهب أو فضة . ولذا لم تستهوى كندا سوى الصيادين وتجار الفراء والمبشرين .

السياسة الخارجية . - لقد سلك هنري الرابع بعد معاهدة فيرفن سياسة سلمية رشيدة رائدها المصلحة القومية . ولكنه كان يهتم أيضاً برفع اسم فرنسا عالياً في الخارج ، ففي عام ١٦٠٠ حصل نزاع بينه وبين دوق سافوا أدى إلى حرب قصيرة كانت منها ضم بريس وبوجيه إلى فرنسا .

واكتفى هنري الرابع بدعم الأقاليم المتحدة السبعة في البلاد المنخفضة والأمراء البروتستانتين ضد آل هابسبورغ في اسبانيا والنمسا . إلا أن الامبراطور صادر ارث آل كليفي في المنطقة الينانية عام ١٦٠٩ ، فاحتج هنري الرابع بجمرة واشتد الخلاف حتى ان حرباً عامة بدت محتملة الوقوع في فاتحة العام ١٦١٠ . وذكر سولمي ان الغاية من هذه الحرب تحقيق المشروع الاكبر الذي يرمي إلى تهديم البيت النمساوي وطرح الاتراك في آسيا ، وإلى تعديل عام في الدول لتأسيس دول متحدة حقيقية في اوروبا ، غير ان هذا المشروع الكبير لم يوجد إلا في خيال سولمي وحده ، ولم تجر أي مفاوضة لتحقيقه ، وكل مايمكن قوله في هذا الصدد هو أن هنري الرابع يعتبر النضال ضد اسبانيا والنمسا ضرورة قومية ، ولكنه يدرك الاخطار التي تتأتى عنه ، وتردد بالقيام في الحرب ، ولم يقرر ذلك عام ١٦١٠ إلا استجابة منه لداعي الهوى .

ورفضت انكلترا وهولنده الاشتراك مع فرنسا . وقد قال ريشليو عن هذا المشروع انه « مجرد مخاطرة وتهور » .

مقتل هنري الرابع . - وبالرغم من هذه الاعمال ، التي قام بها هنري الرابع ، فلم تهدأ حمى العصبية لأن العصبيين لا يغفرون للملك أنه كان هيغنونياً وتسامع مع الهيغنون في المملكة . وزاد مياجهم عندما علموا أن هنري الرابع تحالف مع البروتستانتين في المانيا وهياً الحرب ضد الدولتين الكاثوليكيين : اسبانيا والنمسا . ومرت اشاعة في الاوساط الشعبية مؤداها ان الملك يريد محاربة البابا .

وملأت هذه الاشاعات فكر متوس من آنغوليم يدعى رافياك ، فأتى إلى باريس ، وفي الطريق مرق مدية من أحد الفنادق . وفي يوم الجمعة الموافق ١٤ أيار خرج الملك في الساعة الرابعة بعد الظهر في عجلته لزيارة سوللي . وفي الطريق اعترضت سبيله عربة تحمل ثبناً فوقفت عجلته الملك أمام دكان نحاس . وكان رافياك يلاحقه فاقترب منه وطعنه بالمدينة طعنتين نجلادين اصابتا منه القلب . وتمم الملك « لاشيه » ، غير ان الدم ملأ فاه فسقط قتيلاً . وكان لموته أثر بالغ في المملكة . ونسيه الشعب الحرب ولكنه لم ينس حسنات هذه الاثني عشرة سنة في حكم هنري الرابع بعد أن نعم فيها بالسلام والنظام والتهوض بعد طول الاعياء .

الملكيات الاوربية المعائلة الملكية الفرنسية . - لقد كانت في أوربة بعض الملكييات التي تشبه الملكية الفرنسية في ظروفها وفي شكل حكمها . فن هذه الملكييات اسبانيا في عهد شارلكان (١٥١٦ - ١٥٥٥) وفيليب الثاني (١٥٥٥ - ١٥٩٨) ، وعدة دول ايطالية كدولة نابولي للتابعة لاسبانيا ، ودولة الليمونت - سافوا ، وكثير من الامارات

الامانية ، في الامبراطورية المقدسة ، التي تطورت عن طريق تجديد الجيش والارمالية والحقوق الرومانية إلى دول ملكية مطلقة وبوروقراطية (ديوانية) مستقلة في الواقع ، بالرغم من جهود شارلوكا لتوحيد الامبراطورية والسير بها قدماً نحو المركزية .

الملكية الاسبانية

الملكية الاسبانية . - كانت اسبانيا تؤلف جزءاً هاماً من امبراطورية شارلوكا الكبيرى ، غير أن هذا الامبراطور ولد في البلاد المنخفضة ولم يتعلم الاسبانية إلا في وقت متأخر . ولما كان يقيم في شبه الجزيرة الايبورية ، بل انه خول حكم اسبانيا إلى ابنه فيليب . وعندما تنازل عن العرش في العام ١٥٥٦ ، أخذ فيليب ، بعد أن أصبح ملكاً باسم فيليب الثاني ، عدا اسبانيا وامبراطوريتها الاستعمارية ، البلاد المنخفضة والفرانش - كوتته وميلانيا ونابولي . وهذه الممتلكات وان كانت أقل امتداداً من ممتلكات شارلوكا ، إلا أنها كانت على الأقل واسعة مترامية . ولكن فيليب الثاني على نقيض والده كان قبل كل شيء ملكاً اسبانياً .

فيليب الثاني . - ولد فيليب الثاني عام ١٥٢٧ ، وعندما أصبح ملكاً كان عمره ٢٩ سنة . كان تقياً عميق الايمان ، جعل همه الدفاع عن الكاثوليكية ولم يميز بينها وبين المصالح الاسبانية ، بل جعلها شيئاً واحداً . وكان أبوه الامبراطور شارلوكا محبوب أوربه باستمرار ، أما هو فعلى العكس كان ملكاً بوروقراطياً ، يريد أن يتم بكل صغيرة وكبيرة وبحكم العالم دون أن يغادر مكتبه وقصره .

كان كثير التردد ، عظيم الجثة ، قامى الملامح ، زاهداً بالحياة حتى لقب بـ « الملك الراهب » ، يكره أبهة البلاطات ، ومع ذلك فقد

- ٢٦٦ -

ظلت الحياة فيها عظيمة في ظل حكمه . وكان يبتعد عن المقامات الملكية القديمة ، مثل طليطة وبلد الوليد (فالادوليد) وفي أسفل القصر ، الذي أمر فيه الملك فرانسوا الأول ، بعد واقعة بافيا ، بنى عاصمته الجديدة ، مدريد ، وسط سهب منعزل في قشتالة الجديدة . وليس لهذا المرفع من فائدة سوى أنه يقع في وسط اسبانيا تقريباً .

وقلما كان فيليب الثاني يقيم في مدريد ، بل انه وجد على ٦٠ كيلو متراً منها في الاسكوربال ، إطاراً لحياهه . فعلى هذا الموقع الصخري المقفر في أسفل سلسلة جبال وادي الرملة ، وعلى ارتفاع ١٠٠٠ م أمر في العام ١٥٦٣ ببناء قصر ديري عظيم واهداه إلى القديس لوران وجعل بناه على شكل المشواة ، أداة شهادة هذا القديس ، وأسكن فيه الرهبان ، ونقل إليه نوابيت أعضاء امرته ، ثم أقام فيه ولبس السواد ، وجعل يقرأ كل يوم كتاب الصلوات ، ويحضر القداسات الرهبانية التي تقام في كنيسة القصر .

حكومة فيليب الثاني . - كان فيليب الثاني ملكاً « كاثوليكياً » وملكاً « بوروقراطياً » ، يتطلع إلى الحكم المطلق . وكانت الحريات والمجالس « كورتيز » موجودة في مختلف الممالك ، التي تتألف منها اسبانيا ، مثل قشتاله واراغونه وفالنس وغيرها ، وفي الممتلكات الخارجية ، وخاصة في البلاد المنخفضة . وقد حاول فيليب الثاني أن يجد من الحريات المحلية وألا يعقد المجالس . غير أنه كان يريد أن يدرس كل شيء ، ويقرر بنفسه كل شيء ، وكانت المجالس تساعد في عمله ، ولكنه في الواقع كان يحكم بمفرده مع عدد صغير من مقربه .

لقد وقف فيليب الثاني نفسه لخدمة الايمان الكاثوليكي ، فمن ذلك

أن محاكم التفتيش كانت تتابع المراقبة البروتستانتية وتحاكمهم وتنفذ الحكم فيهم علناً في الساحات العامة ، وأحياناً بحضرة فيليب الثاني . ودامت الاضطهادات عشر سنوات ، وما فتئت تعمل عملها ، حتى لم يبق بروتستانتي واحد في اسبانيا . أما العرب المدجنون ، الذين بقوا في اسبانيا بعد استرداد الفتح الاسباني واجلاء العرب عنها ، فكان عددهم يقارب ٥٠٠٠٠٠ نسمة ، وقد ارتدوا عن دينهم ظاهراً ورسماً ، وكانت كثرتهم فلاحين وصناعاً ممتازين ويشيرون حقد السكان عليهم ، حتى ان فيليب الثاني كان يشك في حقيقة اعتناقهم الكاثوليكية ، بعد أن اجبروا عليه بالقوة ، فاضطهدهم وبعثر قوامهم . وفي العام ١٦٠٩ اجلاهم عن اسبانيا وخلق بالبلاد اضراراً وخسائر فادحة بسبب نقص الأيدي العاملة الماهرة ، ولكن فيليب الثاني توصل بهذه السياسة إلى ما يريد وهو تحقيق الوحدة الدينية .

الحالة المالية والاقتصادية . - ولم تكن الحالة المالية في المملكة على درجة من الأهمية التي بلغها الحكم المطلق . وبما لا شك فيه أن اسبانيا كانت دولة قوية وتعتقد بأنها دولة غنية ، لأن السفن كانت تأتيها من أمريكا بذهب بيرو وفضتها ، وتنزل محمولها على أرصفة قادس وأشبيلية ، ولكن البلاط والادارة والجيش والتجديدات (الحملات) الخارجية كانت تكلف الدولة غالباً ، فضلاً عن أن نفقات الدولة كانت بازدياد مستمر ، ولتدارك الوضع ائقل فيليب الثاني ايطاليا والبلاد المنخفضة بالضرائب .

أما اسبانيا نفسها فكانت فقيرة الموارد . فهي تتألف من كتل جبلية صخرية وهضاب سهبية ، ومناخها جاف شديد ، وسهولها الزراعية نادرة وموجودة في أطراف شبه الجزيرة ، والنشاط الأسامي فيها يقوم على تربية الحيوانات ، التي تعتمد على الانتجاع ، وتشرف على تنظيمها شركة قوية

من المربين وتدعى « هِسْتَا » . وخراف « المرز » تجعل اسبانيا أشهر البلاد الاوربية المنتجة لهذا النوع من الصوف . وكانت في اسبانيا عدة صناعات ، وأهمها صناعة الحرير والصوف ، ولكنها آخذة بالافول .

وظلت التجارة التقليدية في الاسواق الكبرى نشيطة ، وخاصة التجارة الخارجية ، تجارة « الهند » التي تجعل الحياة صاخبة في الموانئ الاسبانية ، ويبقى في الدرجة الاولى منها ميناء اسبيلية .

المجتمع . - كان المجتمع الاسباني يفيد القليل من موارد البلاد ، قليل النشاط ، فقيراً . وكان الشعب قاسياً ، نبيلاً ، كريماً ، ولكنه شعب متغطر متكبر أيضاً . فقد كانت ١٥ أسرة من « كبار » اسبانيا تضم شعباً من ابناء الاشراف (هيدالغوس) . وفي بعض الاقاليم كان الناس كلهم هيدالغوس ويريدون أن يحيا حياة النبلاء .

وكان سكان اسبانيا قليلي العدد ، وتناقص عددهم في آخر القرن . فقد كان يقدر آنذاك بسبعة ملايين . وهذا ما يفسر لنا بؤس الشعب وشقاءه . وكان الهيدالغوس العاطلين عن العمل يتجولون شاغي الأنوف ، وبكل كبرياء ، وهم يلبسون أرديتهم الملهلة المرقعة ومعداتهم خاوية جائعة . ومن الممكن أن يعزى نقص السكان إلى كثرة الهجرة إلى « الهند » .

وهكذا كانت الملكية الاسبانية في ذروة قوتها ، ولكن اسبانيا كانت تلهث وتزداد فقراً يوماً بعد يوم ، وكانت مضطرة أن تشتري كل شيء من الخارج لتعيش وتؤمن حياتها . حقاً لقد كان ذهب بيرو وفضتها يحطان الرحال في اسبانيا ويغنيان فيها الومم بالغنى ، ولكنها ، في الواقع ،

كانا يمران من اسبانيا مرور الكرام ليذهبا منها إلى أوربة ويغذيا أصحاب حقول الحنطة الواسعة وأصحاب المشاغل (الورشات) العديدة .

السياسة الخارجية . - ان النشاط الطموح العظيم ، الذي كان عليه فيليب الثاني ، نصره نصراً عظيماً وكان سبباً في اخفاقه اخفاقاً ذريعاً ويبدو ذلك فيما يلي :

كفاح المسلمين والسيطرة على البحر المتوسط . - لقد لاقى فيليب الثاني في كفاح المسلمين والسيطرة على المتوسط اكبر نجاح له . ففي اسبانيا وجزر الباليار واطاليا ، التي يحكمها ، جعل من غربي البحر المتوسط بحراً اسبانياً تقريباً . فقد كان مقبلاً في ميلانو وثابولي وصقلية ، وله حاميات على شواطئ طوسكانا ويمارس نفوذه واشرافه على شبه جزيرة ايطاليا كلها ، إلا أن جمهورية البندقية تخلصت من نفوذه . على أن البندقية وان ظلت ميناء كبيراً وموطناً لحضارة أصيلة مشرقة ، فقد أقل نجمها ، وأصبحت سيطرتها على شرقي البحر المتوسط ضعيفة ومهددة بعد أن استقر الأتراك العثمانيون على شواطئه .

بسط فيليب الثاني ساحة عمله إلى هذا الجزء من المتوسط ، وكان يريد في آن واحد أن يكافح الأتراك العثمانيين ويطهر المتوسط من « قرصان البربر » ، الذين كانوا ينطلقون من شواطئ افريقية الشمالية ويضايقون المواصلات حتى الشواطئ الاسبانية . وشن الملك فيليب الثاني « حرباً صليبية ، حقيقية » ، كفاح الصليب للهِلال ، وأعد لذلك اسطولاً كبيراً مؤلفاً من ٢٠٠ سفينة حربية اسبانية وبندقية وجنوبية ، وأحرز نصراً مبنياً على الاسطول التركي في ليبانت عام ١٥٧١ . وفي الواقع كان هذا النصر دون غد ، إلا أن اسبانيا ظلت ، على الأقل ، مهيمنة

على المتوسط ، فضلاً عن انها كانت تملك قواعد في افريقيا الشمالية ، في وهران وفي تونس ، التي أخذها شارلكان في عالم ١٥٣٥ .

ضم البرتغال . - لقد توفي ملك البرتغال دوم هنري عام ١٥٨٠ دون وارث . وهذه الوفاة جعلت فيليب الثاني ملك البرتغال . وهذا انضم وحسد الامبراطورية الاستعمارية البرتغالية والامبراطورية الاسبانية الواسعة لمدة ستين عاماً وجعل اسبانيا مهيمنة على العالم .

وأراد فيليب الثاني أن يمتد بنفوذه في البلاد المسيحية كلها ، ويسحق الإصلاح البروتستانتي ، وينصر الكاثوليكية المتجددة بعمل مجمع ترانت غير انه كان طموحاً جداً ، وفي الغالب فظاً ، فطاش سهمه وخاب ظنه ، ولم يتوصل إلى ما أراد .

ثورة البلاد المنخفضة . - لقد كانت د البلاد المنخفضة الاسبانية جزءاً من الارث البورغوني وتضم البلاد التي تؤلف اليوم البلاد المنخفضة وبلجيكا واللوكسمبورغ وشمال فرنسا . وهي تتألف من عدد عظيم من الامارات والمدن متجمعة في ١٧ اقليماً . وقد كونت الادارة البورغونية ثم الاسبانية وحدة هذه البلاد ، إلا أنها كانت متعلقة بحريتها شديدة الحرص على أعرافها .

كانت البلاد المنخفضة غنية أهلة بالسكان ، تفيض بالنشاط ، وكانت منذ العصر الوسيط مركزاً من أهم المراكز الاقتصادية الكبرى في أوربه وتشتهر بالزراعة وخاصة بصناعة الصوف الفخمة التي تنتج الأقمشة الصوفية وتشتهر بها بلاد الفلاندر .

ومنذ الاكتشافات الكبرى أصبحت انفرس اكبر ميناء بل اكبر سوق تجارية في العالم .

هذا بالإضافة إلى أن الامبراطور شارلكان ولد في مدينة غاند ، ولذا كان يداري البلاد المنخفضة ويحترم حريتها ، ولم يول فيها اسبانياً أمر القيادة ، ودحر فيها « المرطقة اللوثرية » تدريجياً ودون شدة .

أما فيليب الثاني ، على العكس ، كان اسبانياً قحاً . فقد امتد بحكمه المطلق إلى البلاد المنخفضة وحكمها بأسبانيين وإيطاليين أو بفرانكوني وهو الكاردينال غرانفيل ، فأثار من حوله الامراء والمدن . وقاوم تقدم الكالفنية بالاضطهاد الشديد . وعرفت هذه الثورة التي قامت عليه باسم « ثورة المعوزين » وكانت ثورة مزدوجة : قومية ودينية معاً .

وأقام فيليب الثاني في البلاد المنخفضة نظاماً ارهايياً : ارسل في عام ١٥٦٧ دوق الب إلى بروكسيل ، وأقام « محكمة الشغب » التي يوجهها الاسبانيون ، واكثر من الأحكام بالموت ، وأوقف أميرين كبيرين وهما الكونتان ايغمونت وهورنز وأعدمها في ساحة بروكسيل الكبرى عام ١٥٦٨ ، كما أعدم ٨٠٠٠ شخص من ١٥٦٧ إلى ١٥٧٢ . ولكن هذه الفظائع ، التي قام بها دوق الب ، أفقدته اعتباره ، فاستدعي إلى اسبانيا في ١٥٧٣ . وفي العام ١٥٧٩ أبرم جنوب البلاد المنخفضة الصلح في غاند وبقي في اكنويته كاثوليكياً أما شمال البلاد فقد تابّع ثورته بدافع من غليوم اورانج الملقب بـ « غليوم الساكت » أو « قليل الكلام » . وقد سمي « شتاهولدر » أي حاكم أقاليم هولنده وزبلانده .

وفي السنة ، التي تم فيها صلح غاند ، جرى « اتحاد اوترخت » ، وبوجهه الفت الاقاليم السبعة في الشمال ، وأهمها هولنده ، جمهورية « الأقاليم المتحدة » ، وترأسها « مجلس الدولة العام » ، وأعلن في ١٥٨١ سقوط فيليب الثاني . وتلا ذلك حرب حامية الوطيس . وكان قائد الجيش الكاثوليكي الاسباني الجنرال الكسندر فارنيز ، وقد أحرز بعض

النجاح . ورأى غليوم اورانج أن الحرب غير متكافئة فتأسك ، ولكنه قتل في العام ١٥٨٤ في دلفت من قبل أحد رسل فيليب الثاني . وفي العام ١٥٨٥ حاصر جيش فارنيز انفرس ونهبها ، ودافعت الاقاليم المتحدة دفاعاً مجيداً حتى اضطرت اسبانيا عام ١٦٠٩ إلى توقيع هدنة الاثني عشر عاماً . ولم تستأنف الحرب بنشاط وأضاعت اسبانيا شمال البلاد المنخفضة بصورة نهائية .

وقد أثرت الاقاليم المتحدة من الصيد والتجارة وستصبح في القرن السابع عشر أول دولة بحرية وتجارية في العالم . بيد ان انقسام البلاد المنخفضة أصبح أمراً واقعاً ، وظل الجنوب ، وهو بلجيكا الحالية ، كاثوليكياً واسبانياً ، وغدا الشمال جمهورية تجارية كالفنية .

التدخل في انكلترا . - كان هذا التدخل شؤماً على فيليب الثاني . فعندما توفيت الملكة ماريا تير دور عام ١٥٥٨ ، استلمت الملكة اليزابت زمام الاصلاح الذي بدأ به أبوها هنري الثامن ، ومن بعده أدوار السادس . ففكر فيليب الثاني أن يقوم بحملة لازاحة الملكة عن العرش ليقم مكانها في لندن ملكة ايكوسيا (سكوتلانده) الكاثوليكية ، ماريا ستيوارت .

ومن جهة ثانية تقدمت التجارة والأسطول الانكليزيان واخذتا ينافسان اسبانيا في المحيط الأطلسي ، حتى ان محاولات هجوم انكليزية جرت في الشواطئ الاسبانية . ودعا نبأ اعدام ماريا ستيوارت عام ١٥٨٧ فيليب الثاني إلى القيام بحملة ضد انكلترا وحشد لهذه الحملة اسطولاً عظيماً في مصب نهر التاج تجاه لشبونة ، وكان يضم ١٣٠ سفينة تحمل ما ينوف على ٣٠٠٠٠ رجل . وقد أطلق على هذا الاسطول اسم « ارمادا » الذي لا يقهر ، غير ان القيادة كانت سيئة ، وضاعفتها العاصفة . ودمر الاسطول

الاسباني في بحر الشمال على يد الرياح والانكليز والهولنديين ولم ينج منه سوى خمسين سفينة استطاعت العودة إلى اسبانيا بعد الهزيمة . ولم يعد بالامكان مهاجمة انكلترا ، وأصبحت اليزابت أقوى منها في أي وقت مضى .

التدخل في فرنسا . - وتدخل فيليب الثاني في فرنسا ليدعم العصبة وبشير اللانقل لاضعاف الملكية المنافسة . فقد تحالف مع العصبيين في العام ١٥٨٤ وأمدم بالمال ، وبعد مقتل هنري الثالث ١٥٨٩ ، بالجيش فقد أرسل من البلاد المنخفضة جيش فارنيز لحماية باريس ضد هنري الرابع ، حتى أن فيليب الثاني أراد أن يخرق القانون السالي ، الذي يمنع النساء من الحكم في البلاد ويضع في العام ١٥٩٣ على عرش فرنسا ابنته ايزابيلا من اليزابت فالوا وحفيدة هنري الثاني . غير أن يفضلة العاطفة الوطنية وصبء هنري الرابع قوضا هذا المخطط . وبعد بضع سنين من الحرب مع ملك اسبانيا باخفاق جديد ، واضطر في معاهدة فيرفن عام ١٥٩٨ إلى الاعتراف بهنري الرابع ملكاً على فرنسا ومعاودة توطيد بنود معاهدة كاتو - كامبريزي

وبالرغم من ان اسبانيا كانت في عهد فيليب الثاني اقوى منها في أي عهد آخر ، فان امارات الأفل بدأت تظهر عليها ، لأن فيليب الثاني قدر قوى اسبانيا بأكثر مما كانت عليه في الحقيقة . وعندما توفي عام ١٥٩٨ خلف وراءه بلداً مجيداً ومهاباً من كل أوربه ، وغادره إلى الدار الآخرة وهو واثق بثروة امبراطوريته وقوة جيشه . ولكن الواقع كان يكذب هذه الأوهام ، لأن اسبانيا كانت مدينة تشكو الفقر والضعف وقلة السكان بسبب المجهودات التي فرضت عليها باستمرار دوت هدنة أو فترة استجمام .

غصن النضبة (١٨)

الحضارة الاسبانية في « العصر الذهبي » . - لقد كانت اسبانيا في عهد النهضة موطناً حياً من مواطن التجديد الديني والاصلاح الكاثوليكي . فقد وجد فيها صوفيان عظيمان من صوفي المسيحية يعيشان في قشتالة القائظة بحرارة الشمس ، وكانت روحها تحرق اسيرة بحب الله وهما : القديسة تريزا آفيللا ، وكانت صوفية وامرأة عمل في آن واحد ، ومصلحة لطريقة الكرملين ؛ والقديس يوحنا الصليبي وكان قديساً كبيراً وشاهراً عظيماً .

الازدهار الأدبي . - لقد كان المسرح من أعظم الأشكال الأدبية وأنشطها في اسبانيا . فقد كتب لوب دوفينا (١٥٦٢ - ١٦٣٥) أكثر من مائة ملهاة (كوميديا) أصيلة . وكان غيلهم دو كاسترو في « طفولات السيد » عام ١٥٥٩ نموذجاً ملهماً لغيره وخاصة للشاعر الفرنسي كورنيي . ولقد تأثر المسرح الفرنسي في القرن السابع عشر بالمسرح الاسباني .

وتصف لنا « رواية المغامرة » ، بواقعية ، اسبانيا المتكبرة والبالسة وهالة الهيدالغوس المتشردين والجائعين .

ولكن الادب الاسباني بكامله يسيطر عليه وجه سرفانتس العظيم (١٥٤٧ - ١٦١٦) . فقد قضى حياة مغامرة قاده من ليانتي ، حيث فقد يده ، إلى الجزائر ، حيث أخذه البربر وأمره خمس سنوات قبل أن يعود إلى اسبانيا ويعرف فيها السجن كان خصب القرية ، وكتب كثيراً . ومن روائعه الخالدة « الهيدالغو الاريب دون كيشوت المانش » ، فقد كتبها من ١٦٠١ إلى ١٦١٥ ، وفيها يسخر من رواج روايات الفروسية ، ولا يخاف ذلك من بعض العطف على الحياة الغريبة التي يحيها الهيدالغوس القشتاليون .

- ٢٧٥ -

الفن . - لقد كان لفن البناء والتزيين البرتغالي مكانة خاصة في اسبانيا . وهذا النوع من الفن ذو أسلوب تركيبي وتزيين مثلث للغاية ، وفيه يمتزج فن الباروك باصداء الفن الهندي وبأشكال مستوحاة من نباتات البرازيل المدارية .

ولقد أثر فن الباروك الايطالي ، فن الاصلاح الكاثوليكي ، على البناء الاسباني ذي الاسلوب الغني بالتزيين . وكان المهندس المعمار العظيم في اسبانيا هيريرا الذي بنى الاسكوريال . وهذا القصر الواسع قاس في ملامحه ، منسجم مع اطاره الطبيعي ومع وجهه الملك الذي أمر ببنائه . ومثله قصر طليطلة الذي أصبح اليوم أطلالا . فهو يشرف بكتلته العظيمة الرمادية على المدينة المتراصة فوق نهر التاج .

وقد وصف المصور الكريتي لوغويكو بحمق اسبانيا في القرن السادس عشر . فقد أقام في البندقية ونفذ فيها إلى قلبه ثم استقر في طيطلة . وكان عبقرية مدهشة مضطربة اشتهر بتطويل (سلب) الاشكال والوجوه واستطاع أن يجسد الصوفية والحاسة الشديدة في قشتالة « العصر الذهبي » .

نموذج الملكية المعتدلة

انكلترا في عهد الأسرة النوردورية

١٤٨٥ - ١٦٠٣

كانت انكلترا منذ منتصف القرن الخامس عشر دولة صغيرة نجيحة . ولم تكن لتضم سوى جنوب بريطانيا العظمى ووسطها وشرقها مع بلاد الغال (ويلز) . ولم تكن ايرلنده مرتبطة بها برباط وثيق . وسكانها

قلائل ، وثرواتها طبيعية وأهمها الصوف . ولم يكن لها سوى تأثير بسيط نظراً لموقعها الجغرافي ، خارج أوربه ، بعيدة عن طرق المواصلات الكبرى ، وعن أسواق الغرب الهامة ، ولم يظهر دورها الهام بعد في الناحية السياسية والاقتصادية . وبينما كانت الدول الأوروبية الأخرى تشغل مكانة ممتازة في القارة ، لم تكن انكلترا على شيء يسمع بالاعتقاد في ذلك الحين ، بأن سيكون لها شأن كبير في أوربه ، ولا شيء يدعو إلى التنبؤ باحتياطي الفحم والسيطرة على البحار . ومع هذا فأتى التطور الداخلي يسمع بالقول بأن انكلترة وفرنسا كانتا على شيء مما نسميه اليوم بالعاطفة القومية . فقد نشأ هذا الشعور في حرب المائة عام (١٣٣٧ - ١٤٥٣) بين البلدين . ففى آخر الحرب أضاعت انكلترا ممتلكاتها القارية ولم يبق لها سوى ميناء كاليه وتحجرت من كل رابطة نورماندية أو أنجفية (بالنسبة إلى مقاطعة آنجو) أو أكتينية ، كما تخلصت من كل عبء فرنسي .

ولكن انكلترا لم تكد تلتقي من حرب المائة عام الا ووقعت في حرب تسمى حرب الوردتين (١٤٥٥ - ١٤٨٥) نسبة إلى الوردة الحمراء التي كانت شعاراً لبيت لنكاستر ، والوردة البيضاء شعار بيت يورك ، اللذين كانا من امرة بلانتاجونه . وبلغت الفظاعة البشرية في هذه الحرب درجة قصوى ، ولم تكن حرباً شعبية لأن الطبقات الشعبية لم تشترك فيها ، بل ان النبلاء وحدهم كانوا يتقاتلون فيها معاً . وأخيراً فاز بالعرش آل يورك سنة ١٤٧١ . غير ان حكمهم كان قصير الأمد ، وذلك لأن موت الملك ادوارد الرابع أحدث أزمة جديدة . فقد ترك طفلين صغيرين عهد بهما إلى أخيه ريتشارد ، ولكن هذا طمع في الملك وأخذ الطفلين وسجنهما في برج لندن ، وليزيد في اطمئنانه أوعز بقتلها .

إلا أن هذه الجريمة جعلته بغيضاً في عين الشعب . وصح أن بقي أمير تتصل قرباه بآل لنكاستر وهو هنري تيودور ، وكان لاجئاً في بلاط فرنسا ، واستطاع بما أمده آل بوجو في فرنسا من مال أن يجهز جيشاً صغيراً ويعمل به على انكلترا ، فالتف حوله المستأوون من حكم ريتشارد الثالث . وجرت بينه وبين هذا الأخير واقعة في بوزورث (١٤٨٥) وفيها قتل ريتشارد وأصبح هنري ملكاً بامم هنري السابع ، وأسس أمرة حكمت انكلترا خلال القرن السادس عشر (١٤٨٥ - ١٦٠٣) عرفت بامم امرة تيودور .

نتائج حوب الوردتين . - كانت نتائج هذه الحرب هامة من الوجهة السياسية والاجتماعية وذلك لأنها قوضت نفوذ الارستقراطية الانكليزية ووسعت سلطة الملك . لقد قضت الحرب على حياة الالوف من الأمراء الاقطاعيين ، وهدمت كثيراً من الأمر التي لم يبق لها إلا عدد قليل يمثلها . وعلى العكس قوي نفوذ الملكية أكثر من ذي قبل ، نظراً لضعف الاقطاعية والطبقات الأخرى التي ليس لها من القوة الكافية ما يجعلها تستطيع تحديد سلطة الملك . يضاف إلى ذلك أن الشعب مل حياة الفوضى والحرب وأصبح منتهباً للغضوع إلى ملك بعيد اليه السلام والنظام .

وزاد في قوة الملكية أيضاً غناها العظيم ، لأن الملكية أصبحت أغنى بكثير مما كانت عليه في السابق . فقد وجد خمس الارض الانكليزية دون ملاكين عندما تولى هنري السابع عرش انكلترا . وهذه الأراضي،

التي ليس لها وارث ، أصبحت بموجب القانون ملكا للملك ، بالإضافة إلى الاراضي ، التي ضمت إلى أملاكه بطريق الحجز . وقد أصبح بهذه الصورة ملك انكلترا أكبر ملاك فيها ، كما هي الحالة في زمن غليوم الفاتح .

وضعت سلطة البرلمان ، وبعد أن كان في حرب المائة عام يشارك الملوك في الحكم أصبح نسباً منسياً حتى أن هنري السابع خلال حكمه (١٤٨٥ - ١٥٠٩) أي خلال أربع وعشرين سنة لم يدعه للاجتماع سوى سبع مرات ، وفي كل مرة يفرض عليه ارادته . واتبع خلفاؤه السياسة نفسها ، وهم وإن لم يلغوا البرلمان إلا أنهم لم يدعوه إلا قليلا ومتى شأؤوا ولا يسمحون بأقل معارضة . وبالرغم من أن الوثيقة الكبرى (١٢١٥) وانظمة اوكسفورد الأساسية (١٢٥٨) مازالت في حيز الوجود ، فقد كان آل تيودور في الواقع يحكمون حكماً استبدادياً مطلقاً كملوك فرنسا . وعوضاً عن أن يدعو البرلمان للنظر في القضايا المالية ، كانوا يلجأون إلى وسائل أخرى كالغرامات والمبات المجانية التي هي في الواقع رسوم اجبارية ، حتى أن مورتون ، وزير المالية لدى هنري السابع ، وجد وسيلة غريبة لابتزاز المال ، فمن ذلك أنه كان يقول : « انك تصرف كثيراً ، إذا فأنت غني تستطيع الدفع » أو : « انك تصرف قليلا ، إذا فأنت تقتصد وإذا تستطيع الدفع » . وكما قيل ، لم ينج أحد من منجل مورتون . وكذا العدالة لم تتبع القواعد التقليدية المتعارفة ، بل إن المحاكم المحلية أي محاكم بداية الجزاء خولت الحق في اعطاء الحكم في اجرام الخيانة دون الاستعانة بالمخلفين .

وقد تحمل الانكليز هذا الحكم الاستبدادي من آل تيودور لانهم

عرفوا كيف يحمون مصالحهم ويساعدونهم في كسب المال والثروة .
وسبب ذلك يرجع إلى تطور انكلترا الاقتصادي منذ القرن الرابع
عشر . فبعد أن كانت بلاد زراعة وتربية حيوانات ، أصبحت مع
الزمن بلاداً تجارية وصناعية . وقد ازدادت أهمية صناعة الصوف خاصة
في بعض المدن مثل نورفك ، وامتدت الأنوال إلى الأرياف وزاحم
التجار الإنكليز التجار الألمان والفلامان ، الذين كانوا في السابق سادة
التجارة في انكلترا ، وألقوا على طرازم رابطات مثل « جمعية التجار
المغامرين » التي انشئت عام ١٤٠٤ واخذت تتاجر في بحار الشمال .

حدث آل تيودور هذا التطور . واتخذ هنري الثامن قديراً من
شأنها حماية التجارة والصناعة الإنكليزيتين ضد المنافسة الأجنبية ، وعقد
معاهدات تجارية مع البندقية وفلورنسا وبلاد الشمال وخاصة بلاد الفلاندر .
وشجع الملك المنشآت البحرية وحمل البرلمان على التصويت على مرسوم
الملاحه ، وبمقتضاه تنقل الحنور الفرنسية إلى انكلترا على سفن إنكليزية .

ولم يحمل هنري السابع وخلفاؤه شؤون القارة . لأن بقاء ميناء
كاليه في أيديهم كان يساعدهم في أي وقت على إزلال جيش فيها . ونظراً
لهذا الوضع الجغرافي كان ملوك فرنسا وأعداؤهم يرغبون في التحالف مع
الإنكليز ، ولذا كان هؤلاء يستفيدون من وضعهم للانحياز إلى هذا الجانب .
أو ذاك ، ويلعبون دور الحكم في قضايا أوربه الغربية .

هنري السابع (١٤٨٥ - ١٥٠٩) . - بعد واقعة بوزورث (٢٢
آب ١٤٨٥) التي انتهت بها حرب الوردوين اعتلى عرش انكلترا هنري
السابع تيودور بالنسبة إلى جده لأبيه أوين تيودور ، وهو أمير من
بلاد الغال تزوج أرملة هنري الخامس ومات وهو يقاتل إلى جانب آل
لنكاستر (١٤٦١) . وهو بالنسبة لأمه يعتبر وارثاً لآل لنكاستر ،

وزواجه ، في كانون الثاني ١٤٨٦ ، إليزابيث يورك ، بنت ادوارد الرابع جمع بين الفرعين المتخاصمين . ولكن البرلمان عندما اعترف به ملكاً في ٧ تشرين الثاني ١٤٨٥ اكتفى بأن صرح ان العرش يرجع اليه بصورة شرعية دون أن يتعرض لصفة التي نال بها العرش ، وذلك لأن النساء حتى ذلك الحين لم يكن وارثات للعرش . على أن الشيء الذي أمن بقاء السلطة بيد هنري السابع هو عمل الحرب التي ذهبت تقريباً بجميع المطالبين بالعرش وبالقسم الاعظم من طبقة النبلاء القديمة . ولكن هذا لم يمنع هنري السابع من الدفاع مدة طويلة ضد مؤامرات اليوركيين ، التي كانت تدبر في الخارج : في الفلاندر ، حيث كانت مرغريت يورك أخت ادوارد الرابع ؛ وفي ايرلنده عند آل فيتزجيرالد ؛ وفي ايكوسيا ، إلا أنه استطاع أن يظفر على كل هذه المؤمرات .

وجهد هنري السابع في توسيع الانظمة الملكية حتى قال فيه شاهد اسباني معاصر يسمى آيالا : « انه يريد أن يحكم انكلترا كالملوك في فرنسا ولكنه لا يستطيع ذلك » وهو وان لم يستطع ذلك إلا أنه حاوله . فقد كانت يختار مستشاريه من بين رجال القانون والمشرعين بعيداً عن طبقة النبلاء التي أضعفها بما حجز من أملاكها . وأدخل هنري السابع أشياءه إلى مجلس اللوردات فغدوا في يده آلة طيبة . أما مجلس العموم فكان في جانبه لأن أعضائه يرون فيه الملك الذي يحكم بالعدل ويوطد السلام في مملكته . وقد كتب فيه أحد الايطاليين ما يمكن أن يكون صحيحاً : « لم تر انكلترا منذ غليوم الفاقع ملكاً حكم بسلام أكثر منه ، فقد استطاع بما اوتي من حكمة ان يجعل الكل يخشونه في كل مكان » .

وعظم في عهده الدور الذي كانت تلعبه « غرفة النجوم » ، وهي محكمة تنظر في القضايا الهامة في الحق العام . ولم تكن هذه المحكمة

بالشيء الجديد ، إلا أن الملك وضع لها في العام ١٤٨٧ نظاماً بين فيه وظيفتها وعدد أعضائها . وكانت أداة الانضباط تراقب الشرفاء ، والشريف حاكم اداري يمثل الملك في الكونتية ، وتكافح رشوة المحلفين ، وتضرب على أيدي العصاة والاجتماعات التي لا يسمع بها القانون .

وعرف هنري كيف يجمع المال . فقد قبل البرلمان باعطاء الملك الاموال الضرورية ليحارب فرنسا وايكوسيا عام ١٤٩١ و ١٤٩٦ . غير أن له طرفاً أخرى كان يجمع بها المال : فمن ذلك أن كل مؤامرة أو ثورة كانت عنزراً ينتعله لحيز الأملاك وفرض الغرامات الثمينة . على أن هنري السابع وان لم يترك ذكرى ملك عظيم ، إلا أنه كان على الأقل عاقلاً فطناً ، فقد نضج في منفاه وعرف كيف يدخر الأموال دون أن يصرف كثيراً منها . وواتاه الحظ ، أن جاء في وقت قربت فيه ساعة انتهاء حرب الوردتين ، واستطاع ان يوطد النظام دون شدة وترك لابنه هنري الثامن مملكة يسودها السلام وسلطة ملكية قوية الدعائم وموارد كثيرة .

السياسة الخارجية . - كانت انكلترا في ذلك الحين في نجوة من الاهتمام بالامتلاكات والمطامع القارية التي تشغل ذهن الملوك القدماء . ولذا تقيدت سياستها بوضعها في جزيرتها وأخذت طابعاً قومياً وصارت سياسة توازن بالنسبة إلى الدول الأخرى في القارة ؛ ومن جهة أخرى ، سياسة دفاع وتوسيع لنشاطها البحري . إلا أن هنري السابع ، كهنري الثامن في أول عهده ، لم يعدل عن تقليد من تقاليد انكلترا وهو الحرب ضد فرنسا ، فقد تحالف مع ماكسمليان النمسا ليدعم دوق يوفانيا فرنسوا الثاني ثم ابنته الدوقة آنا ضد شارل الثامن . وكان فطناً يعرف من أين تؤكل الكتف : تفاوض مع شارل الثامن لقاء المال الذي قدمه

اليه ، عام ١٤٩١ . وفي عام ١٤٩٢ قام الدجال بركن وربك ، وهو فلاندي من تورنيه ، ادعى أنه ريتشارد يورك ، أحد أولاد ادوارد الرابع وأنه استطاع الفرار بأعجوبة من البرج ، ولكن قبض عليه وزج في السجن وأخيراً أعدم . وقد لاقى بركن مساعدة من الفلاندر حيث كانت مرغريت أخت ادولرد الرابع يورك لذا قطع علاقاته مع حكومة البلاد المنخفضة ونقل أسواق الصوف الانكليزية عام ١٤٩٣ من آنفرس إلى كاليه . وتقرب من فيليب الجليل عندما تخلى هذا عن المطالبة بالعرش وعقد معه ١٤٩٦ اتفاقاً بحرياً ، واتفاقاً مع ماكسميليان بعد أن ألقى القبض على وربك وأرجع السوق الصوفية إلى آنفرس .

وفي عام ١٥٠١ زوج أكبر أولاده آرثر من كاترين آراغون بنت فرديناند ملك اسبانيا ، وابنته البكر مرغريت من ملك ايكوسيا جاك الرابع (١٥٠٢) وهذا الزواج سيجعل ، بعد قرن ، من جاك السادس من آل ستيفورات آخر أحفاد مرغريت وارثاً لاليزابث ، ملكة انكلترا ، آخر ملكة من امرة تيودور .

أما الزواج الأول فكان لتوطيد العلاقات بين انكلترا واسبانيا لتساعده على فرنسا . ولكن هذا الزواج لم يدم طويلاً لأن آرثر مات (في نيسان ١٥٠٢) . غير أن أباه هنري السابع أراد أن يجعل من أرملة ضمناً للتحالف الاسباني واستحصل من البابا جول الثاني على السماح الضروري لحطبة كاترين إلى ابنه الثاني هنري الذي أصبح وارثاً للتاج ولم يكن له من العمر سوى ١٢ سنة . إلا أن زواجه لم يتم إلا بعد أن اعتلى العرش بشهرين .

وفي عهد هنري السابع امتطى أصحاب السفن في بريستول متن البحر

نحو الشواطىء الغربية من افريقية والارض الجديدة حيث أسسوا لهم مراكز للصيد . وفي بريستول استقر جان كابوت ، وهو جنوي الأصل صاربندقياً وعاش في لشبونه ، وقد جعله هنري السابع أميراً وأمدّه بالمال في رحلته الاكتشافيتين اللتين قادته إلى شواطىء لبرادور وإيكوسيا الجديدة (١٤٩٧ - ١٤٩٨) . أما ابنه سيباستيان فكان اللوب المهرّك للمشاريع التي قامت في عهد ادوارد السادس وماريا تيودور . أما في عهد هنري السابع فقد كانت المشاريع متواضعة ونتائجها الاقتصادية ضعيفة .

الملكيّات العقارية في القرى . - لقد قوت حرب الوردتين العادات العسكرية عند الطبقة النبيلة ، إلا أنها لم توقف التطور الذي كانت تمر فيه انكاثراً وأدى بها إلى الخلاص من مظهرها كبلد اقطاعي . لأن الأمير أصبح ملاكاً كبيراً لا يتناول ممن يتركهم يتصرفون بالأرض سوى اتاوات مالية ، وعوضاً عن ان يشغلهم بزراعة حقله ، كان يؤجره بالمال إلى كبار المزارعين . يضاف إلى ذلك أن شراء الحقول من قبل البورجوازية الحديثة الغنى زاد في هذه العادة التي انتشرت في الاوساط الريفية . ولم يعد الفلاح الانكليزي يشكو الاتاوات الاقطاعية أو السخرة بل امتداد الملكية الكبرى المستمر الذي أخذ يجرده من أراضيّه بالتدريج . وقد ازداد هذا الاحتكار في النصف الثاني من القرن الخامس عشر بعمليات التسوير التي امتدت حتى القرن التاسع عشر ، لأن تقدم صناعة الأجواخ شجع الكثيرين على تربية الأغنام وتحويل حقولهم الزراعية إلى مروج مسورة . ولكن الامراء أساءوا استعمال هذه الاتجاه في الزراعة ، فكانوا يستولون في القرى على الاراضي المشاع ويطردون من عليها بغير حق ، وإذا وجد لأمر منهم أراضي في أقسام مختلفة من القرية كان لا يتوانى

عن الاعتداء على غيره وأخذ حقله المجاور لأرضه . ولاتخلو هذه الاعتداءات من أعمال الاختلاس والاحتكار ، ولذا قل عدد المتصرفين بالأرض أو عدد الملاكين الصغار بنتيجة ابدال الزراعة بتربية الحيوانات ، وقلت الحاجة إلى الأيدي العاملة وقلقت الحكومة الملكية من هذه الحركة التي كادت تؤدي بحياة هذه الطبقة المسماة يومئذ ، لأنها تعلق أهمية كبرى عليها من ناحية الضريبة والناحية العسكرية ، وتخشى أن تتقلب إلى طبقة كادحة زراعية تتعرض دوماً للسقوط في مهاوي العوز والتشريد . فأصدرت قانوناً سنة ١٤٨٩ حرمت فيه تخريب البيوت في المزارع التي تكون مساحتها ٢٠ آكر أي ما يعادل ١٠ هكتار . ودشن هذا التشريع ، الذي وضعه هنري السابع ، هذه السياسة الدائمة لآل تيودور وآل ستيفورات في أول عهدهم . ولكن تكرار التحقيق والقوانين يدل على استعمال اساءة الاستعمال . ولم تكن أعمال التسيير في القرن الخامس عشر ، والقرن السادس عشر كثيرة إلا في كونتيات الوسط ، كما لم يبلغ خطرهما الحد الذي بلغه بعد ثورات القرن السابع عشر .

ايرلنده في عهد هنري السابع . - عندما اعتلى هنري السابع العرش لم تكن سيادة انكلترا على ايرلنده إلا في حدود اطار ضيق من الأراضي يمتد على طول الشاطئ من دندالك في الشمال إلى قرب دبلن في الجنوب ، ويحده من جهة الداخل بعض الحصون والقلاع . وعلى رأس هذا القسم المحتل المسمى (البال) وجد النائب مع مجلس لادارة شؤونه ، ويحتوي على برلمان على نسق برلمان انكلترا وله نفس السلطات . واحتفظ سكان القسم المحتل بظاهرهم الانكليزي ، أما في باقي الجزيرة فان السكان الأصليين مثلوا بالتدريج المهاجرين الانغلو - نورمان . الذين أتوا اليها بعد الفتح في القرن الثاني عشر . وبقي الشعب محافظاً على لغته وطباعه

وعادته وخاصة نظام الملكية الذي لا يقبل الامتياز في التوريث كما هو متعارف عليه في انكلترا . وفي جنوب الجزيرة ووسطها كانت الأراضي مقسمة بين العائلات القديمة لزعماء الأنغلو - نورمان مثل فترجيروالد ، وفترموريس وبتار وبورك وغيرها . وفي المناطق الجبلية وفي الأولستر كانت الأقوام القديمة من السكان الأصليين تعيش مع زعمائها مثل أونيل ، اودونيل ، اوكثور . وكان النزاع دائماً بين الزعماء ولكنهم جميعاً كانوا يكرهون الحكم الانكليزي . إلا أن هناك بعض الزعماء الأنغلو - نورمان كانوا يعترفون بسيادة ملك انكلترا للفوائد التي يحصلون عليها . فمن ذلك أن اللورد النائب كان يؤخذ منهم . ومساندتهم إلى سيمنل ووربك جعلت هنري السابع في عام ١٤٩٤ يعين عسكرياً اسمه جون بوبينغز ، وقام هذا بإدارة (البال) بشدة وجعل البرلمان الايرلندي يصوت على القانون الذي عرف باسمه والذي يحرم على البرلمان التصويت على أي قانون مالم ينل موافقة مجلس الملك في ايرلنده .

هنري الثامن (١٥٠٩ - ١٥٤٧) . - اعتلى هنري الثامن عرش انكلترا وهو شاب له من العمر ١٨ سنة ، وبدأ أنه لا يختلف عن أبيه بصفاته الفكرية فحسب بل بشدته وقساوة طباعه . فقد كان ظلوماً غاشماً وأثامياً لا يعرف الرحمة ويضحي حتى بأحسن خدمه وأشياءه عندما لا ينالون هوى من نفسه ، ودون أي اعتبار لخدماتهم . ولا يحترم المعارضة التي تخالف رأيه ولو أتت عن رجالا معروفوا بوجدانهم السامي من أمثال توماس مور وجون فيشر . وقد استطاع أن يحتفظ بجماهيره وثائبره حتى النهاية لأنه كان أميراً ذكياً متعلماً انسانياً وفناناً ولاهوتياً معاً . وعلى الرغم من شدته وانفعاله ، لم يعدم الحس بالواقع ، فقد سار سياسته بدوق شغف بالمجد والسلطة .

احتفظ هنري الثامن بمعظم المستشارين المجريين الذين تركهم والده ،
وقتل « أمبسن » و « ددلي » ، ارضاء لمن ابتز منهم المال في عهد والده ،
فاكتسب بذلك شعبية عظيمة بالرغم من أن الجريمة التي وجهت اليهما ،
ومنها خيانة الملك ، لم تثبت عليهما . وولى ثقته إلى كنسي شاب ،
يسمى توماس ولزي ، وكان هذا ابن تاجر صوف في ايسوييتش قاعدة
كونتية سوفولك . دخل البلاط بصفة كاهن ملحق بالملك واكتسب عطفه
وعطف الوزراء واصبح من أقدر مستشاري الملك نفوذاً وتولى منصب
رئيس أساقفة يورك ، وحار كردينالا عام ١٥١٥ وبقي خلال ١٥ عاماً
يوجه السياسة الانكليزية على ما هو عليه من أبهة الامارة . كان محسناً
وساعد على تجديد الثقافة القديمة والدينية وذلك بأن أسس في اوكسفورد
كلية الكاردينال ، وافتتحها طبقاً لأنظمة الانسانيه الجديدة . وفي ١٥١٨
عينه البابا مندوباً عنه في انكلترا تلبية لرغبة الملك وبذلك أصبح السيد
الحقيقي لكنيسة الانكليزية .

وكان الملك يقدق عليه كل هذه النعم والألقاب طمعاً في الخدمات
التي يقدمها اليه في سياسته الخارجية . وبفضل ولزي احتفظت انكلترا
بمكان سام في المنازعات الاوربية أكثر من اعتمادها على جنودها . ودخل
هنري الثامن عام ١٥١٢ في العصبة المقدسة ضد لويس الثاني عشر ،
وانتهزت ايكوسيا الفرصة وغزت انكلترا ، إلا أن جيوشها هزمت هزيمة
منكرة في واقعة فلوددن (١٥١٣) وقتل ملكها جاك الرابع وبقي
ابنه جاك الخامس تحت وصاية أمه مرغريت أخت هنري الثامن . ثم أجرى
ولزي مفاوضات مع لويس الثاني عشر وانتهت بتقارب بين انكلترا وفرنسا
وزواج لويس الثاني عشر بباربا أخت هنري الثامن .

لقد كانت سياسة ولزي ترمي إلى جعل انكلترا حكماً في أوربة، وهذا ما كان يريده هنري الثامن . وتوصل في ١٥١٧ إلى عقد الصلح وتأليف عصبة من ملك فرنسا وانكلترا والامبراطور والبابا . واستطاع أن يحصل من فرنسوا الاول على استدعاء دوق الباني ابن أخ جاك الرابع الذي سمي نفسه وصياً على العرش وحرّم الملكة مرغريت أم جاك الخامس من سلطتها . وعندما شغل عرش الامبراطورية واقتتحت المنافسة بين شارلكان وفرنسوا الأول فكر هنري الثامن جدياً أن تكون الامبراطورية له وتاج البابا لولزي عند وفاة ليون العاشر وادريان السادس . ولكن هذه الأطماع لم تتحقق . ويبدو ان السياسة التي سلكها الملك والكاردينال كانت سياسة توازن بين الأمرة الفرنسية والأمرة النمساوية . فقد دما في أول الأمر شارلكان ، ثم تقربا من فرنسوا الاول بعد واقعة بافيا (٢٤ شباط ١٥٢٥) .

أما مهمة ولزي في الداخل فقد كانت سهلة . ولم يكن هنالك سوى بعض اضطرابات قام بها العمال اللونديون ضد العمال الأجانب ، ولم تأخذ أي طابع سياسي . غير أن الأشراف كانوا يحسدون ولزي شرفه وبأبون ان يسيطر عليهم رجل من الطبقة المتوسطة ، ولكن هراهم قد صمت ودب في قلوبهم الرعب عندما أعدم في العام ١٥٢١ ادوارد ستافورد ، دوق بكنغهام من نسل ادوارد الثالث ، بدعوى طموحه إلى العرش .

لقد كان ولزي يعمل على تحقيق نظام مطلق . فقد أراد أن يستغني عن البرلمان ، غير انه كان بحاجة إلى المال لدعم الحروب ، فدعاها ولبي طلبه عام ١٥١٣ . وفي العام ١٥٢٣ كان بحاجة إلى ٨٠٠٠٠٠ جنيه ، فلم يعط إلا جزءاً منها . وأرسلت لجان الكونتياث للحصول على $\frac{1}{4}$ الواردات .

كـ « قرض ودي » يؤخذ من الناس المسورين . ولكن هذا التدبير أثار احتجاجات شديدة وأدى الأمر إلى حذف اللجان . وهذا الحادثان يساعدان على معرفة الحدود التي يمكن أن يمارس فيها الحكم المطلق سلطته .

ولكن السياسة التي اتبعها ولزي وسلطته الاستبدادية ومحاولاته أقامت حوله جواً من الاستياء والسخط ، ولم تلبث هذه الضوضاء أن لقت اذنًا صاغية من الملك . ولم يكن اخفاق ولزي في قضية طلاق الملك السبب الوحيد في زوال حظوته ونكبته وموته .

قضية الطلاق . - لقد رأينا أن هذه القضية ألفت بانكلترا في الإصلاح الديني . ويمكن أن يكون للملك هنري الثامن عذر وجيه في فسخ زواجه من كاترين آراغون . فقد أنجبت له خمسة أولاد لم يعش منهم سوى بنت واحدة وهي ماريا التي لقبّت « أميرة غال » عام ١٥٢٥ . وحتى ذلك التاريخ لم تحكم انكلترا امرأة ولذا كان من الطبيعي أن يكون له ولد . غير أن السبب الحقيقي الذي حمّله على الطلاق هو هواه لأن بولين واصرار هذه على أن تكون ملكة . والحجة التي اتخذها هنري الثامن ذريعة أمام البابا ليبر فسخ الزواج هي بطلان السباح الذي الذي حصل عليه من قبل البابا جول الثاني للزواج بأرملة أخيه وكان من الصعب قبولها .

وقد أفسدت هذه القضية علاقاته مع شارلكان ابن فيليب الجليل وحنا المجنونة أخت كاترين آراغون وقربته من فرانسوا الاول الذي سعى للحصول على فتوى ملائمة من لاهوتيي باريس .

ومها يكن من أمر فقد أصبح من المستحيل الفصل بين سياسته الدينية وسياسته العامة ، كما أصبح تفوق الملك أداة لسيطرته وغناه . فقد هدم قوة الاكليروس الاقطاعية وعصر املاك الكنيسة وأخذ وارداتها ووزعها على المخلصين له ، وحول كثيراً من الأديرة الى معامل ومصانع .

وفي كانون الثاني ١٥٣٣ تزوج الملك مرأى من آن بولين وجرّد ماريا بنت كاترين من حقوقها ، ثم حمل البرلمان على التصويت على قانون الاستئناف الذي يحرم رفع الأحكام ، التي تحكم بها محكمة رئيس أساقفة كانتوربري ، إلى روما . وفسخ كرايمر ، رئيس الأسقفية ومستشار الملك ، زواج كاترين وهنري . وأعلن عندئذ زواج الملك بآن بولين ، وقد رزقت منه بنتاً سميت إليزابيث . وقبل نهاية هذا العام صدر قانون يجعل العرش وراثياً في أبناء الملكة الجديدة . وفي بحر عام ١٥٣٤ تم انفصال انكلترا عن روما بسلسلة قوانين هيئت لهذا الغرض .

الحرب مع ايكوسيا وفرنسا (١٥٤٢ - ١٥٤٦) . - تأثر ملك إيكوسيا جاك الخامس ، ابن اخت هنري الثامن ، بأسقف سنت أندراوس ، الكاردينال بيتون ، وكان هذا عدواً للإصلاح الديني . واتبع جاك سياسة ايكوسيا التقليدية في بغضها لانكلترا وتحالفها مع فرنسا ، وتزوج ماريا غيز بنت فرانسوا الأول ، وحارب هنري الثامن عام ١٥٤٢ ومات عقب انكساره في سولوي موس في الوقت الذي ولدت بنته ماريا ستوارت (كانون الأول ١٥٤٣) . وتابعت أرملته سياسته دون نجاح . وتحالف هنري مع بعض الامراء الايكوسيين وقتلوا الكاردينال بيتون وساعدوا الانكليز على غزو ايكوسيا واضطرت أخيراً ماريا غيز إلى الصلح (١٥٤٦) .

عصر النهضة (١٩)

- ٢٩٠ -

وفي السنة نفسها أي في العام ١٥٤٢ بدأت الحرب مع فرنسا واضطر هنري الثامن أن يتم الحرب وحده لان شارل كان عقد صالح كربي (١٥٤٤) دون أن يستشير. وانتهت الحرب بمعاهدة أبقت لانكلا بولون بعد أن سبق وفتحها عام ١٥٤٤ .

قضية الوراثة . - في سنة ١٥٣٦ أعدم هنري الثامن آن بولين وانهما بالفجور ، غير أن هذا الاتهام لا يخلو من شك . ويبدو أن جرم الملكة الحقيقي أنها لم تعقب منه ولدا . وتزوج جان سيمور التي ماتت وخلفت له ولداً اسمه ادوارد ، وتزوج بعدها عام ١٥٤٠ آت كليف بنت جان كليف الثالث من أمراء ألمانيا . وكان الحب لهذا الزواج كرومويل الذي خلف ولزي في حظوته لدى هنري الثامن . فقد طمعه في هذا الزواج مدعياً أنه يحدث تقارباً بين الأمراء البروتستانتين في ألمانيا وبين هنري الثامن . ولكن خاب رجاء الملك لقبح هذه الأميرة وتقارب البروتستانتين مع شارل كان . وكان من ذلك أن طلق الملك زوجته بعد بضعة أشهر وغضب على كرومويل وأقيمت عليه دعوى الحيانة للملك وأعدم في (تموز ١٥٤٠) . ثم تزوج بعدها كاترين هوورد وبعت بها إلى المشنقة لسوء سلوكها (١٥٤٢) . وفي السنة التالية تزوج هنري الثامن آخر زوجاته وهي كاترين بار وكان من حظها أن عاشت بعده .

إذا فوارث العرش الشرعي هو ادوارد ابن جان سيمور . إلا أن الملك لم يشأ أن يدع للصدقة وراثة العرش في المستقبل ، فحمل البرلمان على الاعتراف له بحق تنظيم هذا الأمر ، وجعل لابنته ماريا واليزابت الحق في وراثته العرش بعد ادوارد السادس . إذا مات ولم يكن له ولد . وإذا لم تعقب أولاداً بعدهما فإن العرش لا يرجع إلى أنسال أخته الكبرى مريغريت ابكوسيا ، بل إلى أنسال أخته الصغرى ماريا دوقة سوفولك .

وفي الحقيقة ، ان وراثة العرش ، بعد موت أدوارد السادس ، لم تتعلق بإرادة هنري الثامن بل بالظروف . وإذا رأى الملك الشيخ حقاً أن توث ماريا واليزابت فلم يكن في سلطته أن يقصي آل ستوارت عن العرش .

ومن الحوادث الهامة في عهد هنري الثامن ضمه بلاد الغال (ويلز) إلى إنكلترا عام ١٥٣٦ .

أدوارد السادس (١٥٤٧ - ١٥٥٣) . - توفي هنري الثامن في ٢٦ كانون الثاني ١٥٤٧ ، واعتلى العرش ابنه أدوارد السادس وله من العمر ١٠ سنوات وقد مات وهو في السادسة عشرة . كان أدوارد تقياً يحب الدراسات الدينية ، فاتجه نحو أفكار الإصلاح الديني سواء بميله الطبيعية أو بتأثير حاشيته . ولم يحكم هو بنفسه ، بل كان خاله دوق سومرست وصياً عليه . وقد اعترف له البرلمان بهذه الحماية . ولذا فإن الارستقراطية الجديدة التي أصبحت سيدة مجلس الملك ، وكان يدعمها البرلمان ، وسعت نتائج الانفصال عن الكنيسة الرومانية وتركزت لعلماء اللاهوت البروتستانتين حرية متابعة الإصلاح في المذهب وفي العبادة ، ووجه كرائم السياسة الدينية وألغى قانون المواد الست وأقر المناوئة بعرضها الحزب والخمر ، وزواج الكهان ، ونشر كتاباً خاصاً للصلوات اعترف به رسمياً وطبع باللغة العامية ١٥٤٩ واسمه « كتاب الصلوات » . يضاف إلى ذلك أن كثيراً من المؤسسات الدينية جردت من أموالها بعد أن تركها هنري الثامن دون أن يمسا بشيء . وأصبحت إنكلترا ملجأ للبروتستانتين المضطهدين في القارة . وكثير منهم من أمثال فيرميغيلي عام ١٥٤٧ ويومر عام ١٥٤٨ كان يعلم في أوكسفورد وكامبردج . وحلم سومرست بتحقيق اتحاد ايكوسيا مع إنكلترا وذلك بزواج

ادوارد السادس ماريا ستيوارت فرفضت ، وغزا ايكوسيا فأثارها ضده وأرسلت ماريا غيز ابنتها إلى فرنسا حيث خطبها فرانسوا الثاني ملك فرنسا آنذاك ، وقد اخلت فرنسا واضطرت انكلترة إلى الجلاء عن ايكوسيا وأضاعت بولون في فرنسا .

وإذا أحدث كتاب الصلوات عصياناً دينياً في جنوب غربي انكلترا ، فقد سبب التسوير وشقاء الفلاحين عصياناً آخر في نورفولك ، ورأى مجلس الملك ضعف سومرست فعزله من منصبه ورفع عنه لقب « الحامي » حل محله في إدارة الحكومة جون بودلي كونت ورويك .

حكومة ورويك (١٥٤٩ - ١٥٥٣) . - لقد كانت حكومة سومرست إلى حد ما معتدلة وبقيت معادية للتسوير حتى ان « الحامي » تردد أمام ثوار نورفولك . أما ورويك فكان طموحاً لا يعرف الهوادة والتردد . جعل الأرستقراطية تسعى لخدمته الخاصة ، وضرب على أيدي كل من عارض سياسة التسوير . ومن جهة أخرى ، أخذ الإصلاح الديني في عهده طابعاً بروتستانتيّاً وبديع بتسيط العبادة وفرض كتاب ثان للصلوات راديسكالي النزعة وذلك بموجب قانون التوحيد (١٥٥٣) وفي السنة نفسها نشر اعتراف بالايان مؤلف من ٤٢ مادة اشترك به المصلح نوكس مستمداً وحيه من كالفن . واستمر نهب أموال الكنيسة ولكن في هذه المرة كان منصرفاً نحو الكنيسة العصرية وذلك بحذف الأسقفيات الغنية ، مثل أسقفية وستمنستر وغلوستر ودرهام ، وخلع كثير من أساقفة هنري الثامن عن كراسيهم . وليؤمن ورويك سلطته استصدر حكماً بالاعدام على سومرست لحجائه بالرغم من أنه كان شعبياً ومنحه الملك لقب دوق نورمجهولاند .

وكانت صحة الملك معتلة ، فخشي دوق نورمبرلاند أن تحتلي العرش أخته ماريا تيو دور التي بقيت كاثوليكية ، لذا حمل الملك أدوارد السادس على تبديل وصية أبيه بالارث دون أن يأخذ رأي البرلمان وعين للعرش واثرة وهي جان غري حفيدة ماريا دوقة سوفولك . ثم زوج جان غري هذه من ابنه .

ماريا تيو دور (١٥٥٣ - ١٥٥٨) . - مات أدوارد السادس ولم يكن باستطاعة الدوق نورمبرلاند أن يقاوم ماريا تيو دور التي تعتبر الملكة الشرعية . وقد ألقي القبض على جان غري وزجت في السجن ، وأعدم نورمبرلاند .

وما اعتلت ماريا العرش إلا وأعادت تطبيق قانون المواد الست الذي وضع في عهد أبيها وعرفت بموجبه العقيدة الجديدة بعد الانفصال عن الكنيسة الرومانية ، وألغت القوانين الدينية التي صدرت في الحكم السابق ، وأعادت الأساقفة المعزولين إلى مناصبهم وطردت البروتستانت اللاجئين . وحاولت العودة بالبلاد إلى الكنيسة الكاثوليكية والاتحاد مع روما ، وهذه المحاولة أظهرت قوة حركة الإصلاح في المملكة . ولكنها أرادت قبل ذلك أن تعقد الزواج الذي اقترحه عليها شارلكان وهو أن تتزوج من ابنه فيليب الأرملة ، ولكن هذا المشروع اصطدم بمعاكسة البرلمان والرأي العام الذي يكره الأسبانيين . ولم تحفل ماريا بذلك وتزوجت فيليب على أن تكون انكلترا مستقلة تماماً عن اسبانيا ، والا يكون فيليب ملكاً على انكلترا . ولكن ماذا يحدث عندما يأتيها وارث يقرن التاجين ؟ . وفي الحقيقة لاقى الزواج استياءً وعصياناً في انكلترا في سوفولك وميدلاندز والديفون ولكن هذه الحركات أخذت بسهولة . وهددت اليزابت واعتقلتها بداعي أن لها بدأ مع المؤمرين . وبعد هذا

سعت ماريا في توطيد السلطة البابوية في انكلترا . وكانت الصعوبة الكبرى في إعادة الأموال التي أخذت من الكنائس في عهد الحكمين السابقين . وتآلف برلمان عمل على إلغاء التشريع الذي سن في عهد هنري الثامن . وجاء إلى انكلترا الكاردينال بول ليشغل وظيفته مفوضاً عن البابا ، وحمل بين يديه العفو البابوي (١٥٥٤) عما حصل . ولم تحدث لذلك ثورات حتى ان العودة إلى الكاثوليكية الرومانية في الشمال والغرب قوبلت باستحسان . أما في الشرق فقد ألف الناس النظام الجديد وبقي من استحوذوا على أملاك الكنيسة في قلق واضطراب بالرغم من الضمانات التي صرت عليها البرلمان . يضاف إلى ذلك أن الأفكار البروتستانتية قد انتشرت بين قسم عظيم من المؤمنين . ولكن الاضطهاد الذي نظم عام (١٥٥٥) سود وجه الرجعية الكاثوليكية . فقد ألفت لجنة خاصة لحاكمة المراطقة ، وبلغ عدد الضحايا ٢٨٦ نفساً خلال ٤ سنوات ، حتى لقبت الملكة ماريا بـ ماريا السفاحة . وتبقى انكلترا كاثوليكية وفي طاعة روما كان على الظروف أن تساعد ماريا فتقدم في عمرها وتجعل خلفاءها كاثوليك ، ولكنها ماتت بعد حكم قصير في تشرين الثاني (١٥٥٧) ولم يترك حكمها في انكلترا من ذكرى سوى « عهد الشهداء » .

أما زوجها فيليب الثاني فلم يطمح له المقام بقربها كما يطمح له العيش في انكلترا ، وغادرها إلى البلاد المنخفضة ، بعد أن اعتزل والده الملك ، وتوج عليها ملكاً ، ولم يعد لانكلترا الا عندما أتى يطلب العون من زوجته ماريا للحرب ضد فرنسا .

اليزابث (٢٧ تشرين الثاني ١٥٥٨ - ٢٤ آذار ١٦٠٣) - ٠ -
 اهتمت اليزابث ، بنت آن بولين ، عرش انكلترا ولها من العمر ٢٥ سنة وحكمت انكلترا حتى السبعين . ويعتبر هذا الحكم الذي دام ٤٥

سنة من أعظم عهود انكلترا في التاريخ . ففيه رسخت قدم السياسة القومية التي تأسست على قوة البلاد البحرية ، وفيه توطد نهائياً نظام الكنيسة الانغليكانية واتسع نشاط البرلمانات وازدهار الحركة الأدبية . وليس من السهل أن يميز المشاركة الفعلية التي قامت بها الملكة في تسيير الأعمال ، فقد عمل مستشاروها وشعبها كثيراً في عهدها . والشئ الذي يجدر ذكره بشأنها هو أنها استخدمت رجالاً أكفاء ولم تتنازل أمامهم عن دورها كملك . فقد كانت مستبدة مغرورة فغورة تحب السلطة وتزع إلى الحكم بنفسها ، ذكية ومتعلمة وواقفة على جميع المشاكل . ويبدو أنها لم تكن قادرة على وضع الخطط الكبرى والقيام بالمحاولات الجريئة ، بل كانت على الأكثر مترددة خجولة ، ضيقة التفكير . ولكن فطنتها وخجلها وأمانيتها كثيراً ما أفادتها . ولت ثقتها إلى مستشارين يتصلون بالقرب من آل بولين وإلى وزراء من أصل متواضع ولم تغدق عليهم الأموال ولا الشرف . وكان أمناء من الدولة عندها ويليام سيسيل الذي ولته ادارة المالية (١٥٧٢) وفرانسيس ولزكهام ، وروبرت سيسيل ابن ويليام بعد ١٥٩٠ ، وغيرهم . إلا أنها لم تتبع سياستهم على العمياء ، وألحقت بالمجلس الملكي بروستانتينين إلى جانب المستشارين الكاثوليك في الحكم السابق ، واحتفظت بوجود ممثلين للنزعات المتضاربة وتركت وحدة الحكم في شخصها ، ولم تعرف إلا السلطة المطلقة . وكان عليها ان تحسب حساباً للبرلمان بعد أن أصبح بالتدريج صعب المراس . وكانت بحاجة اليه لدعم سياستها الدينية والقومية ، ولذا عرفت كيف تداريه . أما علاقتها مع محظيها فكانت علاقة امرأة فغورة مغرورة غنجة ولكن دون أن تعترف بأحد سيدها عليها ، ولهذا السبب لم تتزوج ولم يكن محظيها روبرت ددلي ، الذي جعلته كرنيت ليستر ، على درجة

من قوة الفكر تجعله يلعب دوراً هاماً . وكذا والتورالي ، رغم قيمته ،
وكونت ايسكس ، محظيها في السنوات الأخيرة ، لم يستطيعا أن يعدلا
من نفوذ آل سيسيل .

ارجاع الكنيسة الانغليكانية . - لم يكن لاليزابث ميل ابيا في
المسائل الدينية ، ولم تستهوا العواطف الدينية ، ونهيات الرجعية ضد
الكاثوليكية وظن البروتستانت أنهم عادوا لعهد ادوارد السادس . على أن
الملكة وان كانت تحتفظ بذكرى مريرة عن الحكم السابق وعاشت
مشوهة تحيط بها العيون والجواسيس ، وهددت بالموت ، وان كان لنظام
أبيا هنري الثامن مرجحاته ، إلا أنها لم تكن عجلي في قطع العلاقات
مع روما ، ولم تشأ أن تحشر نفسها في سياسة بروتستانتية كما يريد ويليام
سيسيل ، وبدا منها أنها لاترفض خطبة فيليب الثاني لها ورغبته في زواجها
وهو الذي نصح إلى ماريا قبودور أن تعينها وارثة للعرش . وكان من
الممكن أن يجد كلا الاثنين في هذا الزواج ضماناً ضد الوفاق الفرنسي -
الايكومي . ولكن الشروط الدينية التي فرضها البرلمان حالت دون هذا
الزواج الاسباني . ونصحه سيسيل أن تحمل البرلمان على التصويت على
قانون التفوق (١٥٥٩) الذي لم يجعل من اليزابث الزعيم الأعلى ،
ولكنه على الأقل جعلها حاكمة الكنيسة الانغليكانية . وبتأثير باركر
رئيس أساقفة كانتوربري صوت على قانون التوحيد وأقر كتاب الصلوات
الذي نشر في عهد ادوارد السادس وثبت العقيدة في ٣٩ مادة . إلا أنها
أجلت تبليغه إلى ١٥٧١ . وهي وإن كانت لاتبالي بقضايا العقيدة إلا أنها
تمسكت بالمظاهر والأعمال كتسلسل المراتب الكنسية وأبهة العبادة ،
وخشيت من الحركة البريسبيتيرية (المشيخية) التي انتشرت في ايكوسيا
كما نظمها نوكس ، ونزعة الأطهار إلى التزمت والتشف ، وذلك لأنهم

كانوا يكرهون تدخل السلطة الملكية في القضايا الدينية . يضاف إلى هذا أن المبعوم الكاثوليكي ضد اليزابث سبب لها مشاغل كثيرة ومساعد على توسع البروتستانتية .

قضايا ايكوسيا . ماري ستوارت . - انتشرت في ايكوسيا الديانة البروتستانتية البريسبيترية وكانت الملكة ماري ستوارت تقيم في فونسا حيث تزوجت فرانسوا الثاني . وكان الحكم في ايكوسيا مؤمناً من قبل أمها ماريا غيز (أو ماريا لورين) ولكن هذه ماتت ومات أيضاً فرانسوا الثاني وزوج ابنتها ماريا ستوارت فاضطرت إلى العودة إلى ايكوسيا وتسلمت السلطة بنفسها (١٥٦١) . وكانت أميرة فتيه عمرها ١٩ سنة جميلة جذابة و مثقفة بملوءة نشاطاً وحيوية ، ولكنها كانت متحسسة ومندفعه وغير قادرة على اتباع سياسة ذكية .

استاء منها قسم عظيم من الايكوسيين وخاصة البريسبيترين لأنها كاثوليكية ولأنهم رأوا فيها ملكة خليعة تحب اللذائد والدسائس . وقد تزوجت أميراً من عائلتها يسمى هنري دارللي ، إلا أنها لم تتفق وإياه ، وألها منه ولد أسمته جاك . ومات هنري ميتة مفاجئة (١٥٦٧) ولم تنتظر نهاية الحزن عليه ، وتزوجت على مرأى من الكاثوليك والبريسبيترين الكونت بوتول وكان متزوجاً ومتهماً بأن له ضلعاً في قتل هنري . لذا أزيحت عن العرش ونودي بجياك السادس ملكاً على ايكوسيا . والتجأت ماريا إلى انكلترا حيث وضعتها اليزابث تحت المراقبة وظلت سجينه مدة ثماني عشرة سنة .

وصاف في سنة ١٥٦٩ أن قامت ثورة كاثوليكية في شمال انكلترا واتخذ القاثون بها عذراً في أن ماريا ستوارت متحدرة من الملك هنري السابع ليعارضوا بها اليزابث ولكن قضى على هذه الثورة بكل فظاعة ،

حتى ان اليزابت ، التي وقفت حيال الكاثوليك ، منذ عشر سنوات ، موقفاً عدائياً صريحاً ، أخذ الرأي العام الاوربي ينظر لها نظره إلى الملكة البروتستانتية الكبرى . وطردها البابا من الجماعة (١٥٧١) وأصبحت منذ ذلك التاريخ حليفة البروتستانت ، بينما كان كاثوليك القارة ، وخاصة فيليب الثاني ، يؤملون في قلب اليزابت بأي شكل كان ، ووضع ماريا ستوارت ملكة على انكلترا وايسوسيا وإرجاع المملكة إلى الكاثوليكية .

ولكن اليزابت منذ أن اعتلت العرش حاولت ألا تزعج انكلترا في المنازعات الدينية والسياسية في القارة . وإذا رأيناها عام ١٥٦٢ تتدخل املاً باسترجاع كاليه إلا أنها رفضت التدخل بعد ذلك ، وكانت المؤامرات تحاك في داخل انكلترا وفي ايرلندة وخارجها للقضاء على اليزابت وتنصيب ماريا ستوارت . ولكن كل هذه المحاولات باءت بالفشل ، وآخرها مؤامرة ديوت بزعامة باينغتون وقد اكتشفت هذه المؤامرة واتهمت ماريا ستوارت بالاشتراك فيها ، فحكّم عليها بالاعدام في (شباط ١٥٨٧) ، واشتد التنافس بين الاسبان والانكليز حتى اعتبر هؤلاء الاعتداء على سفن الاسبان أمراً عادياً مألوفاً .

والتمس فيليب الثاني عذراً في اعدام ماريا ستوارت وأراد غزو انكلترا ، ولكنه ، في الحقيقة ، كان يعني تهديم هذه القوة الناشئة التي أصبحت خطراً على التفوق الاسباني في البحار . وأعد لذلك اسطولاً عظيماً في لشبونة يسمى : « ارمادا الذي لا يقهر » . وبينما كان يتأهب لذلك انقض القراصن دراك خلال ثلاث حملات على الشواطئ البرتغالية ودمر أكثر من ٣٠ سفينة في قادس . وفي حزيران ١٥٨٨ ذهب الارجمادا ليأخذ

- ٢٩٩ -

الجنود من الفلاندر لانكلترا . وفي المانش أمام غرافولين كانت الواقعة ودمر الإرمادا وتشتت قطعه وعاد الباقي منها إلى إسبانيا بعد أن طاف من الشمال حول الجزر البريطانية . وكان لانكسار الأسبانين صدها في تقويض الكاثوليكية في انكلترا . فقد حصل اتجاه في صفوف الكهان الكاثوليك واتباعهم بالخضوع إلى السلطة الزمنية مقابل الاعتراف لهم بحرية الوجدان .

حكم آل تيودور

تقدم الوحدة الادابية والسياسية . - لقد قضى هنري الثامن واليزابث على الاقطاعية القديمة وأصبح نظام الكونتية حقيقة واقعة في انكلترا . وفي عهد الامرة التيودورية كانت سلطة الحكام نخول من قبل الملك ويختارهم التاج من الارستقراطية المحلية ، ولم يكن في ذلك عقبة ضد المركزية الملكية لصالح الحكم الذاتي المحلي بل كان يساعد على تأثير السلطة المركزية على حساب قوة الأمراء . ففي عهد ادوارد السادس يشاهد في كل كونتية ، إلى جانب الشرفاء وقضاة الصلح والشرطة القضائية ، اللورد النائب المكلف بجمع الشرطة الأهلية وقيادتها .

المجلس الخاص والوزراء . - ان الجهاز العادي للحكومة هو المجلس الخاص ويتألف من ٢٠ عضواً ينتخبهم الملك كما يريد ويجوبون على اليمين . ولم يكن وضعه كوضع الوزارة لأن موظفي الملك الخالص وأمناء مر الدولة ويحضرون جلساته ، وفي زمن هنري الثامن واليزابث كان يدعى أهل الرأي إلى هذا المجلس .

ولم يكن الملك مقيداً برأي المجلس ، بل ان وسيط الملك وموظفيه وأمناء مره يمارسون سلطته التنفيذية . وكان لبراءات هذا المجلس أهمية

كأعمال البرلمان ، ويسير الحكم بتعاون مشترك ودائم بين الملك والوزراء والمجلس دون أي توزيع واضح في الصلاحيات بين هذا المجلس والوزراء الذين لا يقرون شيئاً خارجاً عنه . وبازدياد دور المجلس على البرلمان ظهر الحكم المطلق ، وقد انتظم هذا الدور واتسع في عهد آل تيودور ، وكان قضائياً أيضاً كما كان سياسياً لأن « غرفة النجوم » أخذت سلطتها تنمو حتى أصبحت رمزاً عظيماً للاستبداد الملكي ، وضمت في عهد إليزابيث المستشارين الخاصين . كما ازداد شأن أمناء سر الدولة وجعلت القضايا منوطة بهم ، وكانوا يختارون غالباً لكفاءتهم لا لاسمهم .

البرلمان . - وبما دور البرلمان أيضاً إلى جانب سر السطة الملكية وذلك لأن هنري الثامن ، بعد أن أقصى ولزي ، كان بحاجة إلى مجلس العموم ليدعم سياسته الدينية . وقد يكون من الصعب أن نبين الدور الذي لعبه في التأثير على انتخاب النواب . ولكن ليس من الحق في شيء ان يقال ان المجالس كانت آلة طيعة في يده . وقد ساعدت الملكية فيه ، دون اختيار منها ، على تقدم الفكر الاستقلالي . وهذا التقدم ساعد على زيادة عدد النواب في مجلس العموم الذي كان ٣٠٠ عند تولي هنري السابع العرش وأصبح ٤٥٠ عند موت إليزابيث . ولم يعد الجلوس في قصر وستمنستر سخرة بل شرفاً يبحث عنه ، وهذا مادعا إلى التنافس والمنازعات عند تصويت الناخبين . وقد احتفظ هنري الثامن ، أثناء الانفصال الديني ، بالبرلمان من ١٥٢٩ - ١٥٣٦ ، فدشن بذلك الطريقة التي يمكن للبرلمان فيها عقد دورات متعددة إذا احتفظ به خلال سنوات . وبهذه الصورة يستطيع أعضاء مجلس العموم أن يتعارفوا ويكتسبوا خبرة ويجدثوا طريقة وتقاليد برلمانية . ثم ان انتخاب النائب على مرات متعددة في برلمانات متوالية يساعد على إيجاد أعضاء مختصين في قضايا معينة .

وأعضاء المجلس الذين يمثلون في البرلمان يكونون فيه باعتبار الأصوات التي انتخبهم لا باعتبار القابهم أو أوضاعهم . ولهذا يستطيع الوزراء أن يدافعوا عن سياسة الحكومة كأعضاء عاديين في المجلس .

أما مجلس اللوردات الذي صار فيه أعضاء مستعدوث عوضاً عن النبلاء الأقدمين فلم يكن آلة طيبة في كل مرة . ومنذ حذفت الأديرة ساد فيه الشيوخ العلمانيون . ففي عهد إليزابث نجد فيه ٢٦ شيخاً روحياً على ٨٦ عضواً . وقد استغنت إليزابث عن البرلمان ، كما كان يفعل أبوها ، ولم تدعه للانعقاد سوى ١٣ مرة خلال ٤٥ سنة ولكن أكثر المجالس عقدت أكثر من دورة ، وأبقت الملكة ذات مرة مجلس العموم نفسه أكثر من ٩ سنوات . وكانت بحاجة للبرلمان لارجاع الانفليكانية . ولكن بروتستانتية مجلس العموم كانت أكثر راديكالية من بروتستانتيتها ، حتى أن القلق ، الذي أحدثته الحالة الدينية والسياسية ، جعل مجلس العموم يقف من الملكة موقفاً حازماً لا ترغب به الملكة . فقد كان يطالب بزواجها بالحاح شديد . على أن أكثر ما يخشى على السلطة الملكية هو أن البرلمان كان يدافع بقوة عن مصالح الملاكين والبورجوازيين المالية والاقتصادية التي كان يمثلها . فمن ذلك أنه صوت في بدء الحكم على رسوم المكاييل والموازن التي تعتبر حتى ذلك التاريخ من الحقوق الملكية ، وأجبر الملكة على التخلي عن القروض الاجبارية (الهبات المجانية التي عرفت منذ هنري السابع وهنري الثامن) ، ووقف بشدة في آخر حكمها ضد امتيازات الحصر التجاري التي كانت تعطى إلى رجال البلاط فيتاجرون بموجبها بصورة مفضوحة ! وقد وعدت إليزابث بالعدول عن ذلك . والشئ الأساسي بالنسبة للبرلمان هو سطاته المالية . وبتوطيد هذه السلطات كان يصون وجوده الخاص . وموقفه المستقل في الصعيد الاقتصادي

والديني يدل على تقدم الطبقات التي يمثلها ويبشر بالمنازعات الكبرى التي عرفها القرن السابع عشر .

التقدم الاقتصادي . - كان التقدم مطرداً في الصناعة والزراعة والتجارة الخارجية في انكلترا خلال عهد آل تيودور وخاصة في عهد إليزابيث وذلك يرجع إلى نهوضها البحري وتدفق المعادن الثمينة وهجرة اللاجئين الفلاماندين إليها . وقد ظهر هذا التقدم في ثمر صناعة الجوخ التي انتقلت إلى أيدي متعهدي الأجواخ الذين يستعملون الأيدي العاملة في القرى ؛ والصناعة المعدنية التي نشطتها الامتيازات التي أعطيت إلى أصحاب معامل الحديد لاستثمار الغابات الكنسية والمناجم ؛ واستثمار مناجم الفحم الحجري الأولى ؛ والمشاريع الجديدة التي قام بها « التجار المغامرون » الذين كانوا يحاولون منذ القرن الرابع عشر فتح الاسواق الأجنبية . وقد أسسوا عام ١٥٥٣ أول شركة تجارية مساهمة (شركة موسكوفيا) لتجارة مع روسيا . وفي ١٥٣٤ فقد البنادقة امتيازاتهم التجارية في لندن وباشرت عام ١٥٨١ شركة انكليزية تجارتها مع بلاد الشرق . وأدى الخلاف مع مدن الهانس عام ١٥٩٧ إلى حذف مستودع الألمان في لندن .

وبدأت منذ عهد إليزابيث قوة انكلترا البحرية تظهر شيئاً فشيئاً ، حتى ان القرصان الانكليز كانوا يهاجمون السفن الاسبانية . ودل جون هوكنز و دواك أبناء وطنها على طريق المستعمرات الاسبانية . وقام الأول برحلات من افريقية إلى أمريكا لبيع العبيد الأرقاء إلى الاسبانيين الذين يهتمون بشؤون الأغراس . ولم يكن في هذه الرحلات التي قام بها عام ١٥٦٢ ، ١٥٦٤ ، ١٥٦٧ أقل اعتداء على المؤسسات الاسبانية . ووصل الثاني إلى برزخ داروين وأطل من جبل هناك على المحيط الهادئ ،

- ٣٠٣ -

البحر الاسباني ، وقرر ان يمر في هذا البحر السفن الانكليزية ، وبعد سنوات دخله من مضيق ماجلان وصادر قافلة سفن تحمل الذهب والاحجار الثمينة ، وعاد بها إلى انكلترا بعد ان استراح في جزر الملوك . وعندما وعندما وصل إلى بليموث (١٥٨٠) صعدت الملكة متن السفينة وسلمته سلاح الفرسان .

وأهدت الملكة بالمال مارتن فروبيشر للقيام بحملة إكتشافية فوصل إلى خليجان لبرادور (١٥٧٨) . واكتشف بعده بقليل ديفز المضيق الذي سمي باسمه وطرح همفري جيلبرت عام ١٥٨٠ فكرة البحث عن مستعمرات الاستيطان ، وحاول ذلك في الارض الجديدة عام (١٥٨٣) كما حاول والتز والي ، محظي الملكة تأسيس مستعمرة فرجينيا (الملكة العذراء) على شرف اليزابث . وتوصل جيمس لانكاستر (١٥٩١) إلى جزر الهند الشرقية بطريق الكاب . وفي عام ١٦٠٠ وقعت اليزابث ميثاق أول شركة انكليزية لجزر الهند الشرقية . وقد شجع هذا الجهد الصناعي والبحري ويليام سيسيل ، فقد كان يرمي إلى سياسة اقتصادية نشيطة دؤوبة تحمي المنتجات الوطنية وتحب التجارة والكسب . كما أفاد هذا الجهد في نمو البنوك واتساعها بفضل أناس مثل توماس غريشام الذي ساعد على تأسيس البنك التجاري في لندن . وتخلصت انكلترا من القروض الخارجية . ومع هذا كله فقد بقيت انكلترا بلداً زراعياً ، وظهر تقدمها في هذه الناحية بنمو تربية الحيوانات الكبرى والزراعة ، حتى أن التسوير ، وان لم ينقطع ، خفت الشكوى منه ، على ما يظهر ، في آخر القرن . وغدت التجارة البحرية الكبرى مصدراً من مصادر الثروة في انكلترا لأنها ساعدت على تشكل رؤوس الأموال الضرورية للقيام بالمشاريع الصناعية وشراء الاراضي واستئجارها .

التشريع الاقتصادي والاجتماعي . - لقد اقتضت ظروف انكلترا ، في مناسبات عدة ، تدخل الحكومة في الصعيد الاقتصادي والاجتماعي ، واتسع هذا التدخل بكثرة في عهد آل تيودور وخاصة في عهد اليزابث . وسعت هذه بعد استشارة غريشام في صهر العملة الفضية لتخفف من ارتفاع الاسعار الذي سببه انخفاض سعر المعدن الثمين . غير أنها لم تتوصل إلى تخفيض الأسعار ، ولكن انكلترا لم تعرف منذ ذاك الحين خللاً في عملتها ، وأفادت من ذلك تجارتها فائدة كبرى . لقد أدى غلاء الأسعار إلى نقص قوة الشراء لدى العمال المأجورين فكان ذلك داهياً إلى نشر قانون الصناع ١٥٦٣ وهذا القانون يعهد إلى حكام الصلح ، بمساعدة الخبراء ، بمهمة تحديد سلم الاجور . وعلى هذا الشكل نظمت سياسة تدخل الحكومة في هذا الشأن . وقد طبق تحديد الاسعار خلال قرن ، وساعد على منع تدني الاجور بصورة فاحشة . وغاية هذا القانون أن يعالج المخطاط الاصناف المهنية وعدم كفاية التعليم الفني عند صناع القرى ، إذ كان يفرض لتعاطي مهنة من المهن ٧ سنوات على الأقل يقضها المرء في تعلم المهنة على معلمه في الارياف أو في المدن . ويظهر أنه تلافي المخطاط المدن القديمة التي تعمل فيها الأصناف دون أن يضر بنمو الصناعات الجديدة الرأسمالية . ولا تختلف سياسة آل تيودور عن سياسة الحكومات الاوربية المعاصرة من حيث المبادئ والأصول ، فقد كانت استبدادية وتدخلية تمنع إلى اخضاع النشاط التجاري والصناعي إلى نظام ضيق وجعله مصدراً لدخل التاج بواسطة الامتيازات والحصر ، مدعية في ذلك أنها تريد مراقبة الصناعة وتأمين الانتاج الجيد وحماية المشاريع الجديدة . غير أن الحكومة الانكليزية كان يعوزها ، لتطبيق هذه السياسة ، عمال

مطيعون ومخلصون لأنها لا تستطيع الاعتماد على مساعدة « الأصناف » الآخذة بالانحطاط ، ولا على غيرة السلطات المحلية التي تعتبر مستقلة بالنسبة إليها ، والتي كثيراً ما يكون لمثلها منفعة وعلاقة في المشاريع التي تريد التدخل فيها . على أن التقدم العظيم الذي شهدته انكلترا في هذا العصر في الصناعة والتجارة ، انما يرجع في الحقيقة إلى تثبيت أصعاب المشاريع أكثر منه إلى عمل الحكومة ، وإلى مزاجهم الاستقلالي ، لأنهم كانوا متهيبين للدفاع عن حريتهم ومنافعهم ضد تدخل السلطات العامة ، ويعتمدون على البرلمان لصيانة مصالحهم . أما الحصر والامتيازات والتنظيم فتقيد عندما يقصد حماية صناعات الزينة والفن .

وعملت الحكومة على مكافحة التسول والتشرد لأن حذف الأديرة حرم الفقراء من صدقاتهم ، وجعل تدخل الدولة أمراً ضرورياً . وقد صدر أول قانون في هذا الشأن في عهد هنري الثامن ١٥٣٦ أي في السنة التي حلت فيها الأديرة . واتبع هذا القانون سلسلة قوانين أدت إلى قانون مساعدة الفقراء ١٦٠١ في عهد إليزابيث . وهذا القانون يفرض على كل خيرية مساعدة المعوزين والقضاء على التشرد بشدة وصرامة . وقد اعتمدت الحكومة على لم المساعدات من السكان بطريق التطوع الإرادي ، إلا أنها انتهت بأن فرضت رسوماً اجبارية منذ (١٥٦٣ و ١٥٧٢) وكلف حكام الصلح بتطبيق هذه الطريقة في الاسعاف العام . وكانت الحكومة الانكليزية أول من حقق هذا المشروع في أوربة . ولم يطبق بصورة منتظمة إلا في غياب البرلمان أي في عهد شارل الأول (١٦٢٩ - ١٦٤٠) . ودام تطبيق هذا القانون مايقارب القرنين وأدى مع الزمن إلى اساءة الاستعمال ، وأخيراً ألغي عام ١٨٣٤ .

* * *

توفيت اليزابث في ٢٤ آذار ١٦٠٣ وبوتها انتهى حكم آل تيودور في انكلترا واعتلى العرش آل ستوارت . وانتهى دور تأسست فيه الكنيسة الانغليكانية ونشأت أمامها البروتستانتية المزمته وقويت سلطة التاج وتعاضم روح الاستقلال في البرلمان . ففي عهد اليزابث نهأت منازعات القرن السابع عشر . إن خراب الطبقة النبيلة الاقطاعية القديمة واثراء الرجاء (الجنترى) والبورجوازية ، بفضل التقدم الاقتصادي ، أحدثا حالة اجتماعية في عهد اليزابث أدت إلى ظفر البرلمانات على البلاط . وظهر أثر التقدم الاقتصادي والحوادث السياسية بصورة جلية على النهضة الانكليزية . فقد بدأت النهضة في انكلترا متأخرة عن القارة لأن ازدهارها لم يبدأ إلا في عهد اليزابث أي في العقود الأخيرة من القرن السادس عشر . وذلك لأن اللغة الانكليزية لم تنضج بعد وبقيت انكلترا متعلقة بالعصر الوسيط ، ولأن جو التزم كان غنيا عليها فجعل النهضة ، وهي تطلع نحو أشكال الجمال وعبادة القوة ، في حالة قلق واضطراب . لقد عرفت النهضة في انكلترا انسانين مثل جون كولينست استاذ اوزموس . على أن أكبر أثر للانسانية الانكليزية هو « الطوبانية » (يوتوبيا) لنوماس مور ، وقد تأثر بالاكتشافات الكبرى وجمهورية أفلاطون وانتقد السكولاستيكية (الفلسفة المدرسية) ووضع مخططاً للحكومة المثالية .

يبدأ عصر النهضة الاكبر في انكلترا حوالي ١٥٧٨ بغنى الفكر الانكليزي بالمصادر القديمة وبترجمة الالباذة وقصيدة « خلق العالم » مؤلفها الفرنسي بارتاس وبلوتارك ونفوذ الآثار الايطالية (بوكاشيو) والاسبانية (آماديس ولازاريلتو تورم) .

وغا في هذا العصر النظم والمسرح . أما النثر فقد نما في القرن

السابع عشر . وأشهر الشعراء ثلاثة : جون ليلي مؤلف « يوفوس »
والسير فيليب سيدني مؤلف « اركاديا » وادموند سبنسر مؤلف
« تقويم الراعي » و « حكايات الام هوبارد » وأثره النفيس « ملكة
الجنيات » .

وكان ازدهار المسرح الانكليزي يدعو إلى الاعجاب . فقد وجد في
لندن ثمانية مسارح عامة ترتادها على السواء الطبقات المنعمة والشعبية .
وأشهر المسرحيين ويليام شكسبير (١٥٦٤ - ١٦١٦) . فقد كانت
له خصائص معاصريه ، ولكن أثره ارتفع إلى درجة جعلته في صف
العبقريات العالمية . وهو وان لم يستطع ان يتجرد من المؤثرات الخارجية
ومؤثرات القديم ، إلا ان أصالة عبقريته جعلت العثور على هذه المؤثرات
أمراً صعباً . ويثمل شكسبير الحماسة الوطنية بعد واقعة الارمادا ، كما
يظهر ذلك في مسرحيته (ويتشارد الثالث) و (هنري الخامس) .
ثم كتب بعدها مآمي فظيعة وتشاؤمية مثل (هملت ١٦٠٣ ، عطيل
١٦٠٤ ، مكبث ١٦٠٦) . وآثاره كثيرة ومتنوعة تلمس فيها الحقيقة
والقوة وتختلف العواطف وتلاعب الالهواء . وقد ترجمت أكثر هذه
الآثار إلى جميع اللغات ومثلت على مسارح العالم .

على أن النهضة الانكليزية ، وان أتت متأخرة يديرها الاجانب ،
فقد كان لديها من الوقت ما يكفي لانتاج ثمارها قبل أن تحتاحها موجة
التزمت فتغطي على الفكر الانكليزي ، لاسيما وان الحوادث ، التي
وقعت بعد ذلك ، وجهت الافكار نحو مشاغل جديدة وعواطف جديدة .

نموذج الجمهورية البورجوازية

البلد المنخفضة

كانت البلاد المنخفضة تتألف من عدة أقاليم تخضع لسيادة أمير واحد بالقباب مختلفة : دوق في برابان ، كونت في فلاندر . . . ولقد حاول الامبراطور ماكسميليان وابنه فيليب الجميل أن يوحدوا هذه البلاد تحت سلطتهما المطلقة ، ولكنها اصطدما بالنعرة الاقليمية التي كانت تتملك الامراء والمدن ، ووزعهم الى الاستقلال . وبفضل حماية الدولة للتجارة ضد أرباب الصناعات ظفرت الرأسمالية . وعلى هذا النحو تغلبت آنفوس على بروج وصنعت الوحدة الاقتصادية في البلاد المنخفضة التي أصبحت مجزأ لها وزيوناً .

وكانت الطبقة النبيلة تحاول أن تتميز عن كبار البورجوازيين الاغنياء وتحافظ على تفوقها الاجتماعي ، معتمدة على الوظائف والامتيازات التي منحوها اياها الامير . غير ان قيام النهضة ، التي رافقت النهوض الاقتصادي كان داعياً لنمو الفردية . وادخل التعلق بالحق الروماني كثيراً من روح الحكم المطلق ، حتى ان شارل غاندي ، وهو شارلوكان المستقبل ، حاول توطيد نظام الحكم المطلق ، فأقام على كل إقليم ممثلين مباشرين له أي حكماً وزودهم بسلطات غير معرفة جيداً ، كما أقام مجالس عدلية ، ودواوين محاسبات وقضاة في المدن من بين البورجوازيين المقربين من الحكومة بحكم تربيتهم ومصالحهم ، وربط الاقاليم بالحكومة المركزية . وحكمت البلاد بالوصاية ، ولهذا الوصاية مجلس . وقسم هذا المجلس ، على مثال فرنسا ، الى ثلاثة فروع مختصة : مجلس الدولة للسياسة ويتألف

من النبلاء ، والمجلس الخاص ومجلس المالية ، ويتألفان من الحقوقيين بورجوازيين ونبلاء صغار للعدلية والادارة (١٥٣١) . وفرض شارلكان على الاقاليم ارسال ممثلين إلى المجلس العام (مجلس الطبقات) . وأنشأ في العام ١٥٤٧ جيشاً دائماً وطلب منه حلف بين الولاء . وتدخل موظفوه في الحياة الاجتماعية كلها « ونظموا الاستثمار ، البورصة ، والتوسعات ، والاسعاف العام ، وسجلوا الاعراف ، وأدخلوا الحقوق الرومانية . وهذه النظم العامة جعلت من ال ١٧ إقليماً واحدة تامة وأيقظت فيها العاطفة الوطنية .

والملاحظ أن هذا الحكم الاستبدادي الذين ملكه شارلكان كان استبداد واقع ولم يكن استبداد حق ، ولم يتوصل لادخال ضرائب دائمة في البلاد وفرضها حسب هواه ، لان المجلس العام حافظ على حق التصويت عليها .

غير أن نهوض البورجوازية السريع جعل الحكم المطلق مستحيلاً ، لان دور هذا الحكم ، الذي وجد بين الدور الاقطاعي والدور البورجوازي كان قصيراً جداً ولم يتوطد حقوقياً .

ولقد أراد فيليب الثاني بن شارلكان ، كما رأينا ، ان يجعل من البلاد المنخفضة ملكية مطلقة ، لأن وضعها الجغرافي ومواردها تساعد في السيطرة على أوروبا ، ولكنه أخفق في مساعاه .

التجارة والمستعمرات . - لقد كانت الملاحة ، منذ عهد طويل ، عاملاً أساسياً في الرفاه الاقتصادي في البلاد المنخفضة . فقد استطاعت هذه البلاد في فترة بضع عشرات من السنين أن تصبح من أعظم الدول الاقتصادية والاستعمارية في العالم . ففي البحر أصبحت الجمهورية وارثة

لاسبانيا والبرتغال . وأطلق الهولنديون نشاطهم على أرض تشمل أوربة وأمريكا والهند ، وكانت سفنهم تمر عبر باب الباطيك والمتوسط والأطلسي والهادي .

وأصبحت أمستردام مركز الحياة الاقتصادية الهولندية فقد بدأ العصر الذهبي لهذه المدينة سنة ١٥٨٥ وهي السنة التي استسلمت فيها آنفرس لجنود الكسندر فارنيز وذهب تجارها زرافات ووحدانا إلى أمستردام وجعلوا من هذه المدينة مراكزاً من اكبر المراكز التجارية في أوربة

وفي العام ١٥٩٥ انطلقت أربع سفن من أمستردام بقيادة كورنوليس هوثان ، وجعل هذا الاسطول الصغير بحاذي شواطئ افريقية الغربية ومر برأس الرجاء الصالح وتوصل إلى جاوة . واستطاع هوثان بعد لآي أن يقيم فيها مركزاً تجارياً ، وعند عودته إلى أمستردام أعلم الحكومة بالامكانيات التي تفتح أمام هولاندة في المياه الهندية .

وسجلت هذه الرحلة بداية عمل قوي للهولنديين في طرد البرتغاليين من مستعمراتهم . وفي العام ١٥٩٨ انطلقت ثمانون سفينة هولندية نحو جهات العالم الأربع ، وحط بعضها الرحال في غينه ، وعلى شواطئ افريقية الغربية ، وأخرى سايرت الشاطئ الأفريقي وانجبت شطر المياه الهندية . وعاد القبطانات الهولنديون إلى البلاد بالسفن ملأى بالعاج والؤلؤ والقهوة والشاي والتوابل والمحاصيل الأخرى التي دلت بوضوح على ما يمكن أن يأتي به الاستعمار المنظم في المناطق النائية . وأخذ اولدبارنوفيلت على عاتقه مهمة التنظيم ، وألف في العام ١٦٠٢ « شركة الهند الشرقية » الشهيرة التي حصلت على حصر التجارة الهندية وعلى سلطات واسعة للفن الهولندي في القرن السادس عشر . - لقد كانت النهضة في هولاندة هبة من ايطاليا . وبما يدعو إلى الاعجاب حقاً أن أوربة ،

بالرغم من المنازعات السلافية والحروب القومية ، كانت موطناً للبدلات الفكرية والثقافية التي تؤمن استمرار الحضارة وبقائها .

ففي البناء تسربت عناصر التزيين الايطالية في الفن الغوطي الساطع ، وبدأت الظاهرة على معظم الأوابد والقصور الهولندية ، مثل قصر الامراء أساقفة لياج وغيره ، وقصر مرغريت النمسا في مالمو وغيرها ، حيث تمتزج التقاليد الغوطية ببجلوبات النهضة . ولكن النهضة انتصرت أخيراً في دارة الهانس وهي القصر البلدي الحالي في آنفرس .

وتطور معنى النهضة في البلاد المنخفضة ، وظهر ذلك في النحت في العصر نفسه . بيد أن هنالك فناً فرض نفسه على عصره بحساسيته التي رفعت فوق مهارة معاصرة وهو جاك دوبوك . فقد اتبع له أن أقام عدة سنوات في روما وتأثر بفنها . وهو يعتبر بحق « رجل النهضة » بالطنين العميق الملموس في آثاره ، وبفردية الظاهرة ، حتى انه تجاوز النهضة ذاتها ببعض نواح من شخصيته ، وانتقائه العريض ونظرته التعبيرية في بعض الاحيان .

وفي التصوير كان أشهر الرسامين جان غومرت وبرنارد فان اورلي ، ولكنها لم يبلغا درجة ميكيل آنجيل وليوناردو فانشي ورافائيل .

وهناك رجلا ن ظلا بعيدين عن المد الروماني ، ولم يرفضوا الفكر الجديد ، واحتفظا بشخصيتهما دون أن تمس :

الاول ، ليس له مطمح سوى « أن يرسم العالم في سعته وتنوعه » واسمه جواكيم باتيني . فقد كان يحب الطبيعة في بلاده ومسقط رأسه : كالصخور المنكسرة ، والغابات المعلقة على سفوح الربا ، والطرق التي تقطع حقول الخنطة

والثاني ، كانت قلبه العبقري واسمه بيتر بروغيل ، وكسائر رسامي عصره ، ساح طويلاً في ايطاليا ، وزار روما وناپولي وصقلية ، ولكنه

كان أقوى من أن يغرق تحت كل هذه المؤثرات . حقاً لقد أثرت فيه مناظر الاساتذة البنادقة ، ولكنه تخلص من التقليد الخاضع للباطاليين بفضل حبه للحياة الواقعية . فقد شغف بتمثيل النشاط والرغائب عند كل من يحيط به من رفاقه في العريضة ، وفتيات الكباريات والملاهي ، والفلاحين في العمل ، والصيادين في النلج . والقرى الفرحة ؛ ولم يحاول أن يصف الانسان كما يرى فحسب ، بل كان يتفقه أيضاً كما هو في أعماق نفسه وكما يحل نفسه . ففي آثاره تتجلى فلسفته ورمانيته . انها فلسفة حدس حقاً ، قريبة من فولكلور القديس توماس الاكوييني . لقد نشأ فن بروغيل في التراب الفلامندي ، لا في تفكير الادباء الانسانيين . ولكن هذا لا يمنع وجود بعض أفكار مستمدة من عصره ، كالفكرة التي يذكرها ارزموس : « ارفعوا قناع سيلين تجدوا نقيض ما رأيتم » . وانا لنرى في بعض آثاره أكثر من قصيدة واضحة الالوان ، وارادة في ألا يخول لطموح الانسان ، الذي لا حد له ، إلا مكاناً صغيراً لاشأن له أمام نظام الطبيعة الازلي : كالحراث في حقله ، والراعي بين شياهه ، والسفينة في بحر هادئ ، والسحب المتلاحقة الظلال دوماً في سماء البلاد المنخفضة .

البلاد الاسكاندينافية

البلاد الاسكاندينافية واوربة الغربية . - كانت البلاد الاسكاندينافية ترتبط قليلاً ببلاد اوربة الغربية ، بيد أنها كانت ترتبط بها برابطة المانس وتدور في فلك نشاطها التجاري . فقد كانت مدن المانس تهيمن على البحر الباطيك في القرن الخامس عشر ، وتسيطر على الميناء النورفيجي برغن ، وتصل بايكوسيا وانكلترا بواسطة جزر اوركاد وفاراور ،

وحدث في العام ١٤٤٨ أن توصلت عائلة آل اولدانبورغ إلى عرش الدانمارك ، وفي ١٤٦٠ أصبح الملك كريستيان الاول دوق شلزيك وكونت هولشتاين ، وازدادت العلاقة مع المانيا وثوقاً واتصالاً .

انحلال اتحاد كالمار . - كانت البلاد الاسكندنافية مرتبطة ببعضها نظرياً باتحاد كالمار الذي عقد عام ١٣٩٦ . وظلت حضارة هذه البلاد عامة ، ولكنها لم تتقدم كثيراً . فقد طبعت الكتب الاولى متأخرة في ستوكهولم ١٤٨٣ ، وفي الدانمارك ١٤٩٣ . وكان يعارض هذا الاتحاد نظام الانتخاب في الملكيات الاسكندنافية واختلاف المصالح الاقتصادية ، حتى ان القرن الخامس عشر كان مطبوعاً بطابع العداء بين السويد من جهة ، والدانمارك والنورفيج من جهة أخرى .

التفوق الدانماركي . - لقد كان وضع الدانمارك متفوقاً في البلاد الاسكندنافية . فقد كانت تقبض بواسطة المضائق على مفاضيع الباطيك: فهي تحتل ايلزينور في جزيرة سيلاند وهيلسنغبورغ في سكانيا . وتقرر في صلح مالمو (١٥١٢) أن يكون لها حق فتح مضيق الصوند لكل الملاحات ، وجباية الرسوم من جميع السفن التي تنفذ منه .

الملكية الدانماركية والطبقات الممتازة . - لقد كانت المعارضة قائمة في الدانمارك بين الملكية والنبلاء ، وكان هؤلاء ينتهزون فرصة كل عاهل جديد ويفرضون عليه امتيازاتهم ، ولذا كان الملوك يحاولون انتخاب خلف لهم في حياتهم . ولكنهم كانوا يحسبون حساب الديباط (ريغزراذ) أيضاً . ويتألف أعضاء هذا المجلس من الطبقة النبيلة والاكايروس ، وتتمتع هذه الطبقة الاخيرة بثروة أرضية كبيرة ، حتى ان الفلاحين ، الذين كانوا في الماضي أحراراً ، آلت بهم الحال إلى القنانة

- ٣١٤ -

وأصبح محظوراً عليهم مغادرة الدومين التابعين له ، كما فرضت عليهم ، مع الزمن ، السخرات الاميرية .

كريستيان الثاني ملك الدانمارك . - لقد كان كريستيان الثاني (١٤٨١ - ١٥٥٩) ملكاً طموحاً ، مخائلاً ، فظاً ، شرساً ، وكان يمثل الطاغية في القرن السادس عشر . اعتلى عرش الدانمارك عام ١٥١٣ وتزوج ايزابلا بورغونيا ، أخت شارلكت عام ١٥١٥ . فتح السويد عام ١٥١٨ واستعمل الارهاب وسيلة لتوطيد سلطته ، واستطاع في تشرين الثاني ١٥٢٠ ، بناء من اشارة المطران غرستاف ترول أن يتخلص من خصومه باعدامهم ، واباد « حمام الدم » في ستوكهولم ٦٠٠ ضحية . وفي الدانمارك ناضل ضد التبلاء بعزم وقوة ، وحاول اضعاف القنائة واعتمد على البورجوازية التي اخذت ثروتها بالازدياد والنمو وجعل من كوبنهاغن مرحلة بالطيكية . بيد ان الثورات قامت عليه من كل جانب وطرده ابن عمه فريديريك هولشتاين فغادر البلاد فاراً إلى البلاد المنخفضة عام ١٥٢٣ .

السويد

غوستاف فازا واستقلال السويد . - في ١٥٢٠ استطاع غوستاف أربكسون المسمى فازا (١٤٩٠ - ١٥٦٠) أن يعقد خلفاً مع لوبيك ، ولم يستطع كسب الجنوب ، غير أنه تمكن من إثارة الفلاحين وعمال المناجم في داليكارليا ، في شمال السويد ، ضد النفوذ الدانماركي . وفي العام ١٥٢١ استولى على اوبسالا ثم ستوكهولم . وفي ١٥٢٣ أخضع آخر حامية للدانمارك ، وهي حامية كالمار ، وانتخب ملكاً على السويد من قبل دياط سترينغنس في ٦ حزيران ١٥٢٣ ، وقام لاسترداد فنلاند ومحاربة القرصان الذين يعيثون الفساد في الباطيك .

الضائقة المالية والاصلاح الديني . - بعد أن اجتاحت الحرب السويد وجبت اعادة الأمور إلى نصابها ، وكان غوستاف فازا بحاجة إلى المال ليدفعه لمدينة لوبيك الهانسية ، مقابل مساندتها له ، فغولها في العام ١٥٢١ حصر التجارة الخارجية ، وتخلّى عن فتح الصوند للسفن السويدية ، وطلب من الأكليروس منحه المساعدات المالية ، فرفض ، فأجبره الملك على ذلك . وفي العام ١٥٢٦ ترجم العهد الجديد إلى اللغة السويدية . وفي مجلس فيستيراس ، وبالرغم من معارضة المطران براسك (١٥٢٧) ، ومن ثم في مجمع اوربيرو (١٥٢٩) أقر في السويد الاصلاح اللوثيري ، الذي بشر به منذ عدة سنوات اولاؤس بيتري . وانتشر الاصلاح بفضل لوران اندرياً رئيس كهنة اوبسالا ، ولم يخل الامر من مقاومة الأرياف ، وقامت الثورات من كل جانب ، ولكن قضى عليها بقوة ، وكنتيجة لكل ذلك وضعت أموال الكنيسة تحت تصرف فازا .

الحكم المطلق في عهد الملك غوستاف فازا . - لقد حكم غوستاف فازا عاملاً مستبدأ ، ولم يكن للديباط استقلال حقيقي . وفي العام ١٥٤٠ خص التاج بعائلة فازا ، وحصل الملك في العام ١٥٥٤ على حصر وراثة العرش السويدي في الخط الذكر .

النظام الاقتصادي . الموكاتيلزم . - لقد دأب غوستاف فازا على تسوية النظام الاقتصادي كله ، وخاصة طريقة التبادل مع الخارج . فقد كانت السويد تصدر كثيراً من الأخشاب والحديد ، وكان خشبها يسام بنسبة كبيرة في تموين أوروبا عامة . وستقدم السويد وحدها في القرنين السابع عشر والثامن عشر ٣٠ ٪ من الانتاج الكلي . وقد انتشرت في القرن السادس عشر طريقة جديدة في التنقية ، وبدأ استغلال المناطق

الشمالية ، أن السويد التي ساد فيها « الاقتصاد الطبيعي » طويلا ، بدأت تظهر فيها طبقة الفلاحين الملاكين .

اضطراب الاحوال بعد غوستاف فاذا . - لقد ألم المرض بالملك غوستاف فاذا فتنازل عن العرش في ٢٥ حزيران ومات في ٩ ايلول ١٥٦٠ . وفي عهد ابنه البكر ايريك الرابع عشر (١٥٦٠ - ١٥٦٨) قامت اضطرابات بل وحروب أهلية حقيقية . وكان هذا الملك في اول عهده حامياً للفنون والحياة الاقتصادية ، ثم أصبح مجنوناً فظاً والعبوة بيد أحد محظيه وهو جوهران بيرسون . وفي العام ١٥٦٨ سجن ايريك ثم قتل عام ١٥٧٧ بأمر من أخيه جان ، وأصبح هذا الأخير ملكاً بامم جان الثالث (١٥٣٧ - ١٥٩١) ، وتزوج كاترينا جاجيللون بنت ملك بولونيا ، سيغيسموند ، وأراد أن يعيد الكاثوليكية إلى البلاد ، أو على الأقل أن يقيم ليتورجيا جديدة (١٥٧٦) ، فآثر الاستياء من حوله وانتخب ابنه سيغيسموند ملكاً على بولونيا عام ١٥٨٧ ، وعندما مات جان الثالث أراد سيغيسموند ابنه أن يحكم ، وبدأ الاضطراب بتحريض من اتحاد بروتستانتي السويد واتفاق اوبسالا ١٥٩٣ ، فأفاد من ذلك شارل سودرمانيا عم سيغيسموند وأصبح ملكاً بامم شارل التاسع .

الاضطراب في الدانمارك ونهاية كريستيان الثاني . - عندما فر كريستيان الثاني إلى البلاد المنخفضة ، أصبح عمه فريدريك هولشتاين ملكاً على الدانمارك (١٥٢٣ - ١٥٣٣) . ولم يدعم كريستيان إلا القراصان سورن نوربي المتحصن في فيسبي في جزيرة غوتلاند ، فعاربه الهانسيون واستولوا على الحصن . ومع ذلك فقد غادر كريستيان الثاني هولاندة عام ١٥٣١ صعبة ٢٥ سفينة و ٧٠٠٠ رجل ونزل في النورفيج

وأيده الأكليروس والفلاحون . غير أنه غلب على أمره أخيراً ، ووقع أسيراً ، وظل سبعاً وعشرين عاماً في قصر سوندربورغ في جزيرة آلسين .
جورغن فولنفيغر . - وعندما توفي فريدريك الاول ١٥٣٣ ساءت الحال فحاول عمدة لوبيك ، جورغن فولنفيغر ، أن يفرض إرادته على المطالبين بعرش الدانمارك ، وانتزع من أحدهم ، وهو كريستوف اولدانبورغ ، وعداً بالا ينتخب في المستقبل ملك للدانمارك دون رضى لوبيك ، وبأن يغلق مضيق الصوند في وجه الهولانديين .

كريستيان الثالث (١٥٣٤ - ١٥٥٩) . - غير أن الديباط نادى بابن فريدريك ، وهو كريستيان شلزيك ، وأصبح هذا ملكاً باسم كريستيان الثالث ، وقضى على ثورة جوتلند ، وحاصر لوبيك واضطرها للتعاهد معه (١٥٣٤) ، وحكم على العمدة فيلنفيغر بالموت تعذيباً ، وبذا انتهت سيطرة لوبيك على الباطيك (١٥٣٧) . ثم استولى كريستيان الثالث ، بعد حصار طويل وجاعة ، على مالمو وكوبنهاغن مقابل التخلي عن كل مطالبة بملكة السويد ، وأصبح منذ ذلك الحين ، سيد الصوند وبإمكانه أن يثري بالرسوم التي يجلبها من السفن التي تعبر الباطيك . وقد اعترف شارلكان في صلح سير (١٥٤٤) بكريستيان الثالث ملكاً على الدانمارك والسويد وشلزيك - هولشتاين .

الاصلاح الديني في الدانمارك والسيطرة على النورفيج . - في عام ١٥٣٦ وطد كريستيان الثالث الاصلاح اللوثيري في الدانمارك ، وساعده ذلك على وضع يده على قسم من أموال الأكليروس . وفي النورفيج ثار مطران توندجيم ، ولكنه غلب عام ١٥٣٧ وخضعت البلاد نهائياً للدانمارك . ولكن بلاد النورفيج مازالت بلاداً بدائيةً ويختلف تركيبها الاجتماعي عن تركيب البلاد الاسكندنافية الأخرى ، ولم يفقد الفلاحون

- ٣١٨ -

ففي حربتهم الشخصية بيد انهم كانوا مزارعين وارباحهم تزداد بنسبة ٥٠٪ على الاكثر ، بينما كان سعر الحياة يتضاعف . وعلى اثر التعصير الذي تم في البلاد ، لم تعد ضريبة العشر المقسمة إلى أربع حصص ، احداها للاسعاف ، سوى ثلاث حصص : للأسقف والكاهن والكنيسة . ولذا قامت ثورة الفلاحين واجتاحت البلاد .

أهمية الباطليك الاقتصادية . — ان الحادث العظيم الذي يجب تسجيله هو أن الباطليك أخذ أهمية اقتصادية عظيمة ، فازدادت على اثر ذلك المنافسات بين الدول المحاذية لشواطئه وهي الدانمارك والسويد وبولونيا حتى ان دولة روسيا دخلت في المنافسة ، وكانت تهدف من وراء ذلك امتلاك فنلاند وليفونيا . وقامت بسبب فنلاند حرب طويلة بين غوستاف فازا والقيصر (١٥٥٤ - ١٥٥٧) .

الفصل السابع

ملكيات العصر الوسيط

بولونيا ، روسيا

لقد كانت البلاد ، التي لم تعظم فيها طبقة البورجوازية الكبرى ، في مرحلة أقل تطوراً من مرحلة الملكية المطلقة . ونذكر منها بولونيا وروسيا .

بولونيا . - لقد تطورت بولونيا وأصبحت جمهورية أرستقراطية يرأسها الملك ، في عهد أواخر آل جاجيلون ، جاث الأول البوت (١٤٩٢ - ١٥٠١) والكسندر الأول (١٥٠١ - ١٥٠٦) ، وسيفيسموند الأول (١٥٠٦ - ١٥٤٨) ، وسيفيسموند الثاني أوغست (١٥٤٨ - ١٥٧٢) . وثم في عهد هنري فالوا ، وهو ملك فرنسا في المستقبل بامم هنري الثالث (أيار ١٥٧٣ - حزيران ١٥٧٤) ، واثنين باتوري (١٥٧٦ - ١٥٨٦) وسيفيسموند الثالث فازا .

عجز الحكومة . - كانت بولونيا دولة غير متجانسة تتألف من أربعة أقسام أساسية : بملكة بولونيا ، ليتوانيا ، بروسيا الملكية ، بروسيا الدوقية ، متحدة فيما بينها اتحاداً رخواً تحت زعامة الملك . وكان الملك ينتخب انتخاباً ، وكان انتخابه يؤدي إلى حروب بين الأحزاب ، كما حدث في العام ١٥٨٧ بعد موت اثنين باتوري . وكانت الدباطات ، حيث كانت الطبقة

- ٣٢٠ -

النبيلة الممثلة الوحيدة في البلاد ، تصوت على القوانين الجديدة والضرائب لاعاشة الجيوش ، وكان ينبغي لذلك الحصول على الاجماع ، وهذا ما يجعل اتخاذ كل قرار صعباً . ولم يكن للملك جيش أو مالية أو ادارة ، بل كان يعيش من أملاكه الخاصة ، ويدفع نفقات الدولة من واردات هذه الاملاك . كان أول الأمراء ، ولم تصبح هذه الملكية الوسيطة ملكية مطلقة حديثة .

سيطرة الارستقراطية . - لم يكن في بولونيا يورجوازية عدا بعض الالمان في المدن . وكانت التجارة الكبرى ، الوحيدة لهذا البلد الواقع على هامش أوربة الرأسمالية ، تقتصر على تصدير الحنطة إلى الغرب الاوربي . وكان الامراء الكبار يلبون الطلب بفضل أملاكهم الواسعة ، ويستعوضون عن رؤوس الاموال باليد العاملة ويستعبدون الفلاحين في سبيل الانتاج . ولقد استطاعوا ذلك بتحديد سلطات الملك وتضحية الطبقات الاجتماعية الاخرى . وكان الانتخاب الملكي يقتضي من المرشحين القيام ببعض التعهدات ، كما أن الملوك لم يستطيعوا مجابهة الامراء الكبار بالطبقة النبيلة الفقيرة ، لان هذه الطبقة لم تكن لها قوة البورجوازية الكبرى ، التي كانت في الغرب ، لتستطيع الوقوف في وجه الطبقة النبيلة الغنية . وهذا الوضع شجع محاولات الماغانات (كبار الدولة) على التادي في عتوهم وتسلطهم .

ومنذ حكم جان الاول البوت ، في ١٤٩٣ و ١٤٩٦ كانت قدرة الفلاحين على الانتقال ضعيفة جداً . وكان الامير يحتفظ بهم على اراضيهم ويحبرم على العمل ، ويمثلهم في القضاء ويضع نفسه حاجزاً بينهم وبين القضاء الملكي ، الذي لا يبلغهم مطلقاً . لقد كان سيداً حقيقياً لرجاله . وفي العام ١٥٢٠ - ٢١ ربطت الديايطات الفلاحين بالارض وألزمهم

- ٣٢١ -

بفلاحتها ، وأصبح باستطاعة الامراء كسب الاموال على حساب الجماعات الريفية التي فقدت استقلالها القضائي وخضعت لمحاكم الطبقة النبيلة التي غدت سيدة مطلقة في أملاكها .

وفي ١٤٩٣ و ١٤٩٦ صرحت الطبقة النبيلة بأنها معفاة من الرسوم الجركية والاتاوات المالية ، ونحت البورجوازيين عن المهن العسكرية والمناصب الدينية العليا ، واختصت هذا الحق بنفسها ، ونادت في عهد سيغيسموند أوغست ، بعد ١٥٦٤ ، بمبدأ المبادلة الحرة المطلقة للحصول على أفضل الاسعار والمنتجات الاجنبية الفاخرة .

وخضع التجار لانظمة تفرض حداً أعلى للسعر ، وحظر عليهم أن يذهبوا بأنفسهم للبحث عن السلع في الخارج ، لأن الطبقة النبيلة تفضل أن تأخذها مباشرة من التجار الاجانب الذين يأتون اليها للبحث عن الحنطة . وفي الوقت نفسه كان لاحتلال القسطنطينية من قبل العثمانيين ، وبلاد البحر الاسود من قبل التتر أثره ، فقد أغلق في وجه البولونيين طرق الجنوب التجارية . وهكذا وضعت العوائق أمام التجارة ، وضعت الطبقة النبيلة بالبورجوازية ولم تستطع هذه الاخيرة أن تنمو أو تتوسع .

وفي عام ١٤٩٣ و ١٤٩٦ خص النبلاء أنفسهم بحق تشكيل الدياطات الاقليمية ، لتعيين الضرائب التي يجب فرضها في حال الحرب . وأعطت هذه الدياطات الاقليمية لنوابها تفويضاً مطلقاً في الديايط ، ولكنها تركت لنفسها الحرية في طرح قراراته أو تنفيذها . وهذا يعني أن المصالح المحلية تفوق المصلحة العامة للدولة . ووسع امتياز ميلنيك (١٥٠١) سلطات مجلس الشيوخ أو مجلس الملك ، المؤلف من الأساقفة والنبلاء من أصحاب المناصب العالية . وكان الملك ملزماً باتباع نصائحهم واقامة العدل حسب عصر النهضة (٢١)

هوام ، وإلا كانوا في حل من بين الولاء له . واحتفظ مجلس الشيوخ بالتاج والشارات الملكية ، وكان على الحكام أن يشاوروه في الأمر كلما مست الحاجة . ولم يسمح دستور نخبيل - نو في (١٥٠٥) للملك بإقامة شيء جديد دون رضى مجلس الشيوخ ونواب الاقاليم . وفي عهد سيغيسموند الأول أمن الدستور المسمى « الجناية على الجلالة » حرمة الشيوخ والنواب في الديباط ، وممارسة مجلس الشيوخ السلطة الملكية . وهذا يعني تنازل الملك عن كل شيء . وفي العام ١٥٧٣ فرض « اتفاق الملك والنبلاء » على هنري فالوا بالآلا إعلان الحرب أو إبرام الصلح دون مجلس الشيوخ ، وألا يأمر بالتغيير العام دون موافقة الديباط ، وأن يستعين بمجلس مؤلف من ١٦ شيخاً ، وأن يدعو الديباط للانعقاد كل عامين . وإذا خرق هذه الشروط أصبحت رعيته في حل من طاعته . وفي ١٥٩٢ ذهب ديباط التفيتش إلى أبعد من ذلك وأخضع شخص الملك وأعماله إلى تحقيق صارم .

ضعف الأمة . - وفي الوقت نفسه ضعف الشعور بالخطر الخارجي . وفي ١٥١٢ ، ١٥١٤ ، ١٥٢٧ رفض الديباط فرض ضرائب نظامية لاعاشة جيش دائم . بيد أنه اعتمد على النفير العام الذي يقوم به النبلاء ، وترك سيغيسموند البوت براندبورغ ، سيد فرسان الطريقة التوتونية ، يعصر أملاك الكنيسة ، ويعتق البروتستانتية ، وينادي بنفسه أميراً وراثياً في بروسيا تحت سيادة بولونيا عام (١٥٢٥) . وعلى هذا النحو نشأت بروسيا . وفي ١٥٢٦ وضع البيت النمساوي يده على هونغاريا وبوهيميا ، وتوسعت موسكوفا وقويت ، ولم يبق للملك بولونيا دوراً يلعبه بين الامراء المسيحيين . وهكذا أصبحت بولونيا دولة ضعيفة دون حصون ودون جيش تقريباً ، بالرغم من أن بروسيا الملكية قبلت في العام ١٥٦٩ أن تسهم في الديباط البولوني وبالرغم من أن ليتوانيا ، مع محافظتها

- ٣٢٣ -

على موظفيها وخزانتها وجيشها جانباً ، عملت الشيء نفسه ، وبالرغم من أن بروسيا الدوقية جددت ولاءها وتبعيتها . لقد مالت بولونيا من فرط الحرية .

موسكوفيا . - موسكوفيا دولة نصف آسيوية . بيد أنها تعتبر بعرقها السلافي وديانتها المسيحية الارثوذكسية وكرها المسلمين ، في عداد الدول الأوروبية . وقد أصبحت في القرن السادس عشر ملكية مطلقة . وكانت البورجوازية فيها ضعيفة ، وغير قادرة على منازعة الطبقة النبيلة ، وما كان سادة أوربة ليهتموا بها .

روسيا بلد ريفي منعزل . - لقد كانت روسيا في عهد ايفان الثالث (١٤٩٢ - ١٥٠٥) دولة منعزلة ، دون منفذ مباشر على البحار الاخرى ، باستثناء بحار الشمال المتجمدة ، وواقعة بين أعدائها التتر من جهة ، وجيرانها الأوربيين الذين يكرهونها من جهة اخرى . وكانت بولونيا وليتوانيا والمدن الهانسية (روفيل و ريغا) تعيق دخول السلع والفنيين الاوربيين إلى روسيا للحيلولة دون قتل الروس لهم ، لانها تعتبر هؤلاء أعداء وراثيين لكل الامم الحرة وتسليح الغرب وفنائه العسكري ،

كانت روسيا بلداً زراعياً ، وكانت كثافة الفلاحين ضعيفة . فقد كانت القرية تتألف من ١٠ - ٤٩ داراً ، ويشغل هؤلاء الفلاحون في مستغلات صغيرة بزراعة الحبوب ، ويستعملون الدورة الزراعية كل ثلاث سنوات مع ترك الارض بوراً ، وفي الغالب مع زراعة نصف - متنقلة على أراضي الغابة وذلك بحرقها وزراعتها مؤقتاً ، وكان المردود ضعيفاً . وكانت المدن ، وعددها ستون مدينة في العام ١٤٠٧ ، متاريس وأسواقاً

ريفية المظهر مع مراعي في الوسط ، والتجارة قليلة ، وهي تجارة ترازيت ،
والمنتجات نادرة وغالية وبكميات قليلة ، كالأحجار الكريمة ، والأسلاك
الذهبية والفضية ، والعقاقير وتوابل الشرق ، والفراء ، والعسل والشمع
نحو الغرب ؛ والأقمشة الفاخرة وقصدير آفرس والتتنة والأسلحة نحو
الشرق . ومراكز هذه التجارة مدن تتمتع بالاستقلال الذاتي ، مثل
نوفغورود الكبرى ، وهي مدينة هانسية ، وبسكوف . وتم التجارة في
دكاكين صغيرة ، ويعمل معظم الصناع وحدهم على آلة واحدة . وكانت
البورجوازية قليلة العدد ، فقيرة ضعيفة .

وكانت المدن والقرى واقعة على الأملاك الأميرية الكبرى العلمانية
أو الكنسية ومنتشرة على طول الأنهار أو الدروب . وكانت احتلال
السكان للأرض ضعيفاً جداً . ولذا كان لكل أمير مطلق السلطة على
أملكه ، ويتمتع الكثير منهم بالحصانة : فهم معفون من كل تدخل يقوم
به موظفو الأمير ، ومن الضرائب والخدمات ، وليسوا مسؤولين إلا أمام
الأمير وحده . وهكذا كان الأمراء الاقطاعيون ينوبون مناب موظفي
الأمير القليلي العدد . وفي حال العوز إلى الرجال ونقص الموارد كان
هؤلاء الأمراء يمارسون بعض امتيازات الدولة مقابل التخلي عن الموارد
التي ترتبط بهم .

وكانت كل أمانة تضم ملك الأمير وأملاك السادة والأمراء والأراضي
السوداء ، التي يحميها الأمير بعد أن أصلح طرقها وأقيمت فيها الجماعات
الحرة التي تساهم في الدفاع بضرائبها وخدماتها . وكان الأمير يمثل في
خارج ملكه ، في المدن ، بممثلين يدعون فاميسينكي ، وفي المناطق
الريفية ، بممثلين يسمون فولوستيلي ، وكان هؤلاء وأولئك يختارون من
بين أتباع الأمير ، من رجال السلاح الموالين : من الأمراء القطاعيين

- ٣٢٥ -

ومن امراء ضعاف ، وأناس من الطبقات الدنيا عرفت بمواهبها العسكرية .
وكان هؤلاء الاتباع جميع حقوق وواجبات الاتباع في الغرب ويتعهدون
أيضاً بحرية بخدمة الامير الذي يختارونه .

تقدم أمير موسكو الأكبر . - كان أمير موسكو الأكبر الامير
الاصلي في البلاد . وكانت موسكو في معزل عن طرق الغارات الكبرى ،
تحميها الغابة في ملتقى الطرق . وكان المعمرون (المستعمرون) ورجال
السلاح يتوافدون اليها منذ زمن بعيد . وقد أصبحت منذ ١٣٢٧ عاصمة
دينية ، ومنذ ١٣٥٣ أصبح للأمير الأكبر ، بتفويض من خان قوم
الذهب ، سيد روسيا ، سلطة القضاء على الامراء ، وكانت له الثروة والجاء .

وهكذا تحول ايفان الثالث من أمير إلى رئيس دولة ، وأصبح أقوى
من غيره ، ودخل كبار الامراء (بويار) جملة في خدمته . وتخلي
الامراء الضعاف عن استقلالهم ، ولم يبق إلا عدد قليل من الإمارات
المستقلة . وتحققت على هذا النحو وحدة الأرض . واجبر ايفان بحروب
١٤٩٢ و ١٥٠٠ - ١٥٠٣ ، أمير ليتوانيا ، على الاعتراف بامتلاك
الأراضي الواقعة على نهر الدنيبر والدونا ولقب « عاهل جميع روسيا » .
وأخيراً أفاد ايفان من تفتت وتجزئة قوم الذهب ، فرفض دفع الجزية
إلى التتر واحتفظ بها لنفسه ، وأعلن نفسه حاكماً مستبداً (اوتوقراطياً)
مستقلاً عن كل سيد أجنبي ، ومثل بشخصه ، في أعين جميع الروس ،
المقاومة المسيحية والقومية لكل كافر عميل للشيطان .

العقيدة الامبراطورية البيزنطية ورسالة روسيا المقدسة . - وكان
نجاحه وديانته الأرثوذكسية سبباً في زواجه بصرفيا ابنة أخ آخر امبراطور
بيزنطي . وقد جعل المعاصرون من هذا الزواج رمزاً سياسياً ، وصاغت
الكنيسة الأفكار ، التي فرضت على عقل الروس وقلوبهم ، وهي أن

- ٣٢٦ -

روسيا المرتبطة وحدها بالايان الحق ، بلد مقدس د روسيا المقدسة ، ،
وان الشعب الروسي د امراييل الجديدة ، قد اختاره الله لتكون له
الأولية على جميع الشعوب المسيحية وليعمل فيما على نصر بملكة المسيح
وستبقى الدولة الموسكوفية حتى آخر العالم ، وستسيطر على جميع
شعوب العالم ؛ وان موسكو د روما الثالثة ، هي العاصمة الأخيرة
والوحيدة في العالم المسيحي ؛ وإن عاهل موسكو ورث هذه الروح
الالهية من الاباطرة البيزنطيين ؛ وانه مسيح الرب ولا يجب عن أعماله
إلا أمام الرب ؛ وان معارضة مشيئته ذنب ؛ وان الجميع ، حتى
الكنيسة وزعيمها ، ملزمون بطاعة الأمير ، وليس للفرد حق التصرف
بنفسه . وأخيراً كانت الاكثوية متفقة على التفكير بأنه يجب على الأمير
ان يؤمن سلام كل فرد بفرض المراقبة الدقيقة على الطقوس الدينية
والتسليم الحرفي لكل كلمة في الكتاب المقدس ، وحذف الفكر الحر
الذي يؤدي إلى الهرطقة .

وقبني ايفان الثالث الشارات التي ترمز إلى سلطته المطلقة ، وترجع
إلى أصل إلهي وهي : النسر ذو الرأسين والصولجان والكرة والعرش ،
وتخلى عن طراز حياته كملاك كبير صاحب أطيات في سبيل مرامم
البلاط البيزنطي ، وانعزل عن رعاياه ، وأقسام ككائن من نوع سام
لا يستطيع الناس القانون السذج ان يقتربوا من حضرته إلا إذا كانت
جباهم على الارض .

دولة موسكويا العسكرية المطلقة . - لقد كان ايفان الثالث
زعيماً مطلقاً . قام بحملة ضد التتر ضد الغربيين المراطقة ، واضطر
لجاجة هجمات التتر على حدود طويلة بنفوس قليلة وضعيفة ، وانشأ
مستعينا بمدربي الغرب القطعات الاولى من الجنود المرتقة ، وجهزم

بالبنادق والمدافع ، ودرهم على النمط الاوربي . وقد أوجد هذا العمل مشاكل ضريبية . ويبدو أن ماعمله ايفان الثالث يدل على أنه لم يكن غريباً عن فكرة انشاء دولة موسكوفية منظمة على شكل معسكر حربي وحسب نظام حديدي ينفي كل أثر للحرية الشخصية .

ولكن وسائل العمل كانت تنقصه لأن الطبقة النبيلة التي استخدمها كانت قليلة المرات . أما الأمراء الذين أخضعهم وأصبحوا له اتباعاً فكانوا يأتون بجنودهم في حال الحرب ويؤدون المهام التي يكلفون بها ، ويأخذون مكانهم في مجلس البويار ولكنهم كانوا يحتفظون باستقلالهم الذاتي في أماراتهم الوراثية . لقد كانت روسيا تشبه اتحاداً ارسقراطياً ، وكان للنبلاء ، من حيث المبدأ ، الحق دوماً في اختيار سيد آخر ، أمير أكبر ، من ليتوانيا أو بولونيا .

وقام بين ايفان الثالث وهؤلاء الارستقراطيين نزاع طبقات ، حتى انه استخدم بوروقراطية من صغار الناس ودون ماض وجعل منهم كتاباً وأمناء وغيرهم ، وأنشأ طبقة عسكرية دنيا من رجال السلاح انتقاهم من بلاطات الأمراء المنحلة ، ومن صغار الملاكين المعفون من الضرائب في الاراضي الملحقة ، ومن الفلاحين والمشردين . وخرطهم في الخدمة العسكرية مدى الحياة وجزاهم أرضاً ، بوميسيتيا ، ومن هنا أتى اسم بوميتشيك . وجعل من أفاضلهم طبقة موظفين نبيلة دانت له بكل شيء ودخلت في المجلس ، وساهمت في اخضاع الطبقة النبيلة القديمة . واستطاع بذلك أن يحول دون اعتراف التابع به والانتقال إلى خدمة أمير آخر ، وحول اتباعه إلى رعايا خاضعة للخدمة العسكرية الاجبارية للدفاع عن البلاد .

ومن جهة أخرى ، عارض ايفان الثالث الطبقة النبيلة بطبقة الفلاحين .

وكف عن دفع الجزية بالمعدن الثمين إلى التتر ، فبنا على أثر ذلك الاقتصاد النقدي . واستعاض بالتدريج عن الاتوات عيناً والسخرة بالاتوات نقداً . وثقلت ضرائب الامراء بالحروب . واضطر الفلاح لبيع حصاده بسرعة ، وأفاد من ذلك تجار الحبوب . وكان أقل حادت يضطر الفلاح إلى الدين بفوائد ضخمة حيال الأمير . وإذا لم يستطع سداد الدين وجب عليه أن يشتغل لحساب هذا الأمير . وعلى هذا النحو فقد حرّيته وعلقه دين الأمير بالتراب . وكان المزارع المدين يعتبر تابعاً للدومين وبيع معه . وكان الفلاح يلجأ إلى الفرار ، وكانت هذه الوسيلة ممكنة في بلد ينقصه الرجال . وإذا حرم الامراء والبوميتشيك من اليد العاملة لم يستطيعوا القيام بالتزاماتهم حيال العاهل . وكان هذا العاهل ينحاز إليهم ضد الفلاحين . وعندئذ يبدأ بنزع المزارعين من مغادرة الدومين وباقطاع الاراضي السوداء ، مع فلاحها الذين كانوا في السابق احراراً ، واصبحوا على هذا النحو معلقين بالطين وملزمين بطاعة الملاك الاقطاعي ، بوميتشيك .

وهكذا أمن نزاع الطبقات لايفان الثالث طبقة نبيلة جديدة طيبة .

وأخيراً ازدهر نظام التوريث التقليدي ، وهذا ما لم يفعله ملوك فرنسا ، وحرّم الورثة المتحدرين من زواجه الاول من حقوقهم ، وسمى باصيل ابنه من صوفيا عاهلاً ومساعداً وخلفاً وراثياً حقيقياً للامبراطورية البيزنطية .

ايفان الرابع الفظيع زعيم الكفاح . - وبعد باصيل الثالث (١٥٠٣ - ١٥٣٢) الذي تم سياسته بقوة جرت تحولات كبرى في عهد حفيده ايفان الرابع الفظيع (١٥٣٣ - ١٥٨٤) . فقد

توج هذا عام ١٥٤٧ وله من العمر ست عشرة سنة وأخذ لأول مرة رسمياً لقب « قيصر » ونادى بنفسه خلفاً للقيصرة وألحق الكنيسة بالدولة أي تبنى مبدأ اليوسفيانية .

تابع إيفان الرابع مكافحة التتر بشدة عظيمة وأراد من ذلك أن يؤمن لنفسه الطرق التجارية الكبرى . وفي ١٥٥٢ قام بفتح خانات (بلاد) قازان ، واستولت الجيوش الروسية على استراخان وأصبح مجرى نهر الغولغا بكامله تحت إشراف موسكو ، وغدت استراخان نقطة اتصال بين أوربة وآسيا ، يقد إليها التجار من القوقاز وتركستان وإيران . وبسط فتح خانات سيبيريا ، في عام ١٥٨٢ ، النفوذ الروسي حتى نهر ينسائي وجبال التاي على « كاليفورنيا القرم » . ثم عاد إيفان الرابع إلى الباطليك على هراطقة الغرب الذين يعزلون روسيا . وفتح ليفونيا من ١٥٥٨ إلى ١٥٦٠ . ولكن دول السويد والدانمارك وليتوانيا وبولونيا تدخلت في الأمر وامتدت الحرب حتى ١٥٨٢ واضطر إيفان الرابع أخيراً إلى التخلي عن ليفونيا .

وفي الحقيقة لقد قلبت ثلاثون سنة في الحرب المجتمع والنظم في موسكوفا . فقد زادت نفقات الدولة ازدياداً عظيماً . وعلى إيفان الرابع جيش حملة البنادق ، ونظم جيش المدفعية والمهندسة والمرتقة الأجانب . وزاد في سلاح الفرسان ، وأقام على طول الحدود المتطاولة خطوط مدن جديدة وحصوناً وقلاعاً . وكل ذلك كان يستلزم النظام والمال .

فجاء الاقتصاد النقدي . - لقد تمت التجارة . وساعد التحالف مع خان القرم على الاتصال بأوربه عن طريق البحر الأسود . وكان التجار والصناع يأتون من المانيا وإيطاليا وهونغاريا عن طريق القرم . ومنذ

- ٢٣٠ -

رحلة تشانسلو عام ١٥٥٣ بلغ الانكليز روسيا وآسيا بطرق رأس الشمال والبحر الأبيض والمحيط المتجمد الشمالي . وكان لشركة موسكو في الانكليزية منذ ١٥٦٧ الحربة التجارية في كل روسيا ، في قازان واستراخان وحرية المرور إلى إيران ، وميناء أسامي في جزيرة ياغري عند مصب نهر دفين الشمالي ، ومستودعات ومكاتب في المدن الروسية الأساسية . ثم تبع الانكليز الهولنديون والفرنسيون والبروكسليون ، وبعد موت ايفان الرابع ، الفرنسيون في ١٥٨٦ . ومن ١٥٥٨ إلى ١٥٨١ تصرف الروس بميناء نارفا . وأتى إلى هذا الميناء سبعون سفينة في العام ١٥٦٧ . ولكن السويديين استرجعوا هذا الميناء في العام ١٥٨١ ، وعندئذ أسس ايفان اركانجلسك عام ١٥٨٤ .

وانطلق التجار الانكليز والهولنديون حتى الأقاليم النائية ، واحتكوا بالتجار المحليين واشتروا مباشرة منهم ، واحياوا الداخل ، وأقبل المال على روسيا . وأضيفت إلى تجارة الزينة تجارة المحاصيل الزراعية من حنطة وكتان وقنب ولحم وجلود وزفت وقطران وممك . وظهر تجار كبار في موسكو وبسكوف وقازان . وكان الواحد منهم يملك عشرة دكاكين فاكتر . بيد أن هذه البورجوازية ظلت قليلة العدد وضعيفة وذلك لعدة أسباب :

- ١ - منافسة المؤسسات الكنسية ومنافسة التجار الأجانب . وكان كلا الطرفين معفى من الضرائب .
- ٢ - منافسة البوميتشيك الذين يتاجرون في الغالب قليلاً ، والحصص القيصري للأسمك والخمرة والكافيار والتبغ .
- ٣ - تحديد عدد الأسواق ليساعد على مراقبة عمال الضريبة وعددهم قليل جداً .
- ٤ - الضرائب الثقيلة جداً .

أزمة المجتمع الروسي . - لقد أفاد القيصر من ازدياد تداول النقد ، واستطاع بذلك دفع مرتبات الجنود المرتقة . وفرض على أغنياء التجار وظائف وجعلهم مسؤولين بها عن ثرواتهم : جباية ضريبة تجارية أو استثمار حصر حكومي . كما أفاد أيضاً من الأزمة الواسعة في المجتمع الروسي الذي تكون بالفتح . فقد استدعت الاراضي الجديدة الرجال من كل جانب وحصلت الكنيسة وعائلات التجار الكبرى ، مثل آل ستروغانوف ، على أراضي من الحكومة في حوض الفولغا الاوسط والادنى وحوض السكاما الذي يتصل بسهولة بالاورال الغني بمراده الطبيعية ونودي بالمزارعين . وكثرت الاديرة والمدن الجديدة ، مثل اوفسا ، سامارا (١٥٨٦) ، ساراتوف (١٥٩٠) . وفي جنوب الاوكا ، في السهوب ، ألف الفارون شركات كوزاكية حرة من الصيادين والساكنين وقطاع الطرق . وأقام وراهم فلاحون ، وحمتم خطوط من المدن مثل بربانسك (١٥٦٠) ، اوريل (١٥٦٤) ، فورونيج ، ليفني (١٥٨٦) .. الخ . ولكن افتقد الرجال ، وفرغت أراضي الوسط من السكان ، وفر الفلاحون المدينون أو الذين ضايتهم الضريبة . وبعد ١٥٧٥ وجد في منطقة موسكو ٧٦ - ٩٦٪ من الاراضي بوراً ، وخلت القرى من السكان ، ولم يستطع البوميتشيك القيام بخدماتهم ، كما لم يستطع الامراء دفع الضريبة . وفقدت الدولة الرقابة على المكلفين وفرغت خزانة الدولة . ولكن كبار الملاكين والبوميتشيك كانوا يتنازعون على المزارعين ولا يجدون حلاً لمنازعاتهم ودعواهم إلا باللجوء إلى السلطة المركزية .

الانتقال من الادارة الأميرية إلى ادارة الدولة . - لقد وضع ايفان الرابع ادارة الدولة إلى جانب الادارة الاميرية . فتحت القيصر ومجلسه أصبح الازوجاد وسيطاً بين القيصر وجميع الإدارات : خزنة

الدولة ، المتميزة عن الخزانة الخاصة ، بريكاز أو دواوين الاختصاص ، والعرائض ، والشرطة ، وحملة البنادق ، والمدفعيين والمرتزة ، ود قصر قازان ، الذي أحدث في العام ١٥٥٨ وهو نوع من وزارة مستعمرات للاراضي المفتوحة ؛ وأمانه الشؤون الخارجية ١٥٤٩ ، ودويان السفارات (١٥٦٤) .

ونظمت براءة ١٥٥٦ خدمة البوميتشيك . وكان عددهم ٢٠٠٠٠٠ . وعليهم أن يأتوا بفارس مجهز ومسلح عن كل ٥٠ هكتار من الارض . وكان مستغل الواحد منهم على العموم من ١٤٠ إلى ٢٣٠ هكتاراً . ولكن وجد من بينهم من كان انتفاعه ٣٠٠ ، ١٠٠٠ ، ١٣٠٠ هكتار . وكان وضعهم هذا يدوم مدى الحياة ثم أصبح وراثياً ، ولكنهم لم يستطيعوا التخلي عن خدمة القيصر ليصبحوا اتباع أمير آخر . وكانت موارد مستغلاتهم قليلة . ونكب التسليح البوميتشيك فأخذوا يعترضون الفلاحين الفارين بالضرائب .

وأصبحت الخدمة العسكرية اجبارية على جميع الملاكين العقاريين . بيد أنه كان بإمكانهم استبدال الخدمة بالضريبة . وزالت قطعات الاتباع ، ووجد الجيش ، وفرض القيصر من أجله ضرائب حسب هواه ، ضريبة الملح وضريبة البنادق . الخ ... ومنذ ١٥٥٤ لم يخول أحد أي امتياز حصانة . وفلت الحصانة القديمة ، وفي ١٥٨٠ علقت حصانة الضريبة الخاصة بالاكليروس .

الدولة البوليسية . - لقد لاقت الاصلاحات معارضة الطبقة النبيلة القديمة . وفي ١٥٦٥ أنشأ ايفان الرابع الحرس الملكي (الاوبريتشينا) وكلف بالسر على القيصر والقضاء على كل خيانة في البلاد . وكان الحرس (اوبريتشيك) يبدلون ذاتهم ويتفانون في خدمة الملك . ودخل في هذا

الحرس بعض أعضاء الطبقة النبيلة القديمة ، وخول اقطاعات في وسط روسيا ، وحصل على أثر ذلك نقل في الملكية . فقد اضطر الامراء اصحاب الاطيان أن يتخلوا عن دوميناتهم التي ورثوها عن أجدادهم وبأخذوا دومينات جديدة في المناطق المحيطة ، زمشينا ، والافضل بالقرب من الحدود على الاراضي المفتوحة حديثاً . وانقطعت الروابط القديمة التي كانت تربطهم بسكان الوسط فقد وجدوا منعزلين في وسط مجهول ، ولم يكن لطبيعتهم إلا بصفتهم عمال القصر ومعرضين بالقرب من الحدود لهجات لا مفر منها إلا بحماية القصر . وكان للحرس الملكي الرقابة البوليسية على المناطق المحيطة التي فقدت الحظوة وأصبحت مشوهة بالحيانة . وكانت لهذا الحرس الملكي الحق في فرض كل شدة ممكنة عليها ، حتى ان عدة عائلات أميرية أبيدت عن بكرة أبيها . وفي ١٥٧٠ نهبت نوفغورود الكبرى وفاض النهر بالجثث .

ولكن ايفان من جهة أخرى ، تعلق من أجل البوميتشيك والحرس الملكي (اوبريتشنيك) بتثبيت الفلاحين بالأرض وتحويلهم إلى أقنان . ولقد نص قانون ١٥٥٠ على تسليم المدين غير المملوء إلى دائته واجباره على العمل حتى وفاء الدين . وفي العام ١٥٧٤ فرض ايفان على كل فلاح « أسود » ، مقيم على الأراضي السوداء ، أن يزرع لحساب الدولة ٤ هكتارات في السنة . وكانت هذه السخرة واسطة مؤقتة لتغطية فرار الفلاحين . وفي ١٥٨٠ و ١٥٨١ حرم القصر نكران المزارع للأمير ، ولم يستطع المزارعون مغادرة الدومين دون ترخيص من الأمير . وكان المزارعون الماربون يلاحقون بشدة .

الملكية الموسكوفية والملكية في الغوب . - وهكذا تبدو موسكوفيا ملكية مستبدة مطلقة . فقد كانت القصر يملك في الحق

والواقع جميع امتيازات السيادة : السلطة التشريعية والتنفيذية والقضائية والمحاكم الخاصة ، وفرض الضرائب حسب هواه ، وجديشاً دائماً تحت تصرفه ، وتسمية الموظفين . وتختلف الملكية الموسكوفية عن الملكية المطلقة في أوربة الغربية بسعة حقوقها : ويبدو أنه لم يكن هنالك قوانين أساسية يمكن أن تناهض استبداد العاهل ، مثلاً ، فيما يختص بوراثة العرش ، أو حقوق خاصة للأفراد وهيئات الدولة ، مثل حق الملكية . وبالمقابل ، ربما كانت سلطته في الواقع ، محدودة في الظروف العادية بوجود الحصانة وفقدان بورجوازية متمولة لمعارضة الطبقات الأخرى . لقد كانت الملكية المطلقة الموسكوفية تؤلف نوعاً من أكبر أنواع الملكية المطلقة ، في امرة الملكية ، فهي تقترب من الملكيات المطلقة الآسيوية الخاصة بالمجتمعات التي يكون فيها ضعف الرأسمالية صفة سائدة . ولكن كانت لها نفس الشروط الأساسية التي تمتاز بها الملكية المطلقة في أوربة الغربية في القرن السادس عشر : من مثل أعلى قومي خاص تشجعه نهضة المذاهب القديمة المتكيفة مع الحاجات الجديدة ، واعتقاد الشعب برسائله ، وطموح فردي لأمة مهيمنة متجسدة في عاهل ، صورة الآله ، وبطل قومي منتصر ، وحرب دائمة ضد الأجنبي على حدود مهددة جداً ، واقتصاد نقدي في طريق البناء ، ونزاع طبقات يختلف نوعاً عن نزاع الطبقات في الغرب ، إذ لا يقصد هنا معارضة بورجوازية - نبيلة ، بل نزاع طبقتين نبيلتين متشابهتين نوعاً ما ، لأن كل من هو أمير اقطاعي من طبقة نبيلة أو من أخرى ، يعارض فلاحاً مسلحاً بصورة أفضل في موسكوفيا بما في الغرب بسبب المسافات وامكانيات الفرار والمساومات بين أميرين . وكان نزاع الطبقات ، باعتباره نزاعاً ، ينتج نفس النتائج : وهي أن تبقى الدولة حكماً وسيداً ؛ وكانت الدولة ، كما في الغرب ، تضرم النزاع بين الطبقات ، وتولد نزاع الطبقات . ولذا فان الشروط الاساسية تبقى نفسها وجود الملكية المطلقة يبدو مشروحاً .

الفصل الثامن

خطر الأتراك العثمانيين على أوربه

في العام ١٤٥٣ دخل السلطان محمد الثاني القسطنطينية فاتحاً ، واعتبر هذا الحادث فاتحة عهد جديد في توسع الامبراطورية العثمانية . وأحرز هذا السلطان انتصارات مبهمة في أوربه وآسيا : فتح آثينا عام ١٤٥٦ والبيلوبونيز في ١٤٥٨ وأخضع البوسنة وقسماً من الهرسك . ووضع يده على طربزون في آسيا الصغرى ، وكان من أهداف تجهيز الامبراطورية باسطول بحري قوي . واستطاع العثمانيون بفضل هذا الاسطول ، بعد حربهم الطويلة ضد البندقية ، أن يهيمنوا على البحر المتوسط الشرقي . وتوفي محمد الثاني عام ١٤٨١ وخلفه ابنه بايزيد الثاني ، وحكم الامبراطورية ثلاثين عاماً ، وكان محباً للسلام والفلسفة والفنون ، واشتهر بشعره . وكان عهده فقيراً بالحوادث بالنسبة إلى عهد أبيه . فلم يقيم بالحرب إلا إذا رآها ضرورية لأمن الامبراطورية . وهكذا فتح باقي بلاد الهرسك لتأمين حدوده .

وفي العام ١٥١٢ تخلى بايزيد الثاني عن الحكم لابنه سليم الأول الذي عرف بنزاعه مع الشيعة وحبه للفتح كجده محمد الثاني . فقد استطاع في ثماني سنوات من حكمه أن يضاعف رقعة الامبراطورية بغامزاته الجريرة .

هاجم السلطان سليم دولة فارس وكانت منافسة قوية للامبراطورية

- ٣٣٦ -

العثمانية في آسيا ومركزاً قوياً للشيعة ، وكان يحكمها الشاه إسماعيل الاداري الصالح والحارب الباسل الذي استطاع أن يوسع امبراطوريته بسلسلة معارك ناجحة .

انطلق السلطان سليم للحرب ضد فارس في خريف ١٥١٤ وحشد على الشاطئ الآسيوي للبوسفور جيشاً مزوداً بالرجال والعتاد والتقى بخصمه بالقرب من تبريز العاصمة وسحق جيشه . ثم شكك السلطان سليم السلاح ثانية عام ١٥١٦ ضد سلاطين المماليك ، وأعلن عن نيته في أخذ مكة والمدينة . وكان أول صدام له معهم في سورية بالقرب من حلب في مرج دابق ، ودامت هذه الحرب بضع ساعات وأحرز السلطان سليم بعدها نصراً جديداً . ثم دخل دمشق ونظم ادارة سورية وتباً للقيام بحملة جديدة على مصر .

وغادر السلطان سليم دمشق في كانون الأول ١٥١٦ ، وفي أوائل كانون الثاني ١٥١٧ وصل القاهرة حيث كان ينتظره جيش المماليك فلم يلقى مقاومة في سحقه ، واستولى العثمانيون على القاهرة وأعملوا فيها السلب والنهب والتخريب .

وبعد أن قهر العثمانيون والمماليك أصبحوا سادة شبه جزيرة العرب . وانتزع السلطان من الخليفة العباسي لقب خليفة المسلمين .

ونوفي السلطان سليم عام ١٥٢٠ في ظروف مرية وخلفه على العرش ابنه السلطان سليمان .

سليمان يهدد أوروبا . - اعتلى السلطان سليمان العرش في آخر شهر أيلول ١٥٢٠ : وبعد شهر من هذا التاريخ توج شارلكان امبراطوراً في اكس - لا - شابل . وستقوم بين العاهلين حرب لا هوادة فيها

خلال عشرات النين . فقد كانت للعاهلين مطامع واحدة وكان كل منها يطمح إلى تأسيس امبراطورية واسعة .

وقد استطاع السلطان سليم في حياته حل جميع مشاكل الامبراطورية في آسيا ، ولذا كان باستطاعة ابنه السلطان سليمان الانصراف إلى أوربة . فقد هيا مشاريعه ، وقضى شطراً كبيراً من حياته في القسطنطينية ، وظل على مقربة من الاوضاع السياسية في أوربة .

قرر سليمان أن يهاجم أوربة من نقطة ضعيفة ، فاجتاح هونغاريا وامتد بهجومه إلى قلب أوربة المجزأة . وفي ٢٦ حزيران ١٥٢٢ أحاطت الاساطيل العثمانية بفرسان القديس يوحنا ، حماة جزيرة رودس . وبعد ستة أشهر من الحصار فتك الجوع والطاعون هؤلاء الحماة ، وتحت ضغط السكان ألقى السلاح فيليب ايل آدم ، سيد فرسان طريقة المستشفى (فرسان القديس يوحنا) ، وغادر الجزيرة في العام ١٥٢٣ ومعه فرسانه مع عدد كثير من الروديين . وبعد بضع سنوات على هذا الاستسلام تلقى هؤلاء الفرسان من الامبراطور شارلكان السماح لهم بالاقامة في طرابلس الغرب ومالطة . وكان الامبراطور يؤمل بهذه المساعدة أن يسد طريق البحر المتوسط الغربي في وجه الملاحه العثمانية .

وحدث في عام ١٥٢٥ أن سقط ملك فرنسا ، في واقعة بافيا ، أسيراً بيد الجيوش الامبراطورية الجرمانية ، فأثار هذا الحادث نشاطاً مريباً له أهميته العظيمة في المستقبل . فقد كانت أم فرانسوا الاول الملك الفرنسي تقوم بإدارة شؤون الدولة نيابة عن ابنها ، وعندما علمت بنبأ أمره أرسلت أحد دبلوماسيها إلى القسطنطينية وحملت رسالة إلى السلطان ترجوه فيها أن يتدخل لخلاص ابنها فرانسوا ، فأجاب السلطان بالقبول عصر النهضة (٢٢)

وعرض مشاريعه الكبرى ، وذلك بأن يتحرك الاسطول العثماني صوب اسبانيا ، بينما تنبج في الوقت نفسه جيوش السلطان السبوية إلى ايطاليا وتزحف على ميلانو . بيد أن نتائج هذه الخطط كانت على غير ما توقع لها ، فقد أطلق مراح الملك فرانسوا الأول قبل أن يياثر السلطان عمله . ولم يبق أمام سليمان أي حجة لاجتياح ايطاليا ، فما وسعه إلا أن وجه حملته نحو هونغاريا عوضاً عن ايطاليا واسبانيا . وكان للامبراطور الجرمانى مصالح في هذه البلاد ، لأن ملكها لويس الثاني الضعيف كان زوجاً لماريا أخت شارلكان .

ولم تكن ماريا الرابط الوحيد بين بيت آل هابسبورغ وهونغاريا . فقد كان الارشيدوق فرديناند ، أخو شارلكان ، زوجاً للاميرة آنا أخت الملك لويس . ولما لم يكن للويس هذا خلف فان فرديناند يعتبر وارثاً هونغاريا .

وكان الامبراطور شارلكان يخشى طموح أخيه فرديناند ويعامله بذلك وحيلة . وفي عام ١٥٢١ وضع أراضيه الوراثة في النمسا تحت ادارته ومنعه كامل الاستقلال وحمله مسؤوليات كبرى .

وفي ربيع ١٥٢٦ علم في هونغاريا ان السلطان العثماني يهدد البلاد من جديد . فأرسل الملك لويس دبلوماسيه إلى عواصم اوربه لطلب النجدة والعون . ولكن نشاطه وقف عند هذا الحد .

زحف الجيش العثماني في آخر تموز ، وبعد الاستيلاء على حصن يقع على الحدود ، اندفع باتجاه قرية صغيرة تدعى موهاكز على الدانوب ، حيث كانت مواقع الجيش الهونغارى . وكانت المعركة حاسمة في ٢٩ آب . فقد هلك فيها الالف من الامراء الهونغاريين ، وقتل الملك

لويس في الملحمة . ثم زحف السلطان نحو العاصمة الهونغارية ، بودا ، فاستسلمت دون مقاومة ، واحتفل السلطان بانتصاره في القصر الملكي .

لقد كانت واقعة موها كز ثقيلة بنتائجها على هــونغاريا ، فمن ذلك أن موت لويس جعل من فرديناند أقرب مطالب بالعرش الهونغاري . وفي الحقيقة لقد انتخب الملك فرديناند ملكاً على بوهيميا ، وكانت جزءاً من هـونغاريا ؛ وفي شهر كانون الأول ١٥٢٦ ملكاً على هـونغاريا نفسها . ويعتبر اعتلاء فرديناند عرش هـونغاريا بداية لاتحاد بين النمسا وهـونغاريا ، كما يعتبر هذا الحادث عظيم الأهمية في تطور أوربه في المستقبل .

غير ان فرديناند أدرك بعد قليل أن ليس من السهل البقاء في هونغاريا ، لأن البلاد تكره كل ما هو ألماني كرهاً عميقاً . ولقاومة هذا الملك النمساوي تقدمت الطبقة النبيلة الصغرى برشحها وهو جان زابوليا ، أمير تريغنبورغ ، وتوصلت إلى انتخابه ملكاً على هونغاريا . وبعد هذا الحادث مضت سنوات مليئة بالاضطراب والدسائس والمنازعات والمخادعات وكان فرانسوا الأول عدو آل هابسبورغ يدعم زابوليا ، ودعمه السلطان العثماني وكان يفكر بحملة كبرى على اوروبا .

وعندما علم فرديناند بمشاريع سليمان أوفد إلى القسطنطينية نفراً من أفضل دبلوماسيه ليقنعوا السلطان بالعدول عن مشروعه ، ولكن الوفد عاد بخفي حنين واستمر السلطان بالتعبئة .

اخفاق الأتراك امام فيينا . - كان وضع سليمان قوياً من الوجهة الدبلوماسية . فقد كان يرى ان اوربه مجزأة ومنقسمة على نفسها أكثر من أي وقت مضى ، ويتابع بكل دقة وانتباه تطور الحالة السياسية والدينية في المانيا . وربما كانت على علم بثورة البروتستانتين في دباط

- ٣٤٠ -

سببر عام ١٥٢٩ ، قبل الزحف على فينا ، ويقدر مدى النزاع الديني .
وعندما أكد سفراء فرديناند في القسطنطينية ان شارل كان يستطيع
الاعتماد على رعاياه ، تساءل السلطان بهمك ما إذا كان الامبراطور استطاع
ان يعقد الصلح ويسوي السلام مع لوثير .

وفي أيار ١٥٦٩ انطلق سليمان في حملته على فينا في ميدان واقعة
موهاكز ، حيث غلب لويس هونغاريا ، قبل ثلاثة أعوام ، وكان
في انتظاره زابوليا وأنصاره . وقد رافق هذا الأخير السلطان إلى بودا
وشارك في احتفال تتويجه ملكاً على هونغاريا في ١٤ ايلول ١٥٢٩ ،
وبعد اسبوع بلغ الاتراك في تقدمهم أسوار فينا وكانت عددهم يقدر
بثلاثمائة ألف رجل .

كانت حالة الملك فرديناند بائسة ، وقد حاول عبثاً طلب النجدة من
الامبراطور . ولم يكن لرعاياه أي رغبة في القتال في سبيله . وأخيراً
اضطر فرديناند ، باتفاق مع البابا إلى استملاك قسم من أموال الكنيسة
لتمويل الحرب .

دام حصار فينا أربعة أسابيع ، وحاول الاتراك خلال أربع مرات
المهجوم على المدينة ، وكانوا يردون على أعقابهم في كل مرة . وكانت
اوربة يهتف بألفاسها وتنتظر بقلق نهاية هذا النزاع الذي سيقدر مصير
القارة . ولم يحالف الطقس الاتراك ، بل كان سبباً في اخفاقهم . فقد
كان المطر يطل ليل نهار ، وكانت خنادق المحاصرين تفيض بالماء ، ثم
جاء البرد القارس ، ففت ذلك في عضد الاتراك فلم يندفعوا في القتال .
وفي ١٦ تشرين الأول رفع سليمان الحصار ، وقفل الجيش العثماني راجعاً
وعاد السلطان إلى القسطنطينية .

وفي ١٥٣٢ تهيأ السلطان سليمان ثانية للانطلاق لحرب الامبراطور

شارل كان واجتاز هونغاريا على رأس جيش قوي واجتاح الاراضي الوراثية التابعة لآل هابسبورغ في النمسا . ولم يوات الحظ هذه الحملة كالحملة السابقة . لأن الامبراطور عقد الصلح مع اللوثيين في نورامبرغ ، وأصبح مطلق اليدين في محاربة الفاتح .

والت الامبراطورية العثمانية توسعها في قسم آخر من العالم . ففي عام ١٥٣٤ ولى السلطان ظهريه أوربة وانطلق في حرب فارس . وأتاحت هذه الحرب لسليمان عدة انتصارات جديدة ، فاستولى على بغداد . وهكذا اتسعت رقعة الامبراطورية العثمانية في جنوب شرقي أوربة إلى الخليج الفارسي وأصبحت دولة من دول العصر الكبرى .

وفي هذه السنة نفسها أحرز سليمان نصراً مبنياً آخر في سياسته الأوربية . فقد أدت المباحثات بين ملك فرنسا والسلطان إلى عقد ميثاق هجومي مصري . وبعد سنتين اتبع هذا الميثاق بعقد اتفاقية تجارية بين فرنسا والدولة العثمانية وبوجها أصبح للتجار الفرنسيين المقيمين في بلاد الشرق الحقوق نفسها التي يتمتع بها الأتراك . وبالمقابل ان جميع التجار الأتراك في فرنسا يتمتعون بنفس الامتيازات التي يتمتع بها رعايا الملك فرانسوا الأول . وهذه السياسة كانت في أساس « الامتيازات الأجنبية » .

ولقد كان لفرنسا ، منذ عهد بعيد يرجع إلى أعلى العصر الوسيط ، علاقات وتقاليد مع بلاد الشرق الأدنى ، بيد أن سياسة التقارب الجديدة حولت فرنسا نفوذاً معنوياً في هذا القسم من العالم ، ورأى العالم المسيحي في هذه الاتفاقات جريمة وخيانة للإيمان المسيحي ، واعتبر الملك فرانسوا الأول خارجاً عن المسيحية على حين أنه كان ينعت نفسه بالملك المسيحي جداً والابن البار بأمة الكنيسة الرومانية التي يعزها ويعمل جاهداً لخدمتها .

وظلت سياسة السلطان سليمان الخارجية خلال السنوات الأخيرة من حكمه شبيهة بسياسة السنوات ١٥٢٠ - ١٥٤٠ . وبعد وفاة زابوليا في العام ١٥٤٠ انطلق السلطان للحرب عدة مرات ليؤكد نفوذه في هونغاريا وليمنع فرديناند هابسبورغ من اتخاذ وضع مسيطر في البلاد قد تكون له نتائج خطيرة في المستقبل على الامبراطورية العثمانية الناهضة .

وفي العام ١٥٤٨ - ١٥٤٩ قام بحملة ضد ايران وأعلن عند عودته على سادة أوربه بأنه استطاع أن يفتح إحدى وثلاثين مدينة بقوة سلاحه وتنظيم جيشه وحسن بلائه ، وصرعة حركاته ، وانقضاضه على خصومه .

وقضى سليمان السنوات الأخيرة من حياته بتقوية مواقفه العسكرية في هونغاريا والبحر المتوسط حفاظاً منه على مكاسبه ودفعاً لهجوم مفاجئ من أعدائه .

ومها اختلفت وجهات النظر في سليمان ، فما لا شك فيه أنه كان عالماً عظيماً . فقد برهن على ذلك سياسته العظيمة في الخارج ، وحسن ادارته وتنظيمه في الداخل . وقد أضفى التاريخ عليه لقب « الفاخر » أي « العظيم » ، ومما التواريخ العثماني « سليمان القانوني » ، لأنه استطاع بذلك ونظيره الثاقب أن يوطد النظام في امبراطوريته ويؤمن الرخاء لرعايا ، بقوانين مطبوعة بطابع الحكمة والعقل . كما يعتبر شخصية عظيمة من شخصيات القرن السادس عشر ، ويتمتع بمكانة خاصة وهامة بين عظماء الرجال الذين كان لهم دور كبير في تقرير مصير أوربه والعالم أجمع في ذلك القرن .

أما في البحر المتوسط فقد عادت العمليات إلى نشاطها ، حتى ان حملة ج - آ . دوريا J. - A. Doria ، بالرغم من كثرة سفنها الاسبانية والجنوية والخرية ، لم تتوصل إلى الاستيلاء على جزيرة جربة التي تعتبر

مفتاح البحر المتوسط الشرقي (١٥٥٩ - ١٥٦٠) . وفي العام ١٥٦٦ انتزع العثمانيون جزيرة كيو من أيدي الجنويين .

واقعة ليبانت . - أبرم السلطان سليم الثاني (١٥٦٦ - ١٥٧٤) الصلح مع الامبراطور لمتابعة الفتوحات العثمانية في آسيا ، بعد أن وضع الوزير الاعظم صقلي مشروعا للاستيلاء على قنـاة السويس وقناة الدون والفلوفا ، وفي البحر المتوسط استولت جيوشه على قبرص ، بالرغم من أنها كانت تابعة لحليفته القديـة ، البندقية ، وارتكبوا فيها الفظائع (١٥٧١) . وحاول البابا بيوس الخامس عندئذ أن ينظم حملة صليبية مع اسبانيا والبندقية ، وعهد بقيادة الاسطول إلى دون خوات . وتم اللقاء مع الاسطول التركي في ٧ تشرين الاول ١٥٧١ في ليبانت عند مخرج خليج كورنث . وخسر العثمانيون في هذه الواقعة ١١٧ سفينة و ٤٥٠ مدفعا . ولكن المسيحيين لم يتوصلاوا لاسترداد قبرص ، وظلت ليبانت نصرا دون غـد ، وفي ١٥٧٣ تخلت البندقية عن قبرص ، وازدادت جزيرة زانت بثلاثة أضعافا . وفي الحقيقة استولى دون خوان على تونس التي استردها الاسطول العثماني عام ١٥٧٤ . وظلت الجزائر مقرا للقرصان ومأوى للأمري المسيحيين .

أما السلطان مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٦) بن سليم الثاني فقد قتل اخوته الخمسة وترك وزراءه يعملون ما يريدون ، وأرسل عدة سفارات إلى أوربه ، وحاربت جيوشه على الدانوب واستولت على راب (١٥٩٤) وحاصرت عبنا كومورن ، وضربت الفرس في توريس بعد خـتج جيورجيا .

وأما ابنه محمد الرابع (١٥٥٦ - ١٦٠٣) فقد قضى على اخوته التسعة عشر وأخفق في هونغاريا وخسر موقعا راب وكيو واضطر إلى

الضرب على أيدي الباشوات النازحين عليه في آسيا . بيد أنه استطاع على الأقل مع صقلي باشا أن يحرز نصراً في موقعي آتغريا وكاربست في هونغاريا ١٥٩٦ .

تركيا عنصر من عناصر السياسة الأوروبية . - لقد أصبحت تركيا بهذا الفتح عنصراً من عناصر السياسة الأوروبية . وفي الحقيقة ، ان فكرة الحرب الصليبية مازالت قوية في آخر القرن الخامس عشر وفي بداية القرن السادس عشر ، بيد أن الارهاب ، الذي أوحى به الاتراك ، أخذ يضعف بسرعة ، ولم يعد الحلفاء العثمانيون في نظر الأوروبيين زملاء عصابات شرسة ، بل خلفاء أباطرة بيزنطة وأهلاً لتنظيم حكم دائم .

الاتراك في البحر المتوسط الغربي . - واستطاع الترك أن يستقروا في البحر المتوسط الغربي بعد أن نادى خير الدين أو بربروس قرصان الجزائر الشهير بنفسه تابعاً للباب العالي وأصبح قبطان باشا ١٥٣٦ ، وتوصل إلى التماسك في الجزائر ، بالرغم من هجوم شارلكان (١٥٤١) ، حتى انه أخذ يهدد الأوروبيين ، لأن القرصان الجزائريين كانوا يساجون اسبانيا بين حين وآخر ، ويعودون منها بالأسلاب والغنائم ، ويهددون حوض البحر المتوسط الغربي . ولم يستطع شارلكان أن يردم . وقام بعده ابنه فيليب الثاني بحملة صليبية حقيقية ضد الترك ، وأراد بذلك حماية جزر الباليار وملكة فالانس ، والحفاظ على مواصلاته مع نابولي وصقلية . وكانت هذه المهمة صعبة لأن الاسبانيين لم يكن لهم في افريقية الشمالية سوى بعض مواقع وموانئ كالمرمى الكبير ووهران وبوجه .

وفي أول القرن السابع عشر بدت الدولة الامبراطورية العثمانية دولة منظمة تنظيمياً قوياً ، وأصبح خطرها يخشى حقاً ، وبلغت نقطة الأوج بين موت سليمان وصقلي باشا (١٥٧٨) . وضمت في هذا العهد قبرص

وتونس واليمن وأقساماً أخرى من آسيا . وامتدت الامبراطورية العثمانية على ٧٠٠٠ كم من الغرب إلى الشرق ، وعلى ٥٠٠٠ كم من الشمال إلى الجنوب بمساحة قدرها ٨ مليون كم^٢ ، وتضم أكثر من ٥٠٠.٠٠٠ قرية ، على ما فيها من تناقضات بين السواد الأعظم من السكان الفقراء وكبار الملاكين الأغنياء . فقد كان التجار المسيحيون أو المسلمون في بغداد وطربزون وتوكات والقسطنطينية يجنون أرباحاً عظيمة ويجمعون ثروات ضخمة . وتمع كبار الموظفين بمرتبات كبيرة ، فقد كان وارد الباشا يتجاوز ٥٠.٠٠٠ دوقاً ، والوزير الأعظم أكثر من مليون . وتترك محمد الرابع ثروة تقدر بـ ٥٠ مليون دوقاً . وساعدت هذه الثروة على تقدم الحضارة . فمن ذلك أن المهندس المعمار سنان شاد جامعي شازاده ١٥٤٨ ، والسليمانية . وانتشر فن هذين الجامعين في العالم الاسلامي كله ، كما عم صنع الخزف التركي نصف القاشاني دون طلاء .

ولكن هذا الوجه المنير في تاريخ الامبراطورية العثمانية كانت تقابله بعض الظلال ، لأن الفساد كان يفتك في الجيش وفي الولايات . وقد قامت ثورات في القرم ١٥٨٣ ، وفي أوساط الانكشارية ١٥٨٩ الذين فرضوا مرشحهم أميراً على البغدان (مولدافيا) ١٥٩١ ، وثورة الدروز في سورية ١٥٩٣ وثورات ترانسلفانيا والبغدان والانلاق (فالاخيا) ومن هنا يبدو السبب في توقف تقدم الامبراطورية ، وهو أن هذه الامبراطورية قد شيدت بالقوة ، ولذا كان من الصعب كسب البلاد بإدارة اصلاحية .

الحياة في الامبراطورية العثمانية . - يتبادر إلى الذهن سؤال وهو كيف استطاعت الامبراطورية العثمانية أن تحقق هذا التوسع العظيم في

النصف الأول من القرن السادس عشر ؟ لقد نسب بعضهم هذا التوسع إلى الوضع الاقتصادي الملائم في الامبراطورية . فقد كانت تنتج ما تحتاجه من المواد الأولية والسلع الغذائية من حنطة ولحم وأخشاب وملح ومعادن . ولم تستورد سوى السكر والتوابل . أما الصناعة فكانت ضعيفة . لقد كانت صادرات الامبراطورية من منتجاتها ، وخاصة الحنطة ، تأتيها بالموارد الغزيرة . وكانت الحكومة تستعملها في تمويل الحروب . ولقد برهن النقد التاريخي على أن السلاطين لم يهتموا مطلقاً بمصالح بلادهم التجارية ، بل انهم على العكس كانوا محرضين لها ودافعين ومشجعين . ومع ذلك فإن الانتصارات السياسية والحالة الاقتصادية الملائمة لا تكفي لإيضاح التوسع العجيب الذي لاقته الاسواق التركية في فاتحة العصور الحديثة . ويبدو أن هذا النمو العظيم مدين إلى تنظيم الامبراطورية وتركيبها الاجتماعي الذين اهتم بها الخلفاء العثمانيون وأولواهما عنايتهم بكل ما أوتوا من قوة وثبات . لقد كانت سلطة السلطان لا تعرف حداً أو قيداً ، وكانت رعاياه تدعن لمشيئته ، وكان يعتبر خليفة رسول الله ، وجنوده وموظفوه بحكم الارقاء الشخصيين . وكان أكثرهم يؤخذون من أطفال المسيحيين ويربون تربية اسلامية ويثقفون ليكونوا موظفين في خدمة السلطان والامبراطورية . وهكذا كان يساق الجنود والموظفون في المملكة . وكان رسل السلطان في كل أربع سنوات يجوبون الأقاليم المسيحية في شبه جزيرة البلقان وهونغاريا وشواطئ آسيا الصغرى الغربية ، ويعودون منها ومعهم عدد من الشبان الفقراء الموهوبين بين سن العاشرة والعشرين من عمرهم . وعندما يأتي الموظف المختص إلى قرية من القرى ، كان على الكاهن فيها أن يسلمه قائمة بأسماء الصبيان المعمدين في السنوات الأخيرة . ثم يدعى هؤلاء الفتيان ويقدمون لرسول السلطان ، فيختار

منهم من كان أصلح من غيره ، ثم ينزع هؤلاء من أهلهم وأولياهم ، وفي غالب الأحيان تكون فرقهم إلى الأبد .

كان هؤلاء الفتيان المصطفون يتلقون تربية خاصة تجعل منهم موظفين ممتازين وذلك بأن يتعلموا القراءة والكتابة واستعمال السلاح وقيادة الجنود . وما كانوا يجبروا على اعتناق الاسلام ، ولكنهم يروث من الحير لهم أن يرتدوا عن دين آباءهم وأجدادهم ولو ظاهراً ، ومنهم من أسلم وحسن اسلامه ودافع عن الامبراطورية العثمانية والاسلام بقوة وعزم . وكانت هيئة الموظفين تختار من بين الأمر المسيحية الدنيا لأن السلطان كان يريد لهم خداماً طيعين لا يعصون له أمراً .

وقد اشتهر بين هذه الهيئات جيش الانكشارية ، وكانت وحداته تؤلف نخبة الجيش العثماني . وقد لعبت هذه الوحدات دوراً هاماً في حراسة السلطان الشخصية . وكان الانكشاريون يدرسون تدريباً رياضياً عنيفاً وقامياً جداً ويلزمون بأن يحيا حياة فقيرة . وبالمقابل كانوا يتمتعون بنفوذ سيامي عظيم . وكان جيش الانكشارية في عهد سليمان يتألف من ١٢ - ١٤ ألف رجل . ومع الزمن أخذ طابع التشكيل السامي ، وأصبح أداة للفوضى والخطر على أنظمة الدولة وقوانينها ، وذلك عندما تسرب اليه الفساد وانصرف إلى ما لا يعنيه من أمور الحكم وتوتيبات السياسة . وبعد أن كان مصدر قوة للامبراطورية أصبح بؤرة للاضطراب وعدم الانصياع ، وظلت هذه حاله إلى أن قضى عليه القضاء المبرم .

الفصل التاسع

نهضة السياسة الخارجية

لقد شهد عصر النهضة منازعات دائمة بين الدول . لأن سادة أوربة ، بعد أن تم لهم ما أرادوا ووطدوا نفوذهم في بمالكهم ، أصبح بإمكانهم أن يعملوا في الخارج ، حتى ان الحرب المتعارف عليها بين الامراء الاقطاعيين في غضون العصر الوسيط انقلبت إلى حرب بين الدول ، وكما يقول ماكيافيلي ، لقد كانت الحرب فكرة مستحوذة على سادة اوربة وهدفاً من أهدافهم . ومن كان منهم أعظم شأواً من غيره حاول أن يسيطر على الآخرين ، فيقوم عليه هؤلاء ويعتصبون ضده للحفاظ على التوازن بينهم . وهذه السياسة ، التي عرفتها ايطاليا في شبه الجزيرة في القرن الخامس عشر ، امتدت إلى اوربة . وهكذا كانت ايطاليا استاذة اوربة في السياسة الدولية كما في غيرها . ولم يقتصر النزاع على اوربة وحدها ، بل وصل إلى المحيطات أيضاً لأن الاوربيين أخذ ينافس بعضهم بعضاً على أمواجه . وكانت الحروب متوالية ، حتى ان السلام لم يكن سوى هدنة للاستعداد لحرب مقبلة ، وان هذه الهدنة ليست سوى تحول في اسلوب الحرب ووسائلها أكثر مما هي تحول في المهارين . ومن الممكن تمييز ثلاث حروب :

١ - حروب ايطاليا من ١٤٩٤ إلى ١٥١٦ .

- ٢ - النزاع بين البيت الفرنسي والبيت النمساوي من ١٥٢٢ إلى معاهدة كاتو - كامبريزي ١٥٥٩ .
- ٣ - الحروب الدينية حتى صلح فيرفن ١٥٩٨ .

الشروط العامة

الدبلوماسية المستديرة . - لقد اقتضت شروط الحياة الجديدة ، في عصر النهضة ، وسائل عمل جديدة ، وثبتت دول أوربة ، على نمط الايطالين في القرن الخامس عشر ، فناً جديداً وهو الدبلوماسية المستديرة . وحتى آخر هذا القرن كانت لها سفارات رسمية يوجهها أمراء وكرادلة ووزراء ، تظهر عليهم سماء الأبهة والفخامة ، ويذهبون ليقاوضوا في قضية من القضايا ثم يعودون أدراجهم . ويجري التعامل على هذه الطريقة في القرن السادس عشر في قضايا الولادة والزواج وأحزاب الأمراء ، ووصول السادة إلى السلطة وتصديق المعاهدات . ولكن هذا الأسلوب لم يكن ليعطي إلا معلومات متقطعة عن الجيران .

ومنذ ١٤٩٥ والتألب الكبير ضد شارل الثامن فرضت ضرورة الاتصال بين الحلفاء ، ومع المحايدين ، ومع خصوم الغد ، وجود ممثلين مستقرين ودائمين في عواصم الدول ، ثم قلد هذا الاختراع البندقي في أوربة كلها ، وتشكلت عائلات سفراء حقيقية . وكان يرافق هؤلاء « المقيمين » ، من نبلاء اللباس والنبلاء الصغار والكنسيين ، في بعض الأحيان ، أمير كبير يقوم بدور الأبهة والظهور . وكانوا يفاوضون ويهيئون الاتفاقيات والاتفاقات ويزودون ملكهم بالمعلومات . ولذا كانوا يراقبون ويصغون ويرفعون التقارير والرسائل التي أصبحت فيما بعد برقيات . وفيها نجد معلومات متنوعة ومختلفة الأصل . وكان السفير الدائم جاسوساً بمنزلة

يشرف على شبكة استعلامات ، وعاملاً سياسياً يتصل بالجواسيس ويوزع المرتبات والمنح والمعاشات ، ويتخذ ترتيباته مع مشاوري الدولة والمبشرين والاعضاء المؤثرين في الهيئات والطوائف المختلفة في المملكة ، فمن ذلك أن كان للملك فرنسوا الأول ممثل في البندقية يدعى بيليسييه ، وقد امتد نفوذه إلى الشرق . وفي عهد فيليب الثاني أبدى الاسبانيوت اندفاعاً كبيراً ومهارة في سير عمليات التجسس وشبكتها ؛ ومن أشهر هذه الشبكات شبكة دوق آل ب في فرنسا . وكانت حياة السفير شاقة وراثة خشيلاً ، وحمايته ضعيفة ، وكثيراً ما كان يتعرض للاخطار بسبب بطء المواصلات .

وإلى جانب هؤلاء السفراء كانت فرانسوا الأول وفيليب الثاني يستعملان عملاء صريين ومغامرين وفرساناً وأطباء في المفاوضات السرية ، وشخصيات قبيحة يمكن البراء منهم ويمكنهم أن يفيدوا في علاقاتهم السيئة .

وكانت طريقة الدبلوماسية ايجابية ، والمعول عليه هو النتيجة ، والاهتمام الاخلاقي يتنازل عنه لحساب علاقات القوة . وعلى هذا فالدبلوماسية حرب في ميدان آخر يختلف عن ميادين القتال . أسلحتها العادية الكذب والخداع والمكر . وعلى السفير أن يعرف جيداً التاريخ « سيد الخاتلة والغش والنكت والحنث » كما يقول كومين ، وأن يظهر نفسه انساناً خيراً ، مخلصاً ، أميناً ، صريحاً ، حراً ، ليحظى بثقة محدثيه ويعرف كيف يجدهم في الوقت المناسب على حد تعبير ماكيافيلي ؛ وان يطمئن بأنه مهم بالأمر ويريد أن يعمل شيئاً بينا يريد أن يعمل شيئاً آخر . وقد أصبحت هذه الطرق والأساليب اتباعية وألفت أدوات مهنة الدبلوماسية . فلتطمئن حليف عن لقاء لم يقبل فيه ، يجب على السفير أن

يؤكد بأن ليس لعاهله يد في هذا اللقاء ، وإنما الذي دعا اليه هو الفريق الحصم في صالح السلام . ولدب الحماسة والغيرة عند حليف ، عليه أن يرحي إلى هذا الحليف أن بالامكان أت بفضل عليه أمير آخر أصبح الاتفاق معه وشيكاً . وللسيطرة على متحدث مقاوم ، على السفارة أن تنظاهر بعزمها على القطيعة واخراج أعضائها كأنها تريد أن تنصرف من حضرته .

وفي المفاوضات الرسمية يتكلم عضو واحد باللاتينية عن جميع أعضاء السفارة . فاذا ماانتهى ، عقد المتحدثون مجلساً في ركنٍ ما قبل أن يكلفوا بخطيبهم بالاجابة . ويتراسل السفراء مع هيئات مختصة في الحكومة المركزية : الملك ، مجلسه السيامي ، وقليلًا قليلًا مع أمناء الدولة . وكان على سفراء البندقية أن يقدموا عند عودتهم تقريراً مكتوباً يقرأ في جلسة رسمية في مجلس الشيوخ بحضور الدوج ، ثم يحفظ هذا التقرير في سجلات « المكتب السري » . وتعتبر تقارير السفراء البنادقة اليوم مصداً تاريخياً ثميناً .

الملاحه . - لقد بدل اكتشاف العالم الجديد ، في مطلع القرن السادس عشر ، أهمية البحار ، وأصبح المحيط الاطلسي يفوق البحر المتوسط مكانةً . وبعد أن كانت الحضارة والسياسة الاوربية قاصرتين في السابق على البحر المتوسط وبحار الشمال الضيقة : البالطيق وبحر الشمال والمانش ، أصبحت اطلسية في النصف الثاني من القرن السادس عشر . ونجم عن ذلك نزاع بين سفن المتوسط والسفن الجديدة الصالحة للملاحه في المحيط الاطلسي . وهذا مادعا إلى تقدم صناعة السفن نوعيةً واستيعاباً طبقاً للحاجات الجديدة لم كما بدأ دور السفن المسافرة على خطوط بحرية ولمسافات بعيدة .

الجيش . - ان أحسن مثال يضرب للجيش الأوربي في أول القرن السادس عشر هو الجيش الفرنسي ، جيش شارل الثامن ، ويتألف من قطعات مختلفة .

١ - جنود مجهزون بأسلحة الرمي لاعداء المهجوم وخفض معنويات الحصوم .

٢ - جنود مجهزون بأسلحة يدوية صالحة لاختراق صفوف العدو أو لصد هجومه .

٣ - جنود مجهزون بأسلحة خفيفة للاستطلاع والاتصال ومتابعة النجاح واستغلاله ، وأسلحتهم الرماح والسكاكين والأقواس .

٤ - الجنود المشاة ونصفهم مجهزون بالحراب وآخرون بالرماح ، وقسم بالبنادق .

٥ - حاملو الأقواس والسهام وهم فرسان ومشاة .

٦ - سلاح المدفعية ويضم ١٤٠ فوهة مدفع ثارية .

الجنود المرتقة . - وهي جيوش ممتنة للقتال والحرب . وقد تخصص بعض البلاد بنوع من القتال . وكانت قوى الأمن الداخلي تنتقى من النبلاء . ويغدق الملك عليهم اعطياته ، ويعتمد عليهم في الصدام العنيف . أما المدفعية فتؤخذ من سويسريي الوديان العليا أو الالمان أو البورجوازيين الصغار والفلاحين المومرين الذين يجهزون أنفسهم على نفقتهم الخاصة . وكان كل من هؤلاء تحت إمرة زعيم عسكري قوي الشكيمة يتقاضى من الامبراطور أو الملك مرتباً خاصاً ينفقه على نفسه وعلى جنوده . وكان جيش المرتقة قوياً مدرباً ، وبكاف غالباً ، وليس في استطاعة أي دولة اعاشة مثل هذا الجيش . ولذا كان يلجأ اليه في

الافاق اأطرة وبتعاقد مع زعيمه على مبلغ معين من المال لقاء الاعانة عليه في معركة من المعارك .

اسلوب اأوب . - من الممكن أن يدوم أجل الحرب طويلاً لان القتال يقوم برضى الطرفين . وكان الجيش يقاتل بصفوف مرصوة بعضها وراء بعض ، تتقدم ببطء ، وعندما تصل الى مقربة من العدو تحمل عليه . وإذا بدأ القتال فمن الممكن ألا ينتهي ، ولذا كان يلجأ إلى طرق استراتيجة أخرى مساعدة وذلك بأن يحاول الاستيلاء على المدن واحدة بعد أخرى ، أو على مخازن تموين العدو ، أو اجتياح الريف ، واعدة الفساد والتخريب لاجبار العدو على التخلي عن القتال لنقص التموين . وفي مثل هذه الاحوال كان القتال يعتمد على قوى الفرسان ، باعتبارها امرع حركة ، للحيلة دون اأصار .

وكان من حروب اأطاليا ان ساعدت على تقدم صناعة الاسلحة وخاصة صناعة المدافع وقوتها على الضرب والاطلاق في تدمير الاسوار . وهذا ما دعا إلى تقوية المدن ببناء استحكامات أمام الاسوار وخلفها بشكل تنفذ منها كرات المدافع دون زعزعة الاسوار . وقد كانت المدافع تستعمل ، حتى ذلك اأمن ، خاصة في اأصار ، ثم مالبت ان استعملت في ميادين القتال مع الاسلحة الاخرى . وكانت موقعة مارينيان أول موقعة كبرى في العصور اأديثة التحمت فيها الاسلحة الثلاثة : المدفعية والفرسان والمشاة . وكان لقاء اأصوم في الحرب يدهوهم إلى تقليد بعضهم بعضاً والافادة من تجاربهم اأربية لتحسين اسلحتهم وطرقهم التعبوية وتحصيناتهم العسكرية .

ومع الزمن تقدمت صناعة المدافع وبسطت ، كما نوعت قطع

عصر النهضة (٢٣)

الاستعمال . وبدأ أن الرطوبة توهن التحصينات الترابية فعوض عنها بأسوار رقيقة ، تستطيع القنابل أن تنفذ منها بسهولة دون تخريب كبير . وفي آخر القرن ساد استعمال الكمين والمهجوم الصاعق الجريء عرضاً عن العمليات الكبرى ، وأصبحت الجيوش أقل عدداً وغنى بالعتاد وذلك لأن ازمة الرأسمالية وارتفاع الاسعار والعوائق التي أقيمت في وجه الانتاج ، بسبب الحروب الأهلية ، والتجزئة المتزايدة لأوربة وانقسامها إلى أمم وشيع وأحزاب ، إن كل هذه العوامل قللت موارد الدول وانتهى العصر بأفول .

الحروب الاقتصادية والمالية . - وكانت الحرب حرب اعتماد وثقة أيضاً . غير أن تعبئة رؤوس الأموال النائمة وتحويل رؤوس الأموال المستعملة في المشاريع الأخرى كانا يساعدان سادة أوربة على تجهيز جيوشهم بالتسليف على مردود الضرائب الذي يأتيهم في المستقبل . ولذا كان من المهم أن يحوم الحشم من الحصول على الاعتماد اللازم لتعبئة جيوشه .

وكانت الحرب حرباً اقتصادية أيضاً . فقد كان سادة أوربة يقومون بتشكيل قومية اقتصادية ، ويريدون بذلك تحقيق نوع من اكتفائية اقتصادية على الصعيد القومي فيما يتعلق بانتاج المواد الأولية الضرورية لعتاد الحرب والمؤن من معادن وأملاح معدنية كملح البوتاس والكبريت وانتاج هذا العتاد نفسه . وكان يراد حفظ وجذب القدر الاعظم من النقد الذهبي والفضي الضروري للحياة الاقتصادية ودفع رواتب الجنود وشن العتاد والسياسة الكبرى . ولم تكن الحكومات لتعمل إلا قليلاً بالحاجة الجبركية ، بالرغم من أن رسوم الجمر في الدخول على المنتجات المصنوعة ، وفي الخروج على المواد الأولية ، قد استعملت في بعض

- ٣٥٥ -

الحالات . لم يكن عندها عدد من الموظفين الضروريين لاقامة خط جبركي كما كانت تعوزها التجربة لتحويل الحماية إلى نظام أو مذهب . وسلكت طريق المنع في الدخول بتحريم الاشياء الأجنبية ، وفي الخروج ، بوضع القوانين ضد تهريب النقد ، ولجأت إلى تعديد النفقات وسياسة التقشف والحصر . وكان الشعب ، وخاصة تجار المدن ، يفضلون في الغالب أن تفرض الحكومة حرية المبادلات . غير أنهم ، في فترات أزمة اقتصادية أو انحطاط أو أزمة افراط وتهديد خارجي ، كانوا يقبلون أو يطلبون إلى سادتهم هذه القومية الاقتصادية ، كما في انكترا في عهد إليزابث قبل ١٥٨٨ ؛ وفي فرنسا عام ١٥٧٦ . وكانت القومية الاقتصادية في البدء سلاحاً بيد الحكومة في نزاعها السيامي .

الامبراطوريات والامبرياليات

إن الفكرة القائلة بوجود سلطتين تحكمان العالم المسيحي في اوربة والسائدة في العصر الوسيط مازالت باقية في مطلع العصور الحديثة وفي بداية القرن السادس عشر . وكان كل من الزعيمين البابا والامبراطور يدعي بالسلطة العليا .

كان البابا يتطلع إلى سيادة العالم ، وحقه في حل الرعايا من بين الولاء للملوكها ، وخلع هؤلاء الملوك ، وتوبيج الامبراطور ، وارشاد الملوك . ولكنه ، في الواقع ، كان قليل التأثير . فقد حاول عبثاً التبشير بالحرب الصليبية وتنصيب نفسه حكماً في الخلافات إذ لم يكن للملوك مصلحة في احترام تحكيمه . حتى ان عصرنة السياسة والاصلاح قللا نفوذه وجعلاه يقتصر على النفوذ الزمني الذي يستطيع أن يمارسه باعتبارة رئيس دولة وزعيم حزب .

وكان الامبراطور يتطلع لأن يكون في آن واحد وريث الاباطرة الرومانيين ويتلقى سلطاته من الله مباشرة ، أي أن يكون في القضايا الزمنية زعيماً وقاضياً ووسيطاً وحكماً . فقد كان يسمو على جميع النيجان ، وكان الملوك تابعين له ، وتتوجب الخدمة الاقطاعية عليهم تجاهه . وله وحده الحق في أن يسمي نفسه صاحب الجلالة ، وان يضع وحده ملوكاً . وباستطاعته وحده أن يقيم في جميع الممالك كتاب عدل رسوليين وامبراطوريين ، وله أن يوجه الشؤون العامة للبلاد والشعوب المسيحية ، وبخاصة أن يكون زعيماً ضد الكفرة والمراطقة والقائد الأعلى للجيش في الحروب الصليبية .

التسلطات القارية . - ان مذهب الامبراطورية العالمية يستجيب لعواطف حية وعميقة ، ولذا لا يفكر أحد بمهاجمته علناً . غير أن الواقع كثيراً ما يبدل الأفكار ويكشف عن حقيقتها . ومفهوم الامبراطورية ، من حيث المبدأ ، يحترم التنوعات القومية ، ويمكن اعتباره أداة اتحاد بين الشعوب ، ولكنه لا يلبث أن يتحول إلى مفهوم تسلط أي فكرة هيمنة أمة فاتحة تحاول ابتلاع البلاد والشعوب دوت مهادنة ، وتجهز الآخرين على الخضوع لارادتها .

التسلط الالماني . - من الملاحظ في اوروبا وجود تسلط الالماني ظاهر . لأن الامبراطورية ، بحسب التعريف ، ليست لشعب من الشعوب ، بل هي فوق الشعوب ، ويجب أن تنتقل منطقياً من عاجل لآخر ، وأن يعهد بها تارة لشعب وتارة لشعب آخر . ولكن الالماني اعتبروها شيئاً خاصاً بهم دون غيرهم وهو الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة التي اقتصر على الأراضي الجرمانية . وفي آخر القرن الخامس عشر سميت « الامبراطورية الرومانية المقدسة » من قومية ألمانية . وفي ١٥١٨ ،

عندما رشع كل من فرانسوا الأول وشارلكان نفسه للانتخاب الامبراطوري ، أمر فيمبيلنغ باعادة نشر معاهدة قديمة تتعلق بنقل الامبراطورية إلى الجرمان ، وأشار إلى أن الامبراطورية يجب الا تعود إلى فرنسي أو بورغوني بل إلى الماني ، وأصبحت الامبراطورية بالنسبة للألمان علامة فارقة واداة لتفوقهم على الشعوب الأخرى ، أي اداة تسلط . إلا أن نمو الارات في الامبراطورية المقدسة دفع زعماء هذه الامارات إلى النزوع إلى السيادة ضد الامبراطورية ، ثم جاء الاصلاح الديني فقسم البلاد إلى فئتين بروتستانتية وكاثوليكية ، وقد ساعد هذان العاملان على تفكيت المانيا وحالا دون ظهور هذا التسلط .

التسلط الفرنسي . - لقد كان الفرنسيون يصرحون في البدء بأنهم بعيدون عن كل تبعية حيال الامبراطور واعتبروا الملك امبراطوراً في مملكته . ولكن الاحداث كذبت هذه الأقوال ، فمن ذلك ان شارل الثامن انحدر إلى ايطاليا ليؤلف إلى الشرق ، ويقود حرباً صليبية ، ويوجد لنفسه القاباً في امبراطورية القسطنطينية . فقد دخل نابولي وتاج الذهب على رأسه ، وهو بمسك بيديه الصولجان والكرة الامبراطوريين ، والشعب يصرخ : « أيها الامبراطور المبارك جداً » . وهذا ما أثار الدهر في المانيا . فقد خيل أنه يتطلع إلى لقب امبراطور الامبراطورية الرومانية الجرمانية المقدسة . وظهر هذا التسلط الفرنسي بمحاولات السيطرة على ايطاليا وترشيح فرانسوا الأول نفسه للامبراطورية المقدسة عام ١٥١٩ ، وفسح مجالاً ، بعد انتخاب شارلكان ، لسياسة دفاعية مناوئة لآل هابسبورغ .

التسلط البورغوني . - لقد أخذ تسلط آل هابسبورغ شكلين كبيرين متعاقبين :

الأول ، وقد ظهر عندما كان شارل كان وربناً لأملاك البيت النمساوي ، وأملاك ومزاعم بورغونية ، وعروشي آراغون وقشتالة ، وامبراطوراً عام ١٥١٩ . وكان شارل غاند قبل كل شيء « بورغونياً » . وكان التسلط البورغوني في البدء مسيطراً عليه ، وأراد أن يأخذ من ملك فرنسا شارل المنهور وخاصة دوقية بورغونيا مع ديجوث وشارتروز شامبول حيث يرقد أجداده ، وأن يؤلف دولة بورغونية قوية ، وبدلاً من يسيطر على الغرب . هكذا كان يحلم ، وليست الممالك والدوقيات والكونتيات والامبراطورية إلا وسيلة لخدمة هذا الحلم . بيد أن أخفق ، ولقد رأينا أن معاهدة كامبريه عام ١٥٢٩ مع فرنسا الأولى قد كرست تقسيم أورث شارل المنهور .

والثاني ، هو التسلط القشتالي .

التسلط القشتالي . - عندئذ أخذ التوسع الهابسبورغي شكل تسلط اسباني قشتالي ومع الزمن تقتل شارل كان ، وكانت قشتالة تضم حله وقطيعه ، وتجهزه بالمال والجنود أكثر من غيرها ، وشيئاً فشيئاً دفع اسبانيا إلى السيطرة على إيطاليا . فقد كانت صقلية تجهز اسبانيا بالخطوة ، وكانت قروض أصحاب المصارف الألمانية مضمونة بأموال نابولي . وكانت منطقة ميلانيا مرحلة وميداناً لتجمع الجنود في منفذ شعاب الألب . وكانت الانتصارات في إيطاليا تحول اعتماد أصحاب المصارف الجنوبيين والفلورانسيين ، وبالتدريج دحر شارل كان الفرنسيين .

ثم دفع اسبانيا إلى السيطرة على الامبراطورية . فقد نصرته الجنود الاسبانية في موهلبيرغ عام ١٥٤٧ على البروتستانت الالمان من عصبة شمالكلد . وأمسكت الحاميات الاسبانية بالمانيا . وأراد شارل كان تنصيب ابنه فيليب الاسباني الفصح ملكاً على الرومانيين ووارثاً للعرش

الامبراطوري . وما كان الرأي الالماني ليخضع . بل كان يرى في ذلك محاولة هيمنة اسبانية . ودعمت اكنوية الالمان فرديناند أخا شارلكان وابنه ماكسميليان . ومنذ ١٥٢٢ تخلى شارلكان لأخيه عن ممتلكات آل هابسبورغ الوراثية في النمسا وفي المانيا ، وانتخبه نائباً عاماً له في المانيا . وأصبح فرديناند ملك الرومانيين منذ ١٥٣١ واضطرت مقاوماته ومقاومات ابنه أخاه شارلكان إلى التراجع . ومنذ ١٥٥١ سحب القطعات الاسبانية اثر نقمة السكان ، وقبل تراجع اسبانيا وتقسيم ارث آل هابسبورغ . وفي ١٥٥٨ تنازل شارلكان عن اللقب الامبراطوري وأصبح فرديناند امبراطوراً ، واحتفظ بأملك البيت النمساوي الوراثية وطرق شعاب الالب ومداخل أوربة الوسطى . ولكن انقسام المانيا وتهديد تركيا حالا دون خطورة تسلطه .

واحتفظ فيليب الثاني بالممتلكات الاسبانية واقتصر التسلط الاسباني على الغرب . وكما استخدم شارلكان الفكرة الامبراطورية لصالح تسلطاته المتتابعة ، كذلك استخدم فيليب الثاني ، عن حسن نية ، الفكرة الدينية لصالح التسلط الاسباني وبدأ بطل الكاثوليكية ضد المهرطقة ، وحاول اخضاع البلاد المنخفضة وجعلها منطلقاً لجنوده يضرب بها في جميع الاتجاهات ، كما حاول الحصول على انكلترا وسيادة البحار الضيقة بزواجه من الملكة اليزابث ، ثم حاول فتحها عام ١٥٨٨ بأسطول الارمادا الذي لا يقهر . وبعد اخفاقه وجه جهده صوب فرنسا ، وضد المدعي بالعرش هنري نافار المهرطقي ، وأعد ترشيح نفسه لعرش فرنسا . وفي عام ١٥٩٠ وضع ترشيح ابنته ايزابلا فأخفق ، وكرست معاهدة فرنف ١٥٩٧ هذا الاخفاق ، واصطدم التسلط الاسباني بالعاطفة القومية في كل مكان . وهكذا وجد التسلط ، ثمة القومية ، حدوده في الوطنية المهددة .

التسلطات البحرية . - لقد كانت السياسة الانكليزية بخاصة سياسة توازن . ومع هذا فقد كان الانكليز يحاولون البحث عن موانئ يؤمنون بها أنفسهم ، كميناء بولون وكاليه ، وسيطرون منها على المرور من بحر المانش وبحر الشمال ، وارتباط المحيط بالبحار الضيقة ، وببلاد البحر المتوسط ببلاد البحر الباطيك . ولكن الفرنسيين ظلوا سادة هذه المواقع .

لقد كان العصر الوسيط عصر حرية البحار . ولكن الدول منذ أن تقربت من مرحلة الدولة الحديثة ، أخذت تطمح إلى أن يكون لها امبراطورية بحر أو عدة بحار : كالبندقية منذ القرن الثالث عشر على الادرياتيك ؛ وجنوة منذ القرن الرابع عشر على البحر الليغوري ، والدانمارك على الباطيك ؛ والنورفيج على المحيط حتى ايسلندا وغروثلاندا . وكانت الدولة المتسلطة ترمي إلى الحصر غالباً وإلى جباية الرسوم للساح بعبور صيادي السمك والتجار وسلام السفن واعلامها .

تسلطات البحر المتوسط . - لقد كانت التسلطات القارية تابعة للسيطرة على البحار . فالتسلط الاسباني ، مثلاً ، لا يمكن أن يفهم دون سيادة البحر المتوسط الغربي الذي كان يربط بين الممتلكات الاسبانية الأساسية . وكانت الحرب فيه حرب قواعد . لأن الرياح الشديدة وصغر السفن كانت تجبر على الانزلاق طول الشواطئ وامتلاك عدة موانئ للتموين . وفي انتزاع هذه الموانئ تتعرض المواصلات للانقطاع . ولذا كان الأتراك . في كل عام تقريباً ، يرسلون اسطولاً من السفن لنهب البحر والشواطئ . وكان القرصان البربر والفرنسيون يدمونهم مراراً ويقدمون لهم قواعدهم (مثل ميناء تولون ١٥٤٤) . ولحسن حظ الاسبانيين لم يكن المهتمون بالغنائم ليندفعوا حتى الاعماق ويفكروا بنسف مفضلة نابولي - مستينا . وبعد وفاة هنري الثاني اختفت السفن الفرنسية من البحر المتوسط ،

ولم يستطع الترك استخدام القواعد الفرنسية ، واضطروا إلى التخلي عن العمليات الكبرى بعد أن أنهمكوا بحرب إيران والامبراطورية الجرمانية والمشاكل السلافية والاقتصادية . وظفرت العصبة المقدسة المسيحية في لبيانت (١٥٧١) ، وأخرج الترك من الحوض الغربي للبحر المتوسط . وفي الواقع ، تحول الترك والأسبانيون نحو المحيطات ، لأن البحر المتوسط أصبح في معزل عن خطوط التجارة الكبرى وملحاً لامر كزاً ، وأصبحت السلطات الكبرى محيطية .

السلطات المحيطية . - وفي الحقيقة ، كانت السلطات القارية تابعة للتوسع الاوربي في المحيطات . لقد شاد البرتغاليون والاسبانيون امبراطوريات فيا وراء البحار ، واعتبروا أن جميع الأراضي الجديدة المكتشفة أو التي ستكشف قد اختصها الله بهم ، وإن كثيراً من المراسيم الحربية تحدد اتفاقيهم وتحدد مناطق عملهم وتبعد عنها الامم الاخرى . وكانت البرتغاليون والاسبانيون مقتنعين بقداسة حصرهم ، ومن خالفهم باء بالحرقمان ولعنة من الله ، كما كانوا يعتبرون كل حملة تجارية وكل محاولة استعمار أجنبي من غيرهم رجساً من عمل الشيطان وقرصنة .

وأصبحت هذه الامبراطوريات عاملاً من عوامل السياسة الاوربية بسبب المعادن الثمينة التي ترسلها إلى أوربة . كان ذهب العالم الجديد وفضته في البدء بكميات قليلة ، ثم ازدهادت أهميتها بالنسبة لشارلكان بعد أن فتح كورتيز (١٥٢٠ - ١٥٢٢) المكسيك ، وبيزارو (١٥٣١ - ١٥٣٦) البيرو ، وأخيراً بعد اكتشاف مناجم الفضة في بونوزي ١٥٤٥ أما الامبراطورية البرتغالية فقد كان دورها الاقتصادي عظيماً ، وهذا ما جعلها تلعب دوراً سياسياً . ولكن ما لبث أن ضعف شأن هذا الدور بالنظر إلى صغر البلاد البرتغالية وقلة سكانها . وفي العام ١٥٨٠ فتح فيليب

الثاني البرتغال واعترف به ملكاً عام ١٥٨٢ . وبذا أضاف إلى امبراطوريته
الواسعة جميع الممتلكات البرتغالية . وانصرف بكليته إلى هذه
الامبراطورية المحيطية العالمية . وكان نضاله في السنوات الاخيرة ضد انكلترا
وهولندا وفرنسا ، نضالاً في سبيل سيادة الاطلسي . ثم هجرت الحرب
ضد الترك البحر المتوسط وانصرفت إلى المحيط الهندي في سبيل مناجم
ذهب سرفالا .

على أن المصور الجغرافي يمكن أن يجعلنا نعتقد بأن شارلكان وفيليب
الثاني ، المغلوبين في أوربة ، قد استطاعا أن ينجعا على صعيد الكرة
الارضية ؛ وان يمتلكهم الاسامي هو المحيط الاطلسي ؛ وان امبراطوريتهم
المحيطات وأوربة والأعداق القارية لهذه الامبراطورية .

ولكن مثل هذا القول ضلال . لان وارد اميريكالا يؤلف بعد في
العام ١٥٥٤ لا ١١٪ من مدخر الخزانة الملكية و ٢٥٪ في العام
١٥٨٥ . لقد كانت قوة شارلكان وفيليب الثاني الاصلية في اسبانيا
وايطاليا وامبراطوريتها قبل كل شيء امبراطورية قارية مع قفرات محيطية .

التوازن الأوربي . - لقد أفاقت السلطات مقاومة الملوك الآخرين
الذين يجسدون مصالح قومهم فقد حاولوا منزع أقوى واحد في عصره
من الظفر واعتصموا ضده ليحققوا توازناً بين قوى الدول وميزاناً للسلطات .
وأصبحت هذه الغريزة بالتدريج قاعدة التوازن الاوربي ، وقامت فكرة
تسلسل أمم حرة سواسية مقام فكرة العصر الوسيط في تسلسل منظم
للممالك ، وتحقق نظام التوازن في ايطاليا في النصف الثاني من القرن
الخامس عشر ، عندما جمعت عصبة البندقية ، في آذار ١٤٩٥ ضد شارل
الثامن والبابا ، البندقية وميلانو وآل هابسبورغ وآراغون وقشتالة ، أي
في الوقت الذي مرت فيه سياسة التوازن من ايطاليا إلى أوربة . وأصبحت

- ٣٦٣ -

انكلترا مخصصة في هذه السياسة التي لا تخلو من أخطاء ناجمة عن كرها التقليدي لفرنسا . وقد أدى نظام التوازن إلى عدة ثالبات : كالعصبة المقدسة في ١٥١١ وعصبة كونياك في ١٥٢٦ ، وعدة أحلاف متحركة .

ولم يتحقق التوازن على المحيطات ولكنه فهم بشكل نظريات في حرية البحار والاحتلال الفعلي . وفي العام ١٥٣٣ ، حصل فرانسوا الاول من البابا كليمان السابع على تفسير للمرسوم البحري الصادر عام ١٤٩٣ وهو أن القارات المحجوزة هي القارات المعروفة عام ١٤٩٣ ، وليست الاراضي التي اكتشفها التيجان الاخرى فيما بعد . وفي العام ١٤٤٠ ذهب فرنسوا الاول إلى أبعد من ذلك وقال : « إن الشمس تسطع له كما تسطع للآخرين ، وانه يرغب في أن يرى وصية آدم ليعرف كيف قسم العالم » .

وصرح بأن الاحتلال وحده يخلق الحق . أما اكتشاف بلد بالعين أو اجتيازه فلا يشكل ملكاً ، وأنه يعتبر الاماكن المسكونة والمحمية فقط املاكاً اجنبية . وهذه هي قواعد الاستعمار الحديثة .

السياسة الايجابية . - إن بناء السياسة يقوم قبل كل شيء على تقدير نسبة القوى ، وان القانون الاعلى هو المصلحة المفهومة جيداً ، وان النموذج الوحيد هو النفاذ والتأثير . وفي الغالب يذكر اسم الله والاخلاق ولكنها مهملان عملياً . وقد ضرب باباوات العصر المثل في ازدياد الكلام المعطى ، وباعتبارهم يملكون سلطة العقد والحل يستطيعون الجل : وليسوا ملازمين بتوقيعهم ، وبذلك ضربوا أساس أخلاق الفروسية ، وهو الوفاء بالعهد الذي يلزم الشرف ، محرك أعمال الفارس . وهكذا فتح الباباوات عهداً جديداً .

المسيحيون والمسلمون . - لقد تطورت عقلية الحرب الصليبية مع

الزمن ، وأصبح بالامكان التفاهم مع المسلمين إذا اقتضت المصلحة وبالرغم من ذلك كانت التآلات تعقد بين حين وآخر ضد الاتراك ، كما في ١٤٠٨ و ١٥١٨ ، ولكن هذه التآلات كانت ظواهر ومناورات سياسية . وقد ضرب البابا المثل في هذه السياسة . فقد اقتطع جول الثاني من العشر المدفوع في سبيل الحرب الصليبية قسماً لإنشاء كنيسة القديس بطرس في روما وإهادة بنائها من جديد . وكان البابا اينوسان الثامن يطلب من السلطان بايزيد مبلغاً من المال مقابل حجرة على السلطان جيم في روما . وكان جيم هذا منافساً لبازيد ، كما كان البابا يستقبل علناً ورسمياً سفير هذا الأخير بحضور مجمع الكرادلة الأقدس ومختلف ممثلي الأمم المسيحية . واتخذ الملك فرانسوا الاول التحالف مع الاتراك أساساً لسياسته ضد الامبراطورية الجرمانية ، إذ كان باستطاعتهم أن يضربوا الامبراطورية من الخلف في أوربة الوسطى ، ويقطعوا خطوط مواصلات شارلكان في البحر المتوسط . ومنذ ١٥٣٤ عقد حلفاً مع الاتراك ، وفي ١٥٣٦ وضع أول عقد توطد بوجبه فوق فرنسا التجاري في بلاد الشرق . كما تفاهم شارلكان مع المسلمين في قلمسان وفي تونس . وتعاهد أخوه فرديناند مع الترك ودفع ضريبة للباب العالي العثماني .

الرأي والدعاية . - وكان الرأي العام يتوجه باللائمة على المفاوضات مع المسلمين ، وكان الملوك يشعرون بحاجة إلى مساندة هذا الرأي في سياستهم . ولذا كانوا يقومون بالدعاية وينظمونها . ففي ١٥٣٦ فرض شارلكان على البابا ، وهو في مجمع الكرادلة ، خطاباً طويلاً كشف فيه عن جرائم فرانسوا الاول واعتبره مسؤولاً عن الحرب و « تركياً » ، ومضطهداً للوثنيين . وقد ترجم هذا الخطاب إلى كل اللغات ونشرته صحافة آفارس في كل البلاد . وكان أنصار الامبراطور يسمون فرانسوا

الأول « التركي » . ونظم آل دوبليه ، لصالح فرانسوا الأول ، مكتباً صحفياً مع أمناء يتقنون الفرنسية واللاتينية والألمانية ، ومواسلين في أوربة . وكان رئيسهم جان مليدان يقيم في ستراسبورغ . وقد طبع سيل من الكراريس العديدة التي تشهر بشارلكان وتعتبره عادياً مستعدياً .

واستخدم فرانسوا الأول نظرية رضى الرعايا الحر . وكانت جميع الاجتماعات ، التي نظمت في آخر القرن الخامس عشر ، كاجتماعات بروفانس وبورغونيا وبروتانيا ، تضمن حق الشعوب في تقرير مصيرها . حتى ان معاهدة مدريد لعام ١٥٢٦ ، التي يجب على فرانسوا الاول المغلوب في بافيا أن يتخلى بموجبها عن بورغونيا لشارلكان ، لم تنفذ لأنه خرق هذا الحق . وفي ١٥٢٦ صرح البورغونيون بأنهم يريدون « البقاء على طاعة تاج فرنسا لاتاج الامبراطور المزعوم » ، مذكرين بالمبدأ القائل بأنه لا يحق نقل أي شعب من نفوذ إلى آخر دون رضى منه

وسادت في كل مملكة لغة واحدة . وكان امتداد هذه اللغة يعين حدود القومية .

الاصلاح الديني والامم . - لقد فوض الاصلاح الديني في بعض الأحيان سيطرة العواطف الدينية على العواطف القومية وبخاصة بين ١٥٦٠ و ١٥٩٠ . وكان اتباع كل دين يناصر بعضهم بعضاً ضد أبناء وطنهم . بيد أن الاصلاح على العموم شجع نهوض الامم : ففي اسبانيا ، الدولة الوحيدة الكبرى في الغرب الاوربي ، خنقت المهرطقة بسرعة ، وكان الاسبانيون يعتبرون أنفسهم شعب الله وجنوده المخلصين . وقد اختلط التسلط الاسباني لشارلكان وفليب الثاني بالحرب الصليبية الاسبانية . كما قوت العاطفة الدينية العاطفة القومية .

وفي انكلترة ، جعلت حرب المائة عام العاطفة القومية حقيقة واقعة ، ولكن

- ٣٦٦ -

فأثرة ، لأن البلاد لم تصب في أموالها وفي رجالها . وكان الاصلاح الديني ، الذي وضعها في موقف المعارض للبابا والدول الكاثوليكية ، بمثابة خمرة كبرى للوطنية ، لأن انكلترا أصبحت بطل الاصلاح ضد فيليب الثاني وبلد التفجر العجيب للفكرة القومية .

وفي المانيا وجدت عاطفة معارضة عامة لعالم الولش وايطاليا . وقسمها الاصلاح إلى قسمين فلم تعد تحسب دولة . غير أن هذا الاصلاح ولد في المانيا أمماً ثانوية . والتفت كل واحدة منها بسبب دينها حول أميرها . وفي البلاد المنخفضة ايضاً قوض الاصلاح الديني الوطنية البورغونية وولد أمتين مختلفتين .

ولم يأت آخر القرن إلا وسادت العواطف القومية في كل مكان في أوروبا ، وقامم الأدب الانساني ، وطغت الفردية القومية على العالمة السياسية أو الدينية .

مظاهر الحرب

الحروب المغطاة والحروب المكشوفة . - كان النذير الحربي يقوم باعلان الحرب الرسمية ، ثم يتلو ذلك هجوم مباشر من أحد المتحاربين على الآخر ، وفي بعض الأحيان كان أحد المتنافسين يكتب في بالتوفيق بين أعداء خصمه ويحضم عليه ويقدم لهم المال ، ولا يني في أوقات السلم عن دفعهم ضده ، كما هي حال فرانسوا الأول بعد معاهدة كامبريه ، فقد كان يدفع الأمراء الالمان من عصبة شمالكلد والهونغارين والعثمانيين ضد الامبراطور شارلكان .

الحدود الآسيوية . - كانت الحرب تقوم على القارة الأوروبية في منطقة محصنة تغطي اوروبا ضد الآسيويين من ترك وتتر . وكان البحر

المتوسط مفروشا بشرط من التحصينات : حصون البندقية على شواطئ
إستريا ودماسيا والبانيا حتى الجزر الايونية ، وفي كانديا (كريت)
وقبرص ، وقد استولى الاتراك على قسم من هذه الخطوط بسبب تقدمهم
الكاسح ؛ ويأتي بعد ذلك جبهة نابولي وصقلية ومسينا وسلسلة الحصون
الاسبانية على شواطئ افريقية . أما في القارة فكانت الحصون الالمانية
وحصون كرواسيا والساف الاوسط ومنطقة فينا ؛ والحصن الرومي على
الاوكا وعلى تخوم الغابة ، ومنطقة المدن المحصنة باتجاه الجنوب والشرق .
وكانت كل هذه المناطق مزبثرة بالمدافع ضد هجمات الفارس الآسوي .
والمسافة تلعب دورها لصالح المسيحيين . لأن صعوبات التموين
وطول فيالت الاعاشة وعدد حيوانات الحمل الضرورية كانت تشل هجوم
الاتراك وتترك الكثيرين يموتون دون نتائج حاسمة .

العمليات العسكرية وفقدان جبهة القتال . - لم يكن هناك
جبهة بالمعنى الصحيح ، ولم تكن الجيوش عديدة بصورة كافية ، ولم
يكن القصد تغطية الحدود ، حتى ان الجبهة كانت منطقة غير مستقرة .
ومع الزمن . وبتأثير النكبات والحسائر ، اقتضت ضرورات الحرب ،
خلال القرن ، انشاء خط الحدود .

ستراتيجية الملحقات . - كانت الحملات حاسمة نادراً . ولم ترم إلى
تقويض جيوش الاعداء . وإذا قبل العدو القتال أمكن تقويض جيشه ،
كما في مارينيان ١٥١٥ وبافيا ١٥٢٥ ، وسان كاتان ١٥٥٧ . ومن المستحيل
تقريباً استغلال الفوز والنجاح ، لأن صعوبات التموين والموت في البلاد
المجتاحة كانت تضطر الجيوش إلى التوقف أو التراجع . أما الهجوم
عمقاً حتى المراكز الحيوية في الممالك فتلك طريقة قلما كان يفكر
بها جدياً .

- ٣٦٨ -

لقد كانت الحرب حرب حصار ، أي أنها كانت سترايحية ملحقات وتوابع كآخذ المواقع الحصينة بأصول ومخازن المؤن والترسانات وانتظار نقص هذه المؤن وفقدان المال ليضطر العدو إلى التخلي أو طلب الصلح ، وكما قيل كانت الحرب تربع بآخر دينار .

الأبواب . - ولذا يجب القبض على الحصون التي كانت أبواب الممالك وعلى الطرق الطبيعية والمسالك المؤدية لها ، مثل مجاري الأنهار . ومعابر الجبال وشعابها .

الطرق . - لقد بدت فكرة قطع الطرق العسكرية ، الكبرى ، طرق الجيوش والمال ، ولم تكن واضحة . وجرت محاولات عديدة خلال القرن ضد حركة النقل الكبرى من امبراطورية آل هابسبورغ من العالم الجديد إلى البلاد المنخفضة . وكان القرصان الفرنسيون يكمنون في رأس سان فانسان والجزر الخالدات وكناريا وبنهون السفن البرتغالية والاسبانية ، حتى ان شارل كان اضطر ، حوالي منتصف القرن ، إلى تبني نظام القوافل . وكانت الطريق الاساسية طريق البحر المتوسط من اسبانيا إلى إيطاليا ؛ والطريق البرية من إيطاليا إلى بلاد الراين والبلاد المنخفضة من شعاب الألب والكونتية واللورين أو من الالزاس وبالاتينا .

ارتباط مسارح العمليات . - وكانت الموارد تفقد فلا يمكن للسيور بالحرب بشدة على جهات عدة . ان كثرة مسارح العمليات وبطء المواصلات وصعوبة جلب الجيوش والمال في الوقت اللازم إلى النقاط الحساسة وتنسيق الجهود توضع الاختفاق النسبي الذي مني به كل من شارل كان وفيليب الثاني .

القتال المنفرد . - وعلى الرغم من الحرب الحديثة فما زالت تقاليد الفروسية موجودة . فمن ذلك ان شارل كان عام ١٥٢٣ اتهم فرانسوا

الاول بعدم الايمان ودعاه إلى القتال معه وجهاً لوجه . وصرح ملك فرنسا بأن الامبراطور كذاب وقيل التحدي . وكثيراً ما كان زعماء الجيوش يتقاتلون على مرأى من جيوشهم وهم في حال هدنة مؤقتة .

الأمري . - وكان المتحاربون يهتمون بالامرى رغبة في اقتنائهم ونشأ عن ذلك تجارة . وكانت « الحرب صالحة » ، إذا تفاهم المتحاربون على عدم قتل الأمري وأقتنائهم بالمال حسب الطبقات . وأدخل الاسبانيون تعامل تحرير الأمري إذا وعدوا بالانخدعوا في صف أعداء غالبهم .

الطسائر . - وكان قادة الجيوش يحولون البلاد إلى صحراء ليحولوا دون تقدم جيوش العدو . وكان الجنود يهبون ويسبون ويعذبون جذلين فرحين . ووجد لدى كل جيش من الجيوش المتحاربة « ضابط الحرب » ، ويوجه هذه العملية ، وما كان ليوفر القرى دون فدية . وأدخل التعامل الاتفاق بين سكان المناطق والزعماء لدفع الأذى وكانت الضريبة التي يتفق عليها مع هؤلاء الزعماء تضع المدنيين في منجاة من النهب وأعمال العنف .

الحياة . - وكان المحايدون يخولون هامة المتحاربين المرور من أراضيهم نتيجة لتجزئة اوروبا . ويتعهد المتحاربون بوسائل الحياة على الا يسببوا أي ضرر للسكان . غير أن السكائنات السويسرية كانت ترفض حق المرور .

التدخل . - كان تدخل الدول الأجنبية في الحروب الأهلية قاعدة متبعة . فالفرنسيون يتدخلون في المانيا والانكلز والبروتستانت الالمان يتدخلون في فرنسا . والاسبانيون لدى المعتصبيين الفرنسيين . وقد أعطت عصر النهضة (٢٤)

الملكة اليزابث نظرية هذا التدخل عام ١٥٨٥ وهي : من الواجب أن تساعد الشعوب المقهورة من قبل أميرها ، ومن الواجب أن تساعد أبناء دينك المضطهدين .

النزعة السلمية . - لقد ولدت فطائع الحرب نظريات خاصة للحيلولة دون وقوعها أو لتخفيف ويلاتها . وقد بشر ارزموس في « شكوى السلام » عام ١٥١٧ بالسلم التام ، وبأن الحرب لا تليق بالناس الذين وهبهم الله العقل وأكثر أيضاً بالمسيحيين . والكل يعتبرون قضيتهم عادة . ولذا ينبغي التحكيم . والحكم بينهم قليلاً ، فما من سلام ، حتى ولو كان ظالماً ، الا ويفضل على أعدل الحروب .

الحق الدولي . - لقد قبل معظم النظريين بالحرب العادلة ، وهم يؤمنون بتخفيف المنازعات برهني الأخلاق الدولية والحق الدولي وتقميها . وكان أهمهم ولاشك الكاثوليكي فيتوريا ، الاستاذ في جامعة سالامانكا . فهو يرى أن السلام مثل أعلى ، وأن الحرب شر . ومع هذا نراه يسمح بها لمنع شرور أعظم : للدفاع عن الذات ، وتوطيد الحق إذا خرق ، ورفض المعتدي التعويض ، وتخليص السكان المسيحيين المضطهدين من الكافرين . ولا يسمح بالحرب لنشر الدين المسيحي لأن الله لم يعط الناس رسالة ليثأروا له ، ولأن النزاع يسبب شروراً أخطر من الشرور القائمة . أن الدول الأوروبية تشكل أسرة اناس سواسية يرتبط أحدهم بالآخر ، وعليهم متابعة اصلاح الظلم المرتكب بحق أحد منهم : « أن الامرة الدولية تصاب بالظلم من كل نوع مما كان الفاعلون ومهما كانت الضحايا » . وعلى الدول أن تسمح بحرية المرور واقامة الاجانب عندها ، شريطة ألا يضرروا بالحتلين القدامى ، وعليها أن تؤلف « مجتمعاً بشرياً » و « جمهورية الانسانية » .

وحاول القرن السادس عشر تعويض عن الفردية بالمساواة في الحقوق والتضامن والاخاء .

الفصل العاشر

العلاقات الثقافية

لابد لنا ، قبل أن نغادر عصر النهضة في اوروبا من القاء نظرة سريعة على التطور الفكري في مضمار التبادل الثقافي والصلات الفكرية بين أمم هذه القارة .

لامرية في أن البلاد الاوربية في العصر الوسيط كانت تسودها وحدة ثقافية تضم تحت لوائها النخبة الفكرية من مختلف هذه البلاد ، وكانت هذه النخبة تعل وتنهل من مصدر ثقافي واحد . والفضل في ذلك يرجع إلى وحدة الثقافة الأوربية الناطقة باللغة اللاتينية لغة العمل لدى جميع المثقفين . ولقد كان الاساتذة والطلاب ينتقلون من بلد لآخر دون أن يخامرهم شعور باغترابهم عن أوطانهم ، حتى إن هذه الوحدة الفكرية دفعت إلى القول بوجود « أمة جامعية » في اوروبا العصر الوسيط .

وفي آخر القرن الثالث عشر اقترح الكسندر دوروز الناشر الالماني أن تعيش السلطات الثلاث الكبرى في ذلك الحين بأمن واتفاق تام وعلاقات طيبة . وذلك بأن تختص البابوية بالكهنوت ، والمانيا بالامبراطورية ، وفرنسا بالمعرفة ووضع مبدءاً وعرفه كما يلي : ان هذه الوحدة الفوق قومية ، التي تحلم بها الافكار والعقول ، يجب أن يتلقى فيها التعليم كالسلطة الروحية والسلطة الزمنية ، دفعا واحداً ، وأيد ، كما شاء ، التفوق الذي يعترف به الكل لجامعة باريس .

وابتداءً من القرن الخامس عشر تأملت الجامعات بالتدريج . وكان هذا الحادث الوجهه يرافق أو يسبق تشكل الدول القومية الكبرى خلال التطور العاصم في المجتمع الأوروبي . وفي جميع المجالات كانت الشعوب تعرب ، غالباً وبدقة أكثر بما في الماضي ، عن ضميرها وعن اعتزازها بفرديتها ، وسيبقى هذا الاحساس والشعور يانتسبها إلى إيمان جديد ومعارضتها الكنيسة العامة القديمة .

ولم يسع الدول الحديثة التي أخذت تمتد إلى مختلف المرافق أن تترك ، خارجاً عن حوزتها ، هذه الاماكن السامية التي يتنمى فيها الفكر ويشع . فقد كانت تتدخل فيها بصورة مفتوحة ، وعلى خلاف الماضي أخذت سلطتها تمتد على هذه المؤسسات أكثر من ذي قبل ، ولم تعد مجرد سلطة صادرة عن حق حماية بسيط . فقد انتزعت تدريجياً من الكرمي الأقدس السلطة التي كان يارسها في السابق ، وتوالى التطور عبر القرن السادس عشر ، ومن الطبيعي أن يكون أكثر مرعة في البلاد المصلحة أي التي دخلها الاصلاح الديني البروتستانتي ، وذلك لأن الجامعات القديمة أصبحت تابعة تبعية كاملة للدولة . أما الجامعات الجديدة فقد أقر تأسيسها الأمير أو الدولة لتكون لها خادماً متواضعة . وهذه هي حال جامعة جونيف في سويسرا ، وحال جامعة ماربورغ ، واينا ، وكوينسبرغ في ألمانيا .

وهناك بادرة جديدة تدل على العصور الحديثة : ففي عام ١٥٣٤ زعم ملك بولونيا سيغيسموند أن يمنع رعاياه من الذهاب إلى الجامعات الأجنبية خوفاً من الهراطقة . واتخذ مثل هذا التدبير شارلكان في اسبانيا في عام ١٥٥٠ ، ولم يقبل أي استثناء عدا كوايبر وفابولي .
ومها كانت حركة التأميم الجامعي هذه عامة ، فما لاشك فيه أن

النتائج ، التي ترقبت عليها لم تفصل بلاد أوربة فكراً عن بعضها ، كما كانت تفعل مؤسسة الجمارك في الدولة في العصر نفسه . فهناك عادات قديمة العهد وتقاليد لا يمكن أن تزول بسهولة . يضاف إلى ذلك أن حب الاطلاع والحاجة إلى التعلم ورغبة المفكرين في نشر أفكارهم ما كانت لتشعر بأي مضايقة على الحدود بين مملكة وأخرى . وبقيت اللغة اللاتينية لغة الثقافة وبالتالي لغة التعليم . وظل الطلاب يتوافدون من كل حذب وصوب على الجامعات التي تتمتع بشهرة سابقة أو التي أخذت تلبى حاجات العصر . وحافظت حياة التنقل على جميع ملامحها وجاذبيتها عند كل من أنهى دراساته وتخصص بمهنة الآداب . فمن ذلك أن أرزموس كان يضرب به المثل في المواطن العالمي في عصر النهضة ، فقد قضى حياته متنقلاً في البلاد المنخفضة وانكثرتا وفرنسا وألمانيا ، وإيطاليا ، ولم يخرج على اللاتينية في كل كتاباته . بل ظل لها وفياً أميناً ، ولم يستخدم أي لغة من اللغات الحية المعاصرة .

ومن الممكن ان نذكر بالإضافة إلى ذلك أسماء أخرى لا تقف عند حصر . ولنذكر على سبيل المثال غليوم بوستل الفرنسي . فقد كان مختصاً بدراسة الاغريقية والعبرية . جاب أنحاء أوربة الغربية معلماً وناشراً في باريس ، وروما ، والبندقية وفينا ، وسافر إلى بلاد الشرق مرتين باحثاً عن المخطوطات الثمينة وعند عودته أخذ الأمراء الحماة للآداب والفنون يتنازعون مع الملوك على رعايته وتشجيعه .

وعندما أقر الملك فرانسوا الأول ، ملك فرنسا ، تعيين أساتذة « مقررئين ملكيين » على هامش جامعة باريس ، كان يبحث عن هؤلاء الأساتذة في كل مكان من أنحاء المملكة كما كان يبحث عنهم في الخارج ، وسيكونون في المستقبل ، أعضاء « كلية فرنسا » . نذكر منهم بول كانوسا

الملقب بـ « بارادي » ، وكان يهودياً صلباً إلى المسيحية . نشأ في البندقية ثم أصبح استاذاً للعبرية ؛ وبارتلمي لوماسون أو لاتوموس ، وكان لوكسمبورغياً درس في كولونيا وتريف ولوفن وجعل يُدرّس اللاتينية ، وجان سترازيل الفلاماندي وكان استاذ الاغريقية وقد خلف بطرس دانيس . وعندما ذهب بارادي حل محله أحد أبناء وطنه واسمه غويداسييرو وكان استاذاً في روما . وأنشئ كرمي خاص للفلسفة الاغريقية واللاتينية للأستاذ فيكو مركاتو الميلاني ، وكرمي الطب للأستاذ الفلورنسي غويدو غويدي أو « فيدوس فيديوس » . ولم تشغل الكرامى كلها أو اكثراها بأئاذة فرنسين إلا في الجيل الثالث أو الرابع .

وكان الانتقال من بلد لآخر ، ومن جامعة لأخرى ، يجري على مقياس واحد ويشترط فيه القرب عموماً . ولم تكن ألمانيا لتجذب جيرانها من الشرق أو الشمال فحسب ، بل ان اسائذة فرنسين كانوا يخلفون إلى جامعات المنطقة الرينانية كجامعة فريبورغ للساكوليكين منهم ، وهيدلبرغ وغيرها أيضاً للبروتستانتين ، وفي عهد الملك شارل التاسع تعاقد عمدة مدينة ستراسبورغ الحرة مع فقيهين شيرين ، أحدهما بعد الآخر ، وهما فرانسوا بودوون وفرانسوا هومان لتدريس الحقوق . وفي البلاد المنخفضة الشالية تأسست جامعة ليدن عام ١٥٢٥ لتنافس جامعة لوفن ، واكتسبت بسرعة شهرة عظيمة في عالم الاصلاح الديني ، وكان السكالفنيون الفرنسيون يتوافدون عليها بأعداد ضخمة ، حتى ان سكاليجر علم فيها في السنوات الاخيرة من حياته . وخرج الألمان من بلادهم ليكونوا على اتصال باللاتينية في جامعات فرنسا واطاليا ، وكانوا كثيراً في بداية العصر في كراكوفيا . وإذا لم يظهر الفرنسيون إلا نادراً في أوربه الشرقية فليس في ذلك ما يدل على أنهم غير مرغوب بهم . فبعد أن أنشأ ملك

بولونيا ايتين باتوري مجمعا علمياً جديداً في كراكوفيا وجامعة فيلنا استدعى في العام ١٥٧٧ انطون موريه الفرنسي المختص بالدراسات الانسانية ، وكان يدرس في روما منذ سنوات طويلة ، وتمسك البابا غريغوار الثالث عشر به ليعخدم عنده .

وهكذا كانت المبادلات الفكرية دائمة مستمرة بين الأمم ، وما فتئت العلاقات الثقافية وشيعة الاتصال بين بلدان اوروبا . وكانت وحدة الثقافة والتعليم عند الطبقات العليا مرتبطة خلال عهد طويل بمجازية الدراسات الانسانية الايطالية ، وأفضل من ذلك بالحضارة الايطالية .

وبدنا كانت القوة الاسبانية والبرتغالية تقوم بفتح البحار والقارات البعيدة ، كانت ايطاليا ، بقوة فكرها ، قبسط امبراطوريتها على كل اوروبا العتيقة . وليس بالسهل تأليف تاريخ الفكر ، إذ لا يمكن في الغالب تتبع مصيره بسهولة الا في مؤلفات خاصة تتعلق بماضي بلد من البلدان ، أو تبعاً لعلاقات بلدان متجاورين . وحتى في ايطاليا ، التي تعتبر غريدة في نوعها ، مازال التأليف بحاجة إلى الكثير من الامور التي نجب الكتابة فيها ، فقد وصف جاك بوركاردت حضارة النهضة في ايطاليا في كتاب كلاسيكي له ، ولم يتقدم أحد ليعالج عموماً توسع الفكر والحضارة الايطاليين في عصر النهضة .

لقد كانت ايطاليا القرن السادس عشر مركزاً ثقافياً قوياً يشع على أنحاء اوروبا كلها . ولكن لم يكن فيها مركز واحد ، ولم تكن روما مركزاً رئيسياً . وفي الحقيقة ، كتب كيردينال إلى ارزموس عام ١٥١٥ : د ان الكتاب من كل صقع يتزاحمون في المدينة الحائلة ، وهي لهم وطن ومرضع وحامية . وما ذلك إلا لأن البابا ليون العاشر كان يجتذبهم اليها ويحميهم ويرعاهم ويغدق عليهم الرواتب الضخمة ، ويؤمن

- ٣٧٦ -

لهم الحياة العريضة ومحيطهم بكل رعاية وعناية . ومن كان يرحل إلى إيطاليا في سبيل العلم كان يقف في فلورنسا وبولونيا وبادوا وفراره وبافيا ويقيد من كل منها ما يغذي أفكاره ويتبع نفسه .

لقد كانت بادوا أكبر جامعة في منطقة البندقية يرتادها الأجانب كثيراً . والفضل في ذلك يرجع إلى الوضع الخاص الذي تمتع به جمهورية البندقية (جمهورية القديس مرقس) وإلى استقلالها الديني وعلاقاتها الدولية . والحق يقال إن الانسانية ألقت في البندقية المناخ الذي تحتاج إليه . فقد وجد فيها العلماء جميع التسهيلات التي يرغبون فيها لنشر النصوص القديمة . لقد كانت بلد الطباعين ، وأشهرهم آلدمانوتشه . فقد التف حوله الاغريق اللاجئون فجعل من البندقية أكبر مركز للهلنية . وكان اريزموس في ضيافته عام ١٥٠٨ ثم مار الابن بول مانوتشه على منوال أبيه ولعب الدور نفسه . وفي بادوا كانت النزعات الفلسفية المختلفة تعبر عن نفسها بحرية . وكانت لفلسفة ابن رشد ، أم الفكر « الخليع » فيها مكانة الشرف . وإذا كان الطلاب الألمان يؤلفون فيها منذ زمن طويل « قوماً » أكثر من غيرهم ، فليس ذلك لأن الطرق الرئيسية في أوربة الوسطى تنفذ منها إلا سهل البندقية فحسب ، بل لأن الحرية البندقية بصورة خاصة كانت تحمي غير الكاثوليك من الاكايوس ومن محاكم التفتيش .

ولقد كان سائداً في كل بلد من بلدان أوربة المتقدمة عالياً ان الاختلاف إلى جامعات شبه الجزيرة يعتبر شيئاً متماً وضرورياً للتربية والعناية بها . فمن بولونيا كانت الشبية الدارسة تقبل على إيطاليا منذ القرن الخامس عشر ، حتى ان كوبرنيك ، بعد أن درس في جامعة كراكوفيا ، قضى ثلثي سنوات في إيطاليا وعلم الرياضيات في روما .

وبعد ذلك بقليل تابعت الارستقراطية بكاملها هذه الحركة وتركت كراكوفيا لابناء البورجوازيين . وكان كوشانوسكي ، أكبر شاعر بولوني في عصره ، تلميذاً في بادوا عند مارك انطوان موريه ، وتعلق به ، وأخذ برونسار في صحبته ، وقبل أن يعود إلى بلاده مر بباريس أملاً في أن يرى فيها معبوده ، رونسار . ثم ان جان لاسكو ، وهو الذي سيكون مطران غنيزن في المستقبل ومن تابعي اصلاح الدين في أتي الى بولونيا ، في ايطاليا ، مع أخيه ودرس فيها .

وكانت بولونيا معروفة بسائق التقليد بأنها أكبر جامعة في « القوانين » ، غير أن الادب الانساني ازدهر فيها كما ازدهر في كل مكان في بداية العصر . وقد اختارها ارزموس مقاماً ليحسن معرفته بالاغريقية . وكان « قوم » الالمان و « قوم » البولونيين فيها كثيراً وفي نزاع دائم .

وحدث هونغاريا حذو جيوانا البولونيين عندما أفقرت السيطرة التركية أو هدمت فيها مراكز الثقافة الرئيسية . فمن ذلك ان الأديب الانساني الذائع الصيت اندريه دوديث ، والفقيه الكبير جان زامبوك (أو سامبوك) كانا طالبين في بادوا ويجلسان جنباً إلى جنب مع مواطنها اتيين باتوري ، ملك بولونيا في المستقبل . وكانت بافيا تستقبل الطلاب الفرنسيين بكثرة وخاصة عندما ساد النفوذ الفرنسي في منطقة ميلانو . أما جامعة روما فكان طابعها على الاكثر ايطالياً محضاً ، وقد احتل مارك - انطوان موريه فيها بالتالي عدة كرامبي بعد أن علّم في باريس وتولوز وبادوا ، واصطدم ببعض الصعوبات من جهة السلطات الحبرية ومن جهة جمهور الطلاب .

أما من انكسروا فلم يأت إلا طلاب منعزلون . وكان هؤلاء يأتون ليتعلموا الاغريقية ويتأملوا عن كتب المخطوطات القديمة الوافدة من الشرق

نذكر منهم ليناكر ، غروسين ، جون كوليت ، استاذ ارموس ،
والى جانب هؤلاء الابطال الاوائل في المهنية يجدر التنبيه باسم الكردينال
بول الذي وجد هنا وطنه المختار ، وصره ان اثنى وعاش طويلا
في بادوا .

وفي فرنسا أخذت الاسفار والدراسات فيا وراء الجبال طابع « الموضة »
أكثر من أي بلد آخر . فلقد بدأ التعلق بإيطاليا ومماها وسكانها بعد
١٤٩٤ ودام طوال القرن كله ، وفي السنوات ١٥٨٠ أيضاً ذكر المؤرخ
بابير ماستون « هذا الشعب الايطالي العذب » وكيف قضى سني شبابه
بين ظهرايه . وربما يكون من المبالغة ان يزعم أن كل من كان لهم
امم في الآداب في ذلك العصر قد ذهبوا الى ايطاليا ليتغذوا ميدانياً بالقديم
الموجود فيها ويصغوا إلى دروس مفسريه وشارحيه الأقوياء . وعلى أي
حال قل من لم يعم مثل هذه الرحلات . لقد كانت الحركة حركة جماهيرية
دفعت الطبقات العليا على طريق الالب . وكان أعضاء البرلمانات يوفدون
أبناءهم إلى بولونيا لتحضير شهادة الدكتوراه ، والاشراف يطلبون من
ايطاليا ان تعلم أولادهم ما نجده من الوان المعارف والرقنة والظرف
والرشاقة وآداب السلوك والحياة الاجتماعية .

وظلت الجامعات الايطالية زمناً طويلاً مهلاً عذبا لطلاب المعرفة ،
بيد أنها لاقت بعض الأفول في الدور الذي تلا مجمع ترائت ، وذلك لان
الكنيسة اتخذت بعض الاجراءات لتجنب عن الايمان بعض الاضرار .
فمن ذلك ان مرسوماً حبرياً صدر في عام ١٥٦٥ وفرض على المرشحين
للدكتوراه القسم بالدين . وبدأ الألمان يمتنعون . ولكن الفرنسيين لم
يتخلوا الا ببطء عن هذه العادة التي تأصلت فيهم ودخلت عميقة في
أخلاقهم . فقد أحصى موتتين في رحلة إلى ايطاليا عام ١٥٨١ ما يقارب

مائة طالب في بادوا . وجاءها فرانسوا دوسال ١٥٨٦ ايضاً ، ولكن
ليبحث فيها عن دروس أخرى مغايرة لدروس الوثني الذين دوله التي كان
يعطيها قبل خمسين عاماً .

وهذا الشغف بإيطاليا يبدو بوجه آخر . وذلك ان « الاقوام » التي
كانت تعجب بالأمة الإيطالية المختارة كانت تبادر اليها لتبحث عندها بين
علمائها وفنانها وخبرائها عن مرشدين ونماذج . فلقد كان من شارل الثامن
ولويس الثاني عشر ، اثر حملتها الإيطالية ، أن اصحطبا معها عند عودتها
عدداً من الصناع والفنانين والمطرزين والخزافين والرسمين والنحاتين وصناع
الدروع والاسلحة والمهندسين والمعماريين وكثيراً من الفقهاء الواسعي المعرفة
مثل لاسكاريس ، وهو اغريقي الأصل ، ويعتبر أعظم المختصين بدراسة
الهلنية في عصر .

ومثل هذا الغزو غزو آخر كان عام ١٥١٥ بعد واقعة مارينيان ،
حتى ان فرانسوا الأول ، قبل ان يفسح مكاناً للانسانيين ، بين الاساتذة
الملكيين في عام ١٥٣٠ ، انتخب احدهم وهو تالياكلانو المعروف باسم
تيوفرين ليكون مريباً لأولاده .

وكان الايطاليون يدعون من كل مكان تقريباً في اوروبا لتعليم الآداب
القديمة ، وفي الغالب ايضاً لتعليم الحقوق ، كما هي الحال في كراكوفيا
وانغولشتات وهيدلبرغ . وفي جامعة بروج كان السيأت الميلاني سلفاً
لفرنسي الشهير كوجاس . وفي أوكسفورد اتى أليريكو جانتيلي من
فيروزة ليوسع مذهبه في حقوق البشر .

وبعد الحقوقيين والقانونيين والمهندسين المعماريين كان الدور للاطباء
الايطاليين . فقد اصطحب فرانسوا الاول أحدهم معه ليكون طبيبه
الخاص . وفي النصف الثاني من القرن نجد منهم في فينا ، في بلاط

الامبراطور ردولف ؛ وفي كراكوفيا بالقرب من اتين باتوري ؛ وحتى في موسكو في خدمة بوريس غودونوف .

وساهمت ظروف سانحة بتقديم النفوذ الايطالي في بولونيا ، وذلك بزواج الملك سيغيسموند عام ١٥١٨ بونا سفورزا ، بنت دوق ميلانو . ووصلت الملكة الجديدة مصحوبة بعدد من ابناء وطنها الذين اعطوا للبلاد لوناً خاصاً ، كما تلقى ابنه سيغيسموند اوغست في المستقبل تربية ايطالية بقدر تربيته البولونية . وجذب تسامح سيغيسموند اوغست إلى مملكته ايطاليين غادروا بلادهم لأنهم كانوا يبشرون بأفكار مضادة للثاوث ومتجذدة بالاريسية ، نخص بالذكر منهم برناردينو اوشينو العالم باللاهوت ، وشيليو سوتزيني أو (سوتشن) المختص بالدراسات الانسانية ، والطبيب جان بلاندراتا ، وهو تلميذ عاق لكالفن . وكانت الامم العظيم امم فوستو سوتشن ، ابن أخ شيليو . فقد عاش في ليون وفي بال . عندما كانت الإقامة في فلورنسا محرمة عليه ثم جاء إلى ترانسلفانيا ، حيث تأثر جان سيغيسموند زابوليا بأراء بلاندراتا ، طيبه ، واطرح الزونغلية في سبيل « الوحدة الدينية » . وفي ١٥٧٨ شخص إلى كراكوفيا وقضى فيها سنواته الأخيرة . وهنا أيضاً وجد كنيسة مناوئة للثاوث وهي كنيسة الاخوة البولونيين وانبرى للدفاع عنها وعن قضيتها دون أن يدخل فيها . وعمل في نشر مذهب « الأخوة » الذي هو مذهبه ، هذا المذهب الذي يستحق فيما بعد امم السوشينية الذي ينكر الثاوث الأقدس ولاهوت المسيح .

وفي الآداب ر تقليد الأشكال والاساليب الايطالية الخاصة في كل مكان . وفي هذا المقام يجب أن نذكر امم فرنسا ايضاً . وكان بترارك في نظر الشعراء النموذج الذي لا يضامى . فقد قلد ، واكثر من ذلك قلد من استغلوا بعده عبقرية . وكان مارو ، دوبليه ، باينف ،

رونسار ، على درجات متفاوتة من أنصار بتوارك وتلاميذه . وكذلك راجت قصص بوكاشيو . فقد كان كتابه « ديكاميون » نموذجاً لمرغريت نافار في كتابها هبتاميون . واستحوذت ملهة الفن منذ بداية القرن على افئدة الفرنسيين . واستقدمت كاترين دوميديتشي جيوشاً ايطالية وادخلتهم في البلاط ابتداء من ١٥٧٤ . ومن ثم أصبح بالتالون ، تراني ، أولوكن نماذج معروقة وحية كما كان المعلم باثولن منذ زمن قليل . ولقد كانت ملهة الفن مليئة بالارتجال والمزول فلم تمر في قائمة الكوميديات الفرنسية ، وظلت مادة مستوردة . غير أن أنواعاً أخرى قريبة أتت من ايطاليا في الوقت نفسه ، مثل ملهة الرواية ، ففسحت مجالا لترجمات وتكييفات وساهمت في تجديد مسرح الملهة .

وفي الفلسفة تجددت الافلاطونية على يد مارسيل فيتشينو في اكااديمية فلورنسا في القسم الأخير من القرن الخامس عشر ، وألهمت لوفيرديتابل بالذهاب اليها ليشرب روحه بها ، وكذلك مرغريت نافار . وقد ارتبط أوائل العقلانيين الفرنسيين ، الخلقاء ، بدرجة بادوا وبعميدها بومبونازي ومنافسيه . أما ما كيافيلي ، اشهر ايطالي عصر النهضة ، فقد ظلت شهرته كريمة زمناً طويلاً ، إذ كانت ينكر القوانين الالهية ويفسد الامراء ، ولذا لا ينسب اليه تأثير حقيقي إلا في القرن السابع عشر على أقرب وقت .

وكان في اسبانيا ، في العصر نفسه كفرنسا ، محبون للايطالية . فقد أقاموا كلهم قليلاً أو كثيراً في ايطاليا ، وخاصة في نابولي . وهم مؤلفو قطع مسرحية أو شعراء مثل غارنشيلازو دولافيغا ، الذي يسميه معاصروه بتوارك اسبانيا . وقد قتل وهو في سن الثالثة والثلاثين من عمره ، في جيش شارلكان اثناء غزو مقاطعة بروفانس .

وثأثر الكتاب الانكليز بسعر ايطاليا بدرجة أقل من غيرهم . وكان لبتاراك ، إلى جانب فيرجيل ، منذ عصر هنري الثامن ، متحمسون ومعجبون . وفي النصف الثاني من القرن ازدهر شعر الرعاة ، وظهر فيه تقليد بترارك وفيرجيل معاً ، وربما أكثر من ذلك تأثير شاعر معاصر وهو سبانيولي الملقب بامم مانتوان . وتتمتع قصائده بشهرة فائقة . وكانت التقاليد الإيطالية في ذلك الحين تتنافس مع آثار المؤلفين من أبناء البلاد الأصليين . وقد جرت العادة عند الطبقات العليا أن تتم الاقامة بفرنسا برحلة إلى ايطاليا . ودخلت هذه العادة منذ عهد طويل في الاخلاق والعادات .

لاشك ان ايطاليا عصر النهضة كانت عظيمة التأثير في اوروبا وتمتعت بسبب ذلك بجاه عظيم ، ولكن هذا لم يمنع من اشعاع فرنسا في اوروبا أيضاً . ومن الممكن أن يكون اشراق فرنسا قد خفف نوعاً ما من اشراق ايطاليا ، ولكن إلى حين . وفي الحقيقة لم يكن هناك تنافس بين حضارتين ، وبين ثقافتين ، لأن فرنسا كانت أول من تأثر بدرجة ايطاليا .

لقد أظهرت العبقريّة الفرنسيّة قوة توسعها على صعيد الدين كما في غيره بشكل لامع ، لأن الاصلاح الكالفني ، وإن أتى متأخراً بالنسبة إلى اصلاح مارتن لوثر ، ويمكن أن يبدو وليداً له ، فقد فاقه ووجد نفسه في تنافس مباشر معه . وكانت الاتجاهات العامة لتوسعه هي نفس الاتجاهات التي دمغت توسع الحضارة والفكر الفرنسيين . وكانت من الطبيعي أن يلقى مقاومة أكثر في المانيا بعد أن تأصلت اللوثرية بقوة لا تقاوم في أرض نبتت فيها وتتفق مع بعض التطلعات العميقة للامة الألمانية . على أن البلاد الألمانية بجمعوها وإن اعتبرت صغيرة مقاومة

الكالفنية ، فلم تناهضها بكتلة لا يمكن النفوذ منها . وقد استطاعت الكالفنية أن تنزلق في غربي ألمانيا عن طريق نهر الموزيل في وادي الراين الاوسط ، وتفتح بالآتين ، وتستعمل منها ، بعد منتصف القرن ، قلعة من قلاعها الحصينة . وسنهدد منها ، خلال فترة من الزمن ، مواقع الكاثوليكية في الأبرشيات المجاورة ، وسترسخ قدمها على الأقل بقوة في دوقية كليف .

وإذا وضعنا جانباً الكتلة الجرمانية مع ملحقاتها من البلاد الاسكندنافية فقد انتشرت الكالفنية في كل أقسام أوروبا التي مرت فيها عدوى الإصلاح . أما ميدان عملها فقد لمع في البلاد المتاخمة لألمانيا الشرقية حيث تلقى التأثيرات الجرمانية دوماً بمقاومات العاطفة القومية التشيكية والبولونية أو الهونغارية . ولقد تأثرت هونغاريا بشكل أعمق بالكالفنية أكثر من سائر البلاد السلافية . وفي الربع الثاني من القرن ، في الوقت الذي جاء فيه الاتراك ، كان لوثر البادئ فيها بفتوحاته . وفي السنوات التالية لعام ١٥٦٠ كف زعماء الحركة عن البحث عن الهامم في فيتامبرغ واتجهوا صوب جونيف . وفي العام ١٥٦٩ انعقد مجمع عام وتبنى مذهباً رسمياً للكنيسة الجديدة وهو المذهب الذي كتبه تيودور دوبيز بيده ، وبقيت ترانسلفانيا وحدها أمينة للوثر لأنها كانت ملتقى جاليات ساكسونية هامة .

وفي بلاد جان هوس ، في بوهيميا ، وجد الإصلاح أرضاً مهددة . فقد تأسست اللوثرية فيها منذ وقت مبكر ، واستطاعت أن تحافظ على أكثر مواقعها أمام الكالفنية الغازية . وفي بولونيا ، عاكست نجاحها ابتداء من منتصف القرن ، نشبت الملكية القومية التي كان يوحى بها اليسوعيون . وكان تأثير الكاثوليكية فيها أعظم على اللوثرية من منافسة الهرطقة الجونيفية .

وفي الغرب ، في البلاد المنخفضة الهابسبورغية تأثرت البلاد الشمالية فيها بالتأثيرات اللوثرية منحدره من مجرى نهر الراين . وكانت انفرس ، الميناء التجاري العالمي الكبير ، قبيل منتصف القرن ، مركزاً للوثرية ، ولكن الكالفنية ، في الوقت نفسه ، أثت من الجنوب وظهرت وتغلبت بسرعة على منافستها . فقد قام رعاة تكونوا في لوزان أو في جونييف وفتحوا البلاد بصورة منظمة ، وفي الوقت الذي كانت تحكم فيه ماريا تيودور كان يساعدهم منفيون من العصر السابق تأثروا في انكلترا بكالفن ، واضطرم رد الفعل الكاثوليكي أن يعودوا إلى بلادهم . وحوالي العام ١٥٦٠ يكاد ظفر الكالفنية أن يكون تاماً .

وثبتت انكلترا اصلاً من نوع خاص ، لا لوثرية ولا كالفنية ، وهو اصلاح هنري الثامن الذي عدلته اليزابث قليلاً . وسمت نفسها طويلاً من الهرطقة واكتفت بأن تكون منشقة عن روما . ولو حق اللوثيريون وأحرقوا حتى وفاة هنري الثامن . وفي عهد ادوارد السادس اتجهت البلاد نحو أشكال جذرية للاصلاح القاري . وأوحت اللوثرية بتدابير السنوات ١٥٤٧ - ١٥٤٩ وخاصة باستعمال اللغة القومية في حفلات الصلاة والعبادة . ثم استنفدت الديانة اللوثرية قوة جذبها واستعيص عنها بالديانة الكالفنية . وابتداء من السنوات المتوسطة للقرن كفت فيتنابرغ عن منافسة جونييف في بريطانيا . وفي ايكوسيا (سكوثلانده) رسخت قدم الاصلاح بشكله اللوثيري أولاً ، ثم بشكله الكالفني . ولكن نجاح الكالفنية كان فيها أتم بكثير مما في انكلترا منذ أن بدأ تبشير جون نوكس الذي ذهب إلى جونييف وقضى فيها عدة سنوات . وطالبت كنيسة ايكوسيا المصلحة ، الكنيسة المشيخية ، برعاية كالفن وانتظمت على نمط كنيسة جونييف .

وإذا وضعنا القضايا الدينية جانباً ، فإن تأثير فرنسا الفكري والمعنوي ظل أساسياً في بلاد الشمال والشرق ومارس نفوذه كالمعتاد . غير أن موجة القومية ، التي صحبت الإصلاح في ألمانيا ، أثارت بحق رد فعل ضد تدخل الاجنبي بأي شكل من الاشكال في حياة الأمة ، وأقامت الرأي ضد « ولش » ، إيطاليا ، عملاء كنيسة روما . ولم تسجل الايطاليانية في البلاد الالمانية ، وعلى الاقل في البلاد المصلحة ، نفس الظفر الذي لاقته في البلاد الاخرى . ولكن وجاعة الادب الفرنسي ، ووجاعة حياة المجتمع الفرنسي ، لم يتأثرا بشكل رصين . فقد تمتعت « اماديس » ، بترجمتها الفرنسية بروج عظيم . حتى قيل بأنها كانت سبباً في غنى أصحاب المكتبات في ألمانيا . وفي فرنسا بدأت « جولة الفرسان » كما يسميها الألمان ، ويقصد بها رحلة الممارسة والتدرب على الأخلاق المهذبة التي لاغنى عنها للشاب الكريم النسب الذي يتطلع إلى حياة الشرف ليكون فارساً .

واستمر جميع الجرمانين ، من ألمان وهولنديين واسكاندينافيين ، بالاختلاف إلى جامعات ضفاف نهر اللوار في فرنسا حيث كانوا يدرسون الحقوق الرومانية التي أخرجت من باريس . ففي بروج واورلثن كان « القوم » الجرمانى أكثر عدداً من غيره من الأقوام . وفي عهد هنري الثاني حصل على امتياز ممارسة العبادة المصلحة بحرية . وكان يفد إلى مونبليه طلاب من جميع الأنحاء لكلية الطب التي كانت تتمتع بشهرة واسعة في أوربه . وكان للفقيه الفرنسي الكبير جان بودن طلاب جرمانيون .

وفي السنوات الأخيرة من القرن نجحت الاكاديمية البروتستانتية في سومور وكانت تستقبل الطلاب الآتين من الشمال .

أما الانكليز فلم يختلفوا إلى الجامعات الفرنسية منذ حرب المائة عام . غير أن بعضهم ، بمن تثقف ثقافة جيدة ، كان يتعلم اللغة الفرنسية ويمارسها . وفي أول القرن عرفت المهنية في بلادهم دوراً لامعاً جداً . فعن طريقهم عرف ارموز ايطاليا القرن الخامس عشر ، ولكن الحركة لم تدم لأن تذوق الجدل اللاهوتي أخذ بعد قليل يضر بدراسة الآداب القديمة . وعندما قام جورج شابان ، في آخر القرن ، بترجمة هوميروس ، وهي الترجمة الانكليزية الأولى ، كان يشغل على الأصل وعلى الترجمة الفرنسية التي قام بها الانساني الهوغونتي جات دوسبونند .

وفي ايكوسيا كانت الصداقة الفرنسية تقليداً قديماً ، وكانت العلاقات الثقافية وثيقة جداً وأخذت جميع الاشكال . ففي جامعة اورلثان ، بورج ، بواتيه ، مونبليه ، كان يوجد « قوم » ايكومي . حتى ان بعض الطلاب من حصلوا على درجاتهم العلمية أخذوا يفيدون منها في هذه الجامعات ، وعندما ظفر الاصلاح في ايكوسيا في النصف الثاني من القرون ، ظلوا كاثوليك متعلقين بديانتهم . وكان منهم مربون مشهورون . فقد استدعى اليسوعيون غليوم باركلي إلى جامعتهم في بونت - آ - مستون ليدرس فيها الحقوق . وفي آخر حياته شغل كرسي الاستاذية في جامعة آنجة . واختص آدم بلاك وود بمهنة القضاء ، وظل أكثر من عشرين عاماً مشاوراً قضائياً في بواتيه . وكان أشهر هؤلاء الفرنسيين - الايكوسيين جورج بوشافان ، الذي عرفه مونتين وهو تلميذ ، استاذاً في كلية غويين

في بورد . فقد قام بعدة مهام تربوية ، وقضى بعض الوقت في جامعة كوايبر البرتغالية ثم عاد إلى أيكوسيا حوالي العام ١٥٦٠ . واشتغل أميناً متوجماً لدى ماري ستوارت ثم انقطع عنها بعد مقتل درالي وانتظم في صف خصومها وعندما هربت ، كان مكلفاً بتعليم جاك الذي سيكون ملكاً في المستقبل .

وكان امم رونسار أشهر جميع الأسماء الكبرى التي لمعت في الادب الفرنسي في القرن السادس عشر ، وكان معروفاً أكثر من غيره في الخارج . وظهر غناؤه جديداً حتى قلد في كل مكان . وخلف الروناريون البتراريين . فمن ذلك أن الشاعر قل ، صديق فرنسا ، الذي أخذ امم ميليسوس اليوناني . ترجم أشعاره إلى الألمانية وأخذ عنه شكل ومادة الأشعار التي ينظمها . ولم يستعمل جان كوشانوسكي « رونساربولونيا ، دروس اللاتينية ، التي أخذها وهو شاب ، إلا ليحس ويجب بصورة أفضل الشاعر الفرنسي الذي ماقتىه يحترمه استاذاً مفضلاً على غيره .

وإلى جانب رونسار اشتهر الشاعر الغنائي دوبارتاس شهرة فائقة مدهشة في عصره فقصيدته الكبرى « الأساييس ، أر » الخلق ، ملحمة من الهام ديني ، وأثر لبروتستانتية معتدل ، وقد رأى فيها الاجانب من أبناء دينه ملحمة من أفضل نتاج العبقرية الفرنسية وقد ترجم دوبارتاس وقرئ ووسع في كل البلاد المصلحة كلها وخاصة في هولانده وانكلترا . فين ١٥٨٤ - ١٦٤٠ طبعت آثاره أربعين طبعة انكليزية . واستوحى الشاعر ميلتون من « الخلق » بعضاً من إلهامه وضمه في « الفردوس المفقود » .

أما الناثرون الفرنسيون فلم يلقوا في الخارج الزواج الذي لاقاه الشعراء . فقد طبعت آثار رابليه طبعاً رديئاً في جميع البلاد اللاتينية ،

وانهم بضرب الاحترام الواجب نحو رجال الدين والتمهيد للهرطقة . غير أن هذه النزعات نفسها كانت مدعاة لتقديره ، ولكن آجلاً ، في انكثرا وألمانيا . وبدأ تأثيره يظهر في القرن السابع عشر مثل تأثير مونتين الذي ترجم آثاره لأول مرة إلى الانكليزية عام ١٦٠٣ .

بينما إيطاليا في أوج نفوذها وفرنسا المستمرة في تأكيد قوة توسعها على جميع دروب الفكر ، كانت اسبانيا القرن السادس عشر وجهاً مشرفاً ومع ذلك فلم تطمح بالصف الذي تخولها إياه في الميادين الاخرى شجاعة مغامريها الفاتحين وتطلعها إلى التفوق السيامي والعسكري وتفانيها المثالي في سبيل الذود عن الدين القديم .

لقد أسهمت اسبانيا في حياة الفكر الدولية ، بيد أنها أخذت من البلاد المجاورة أكثر مما أعطت . وكانت جامعاتها العديدة تضم زبائن ايريين خاصة ، ولم يكن للتعليم الذي تعطيه قيمة عامة . ومع ذلك فإن امم فرانسيكو فيتوريا كان معروفاً في الغرب الاوربي كله . كان دومينيكاً واستاداً للاهوت في جامعة سالامانكا من ١٥٢١ إلى ١٥٤٦ . وكان شارلكان يستشيره ، وكذلك استشاره هنري الثامن في انكثرا أثناء طلاقه ، والبابا نفسه بهذه المناسبة . وهو وان لم يكن حقوقياً فقد استحق أن يعتبر مؤسساً من مؤسسي الحق الدولي الحديث .

أما الكتاب الاسبانيون فقد كونوا مكانهم تدريجياً ، ثم أخذ يتسع حتى منتصف القرن السابع عشر في الادب الاوربي ، ولتقل ، على وجه الصحة ، في الادب الغربي ، وذلك لان نفوذهم لم يشع كاشعاع الفرنسيين والايطاليين حتى الحدود الشرقية للقارة . فهو محسوس خاصة في فرنسا بسبب العلاقات الوثيقة المعقودة في السلام وفي الحرب بين الاسبانيين والفرنسيين ، من جنود عارض تنافس سادتهم فيما بينهم في

جميع مبادئ القتال ، أو من رجال الأعمال الذين يعاونون في فائت أو في روان وقادس أو في اشيلية في تموين العالم الجديد . هذا إلى تيار المواصلات الدائم الذي ساعد عليه أمر فرانسوا الاول في مدريد ، والذي توطد في الربع الثاني من القرن بين فرنسا واسبانيا على جانبي البيرينه . كما تمت معرفة اللغة القشتالية في بلاط آل فالوا وكثرت الترجمات . على أن ما يلفت نظر الفرنسيين بصورة خاصة هو أعمال الخيال ، وأولها رواية الفروسية التي تتم تقاليد آماديس غالبا ، ثم الرواية الريفية ونموذجها الكامل هو ديانا لمؤلفها جورج مونتايور . ومالبت دون كيشوته لسرفانتس ، التي ظهرت في عام ١٦٠٥ ، ان عرفت في فرنسا .

وربما لم يتمتع مؤلف بشهرة واسعة في الخارج أكثر مما تمتع انطونيو غويغارا . فقد توجهت آثاره الأساسية إلى الفرنسية وخاصة الرواية التعليمية ، ساعة الأمراء ، والرسائل المألفة وازدواء البلاط . ومع ذلك فان جمهور المحبين للدراسات الإيطالية لم يعارض بمجيي الدراسات الاسبانية الا في القرن السابع عشر في عصر استويه . وكان يراونوم الغاسكوني شغفاً ببيروانه الاسبانيين وحساساً بخاصة بنقابهم العسكرية .

واهتمت انكلترا في وقت متأخر بهذه الآثار الأدبية نفسها . فقد كثر الاقتباس عن اسبانيا خاصة في عصر الايطالية الطافرة في عهد الملكة اليزابث . وكان لروايات الفروسية الاسبانية جمهور غفير ، ولقي فيها نوع روايات المغامرات مقلدين عديدين ، حتى كثر الكلام عن أدب حقيقي انكليزي مغامر . كما ساهم المسرح الاسباني من دوامة وملهاة في تغذية خيال شكسبير .

جميع مبادئ القتال ، أو من رجال الأعمال الذين يعاونون في ثأنت
أو في روان وقادس أو في اشبيلية في تموين العالم الجديد . هذا إلى
تبار المواصلات الدائم الذي ساعد عليه أمر فرانسوا الاول في مدريد ،
والذي توطد في الربع الثاني من القرن بين فرنسا واسبانيا على جانبي
البيرينه . كما عمت معرفة اللغة القشتالية في بلاط آل فالوا وكثرت
الترجمات . على أن ما يلفت نظر الفرنسيين بصورة خاصة هو أعمال
الخيال ، وأولها رواية الفروسية التي تتم تقاليد آماديس غالبا ، ثم
الرواية الريفية وبمؤدجها الكامل هو ديانا لمؤلفها جورج مونتييور . ومالبت
دون كيخوته لسرفانتس ، التي ظهرت في عام ١٦٠٥ ، ان عرفت
في فرنسا .

وربما لم يتمتع مؤلف بشهرة واسعة في الخارج أكثر مما تمتع انطونيو
غوييفارا . فقد توجهت آثاره الأساسية إلى الفرنسية وخاصة الرواية
التعليمية ، ساعة الأمراء ، والرسائل المألوفة وازدواء البلاط . ومع
ذلك فإن جمهور المحبين للدراسات الإيطالية لم يعارض بمجيي الدراسات
الاسبانية إلا في القرن السابع عشر في عصر استويه . وكان برانتوم
الغاسكوني شغفاً ببيروانه الاسبانيين وحساساً بخيانة بناقهم العسكرية .

واهتمت انكلترا في وقت متأخر بهذه الآثار الأدبية نفسها . فقد
كثر الاقتباس عن اسبانيا خاصة في عصر الايطالية الطافرة في عهد
الملكة إليزابيث . وكان لروايات الفروسية الاسبانية جمهور غفير ، ولقي
فيها نوع روايات المغامرات مقلدين عديدين ، حتى كثرت الكلام عن
أدب حقيقي انكليزي مغامر . كما ساهم المسرح الاسباني من درامة
وملهاة في تغذية خيال شكسبير .

القسم الثاني

البلاد الآسيوية

الفصل الأول

المشرق العربي

تعرضت البلاد العربية فاتحة العصور الحديثة . بعد اكتشاف أمريكا وطريق الهند ، للتوسع الأوربي . فقد أخذ البرتغاليون يمددون الشواطئ الجنوبية والشرقية من آسيا العربية ، بينما استطاع الأسبانيون أن يجلوا العرب من بلادهم ، وأن يفيدوا من المنازعات الداخلية بين أمراء المغرب العربي ، في إفريقية ، ويشيدوا على سواحل الحصون والمواقع ليتخذوها من بعد منطلقاً لعدوانهم على داخل البلاد .

ولقد كانت أولى هذه الحملات عندما وصل فاسكودوغاما إلى المحيط الهندي وأخذ يهاجم السفن العربية ويفرض الحصار على مدخل البحر الأحمر والخليج الفارسي ليسد الطريق في وجه السفن العربية ويحول دون وصول التوابل إلى موانئ بلاد الشام ومصر . ثم توالى الحملات تعمل في الموانئ العربية الحرق والنهب والدمار . ففي البحر الأحمر توصل البرتغاليون إلى جدة ثم قفلوا راجعين بعد أن نهبوا قمرات وأحرقوا زيلع وقصفوا عدن بالقنابل واستولوا على بعض السفن العربية . وفي مدخل الخليج الفارسي قصد أسطول برتغالي جزيرة هرمز وطالب سيدها بدفع جزية سنوية ، إلا أن هذا أعلن ولاءه لشاه إيران لفخاير الدين محمد . ولم يكن البرتغاليون في وضع يمكنهم من اغضاب الشاه بفقد أن

حاول التقرب منهم وتحالف معهم عندما بدا له أن زحف الأتراك العثمانيين على البلاد العربية وإيران أصبح قريب الوقوع .

وكانت معظم الدول العربية في آسيا مع مصر تحت حكم السلطان المملوكي قانصوه الغوري (١٥٠٣ - ١٥١٦) ، وقد استجده الأُمراء العرب ، فلم يكتفم مخاوفه من هذا الخطر الاوربي الجديد الذي أخذ يتهده ويحاول القضاء على مورد من موارده . وماوسعه الا أن فرع ببناء اسطول لمحاربة البرتغاليين وإعادة فتح طريق الهند ، وفي العام ١٥٠٨ خرج اسطول من ١٩ سفينة مزودة بالمدافع واتجه صوب الهند ، وقد أصاب بعض النجاح في لقاء البرتغاليين ، ولكنه غلب على أمره في العام التالي . وعاد البرتغاليون يردون على التحدي العربي ، ويعملون في الجزر والمدن المخاذبة لشواطئ الجنوب العربي النهب والتخريب .

ثم دخل النزاع بين العرب والبرتغاليين في طور جديد بعد أن استجاب السلطان العثماني لنداء قانصوه الغوري وأمدّه بالاشباب لبناء السفن وأرسل إليه مدافع وأجهزة وخبراء . ولكن فرسان القديس يوحنا في مالطة تعرضوا لهذه الشحنة ، فعززها السلطان العثماني بشحنة أخرى . ووصلت الحملة المصرية المملوكية إلى عدن عام ١٥١٦ ومالبثت أن انصرفت عن غايتها الأصلية إلى احتلال اليمن .

ولاقى التجار العرب من هذا العدوان البرتغالي تدهوراً في أوضاعهم الاقتصادية بعد أن خلصهم البرتغاليون احتكار التوابل . وكان لهذا البوار أثره على المدن العربية كجده ودمياط والاسكندرية ، ومثل ذلك على التجار البنادقة ، الذين كانوا يشاركون العرب في احتكار تجارة التوابل ، وفقدوا الأمل في استعادة أهمية طريق التوابل كما كان في السابق .

ومها يكن فقد دلت الأحداث على أن البلاد العربية في ذلك الحين

كانت تشكو ضعفاً مزمناً ألم بها بنتيجة الغارات المختلفة التي كانت تنتابها بين حين وآخر ، فضلاً عن أن السلطان قانصوره الغوري قد كشف أمره وبدا ضعفه فكان مطمعاً لجيرانه من الايرانيين والعثمانيين بالاضافة إلى البرتغاليين . وقد بدأت في ذلك الحين قواتان ناشئتان تظهران للوجود وهما قوة شاه إيران اسماعيل الصفوي وقوة السلطان سليم العثماني ، وكان الشاه قد دخل في مفاوضات مع البرتغاليين لتحالف ضد العرب والعثمانيين . وما وسع السلطان سليم إلا أن تدخل في الأمر وتنبأ لفتح البلاد العربية قبل أن تكون لقمة سائغة في يد الأوربيين أو إيران .

وتجمل الأسباب التي دعت السلطان العثماني لهذا الفتح بما يلي :

١ - حالة البلاد العربية عامة وما تعانيه من ضعف مزمن بنتيجة الفتوحات والغارات المتناوبة التي زعزعتها وتركتها في حالة خور عام .

٢ - سياسة الدولة الصفوية في إيران ومحاولة نشر المذهب الشيعي في المشرق العربي .

٣ - زحف البرتغاليين الكاسح على الشواطئ العربية وتهديدهم وسددهم منافذ البحار في وجه التجار العرب وقطعهم سبل أرزاقهم وحياتهم .

٤ - السباق الدولي الذي دعا السلطان سليم إلى الامراع باحتلال البلاد العربية قبل أن يأتي إليها منافسوه ويحتلوها قبله .

٥ - الرابطة الدينية الاسلامية التي تربط معظم سكان البلاد العربية بالأتراك العثمانيين . ولاشك في أن السلطان سليم قد استغل هذه العاطفة لصالحه ، وقام بدعاية قوية هيأت الأفكار لقبول حكمه وفتح الأبواب في سبيله دون مقاومة .

أما السبب المباشر لفتح العثماني فكان في توتر العلاقات بين العثمانيين والمماليك اثر استيلاء السلطان سليم العثماني على أمارات الحدود

المحايدة الواقعة إلى الشمال الغربي من حلب . وقد طالب قانصوه الغوري بجلاء العثمانيين عنها فلم يفلح . وفي صباح يوم الأحد الموافق ٢٤ آب ١٥١٦ قررت معركة مرج دابق مصير البلاد الشامية بانضمام الجيش المملوكي وسقوط الغوري صريعاً في المعركة .

سورية . - ثم أوغل العثمانيون في بلاد الشام يتعقبون جيش المماليك والمدن تسقط في أيديهم واحدة بعد أخرى ، وهكذا فتح السلطان سليم حلب وحماه وحمص ودمشق ، وجعل الخطباء يخطبون باسمه في الجوامع . ثم وفد عليه أمراء الشام يقدمون طاعتهم وولاءهم .

وشرع السلطان سليم بتنظيم البلاد ، وكلف لجنة لمسح الأراضي بغية تقدير الضرائب وجعلها ، ونشر المذهب الحنفي الذي أصبح مذهباً رسمياً .

لقد كانت سورية في عهد المماليك مقسمة إلى مناطق إدارية تعرف باسم « نيابات » يحكم كلًا منها نائب عن السلطان المقيم في مصر . وعندما فتح العثمانيون البلاد لم يغيروا كثيراً من أنظمتها . غير أن السلطان سليم ضم عدداً من النيابات إلى بعضها وجعل منها ولاية مثل ولاية أو إيالة الشام ، وتشمل البلاد السورية تقريباً وعاصمتها دمشق . وعين لها جان برود الغزالي . وكان هذا الأخير نائب السلطان المملوكي في حماه . ولكنه خرج على المماليك وانضم إلى السلطان سليم في فتح مصر وأظهر ولاءه للسلطان العثماني باعتقال الأمراء التنوخيين الذين وقفوا بجانب المماليك ، ووضعهم في سجن دمشق وأعمل السيف ببعض زعمائهم . وأفاد من سلطته الواسعة بعد وفاة السلطان سليم وخرج عن طاعة الدولة العثمانية وأعلن نفسه سلطاناً على سورية باسم « الملك الأشرف » وشجع والي مصر خير بك أن يحدو حذوه ، وتوجه إلى حلب فلم يستطع فتحها ، وقابله جيش السلطان سليمان ففضى على ثورته ، وقتل الغزالي في القابون بالقرب من دمشق بعد

خراب مايقارب ثلث دمشق من ضياع وحارات وأسواق بسبب الصدام مع الغزالي .

ثم بدأ السلطان سليم بتنظيم سورية فقسمها الى ثلاث ولايات : حلب ، دمشق ، طرابلس . واتبع بكل ولاية عدداً من السناجق أو الألوية . وضمت دمشق عشرة سناجق من بينها القدس وغزة ونابلس ولدمروصيدا وبيروت ؛ وحلب تسعة سناجق ؛ وطرابلس خمسة سناجق .

وكانت مناطق لبنان التي يسكنها الدروز والموارنة تتمتع بوضع خاص وتحكمها أمر يتوارث أفرادها الحكم . وكان في جملة الأمراء الذين أتوا لمقابلة السلطان سليم في دمشق ، بعد انتصاره في مرج دابق ، الأمير فخر الدين الأول المعني أمير الشوف ، رئيس وفد أمراء الجبل . وقد أقر السلطان سليم أمراء لبنان في مناطقهم واعترف بالأمير فخر الدين المعني أميراً على الجبل اللبناني ومنحه لقب « سلطان البر » .

وكانت علاقة الدولة العثمانية بهؤلاء الأمراء عن طريق ولاية دمشق أو مباشرة . وكانوا يتمتعون باستقلال واسع ، حتى أنهم كانوا يعتقدون المعاهدات مع الاجانب ، فضلاً عن جباية الضرائب وعدم التزامهم بمساعدة السلطان عسكرياً .

وبالاجمال لقد أصبحت سورية بعد الفتح العثماني في يامن من الغزو الآتي اليها من الشمال أو الجنوب أو الشرق بعد أن أصبحت البلاد التي نحدق بها عثمانية . ولكن الفتن الداخلية لم تنقطع في سورية .

وقد انصف حكم العثمانيين في سورية بتعدد الولاة وكثرة الفتن في داخل الولاية ، والحروب بين الولاة وسائر الأمراء .

وشهد تاريخ سورية في هذا القرن ولاية عرفوا بصلاحهم وأعمالهم الجيدة . ونخص بالذكر خسرو باشا ، ومحمد باشا ، وبهرام باشا من ولاية

حلب ، ولا تزال الجوامع والمدارس الفخمة في حلب الشهباء تحمل أسماءهم .
ومنهم لالا مصطفى باشا الذي ولي على دمشق عام ١٥٧٣ وظل فيها خمس سنوات
وعرف عنه أن كان صاحب فضل وحسنات وعمر الحان والحمام بدمشق
تحت القلعة .

ومنهم درويش باشا صاحب جامع « الدرويشية » وخان الحرير بدمشق كما
عرف من الولاة السفاكين والي حلب حسين باشا المتوفى ١٥٤٢ . وسنان
باشا فاتح اليمن وصاحب الجامع الذي تم انشاؤه بدمشق عام ١٥٩٠ .
وقد ترك مئات الألوف من الدنانير . ويذكر المؤرخون الأتراك أن ماقام
به سنان باشا من بناء الجوامع والمدارس والتكايا والحانات تقدر نفقاته
بليونين ليرة ذهباً . وأن مامره من معاهد ومباني في الأقطار التي نزلها
تناهز المائة .

وكانت الدولة في القرن السادس عشر وكذلك في القرن الذي يليه
منهمكة بالفتوح ومحاربة الدول الأجنبية وبقمع الفتن الأهلية ، بينما تعاني
البلاد من ظلم الجند والولاة ومن صغار الأمراء من أهلها ومن كبار
أصعاب النفوذ .

أما في لبنان فقد توطد حكم المعنيين في وسطه وجنوبه بعد الحكم
العثماني ودام حكم السلالة المعنية حتى عام ١٦٩٧ ، وعرف تاريخ لبنان
في هذا القرن حوادث ومنازعات مختلفة بين أمراء الجبل وأحياناً بينهم
وبين الولاة في دمشق ، ومع ذلك فقد عرف لبنان نوعاً من الاستقرار
النسبي أكثر من سورية تحت حكم الولاة .

ومن أشهر أمراء لبنان الأمير فخر الدين المعروف بالثاني وهو ابن
الأمير قرقماز بن فخر الدين الأول . ويعتبر من أعظم الشخصيات التي
عرفها تاريخ سورية . فقد استطاع أن يوسع رقعة إمارته ، ويتمتع
بالاستقلال مدة من الزمن نتيجة للحروب والمناورات الكثيرة . وكان عصره

عصر نهضة اقتصادية واجتماعية في لبنان . وامتد حكم الأمير قنبر الدين الثاني من شمال بيروت حتى حيفا وعلى منطقة الجليل في فلسطين بما فيها منطقة طبريا وصفد والناصرة . واستطاع بفضل الموارد التي كانت تأتيه أن ينظم جيشاً مدرباً مهنياً ويستخدم المال لرشوة كبار الموظفين العثمانيين .

شبه الجزيرة العربية . - كانت شبه الجزيرة العربية مقسمة بين عدد من الأمراء وقد نجح العثمانيون في حكم بعض مناطقها . فقد توجه والي مصر سليمان باشا بناء على أوامر السلطان سليمان القانوني من السويس لمحاربة البرتغاليين في البحار الجنوبية ، وفي عام ١٥٣٨ استولى على لحج وعدن ، وتم له ذلك بعد استيلاء العثمانيين على اليمن .

فتح العثمانيين لليمن . - لقد بلغت الامبراطورية العثمانية في العام ١٥٣٨ في ظل السلطان سليمان القانوني نقطة الذروة في قوتها وتوسعها . فقد خضعت لها أقطار المشرق العربي وافريقية وبلدان شرقي أوربة . وكانت اليمن مطمع أنظار السلطان سليمان لما تتمتع به من موقع استراتيجي هام على شواطئ البحرين الأحمر والعربي .

أمر السلطان باعداد قوة ضخمة بقيادة سليمان باشا الأرتاؤوطي والي مصر . وقد أبحرت هذه القوة من ميناء السويس في ٢٧ حزيران ١٥٣٨ بامم بحاربة البرتغاليين ولكن الغرض الأساسي لهذه الحملة هو احتلال اليمن .

وكانت هذه الحملة العثمانية بداية لسلسلة حملات عادت على اليمن بالبؤس والشقاء وكبدت القوات العثمانية خسائر فادحة في الأموال والأرواح . وقد وطأت القوات العثمانية أرض اليمن لأول مرة في ٣ آب ١٥٣٨ بأسلحتها النارية فنشرت الذعر في قلوب السكان الذين لا يعرفون غير السلاح الأبيض .

استولى سليمان على لحج وعدن وكانت ذلك بدء استيلاء العثمانيين على اليمن . وكان الاسطول العثماني في جزر قران عندما اتصل به عامر ابن داود آخر زعماء بني داود بعدن . وقد انتهز هذا الأمير فرصة وصول القوات العثمانية فطلب منها النجدة والعون ضد الامام شرف الدين وكتب بذلك إلى سليمان باشا قبل نزوله من السفينة إلى مرسى عدن ، أملًا منه في استعادة كيان الدولة الطاهرية . وبعث الكتاب مع وفد يحمل هدية للبasha . فرد عليه البasha ردًا مقابلاً ودعاه لزيارته بالسفينة . وبعد تردد قرر الموافقة على طلبية الدعوة ولكن البasha غدر به وهو يغادر السفينة عائداً إلى عدن وأمر باعدامه وشنقه على عمود في السفينة . ودخل البasha عدن وأمر بقتل من بقي من أسرة آل طاهر ومصادر أملاكهم بحجة تسليمهم عدن للبرتغاليين . ثم حصن سليمان عدن . وفي سنة ١٥٤٧ زحفت القوى العثمانية بقيادة ازدمر باشا نحو صنعاء وواجهتها قوى الامام شرف الدين وقامت عدة معارك بين الطرفين انتهت بتغلب قوى العثمانيين وتمكنت هذه القوى من دخول صنعاء بعد معارك عنيفة في ضواحي المدينة .

وفادى الأمير شرف الدين (وهو ينتسب إلى الأئمة الزيديين وهم من الشيعة المعتدلين وينتسبون إلى الامام زيد حفيد الحسين بن علي بن أبي طالب) صنعاء إلى كوكبان وأخذ يوجه منها حركة المقاومة وعهد إلى ابنه المطهر تعبئة القوى اليمنية وخطط الدفاع . التجأ هذا الأمير إلى قلعة ثلاً وأخذ يشن منها الغارات ويثير أهل اليمن ، واستمرت المقاومة ضد العثمانيين حتى كانت معركة شعوب على أبواب صنعاء (١٥٦٨) انتصرت فيها قوات المطهر وحوصر الأتراك في صنعاء ثم أجلاوا عن أرض اليمن ووصل المطهر بنفسه إلى تعز وعدن وتسلم جميع المناطق

اليمنية ماعدا مدينة زبيد التي احتفظ بها العثمانيون واتخذوها منطلقاً لهم .
وحاول اليمنيون استردادها منهم فلم يفلحوا .

ثم أعدت الدولة العثمانية جيشاً بقيادة سنان باشا واستودت صنعاء في عام ١٥٧٠ بعد مقاومات عنيفة ، ثم أخذ الأتراك يسيطون نفوذهم في اليمن ويتكلمون بأعيانها ورجالها وينفون بعضهم إلى الآستانة وبوالون إخضاع البلاد . ولم تقم بعد ذلك حركة تذكر حتى عام ١٥٩٨ عندما حض الإمام المنصور القاسم ابن محمد اليمنيين على الثورة فاستجابت لدعوته معظم القبائل وخاض مع العثمانيين عدة معارك كان آخرها معركة غارب أثلة عام ١٦١٣ انتصرت فيها القوى اليمنية واضطر جعفر باشا إلى عقد الصالح مع الإمام القاسم وانتهى القرن السادس عشر ولم ينته النزاع بين اليمنيين والقوى العثمانية .

عدن . استولى العثمانيون على عدن بطريق الغدر بأميرها وأهلها فما وسع هؤلاء إلا أن اتفقوا مع البرتغاليين لمحاربتهم فأرسل اليهم العثمانيون اسطولهم بقيادة القبطان بيروي باشا قائد أسطول مصر فاسترد عدن في ١٥٤٧ . وبقي الحكم العثماني في عدن ولحج حتى عام ١٦٤٤ حين تغلب عليه أئمة اليمن .

الحجاز . - لقد كان حكم الحجاز بيد الأشراف من نسل الرسول وكان الشريف يقيم في مكة قاعدة البلاد وينتخب انتخاباً . غير أنه كان لسلطين المماليك شيء من السيادة على الحجاز . فكانت ثأنيه الصدقات صجة أمير الحج المصري . وكانت جدة تابعة للمماليك في مصر . وقد تحول قسم من التجارة عنها بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح .
عصر النهضة (٢٦)

ورغب البرتغاليون في الاستيلاء على جدة . ولكن المماليك دافعوا عنها وحصنوها .

وعندما فتح العثمانيون مصر أرسل الشريف بركات ابنه إلى القاهرة لمقابلة السلطان سليم وسلمه مفاتيح الكعبة ، واغتنم خطيب المسجد هذه المناسبة وسمى السلطان « خادماً الحرمين الشريفين » . وأقر السلطان سليم الشريف بركات في منصبه ، وكان أول سلطان عثماني أرسل المحمل وكسوة الكعبة . وكان السلطان يرسل كل سنة في أيام الحج خلعاً وسيفاً مرصعاً إلى الشريف مكة ، كما يرسل مراتب الأشراف والقبائل عن طريق الحج ، والصدقات إلى فقراء الحرمين . وخلف العثمانيون المماليك في جدة وحصنوها وجعلوها مقراً لحكمهم وأصبحت جدة ولاية تتبعها بعض موانئ البحر الأحمر مثل سواكن ومصوع . وكانت تجارتها رائجة ويقصدها الأوروبيون ، غير أن سفنهم لا تتعداها إلى الشمال فتنتقل السلع على سفن إسلامية . وكان لأشراف مكة نصيب من واردات جمارك جدة ، وعليهم ، مقابل ذلك ، أن يحافظوا على سلامة الحجاج في الحجاز . غير أن القبائل البدوية إذا انقطعت عنها الرواتب أو تأخرت ، قنهب الحجاج . وعليهم أيضاً أن يوطدوا العلاقات الطيبة مع الباب العالي ووالي مصر . وعلى الشريف المنتخب أن يكون حذراً من سائر أشراف مكة الذين اختاروه . وكان لديه قوة يستعين بها عند الحاجة وتتألف من العبيد والمغاربة والأتراك . وكان الناس يقاسون من اعتداءات هؤلاء الجنود ، وظلت الحال كذلك حتى قدوم الوهابيين في العام ١٨٠٢ .

نجد . - كانت تتألف بلاد نجد الواسعة من عدة مقاطعات منها :
العارض والقصيم والاحساء وجبل شمر . وقد خضعت خضوعاً اسمياً للدولة

العثمانية بعد أن استولت هذه نهائياً على العراق في عهد السلطان مراد الرابع عام ١٦٣٨ . غير أن أمراءها كانوا مستقلين في شؤونهم الداخلية ولا سيطرة للعثمانيين عليهم .

الخليج الفارسي . - في هذا الخليج أمارات عمان والساحل العماني وقطر والأحساء والبحرين والكويت . وأهمها عمان . انتزع العثمانيون مسقط من البرتغاليين في القرن السادس عشر ونفذوا إلى الخليج الفارسي واتصلوا بالامارات العربية وبسطوا عليها بعض السيادة وخاصة في الاحساء والكويت .

غير أن المشايخ والامراء كانوا حذرين من العثمانيين وظلوا يحتفظون بالسلطة الحقيقية وكانت سلطنة عمان على شيء من القوة ، فقد حاربت البرتغاليين وطردتهم من الخليج الفارسي واستولى اسطولها على بعض المناطق المجاورة في شرقي أفريقيا وفي الخليج . ولكنها ضعفت لكثرة حروبها مع النجديين في القرن الثامن عشر . كما حصلت منازعات بين أفراد الأسرة الحاكمة . وقد اهتم الانكليز بها وفرضوا عليها حمايتهم في القرن التاسع عشر .

وكانت البحرين نهياً مقسماً بين أصحابها العرب وبين الفرس والعمانيين .
العراق . - كان العراق مركز الخلافة العباسية وقد تمتع بمحضارة زاهرة ، ولكن هذه الحضارة أفل نجمها بعد غزو هولاكو زعيم التتار واستيلائه على بغداد عام ١٢٥٨ ، وخضع العراق بعد ذلك مدة قرنين ونصف لسلالات مغولية وتركمانية حتى أتاهم الصفويون من إيران عام ١٥٠٨ . كانت العراق في الفترة المغولية والتركانية مسرحاً للغزو والنهب والتهديم حتى ضعفت البلاد من الاضطراب والفقر وزوال الأمن وتقلب الحكم الأجنبي .

ففي عام ١٥٠٨ أرسل الشاه اسماعيل الصفوي القائد لالا حسين لفتح بغداد فاستقبل بالترحيب ، وزال الحكم التركاني تاركاً بعض الجماعات التركانية التي مازالت آثارها باقية حتى اليوم في تلعفر ومنطقة كركوك .

وفي الحقيقة ، كانت العراق في فاتحة القرن السادس عشر منطقة جذب بين قوتين فاميتين : قوة الصفويين من جهة ، وقوة العثمانيين من جهة أخرى ، ولكن التوسع العثماني هو الذي ساد أخيراً في العراق .

الدور الصفوي الأول والدور العثماني الأول في العراق . - حكم الصفويون العراق للمرة الأولى بين ١٥٠٨ و ١٥٣٤ وقد سلك الشاه اسماعيل في العراق سياسة شيعية مناوئة للسنة صراحة . وعين الشاه إبراهيم خان حاكماً على بغداد . وشهدت العراق في هذه الفترة بعض الراحة والسلم والرفاه ؛ وتوافد التجار الفرس على بغداد ونهضوا بالأعمال التجارية .

ولكن العثمانيين في عهد السلطان سليم الاول حملوا على الفرس في واقعة تشيلديران ١٥١٤ قرب بحيرة اورمية واستولوا على مناطق كردستان الوسطى وشمال العراق وعينوا حاكماً أتراك في ديار بكر وماردين والموصل وبقي القسم الجنوبي من العراق بيد الفرس . ثم قام ذو الفقار وهو زعيم قبيلة كردية وحاكم أطراف لورستان فقتل الحاكم الايراني في العراق واستولى على الحكم في ١٥٢٤ بعد وفاة الشاه اسماعيل وأعلن نفسه تابعاً للسلطان العثماني ، ولكنه قتل في ١٥٣٠ بعد أن حاصر الشاه طهباسب بغداد وعاد الحكم للصفويين إلى أن أتى عهد السلطان سليمان .

زحف السلطان سليمان القانوني على العراق واحتل في أول الأمر شمال فارس واجتاز كردستان ، ولحق بوزيره إبراهيم باشا الذي كان يهاجم منطقة الموصل ، وكانت قوى المدفعية تصاحب مسيرة السلطان . وقد دبت هذه القوى الرعب في النفوس وفتحت بغداد صدرها للقائح عام ١٥٣٤

هون قتال . وقام ببعض الإصلاحات الداخلية في البلاد من إصلاح الجداول
والسدود وتنشيط الزراعة والتجارة والتجيب إلى السكان ، وعين سليمان
باشا والياً على العراق وهذا أول والٍ عثماني على البلاد . ثم عاد إلى القسطنطينية
وأصبحت العراق ولاية عثمانية . وانتهى الدور الفارسي الأول بعد أن
دام ٢٦ سنة

الدور العثماني الثاني (١٥٣٤ - ١٦٢٢) . - توالى على حكم العراق
في هذا الدور عشرون والياً عثمانياً . وقد ضعف شأن بغداد بعد أن
أصبحت استانبول عاصمة الخلافة العثمانية الاسلامية . وكان يساعد الوالي في
ادارة العراق الدفتردار وهو محاسب يعين بموجب فرمان من العاصمة ،
والقاضي ، والجيش الانكشارية ، والقوى المحلية . وكان يمثل الرأي
العام لدى الوالي ديوان أو مجلس من الأعيان يساعده في الحكم بصورة
غير مباشرة . وكان الشيعة في المدن المقدسة والقبائل في الارياف يقارمون
حكومة بغداد ، ولم يتمكن العثمانيون من القضاء على هذه المقاومة تماماً .
وعرف تاريخ العراق في هذه الفترة عدة ثورات : مثل ثورة
البصرة ، وثورة كربلاء ، وتمرّد الانكشاري الصوباشي حسن على الوالي
يوسف باشا وقتله عام ١٦٢٢ .

وانشقت في هذا الدور الطائفة النسطورية على نفسها واعترف قسم
منها بسلطة البابا وصارت تعرف باسم الطائفة السكلدانية ولها بطريرك يسمى
بطريرك بابل . كما زار بغداد جماعة من الرحالة الاوربيين في النصف الثاني
من القرن السادس عشر وذكروا انحطاط بغداد والمخاطر التي تعرضوا
لها في طريقهم .

الحكم العثماني في البلاد العربية . - حكم العثمانيون البلاد العربية
منذ أوائل القرن السادس عشر . وقد حكم المماليك من قبل مصر

وسورية ، والمغول والتركمان ثم الفرس العراق . أما شبه الجزيرة العربية فكانت تحكمها سلاسل محلية ، ولكن الحكم العثماني ساد معظمها ولو كان ذلك بصورة اسمية .

قسمت الدولة العثمانية البلاد العربية الى ولايات بلغ عددها إحدى عشرة ولاية . ولكن هذه الولايات لم تكن لتحكم بدرجة واحدة . فقد احتفظت بعض الولايات بأنظمتها السائدة قبل الفتح العثماني ومع ان الحكم كان مركزياً من حيث المبدأ فقد كانت مختلف الولايات تتمتع بدرجات متفاوتة من الحكم الذاتي . لقد كان الحكم مثلاً في مصر حكماً ذاتياً يسيطر فيه بكوات الممالك ، بينما كانت تحكم سورية حكماً مباشراً . أما لبنان فقد كان خاضعاً لعصبيات عائلية وسلاسل محلية ، وأما في العراق فقد كان الحكم متنوع الاشكال من أمراء الاكراد وشيوخ القبائل ، كما يشكل الولاة فيه سلاسل في بعض الأحيان . هذا فضلاً عن أن الولاة كانوا يحاولون التمرد على السلطة المركزية من حين لآخر .

لقد كان هدف السلاطين العثمانيين الاحتفاظ بسيادتهم على البلاد والحفاظ على الاوضاع الراهنة التي وجدت فيها عند احتلالها . وكان على الولايات تقديم الأموال والرجال للدولة ، على أن تقوم كل ولاية بنفقاتها وتعطي قسماً من وارداتها لحزاة الدولة . وكانت الوظائف المدنية الكبرى في الولايات والوظائف القضائية والدينية تباع وأحياناً توضع في المزاد ، والاحتفاظ بها يحتاج إلى تقديم الهدايا لرجال البلاط . ولم يفكر إلا قليلاً باصلاح شأن البلاد من حيث التعليم والصحة العامة والزراعة والري وتحسين طرق المواصلات والحفاظة على الأمن وتحضير البدو . وفي الحقيقة كان العثمانيون يأخذون ولا يعطون دون أي اعتبار لمصلحة السكان .

وصفوة القول لقد كان للفتح العثماني في بلاد المشرق العربي نتائج هامة وهي :

١ - ان البلاد العربية كلها وقعت تحت سيادة واحدة وهي السيادة العثمانية . وتكاد النظم التي توجهها وتدير شؤونها تكون واحدة . إلا أن هذا الفتح العثماني بعد تداعي قيمة البحر المتوسط أمام مغامرات المحيطات الكبرى ، كان منه تداعي الاقتصاد العربي . فلم يعد النشاط العربي محور النشاط العالمي في السياسة والاقتصاد ، كما لم يعد على اتصال بشؤون السياسة العالمية ، بل ضرب حوله نطاق عثماني أدخله في جسم الامبراطورية العثمانية وران عليه اربعائة سنة ، ولذا فان تاريخ هذه البلاد كان تاريخ ولايات مطبوعاً بالطابع المحلي

إلا أن هذا الحكم من جهة ثانية ، أوجد رابطة سياسية بين البلاد العربية ومركز الامبراطورية ، وهذه الرابطة العثمانية تختلف قوة وضعفاً من بلد لآخر .

٢ - ان الفتح العثماني أوقف توسع المذهب الشيعي في بلاد الشام ومصر ولحد ما في العراق وجعل نفوذه قاصراً على إيران .

٣ - ان الفتح العثماني خفف من وطأة النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي وأوقف توغله في البلاد العربية ، ولكنه لم يحل في المستقبل دون توغل النفوذ الاوربي عامة وبخاصة بعد ضعف الامبراطورية العثمانية في العصور التالية .

الفصل الثاني

بلاد آسيا الوسطى والشرق الأقصى

إيران

ببما كانت الحروب الدينية تمزق البلاد المسيحية في اوربة ، كانت الاسلام يحقق النصر تلو النصر في آسيا . لقد نفذ الاسلام ، بعد انتشاره في القارة الآسيوية منذ زمن بعيد ، إلى جزر الهند الشرقية والهند الصينية واقلیم یون - نان في الصين ، وكانت قوة توسعه في ازدياد . بيد أنه كان في حالة تراجع وانسحاب في اسبانيا ، وعرضة لانقسامات داخلية عميقة وخطيرة . ولقد كان يقابل النزاع بين الكاثوليك والبروتستانت في اوربة ، خصام بين السنين والشيعة في آسيا ، حتى ان الخصام ترك أثره في مقدرات إيران .

لقد كانت مملكة إيران الشاهانية أهم الدول التي نشأت عن تفتت الامبراطورية التيمورية التي شادها تيمور في القرن الرابع عشر ودامت حتى القرن السادس عشر . وكان آخر أمراءها بابر مؤسس السلالة المغولية في الهند . وقد اتفق اغتلاء السلالة الصفوية عرش إيران مع فاتحة القرن السادس عشر . وأصل هذه السلالة من اذربيجان . وولتسب إلى الشيخ صفي الدين المتوفى عام ١٣٣٤ . وهو من مدينة اردبيل وشيخ طريقة صوفية . ومن هذا الامم صفي الدين أخذت السلالة اسمها ، السلالة

الصفوية . ويرجع أصل هذه السلالة إلى موسى الكاظم وهو الامام السابع وأصغر اخوة الامام إسماعيل من الشيعة الاثني عشرية .

لقد وقعت إيران في القرون الاخيرة من العصر الوسيط تحت سيطرة المغول . غير أن شخصيتها بقيت سليمة لم تمس . فقد حافظت على لغتها ودينها ومذهبها الشيعي . وانطلقت حركة استقلال إيران حوالي منتصف القرن الخامس عشر على يد السلالة الصفوية وتحققت في فاتحة القرن السادس عشر بمساعدة القبائل التركية السبع في اذربيجان التي يرمز لها بهذا الاسم المميز : قيزيل باش أي الرؤوس الحمراء . فقد قام الشاب اسماعيل الصفوي بسانده حاكم غيلان واستولى على باكو عام (١٥٠١) وشاماخا . وهذا النجاح الذي لاقاه جعله يزيد في عدد رجاله ويهزم الواند أمير قبيلة الحمل الأبيض (آق قيونلو) التركية في واقعة ناخيتشيفان ، ثم أخذ تبريز وتوج في عام ١٥٠٢ واتخذ لقب شاه .

الشاه اسماعيل (١٥٠٢ - ١٥٢٤) . - لقد كان الشاه اسماعيل بطلاً قومياً ، فعلى يده تم تحرير إيران . وكان يحلم بحكم إيران موحدة ، مسلمة ، شيعية ، متحررة من كل نفوذ أجنبي ، ولهذا استولى على غربي إيران بكامله في عام ١٥١٠ وأخذ قازرون وكرمان وهمدان وفارس ويزد وأصفهان .

وفي الشرق انهارت المملكة التيمورية بعد أن قلبها اليزبك وكانت زعيمهم محمد الشيباني مسلماً سنياً ، استولى على خراسان وكتب للشاه اسماعيل يخطره بالرجوع إلى السنة ، فجهده الشاه وهاجم خراسان واستولى على مشهد ووقعت واقعة كبرى في مرو قتل فيها الشيباني .

وكان بين امرى مرو أخت الزعيم بابر التيموري . وكان هذا يعمل على تأسيس امبراطورية كبرى في افغانستان والهند . وقد عامل الشاه

أخت بابر معاملة حسنة وأعادها لأخها وكان هذا الفعال الحسن بداية لتحالف بين الشاه وبابر ، وهذا مادفع بابر إلى قتال اليزبك وردهم إلى بلاد ما وراء النهر . وكان على الصفويين أن يحاربوا في جبهة أخرى وهي جبهة الأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى بعد أن بلغوا نقطة الأوج .

لقد كانت دول أوربة المسيحية تحاول الإفاضة من الحلاف المذهبي بين العثمانيين السنيين والصفويين الشيعة . وكما أن ملوك فرنسا من أسرة آل فالوا كانوا يبحثون عن حلف مع العثمانيين لمهاجموا آل هابسبورغ من الحلاف ، كذلك حاول آل هابسبورغ عقد الصلات مع إيران ليجمدوا الترك في آسيا . ومنذ ١٥١٨ توجه لويس الثاني ملك هونغاريا إلى الشاه اسماعيل . ولا يعني هذا أن إيران والامبراطورية العثمانية كانتا مسيرتين بالانجاءات الأجنبية ، بل كان لكل منهما مطامع خاصة تريد تحقيقها .

كانت البلاد العربية في آسيا آنذاك عرضة لخطر قوتين : المد الشيعي ، والتوسع البرتغالي . وكانت بدورها تشكو إعياء زمناً ، فانتهمز السلطان العثماني سليم الأول هذه الفرصة السانحة وطمع في الاستيلاء على البلاد قبل غيره . هاجم إيران في توسعه نحو الشرق وانتصر على الصفويين في موقعة تشالديران ، قرب تبريز عام ١٥١٤ ، حتى اضطر الشاه اسماعيل إلى التخلي عن حوض الفرات . ولكن الحرب كانت تتجدد بين حين وآخر بين العثمانيين والصفويين ، ولم تكن فترة السلم سوى هدنة مؤقتة بين الطرفين ، ودامت هذه الحال حتى نهاية السلالة الصفوية .

الشاه طهاسب (١٥٢٤ - ١٥٧٦) . - توفي الشاه اسماعيل عام ١٥٢٤ ، فخلفه ابنه الشاه طهاسب ، وكان عليه أن يجابه كآبئه خطراً مزدوجاً : العثمانيين من الغرب والتركمان من الشرق .

كان عمر الشاه عندما اعتلى العرش عشر سنوات . فكان بين أبدي

زعماء قبائل قيزيل باش الذين كانوا يتناحرون على السلطة . حل أولاً على اليزبك وأخضعهم عام ١٥٢٧ . غير أن ثورة استدعته مريعاً إلى بغداد عندما قام زعيم قبيلة الكلهور وأراد أن يفتصب الحكم لصالحه ، وحاصر الشاه الثائر وأعدمه . ثم قام اليزبك وهاجوا إيران وحاصروا هرات ثمانية عشر شهراً ، فعاود طهباسب الكرة عليهم وما وسعهم إلا أن انسحبوا لرؤيته .

غير أن الخطر الحقيقي الذي كان يدام إيران كان في تهديد العثمانيين لها طيلة حكم السلطان سليمان القانوني فقد هاجم إيران وكسر الشاه وأخذ تبريز ووان وبغداد عام ١٥٣٤ حتى اضطر الشاه طهباسب إلى نقل عاصمته إلى قزوین . وبوجب معاهدة آمازيا ١٥٥٥ تخلى طهباسب نهائياً عن العراق .

وساءت الأمور بعد طهباسب ، وخلفه لمدة قصيرة اسماعيل الثاني (١٥٧٦) ومحمد خردا بندا (١٥٧٨) وكان أكبر أولاد طهباسب ، ثم أجبر على التنازل عن العرش ١٥٨٣ .

الشاه عباس الكبير (١٥٨٧ - ١٦٢٩) . - يعتبر الشاه عباس أعظم ملوك الصفويين ، ومن أعظم شامات إيران . لقد استطاع أن يتم العمل الذي بدأ به أسلافه : طرد اليزبك من خراسان عام ١٥٩٧ ، والترك من أذربيجان (١٦٠٣) ومن بغداد (١٦٢٣) .

كان الشاه عباس معاصراً للملكي فرنسا هنري الرابع ولويس الثالث عشر ، حقق الوحدة الإيرانية وأغنى المملكة وعقد الصلات الكثيرة مع أوربه . وفي شمال دوله نشأت سلالة جديدة في موسكو وهي سلالة آل رومانوف . وفي أوربه الغربية كان ملوك فرنسا في حرب

مع البيت النمساوي . وهذا مادعاهم للتقرب من الدولة العثمانية وعقد الصلات الطيبة معها . حتى ان الحلف النمساوي الذي عقد مع فرنسا الأول استمر في حكم هنري الرابع ودام حتى منتصف القرن الثامن عشر . وفي العام ١٥٩٢ عادت الحرب بين النمسا وتركيا فكانت فرصة لـشاه أخذ فيها يستجمع قواه ، وينظم علاقاته مع الدول الأوروبية .

وفي عهده تطورت قضية الخليج الفارسي بعد مجيء فاسكو دوغاما إلى الهند ، فقد أخذ البرتغاليون غوا و ديو ، وخول ملك البرتغال نفسه لقب « ملك البرتغال وأمير الهند » ، وحاذى البوكرك الشواطئ العربية ووصل إلى الخليج الفارسي عام ١٥١٣ وأدرك أهمية طريق الخليج الفارسي - سورية فقرر أن يحتجزه لسيده ملك البرتغال . واحتل البرتغاليون شاطئ مضيق هرمز وجزيرة هرمز التابعة لإيران ، ومسقط في بلاد العرب وجزر البحرين . وخولتهم الاتفاقية التي عقدها مع إيران حصر التجارة الإيرانية ، واحتل البوكرك أيضاً جزيرة سقطرة عند مدخل البحر الأحمر جنوباً فأدى ذلك إلى خراب تجارة البندقية . وفي عام ١٥٩٨ قدم السير انطوني شيرلي إلى بلاط الشاه واقترح عليه أمرين :

١ - أن يدخل الشاه في رابطة الملوك المسيحيين ضد الاتراك العثمانيين .

٢ - أن يقيم علاقات تجارية مع انكلترا .

وفي العام ١٦٠٠ عاد السير انطوني شيرلي إلى أوروبا راضياً عن نجاح مهمته . وفي ٣٠ كانون الاول ١٦٠٠ أخذت « الشركة اللوندنية للهند الشرقية » صكها من يدي الملكة إليزابيث . وفي ١٦١٢ كان الانكليز في سورات ، وفي ١٦١٣ وصلوا بندر عباس بالقرب من هرمز . وقد أساء البرتغاليون استقبالهم ، ولكن الشاه عباس استقبلهم بحفاوة فافترحوا

عليه حمايتهم له ضد أعمال البرتغاليين . وفي ١٦٢٠ عقدت بين الشاه وبينهم اتفاقية على ان يأخذوا هرمز ويردوها لایران ، ومقابل هذه المساعي الحميدة يكون لهم الحق في إقامة قاعدة تجارية في بندر عباس ، وأن يعفوا من الرسوم ويتقاسموا مع الايرانيين حصيلة الجمارك شريطة إقامة سفن حربية في الخليج الفارسي لتأمين حرية الملاحة للسفن التجارية .

وفي سنة ١٦٠٢ تأسست « شركة الهند الشرقية الهولندية » وأتى الهولنديون إلى إيران في عام ١٦٢٣ ، وأحيوا النظام التجاري القديم وهو نظام « المقايضة » وذلك أن يأتي الهولنديون بالسلع ، فيأخذها الشاه ويعطيهم بالمقابل الصوف والحرير والسجاد . غير أن عيب هذا النظام بدا ظاهراً للمولنديين لأن الايرانيين كانوا يخفضون كل عام قيمة السلع الهولندية ويزيدون قيمة سلعهم .

وفي ١٦٢٥ شعر الشاه عباس بقوة الانكليز فخاف امتدادهم وفاوض البرتغاليين بمعاودة جديدة فتح لهم حق صيد لؤلؤ البحرين ونصف جمارك ميناء بندر كونغ . فقبل البرتغاليون وأصبح باستطاعتهم مساعدة الشاه على التخلص من أصدقائه الانكليز والهولنديين .

وفي الداخل وطد الشاه عباس الأمن ، وشق الطرق ، ومازال الريف الايراني مفروشا بأطلال الحفائر التي أنشئت في عهده . وكانت كبيرة وواسعة ومجهزة بالرفاه النسبي وحامية للأمن .

وقامت في عهده أعمال الري وحفر الآبار لتزويد السكان بالماء الصالح للشرب في المناطق الصعبة . ومضى الشاه عباس في تجديد إيران على الطريقة الاوربية . وعمل بمشورة الاخوين أنطون وروبرت شيرلي وأسس جيشاً من ٦٠,٠٠٠ رجل مدربين تدريباً عسكرياً حديثاً ، كما أقام معملًا للمدافع .

وطبق الشاه سياسة التسامح مع غير المسلمين ورحب بالمبشرين الكاثوليك والرحالة والأجانب والتجار وضم لامبراطوريته شعبين مسيحيين هما الجورجيون والأرمن ، وأسكن الأكراد في خراسان ليقفوا حائلاً دون هجوم اليزبك .

وشهدت إيران في عهد عباس حركة عمرانية واسعة ظهرت بإعادة بناء أصفهان واختيارها عاصمة للملكه ، وبالجوامع والخانات والكليات والمشافي ، حتى ان أوابد أصفهان تتمتع بشهرة عالمية ، نذكر منها الجامع الكبير وقصر الأربعين عموداً (تشهيل سوتو) والحدائق الاربع (تشارباغ) وجسر زنده - رود الكبير .

وكان الشعر الايراني يستمد إلهامه من وحي قومي وسلاي وديني ، ومن شاه نامه آي إسماعيل قاسمي ، وهي تمجيد للشاه إسماعيل ، وشاه نامه كالي سبزفار وهي تمجيد للشاه عباس .

ومن الوجهة الفنية كان عصر الصفويين عصر تفتح للفن الاقباعي الايراني . وهو مزيج من الفنون العربية والهندية والصينية ، ويمتاز هذا الفن برشاقتة وانسجامه وعذوبته . فقد بلغ فن المنمنمات فيه درجة الكمال والاتقان على يد الفنان بهزاد الذي أحيا فن الرسم . واشتهر بعده قامم قالي من هرات ، وميراك ، وقد عرف بتزيين قصائد الشاعر نظامي ، ويدو في هذا الفن تأثير الفن الصيني وخاصة في الحرف . وكان لهذا الفن الايراني النامى تأثير قوي في نفوس الاوربيين لما رأوه فأعجبوا به ، ونخص بالذكر منهم الرحالة الفرنسي شاردن الذي وصف جمال تشارباغ ومبانيها الفخمة .

كما كثر اهتمام الايرانيين في هذا العصر بصناعة السجاد . وقد شجع

الشاہ اسماعیل وخلفاؤه هذه الصناعة حتى انتقلت من صناعة منزلية إلى صناعة فنية راقية صوفية وحريرية .

هذا ويعتبر عصر الشاہ عباس العصر الذهبي للفن الايراني ، ففيه بلغ الفن تعبيره الكامل بعد محاولات الساسانيين والسلاجوقيين والمغول .

الهند

كانت الهند في القرن السادس امبراطورية قوية مزدهرة . وفي فاتحة هذا القرن قام انقلاب سيامي ، وذلك ان شمال الهند الذي ظل مجزأاً منذ القرن السابع قد توحد بفتح السلطان أكبر ، وان الجنوب الموحد منذ قرنين تحت سلطة فيجايا نارا غار قد تجزأ .

وكانت امبراطورية الهند الاسلامية في عهد أكبر تضم أكثر من مائة مليون نسمة ، وتذكر بامتدادها من أفغانستان إلى البنغال ، ومن كشمير إلى ضفاف غوآدافاري ، بالامبراطوريات الكبرى في العصر القديم . وكانت العاصمة التقليدية دلهي منذ عصر السلطة الاسلامية الأولى ، ولكن الحكومة كانت تميل إلى الانتقال نحو أغرا عاصمة الإقامة . وفي عام ١٥٦٩ تأسست بالقرب من أغرا عاصمة جديدة أخذت اسم فتحبور - سيكري أي مدينة النصر وذلك لاحياء ذكرى فتح غوجرات عام ١٥٧٤ . ولكن اختيار هذا الموقع كان غير موفق . فقد كان هضبة صخرية قليلة المياه وهذا مادعا السلطان أكبر إلى هجرها عام ١٥٨٥ .

وفي الحقيقة كانت الهند تحكم من قبل سلالة أفغانية وهي سلالة السلاطين البهانيين (١٣٤٧ - ١٥٢٥) ثم خلفتها سلالة جديدة تعرف باسم سلالة بابر من نسل تيمور مؤسس السلالة التيمورية وقد أطلق عليه اسم المغولي الأكبر .

بابر المغولي الأكبر (١٥٠٥ - ١٥٣٠) - كان بابر سلطاناً وراثياً في فرغانة في تركستان ، قضى حياته في الحرب والقتال ، ثم توقف نشاطه الحربي في الغرب على أيدي الصفويين والشيبانيين ، فاتجه نحو الشرق والجنوب : فتح أفغانستان واستقر في كابول عام ١٥٠٦ وأخذ يعد نفسه لفتح الهند بعد أن سيطر على الشعب المؤدية إليها . وكانت الهند تحكم من قبل سلالة لودي باسم قبيلة أفغانية قديمة تجمدت منها وهي سلالة البهانيين .

فتح بابر البنجاب (١٥٢٤ - ١٥٢٥) . وتقام مع كبار اتباع السلطان ابراهيم لودي في دلهي . وبفضل المدفعية التي جهز بها جيشه حاز نصراً مهنياً في بانيبات (نيسان ١٥٢٦) وهلك ابراهيم في هذه المعركة ثم أقام بابر في دلهي وأعلن نفسه باديشاه الهند في ٢٧ نيسان ١٥٢٦ . ثم هاجم اتحاد الراجبوت وكسرهم واستطاع في حملة ثلاثة أشهر أن يؤسس امبراطورية هندية واسعة تمتد من همالايا إلى الدكن الشالية ، ومن أفغانستان إلى البنغال واتخذ أغرا مقراً مفضلاً له . ثم توفي في ٢٦ كانون الأول ١٥٣٠ وله من العمر سبع وأربعون عاماً .

وبالرغم من هذه الفتوحات التي حققها بابر فلا يمكن القول بأنه أسس امبراطورية حقاً . وقد أوشك تاريخ هذه الامبراطورية أن يقف عند موت مؤسسها . لأن ابنه همايون طرد من الهند في (١٥٣٩ - ١٥٤٠) بعد أن تألج عليه الهنود والأفغان . ولم يعد إليها إلا بعد خمس عشرة سنة . بفضل الشاه طهباسب ، الذي كان يحلم بالتحالف معه ضد اليزبك ويحاول تشجيعه . وقد دخل دلهي عام ١٥٥٥ ومات فيها في السنة التالية تاركاً الامبراطورية لابنه أكبر .

السلطان اكبر (١٥٣٨ - ١٦٠٥) يعتبر اسم أكبر من الأسماء الكبرى في تاريخ الهند . كان يمثل الفاتح الشرقي بقوته وشجاعته وشدة

بطشه ونعومته ودمائته . وسع نفوذه في جميع الجهات : شمالاً في كشمير ، وشرقاً في البنغال ، وجنوباً في قسم الدكن حتى غودافاري ، وغرباً في راجبوتانا ، والحق غوجيرات في العام ١٥٧٢ . واستطاع بذلك أن يجد للامبراطورية منفذاً على البحر ويجعلها على اتصال مع البرتغاليين في سورات غير أن اطماع أكبر كانت قارية قبل كل شيء ، فلم يحاول أن ينازع الاوربيين مواقعهم البحرية . وقد استطاع هؤلاء بفضل مواقعهم أن يحصروا التجارة الخارجية في أيديهم . ويمكن القول كذلك عن خلفائه . إلا أن سورات كانت تثير اهتمام سادة الامبراطورية لأنها كانت ميناء أساسياً لاجار المسلمين الناهيين للحج إلى مكة .

كان أكبر إدارياً عظيماً ، أناب الادارة التركانية بإدارة منظمة استوحاها عن الطرق الايرانية . وقسم الهند إلى ١٥ منطقة (سوبا) واكثر من ١٠٠ اقليم (مركاز) وحول الاقطاعية الانغانية إلى طبقة نبيلة تعمل في البلاط على ٣٣ رتبة . وأسس وزارات على النمط الاوربي : الوزير الأول ووزير المالية ، والبلاط ، وحارس الاختام وغير ذلك : وكانت وسائل عمله عظيمة لأنه استطاع بفضل غنائم الحرب والضرائب الفادحة والجمارك أن يجمع ثروات ضخمة . وهذا مايفسر لنا فخامة المدن وما كانت عليه من جمال . غير أن الأرياف كانت تشكو الفقر والبؤس .

وحاول أكبر أن يتصالح مع الهندوس ، فأعاد اليهم جميع الحقوق التي سلبها الفتح منهم ، واحترم أخلاقهم وعاداتهم وفسح المجال أمامهم للوصول إلى الوظائف العامة ، وشجع انتشار لغة عامة مشتركة لجميع شعب الهند وهي اللغة الهندستالية أو الاوردو . وأشرف على ترجمة

ملحمة ماها بهاراتا إلى الفارسية وشجع المؤلفات الشعرية التي كتبت بالاوردية في لهجة الرك - هتا .

وكان متسامحاً . بيد أنه فرض إرادته على العلماء المتعصبين وأغدق نعمه على الشيعة وخاصة على الصوفيين . وكان يتأثر بأصدقائه ويعمل بنصيحهم ونذكر منهم أبو فظل وفيظي . وكان على معرفة بمختلف المذاهب حتى أنه أراد التوفيق بين جميع الأديان . ورفع عن الإسلام امتياز كدين للدولة عام ١٥٩٣ . ومنذ ١٥٦٥ الغى ضريبة الجزية المفروضة على غير المسلمين ، وكان يحب البوذية ويأمر بتفسير المسيحية ، كما يعتبر مختوعاً لدين جديد « دين إلهي » ١٥٧٩ . وكان نفسه يعبد الشمس ، بينما كانت الجماهير تعبده وتتخذة نبياً وأحاط نفسه بجاشية كثيرة تضم خدماً وحشماً وموسيقين وجنوداً . وبدأ أكبر أحد كبار عاهلي عصره مع شارل كان وسلطان القسطنطينية .

الحضارة الهندية في القرن السادس عشر . - كانت البلاد الهندية منظمة تنظيمياً إدارياً قوياً وبخاصة في ظل امبراطورية المغول التي نظمها كما رأينا على أساس جديد . فقد وضع الشرشاه قواعد نظام زراعي سليم باعطاء الفلاحين قطع أراضي لاستملاكها . وأصبحت الضريبة على هذا النحو قائمة على التحديد والتحرير : وكان على كل مالك أن يدفع الضريبة حسب قيمة محصوله . وهذه الضريبة تمثل ثلث الانتاج الخام . وكان النظام السائد تحت حكم أكبر نظام « رايانوري » وبموجبه يدفع مالك الأرض الضريبة مباشرة للدولة . وقام أكبر برد فعل ضد كل تعامل قديم يقضي بتوزيع الأملاك على كبار الموظفين المدنيين أو العسكريين الذين يجمعون الضرائب ويحتجبون قسماً منها لأنفسهم . ورأى من الأفضل أن يدفع إلى الموظفين مالا عوضاً عن تخصيص هذه الأملاك

هم . وكان ذلك ممكناً لأن خزانة الدولة كانت غنية بفضل الفتوحات والضرائب التي كانت تجبى بانتظام ، ولأن مملكته جيدة وقوية وهي الروبية الفضية . وهذا التعامل يقتضي دفع راتب إلى الموظفين ، وهو شرط للحكم الصالح لأن الموظفين يطيعون من يدفع لهم . غير أن العدول عن هذا التعامل في عهد خلفائه أضعف سلطتهم .

وكانت الهند أولية صناعية في العالم . ويرجع الفضل في ذلك إلى صناعاتها في المدن والأرياف . وكان هؤلاء على طبقات وأصناف مهنية تتناقل طرق الصناعة ككبراً عن كبر . وكانت منتجات الهند الأساسية : المنسوجات القطنية . وقد أفاد الهنود من اختراع الطباعة بايضاح طريقة الطباعة بالألوان على المنسوجات القطنية ؛ وكانت المنسوجات المطبوعة الهندية منتجات وحيدة في العالم استهوت الأوروبيين فجعلتهم يبحثون عنها برغبة . كما يلاحظ في الهند صناعة الجلود والمجوهرات والحلي والعاج والحرير . وقد أدرك المسلمون أهمية هذه الصناعات التقليدية فلم يلحقوا بها أي ضرر ، بل إن الطبقة الغنية المسلمة كانت تكلف الصناع بكثير من الأعمال وتغدق عليهم المال وتشجعهم . ونشر أكبر في شمال الهند صناعة السجاد الوافدة من البلاد الإسلامية .

ومنذ حكم شيرشاه شجع السلام الداخلي والعناية بالطرق وبالحانات وحذف رسوم الدخولية والجمارك الداخلية على رقي التجارة ، فازدهرت المدن ، وإن أفضل مثال على النهوض العمراني هو بناء الله آباد بأمر من أكبر . بيد أن التجارة البحرية كانت حصرأ بيد البرتغاليين والهولانديين وكان الميناء الذي يقوم بالتجارة مع أوربه سورات ، وقد أقاموا فيها مصانع عديدة .

تطور الثقافة الهندية . - لقد وجدت في الهند بعد الاسلام ،

ثقافتان متعارضتان : الاسلامية والهندية دون أن تدخل إحداهما في الأخرى . غير أن سياسة أكبر المتساحة وحب اطلاعه الفكري العام ساعدا على تقارب هاتين الثقافتين المتنافستين ، ودلت الحوادث في البلاد على وجود نزعة ترمي إلى التآليف بين القلوب بعد أن نهأت في الهند ثقافة قومية تتجاوز الاختلاف الديني .

وكانت « السيخية » في المضمار الديني أوضح ظاهرة لهذا التقارب . ففي البنجاب ، حول لاهور ، نشأ مؤسس السيخية ، ناناك (١٤٦٩ ~ ١٥٣٨) ، وقد استطاع أن يجمع حوله تلاميذ يحولونه زعيماً ورئيساً روحياً . وتصر دعوته على الحقيقة العميقة في جميع الديانات ، واطراح روح الفرقة التي قسمت الهند إلى ديانات متنافسة ، والتبشير بالتسامح ، وإحياء مذهب الاوبانيشاد التوحيدي ، والتدليل على عدم وجود أي حاجز يفصل الهندوس عن المسلمين الموحدين .

وكسب هذا الدين الجديد اتباعاً بين صفوف الهندوس والمسلمين ، وانتشرت في البنجاب طائفة السيخ ، وأعطاهم السلطان أكبر أرضاً في أمر يتسار ، فبنوا فيها معبداً وأصبحت أمر يتسار ، في آخر القرن السادس عشر ، مدينة السيخ المقدسة . وفي هذا العصر جمع كتاب السيخ المقدس « آدي غرانث » (الكتاب الاول المقدس) الذي يضم آثار الرؤساء الروحانيين الأوائل وبعض الاتقياء من هندوس ومسلمين .

وأتى المسلمون إلى الهند بلغة أدبية وهي اللغة الفارسية . غير أن هذه اللغة لاقت بعض الصعوبات لدى استعمالها في الادارة ، لأن الشعب لا يفهمها ، ماعدا المتقنين من أبنائه . ولهذا السبب تقدمت اللغة الاوردو (لغة المعسكر) في هذا القرن . وأساس هذه اللغة لغة الهندي وهي أكثر اللغات انتشاراً في الهند الشمالية ، وقد امتزجت فيها عدة كلمات

- ٤٢١ -

فارسية وعربية وتركية على أثر الغزو والفتح . ومن جهة ثانية ، إن هذه اللغة تكتب بالأبجدية العربية ، ولذا كانت بمثابة المفكرين والموظفين الذين اعتادوا الكتابة بالفارسية . وهكذا انتشرت اللغة الاوردو ، اللغة الادارية ، إلى جانب اللغة الأدبية ، وأصبحت الاوردو لغة المسلمين في شمال الهند ، ويمكن أن يفهما الهندوس الذين يتكلمون الهندي نظراً لوجود كلمات مشتركة بين اللغتين ، فضلاً عن أن يوهما متشابه . ولقد كان انتشار الاوردو صفة بارزة كشفت عن ميل الطائفتين إلى التقارب لتكوين شعب واحد .

وحتى القرن السادس عشر لم تكن الثقافة الاسلامية لتحتل سوى مكان صغير أمام الثقافة الهندية ومركزها فيجاياتا غار . أما في هذا القرن فقد انقلبت الآية لصالح الاسلام بعد أن ازدهرت الدول الاسلامية وتداخت فيجاياتا غار .

وكانت الاضرحة من أهم آثار البناء في ذلك الحين ، وبخاصة الاضرحة ذات القبة كاضرحة غولكوند بجوار مدينة حيدر آباد الحديثة . وبالقرب من دلهي يقوم ضريح همايون ، وأسلوبه يبشر بتاج محل ، ضريح أكبر في سيسكاندرا ، على الطريق بين دلهي واغرا ، قصر حقيقي تواكبه المساكن . وفي حيدر آباد ، المدينة الجديدة ، يقوم الباب الشهير ذي الأربعة أبراج : شارمينار .

ولكن الأثر الهام العظيم هو مدينة فتعبور - سيكري ، وهي مدينة مبنية بالحجر الأحمر ، خالية اليوم ، بناها أكبر وتعتبر ، بقصورها وجامعها العظيم وأبراجها أهم أثر حققه الاسلام في البناء الهندي في القرن السادس عشر .

ومن الثقافة الفارسية في الطبقات المتقفة ، ولكن الهندي ، لغة

- ٤٢٢ -

الهندوس ، حافظت على حيويتها وأصبحت لغة أدبية كبرى . ويعتبر الشاعر تولسيداس (١٥٣٢ - ١٦٢٣) أكبر كاتب بالهندي ، وقصيدته وامادشاريتا مانازا أعظم ملحمة على مخط ملحمة الرامايانا القديمة وأخذ شيتانيا (١٤٨٥ - ١٥٣٣) عن البنغال الايمان الصوفي وانكر استعمال اللحم والمقويات .

وعلى الرغم من أن الهند تأثرت بالجلوبات الفارسية وغيرها من الجلوبات الأجنبية بطريق الفتح والغزو ، فقد ظل الهنود موالين لحضارتهم القديمة ، ولم يستطع أي حكم أجنبي أن يتمثل الهند التي « يمكن أن تنشي ولا تنكسر » .

تايلاند

إن مملكة سيام ، الواقعة في الجنوب الشرقي من آسيا في الشمال الغربي من شبه جزيرة الهند الصينية وعاصمتها بانكوك ، ظلت تحتفظ بهذا الاسم حتى عام ١٩٣٩ . ومن ثم أصبحت تعرف باسم تايلاند . بيد أنها استعادت اسمها القديم خلال فترة من الزمن من ١٩٤٥ الى ١٩٤٩ ثم عادت إلى اسم تايلاند .

لقد هاجم البرمانيون جيرانهم ملوك سيام في القرن السادس عشر وأخذوا آيوثايا (١٥٥٥) . غير أن الملك فرا - ناريت طردهم منها (١٥٥٥ - ١٥٦٧) وأخضع كامبوديا ولاؤس ثم اجتاحت إقليم بيغو . وعقدت سيام صلات مع البرتغاليين وعرفت الأسلحة النارية ، ومع فرنسا ابتداء من العام ١٥٨٠ . وخاصة مع اليابانيين (١٥٩٢) . وقد ساد فن سيام في كل شبه جزيرة الهند الصينية .

- ٤٢٣ -

الرهبر الصينية

لقد دخلت بمالك كامبوديا وآنام وبرمانيا على اتصال مع اليابانيين وانطلقت حملتان من مانيتلا (١٥٩٦ - ١٥٩٨) وحاولتا عبثاً السيطرة على كامبوديا . بيد أن هذه الأخيرة دحرتهما لاؤس .

المغول

إن سيطرة المغول بنتيجة زحف تيمور ظلت قائمة في القرن السادس عشر في آسيا الوسطى وفي روسيا .

١) في روسيا ، لقد تدمر موقع الذهب عام ١٥٠٢ وأخذ خانات القرم التابعة للسلطان واستراخان التابعة للقيصر والتي دمرت عام ١٥٥٦ ، وقازان التي ضمت عام ١٥٥٢ .

٢) بين بحر الخزر وبحر آرال ونهر ايرتيش حيث ظل الشيبانيون المتحدرون من جنكيز خان وقهرم الايرانيون في مرو (١٥١٠) يعيشون فيما وراء النهر في سمرقند وبخاري وسيبير .

٣) المغول الجغتديون (تورفان ، كاشغاريا) كانوا يجاربون ضد الصين والتبت .

أما المغول الشرقيون ، الذين اعتنقوا الديانة اللامايسية ، وهي شكل خاص من البوذية يدعو إلى القعود والسكينة والقناعة ، فسيقهرهم المانشوريون .

٤) المانشوريون التونغوز وقد توحدوا على يد نورهاشو ، ابن أحد زعمائهم ، الذي استطاع أن يدمج خمس قبائل مع بعضها ويبنى حصون هينغكنغ (١٦٠٣) . ففوى بذلك جيشهم وأصبحوا يؤلفون خطراً على الصينيين .

الصين

سلالة المنغ (١٣٦٨ - ١٦٤٤) . - لقد نجت الصين في فجر الأزمات الحديثة من سيطرة المغول التي ترجع بتاريخها إلى القرن الثالث عشر والرابع عشر ، وسادت الصين في هذه الحقبة سلالة المنغ الوطنية . وقد أنجبت هذه السلالة ١٦ امبراطوراً أقاموا في نانكن ثم في بكين ابتداء من القرن الخامس عشر ، واستردت هذه السلالة الصين من الخانات . وعرفت الصين في هذا العصر أدوار هدوء وأدوار ثورات ، بيد أنها من جهة ثانية عرفت رفاه حقيقة . فقد توحد التشريع بنشر قانون آل منغ في عام ١٤٩٧ . وكانت الحكومة محبة للسلام إنسانية متسامحة . والزراعة مزدهرة .

يمتاز الصينيون بالفكر الايجابي العملي المجرد من الصوفية ، والمهم بالأخلاق . لقد كانوا يكرهون البوذية ، ولكنهم لا يعرفون التعنت الديني . وقد عرف اليسوعيون بأن لامعارضة أساسية بين الكاثوليكية وعبادة الأموات ، أساس الأخلاق الصيني ، فانتشرت دعايتهم بسهولة .

ولم يكن الصينيون ليخشوا الأجانب والغرباء ، أو يشعروا حيالهم بأي نفور . فقد عقدوا صلاتهم مع الأوروبيين وخاصة مع البرتغاليين . ففي ١٥١٤ أرسل البوكرك من ملقه الايطالي رافائيل بيرستربلر لاكتشاف الصين فوصل هذا إلى تاماؤ بالقرب من كانتون . وفي ١٥١٧ ، صعد البرتغالي سيمون اندراد نحو كانتون مع ثنائي سفن محملة بالتوابل التي بحثوا عنها في جزر الملوك . فأحسن السكان استقباله بالرغم من أن البلاط الامبراطوري أظهر سوء ظنه حيال البرتغاليين الوقعيين ، وهذا ماجر عليهم تهديم مستعمراتهم في نينغ - بو (١٥٤٥) وتشن - تشينو

في فو - كين (١٥٤٩) . وفي ١٥٥٢ انطلق المبشر سان فرنسوا كزافيه من ملقه وتباً للنزول في كانتون ولكنه توفي في شهر كانون الأول من السنة نفسها . ومع ذلك فقد تأسس مركز برتغالي في ماكار ١٥٥٣ وأصبح مركزاً تجارياً هاماً . ولكن ، منذ ١٥٧٣ وضع حاجز فاصل بين المركز والأرض الصينية .

الحضارة الصينية . - لقد عرفت الصين مبردخين ممتازين مثل هوانغ تشانغ (نحو ١٥٧٠) ، ورسمين ممتازين مثل تونغ كيتشانغ (١٥٥٥ - ١٦٣٦) . ويشاهد في هذا العصر المخطاط في النحت الكبير ، ولكن وجد في الوقت نفسه مصورون وأشخاص ممتازون . وأصبح الحرف أعظم فن قومي (الأواني ذات الأرضية البيضاء والزرقاء الكوبالتية أو الزرقاء الإسلامية التي أدخلت عام ١٦٠٠) ، وصار الاتجاه نحو الفن الصناعي (الأثاث المبردخ والتحف الفنية والأواني البرونزية الخ) . وظهرت في الآداب وخاصة في القصة آثار جذابة ساحرة . واشتهر فيلسوف كبير يسمى وانغ بانغ منع بما أعطى من قيمة أخلاقية كبرى إلى الكونفوشية التي أصبحت من بعد مذهباً دينياً شعبياً .

وبالرغم من أن امبراطورية المنغ كان لها واجهة بحرية لم تكن سيدة البحر . وكانت هذه الواجهة ، شأنها على حدودها البرية ، في حالة دفاع ، وكانت تحمي تجارتها ضد القرصان من يابانيين وماليزيين . ولم يسمح لأي صيني مبدئياً بالقيام بأي سفر طويل المدى . حتى ان التجار ، الذين يشاهدون على الشواطئ الهندية - الصينية وسيام وماليزيا ، كانوا في نظر القانون مهربين . أما الأجانب فقد نفذوا بالتدريج من بعض أبواب الصين شريطة أن يخضعوا لكل أنواع التقييد . وما من

شيء يعارض مجيء الأوروبيين عندما ظهروا في بحار الشرق الأقصى ولكن الجشع والطمع والفضاعة التي ارتكبها القادمون الأوائل ، البرتغاليون ، بدل حيالهم وضع الصينيين . وأصبح الصينيون ينظرون هؤلاء « الشياطين الأجانب » و « برابرة الغرب » نظرة سوء وحذر بل وعداء .

كوريا

منذ عهد الملك ماو (١٣٩٢) حتى القرن العشرين خضعت ملكة كوريا لسلالة واحدة تمثلت في (١٤٩٤ - ١٦٠٢) بست ملوك قضوا على اقطاعية الداييو ، دون أن يمنعوا تشكل الحزبين : تونغ - إن ، وسيو - إن . وقبلوا توسع الكونفوشيوسية ، واضطروا في عهد هون يواؤزينغ قبول سيادة اليابان في ١٦٠٧ . ولم يعترفوا بقوة المانشوريين الآخذة بالنمو .

اليابان

اقطاعية الدولة . - لقد كانت سلطة الامبراطور في اليابان منذ زمن بعيد سلطة اسمية ، كما هي حال أمرات كوج التسع الكبرى . وكان يعيش بائساً في غوشو كيوطو وقصوره الخفية في محيط نسوي . أما السلطة الحقيقية فقد كانت بيد الشوغون وهو في الأصل حاجب القصر . وقد تعاقبت في القرن السادس عشر ثلاث سلالات : آل اشيكاجا (١٣٣٤ - ١٥٧٣) وآل تيرانو (١٥٧٤ - ١٥٨٦) وآل تويو - تومي (١٥٨٦ - ١٦١٥) . وفي الواقع كانت البلاد مقسمة إلى أكثر من مائة امارة تؤلف كل واحد منها وحدة سياسية اقتصادية نحت رئاسة داييو ، وكان هذا يقيم في حصنه ويحيا حياة البلاط . وكان للدايميو اتابع

وهم السامورائي ، ولا يؤلف هؤلاء طبقة مغلقة . بل كان من بينهم فلاحون انخرطوا في عصابة اقطاعية ، ووجد بين السامورائي من اضطر ليعيش أن يزرع الأرض أو يتعاطى التجارة . والكثير منهم كانوا فرساناً أشقياء قطاع طرق (رونين) وبكلمة مختصرة ان الحروب الاقطاعية كانت حالة عادية في اليابان لانشق على المغلوبين ، وكان السكان المسلمون يشكون منها باستمرار .

الكنيسة البوذية . - لقد كانت الكنيسة البوذية غنية جداً بنتيجة الهبات والموارد التي تتمتع بها : وكانت الاديرة تشبه الحصون ويعيش فيها الاكليروس اقطاعياً فاسداً . وكانت الفرق الدينية تتناحر ويحارب بعضها بعضاً . وكانت مدرسة توزا في عهد تائي - ييشو (١٥٩٨ - ١٦٤٩) تهدف نحو التقشف والشدة .

الضرائب والبؤس . - وكان السكان يزرعون تحت ثقل الضرائب أيضاً : الضريبة العقارية ، والرسوم على الدور ، وعلى مخازن الرز وعلى مستودعات الساكي (مشروب روحي يحضر من الرز) ، ويشكون من إزعاج الموظفين . وكان البؤس والمجاعة منتشرين جداً في اليابان ويوضحان ثورات الفلاحين وعصيانهم ومنازعاتهم . ولكن القناتة بدأت بالزوال منذ منتصف القرن الخامس عشر وذلك لأن الملاكين كانوا بحاجة لاستغلال أرضهم والافادة منها، ومع ذلك فقد ظلت الزراعة قليلة الازدهار.

المدن والتجارة . - كانت المدن مسرحاً لمنازعات لا تنتقطع ، ولم يكن حظها بأحسن من الارياف . ومع ذلك فقد أثرى بعض التجار بفضل بذخ النبلاء . وازدهرت مدينة ساكاي (وهي اليوم هي متطرف في أوزاكا) بفضل صنع الأسلحة النارية ، ومنسوجات نيشيجي والتجارة

مع الصين وكوريا . وكانت محاطة بأسوار ولها جيش يحميها ويدفع عنها غائلة الأعداء وتبدو كأنها البندقية في اليابان .

التوسع البحري والاستعماري . - كان الأمراء في جزيرة كيوسيو مستقلين عن الملك سانسوما ، وقد شجعوا سياسة التوسع البحري والاستعماري في الشرق الأقصى : في الصين ، في فورموزا ، في هاينان وفي الفيليبين ، وأقامت على هذا النحو في جزيرة لوسون جالية يابانية هامة حاولت أن تقاوم الغزاة الاسبانين . واندفع القرصان والمغامرون اليابانيون حتى ماليزيا والهند الصينية ، ووجد أن القراصنة اليابانيين دمروا في العام ١٦٠٥ اسطولاً انكليزياً في مضيق ملقه .

توحيد اليابان في عهد اودا نوبوناغا . - كان اودا نوبوناغا (١٥٣٣ - ١٥٨٢) أميراً كبيراً من آل بيت اودا . الف لنفسه زبائن خاصين ، وعصبة عسكرية منظمة تنظيماً جيداً . وفي العام ١٥٦٥ اغتيل الشوغون الاسمي آشيكاغا يوشيتيرو ، فدعم اودا قضية الشاب آشيكاغا يوشياكي وأقامه على العرش ، ولكنه أصبح نفسه نائباً للشوغون وجمع بسلطة عظيمة حتى انه عام ١٥٧٣ خلع آخر آشيكاغا . ثم تغلب اودا على مختلف البيوت الاقطاعية والأديرة البوذية الغنية والقوية . ولكن اودا هلك في ثورة عسكرية عام ١٥٨٢ .

تأسيس سلالة توكوغاوا . - وبعد اودا ، كانت السيطرة لطاغية كبير يسمى هيدوشي ، وكان ابن فلاح ، ويقابل سفورزا الايطالي . اخرج اليابان من عزلتها المديدة . وبعد أن أنهى توحيد الجزر اليابانية قام بحاربة الصين ومحملة على كوريا ومات عام ١٥٩٤ .

وكان خلفه ابن حيه لياسو أكثر من ابنه هيديتادا ، فنند أصبح

شوغوناً عام ١٦٠٣ وطد السلالة الشوغونية لقرنين ؛ ساعدة ٨٠٦٠٠٠ هاتاموتو من آل توكوغاوا ، واحتل الحصون المجاورة إلى بيدو وأخضع الداييو . وستظل اليابان دولة إقطاعية بيد أن هذه الإقطاعية كانت خاضعة ومنظمة ، وتؤلف طبقة بلاط نبيلة حقيقية دون أن تعيش في قصورها منطوية على نفسها . وكانت اليابان تعتمد على قوم الشمال في جزيرة هونشو ، وتعادل معارضة قوم جنوبي غربي الجزيرة ، وسبكوك ، وكيوسو . وسيوجد فيها ديوانية (بورقراطية) وضابطة قوية وجيش ومالية منظمة . ويضم بلاط الشوغون حاشية تتألف من ٣٠٥ سيدات و ٤ مخرجين ، وبلاط الزوجة ٣٠٥ سيدات و ٤ مرافقات . ويساعد الشوغون ٤ وزراء (الشؤون الداخلية والخارجية ، العدل السامورائي ، العبادات) ، و ٣ هيئات من كبار الموظفين (المعابد ، المالية ، ييدا) و ٣ دواوين (الادارة المركزية ، المدن ، الارياف) و ٣ مجالس (الشيوخ ، المرشعون ، المراقبون) .

العلاقات مع الغرب . العلاقات التجارية . المبشرون . - في العام ١٥٤٥ عقد فلاح بورتغالي اسمه فرناؤماندز بنتو علاقات تجارية مع موافي اليابان الجنوبية . ثم ظهر المبشرون ، فاستقبلوا بحفاوة على العموم وذلك لأن اليابانيين كانوا متسامحين . فقد نزل القديس فرانسوا كزافية عام ١٥٤٩ وحصل من الملك ساتسوما على السماح بالتبشير ، فصبا بعض الناس . واعتقد الامبراطور ان هذا التبشير يقصد منه فرقة بوذية ، فتنازل لها عن دير . وأرسلت بعثة إلى روما فاستقبلها البابا غريغوار الثالث عشر (١٥٨٢ - ١٥٨٥) . ومع هذا فقد أخذ على المبشرين ، من بورتغاليين واسبانيين ، غيرتهم المفرطة وخطتهم التجارة والسياسة بالدين . ولذا طرد هيدويشي المبشرين الأجانب . وفي عام ١٥٩٧ صلب ٩ مبشرين و ١٧ صابئاً

- ٤٣٠ -

من أبناء البلاد . وفي عهد ليازو كثر اضطهاد المسيحيين وأغلقت اليابان أبوابها اغلاقاً يكاد يكون تاماً في وجه التجارة الاوربية ، باستثناء الهولانديين المقيمين في جزيرة ديشيا بالقرب من ناغازاكي . ودام هذا الاغلاق طيلة قوة عائلة توكوغاوا .

الحضارة اليابانية . - اتخذت الحضارة اليابانية طابعاً أصيلاً بتصويرها الديني أو التاريخي (مدارس كانو ، و توزا) ، ودروعها الحديدية ذات اللقطة الواحدة ، وأعمادها ومقابضها . وبفضل السلام الذي ساد في البلاد نعمت هذه الحضارة اليابانية . وبعد أن كانت الدرع كثيفاً أصبح غنياً مرصعاً .

وبعد حملة كوريا انتشرت الحروف المتحركة ، ثم طرق النسخ التي ولدت الحتم والطبع في العصور التالية .

وبفضل هذه الطرق الجديدة اتجهت الثقافة ، التي ظلت حتى ذلك الحين قاصرة على النخبة الصغيرة ، نحو الجماهير ، ومع فتح أول مسرح في ييدو (١٦٠٧) مثلت الدرامات الغنائية (نو) . ولاقت الأشعار الشعبية (هاكا) نجاحاً أكثر من المجموعات الكلاسيكية الصينية والتاريخية اليابانية التي أيقظت حب الاطلاع على الأقل وأرست قواعد اليابان الحديثة .

✱ ✱ ✱

القسم الثالث

البرود الافريقية

الفصل الأول

وادي النيل

مصر

مصر قبل الفتح العثماني . - مصر بلد عربي إسلامي يتمتع بموقع جغرافي ممتاز . وقد مكّنه هذا الموقع من أن يلعب دوراً فاعلاً في حوض البحر المتوسط الشرقي . ولقد نعمت مصر باستقلال ذاتي في عهد الطولونيين والاختشيديين والفاطميين ومن قدام من دول الأيوبيين والمماليك . وكانت في زمن السلطان صلاح الدين الأيوبي (١١٧١ - ١١٩٣) معقلاً من معاقل العروبة والإسلام ، ومركزاً للصراع بين الشرق والغرب . وفي عهد السلطانين بيبرس (١٢٦٠ - ١٢٧٠) وقلاوون (١٢٧٩ - ١٢٩٠) استطاعت القوى الإسلامية المتحدة أن ترد غارات المغول على أعقابها خامرة وتحفظ مصر وسورية من المصير الذي لاقته بغداد ، وما لبث الصليبيون أن أجلاوا عن عكا (١٢٩١) وارتبطت سورية من جديد بمصر .

وكانت مصر قبل الفتح العثماني في عهد المماليك الشراكسة دولة مستقلة ومركزاً لامبراطورية كبرى تضم مصر وبلاد الشام والحجاز واليمن ، وزادها المماليك جمالاً بإنشاء الأوابد العظيمة التي جعلت من القاهرة أجمل عصر النهضة (٢٨)

عاصمة في العالم الاسلامي . ولاشك في أن الرفاه ، الذي تمتعت به مصر في ظل الممالك بالرغم من الحروب الأهلية الكثيرة ، يتضح بنصب وادي النيل وواردات التجارة مع الهند التي تصل منتجاتها إلى الاسكندرية وموانيء الشام وتباع في الأسواق الأوربية بأسعار باهظة .

أقول تجارة الهند . - كانت مصر في فاتحة القرن السادس عشر ، منذ ١٥٠١ ، تحت حكم السلطان قانصوه الغوري ، دولة قوية ظاهراً . ويبدو أن اكتشاف البرتغاليين لطريق الهند قد أضر بتجارة مصر والشام والبندقية لصالح المكتشفين الجدد . ومنذ ١٥٠٣ لم تعد سفن البندقية تغادر موانيء مصر وسورية إلا بنصف الشحنة التي كانت تحملها من قبل وأصبحت تكلفها غالباً .

ولقد تمكن البرتغاليون بأسلحتهم النارية الحديثة أن يستقروا في مسقط وهرمز وعدن ، وأن تنفذ سفنهم إلى البحر الأحمر وتهدد المراكز المصرية . على أن قانصوه الغوري لم يقف مكتوف الأيدي أمام خطر البرتغاليين ، بل أفاد من مساندة البنادقة الذين هددت تجارتهم مثله وأرسل أسطولاً إلى المحيط الهندي لقطع الطريق في وجه البرتغاليين . وبعد أن لاقى بعض النجاح قهره البوكر في شباط ١٥٠٩ بالقرب من ديو . وفي هذه الظروف الصعبة التي ألت بالسلطان المملوكي من نقص في الموارد وثقل في الضرائب دون التمكن من دفع عطاء الجنود بانتظام ، دامه خطر الأتراك العثمانيين بقوتهم النامية وهجومهم الكاسح .

النزاع بين السلطان سليم وقانصوه الغوري (١٥١٦) . - ظهرت الصعوبات بين الامبراطورية العثمانية ومصر منذ عهد السلطان قيتباي (١٤٦٨ - ١٤٩٢) عندما لجأ جم المطالب بالعرش العثماني ، ضد أخيه

السلطان بايزيد ، إلى مصر واستقبله سلطانها بحفاوة ، ثم عاد منها لاستئناف النزاع فغلب على أمره وسجن في رودس ثم في فرنسا وانهى حياته المغامرة في ايطاليا . وقد غضب السلطان بايزيد لهذه المساعدة غير المباشرة التي خولها قيتباي لجم ، وهاجم أمراء آسيا الصغرى الذين تحميم مصر ، ولكنه غلب على يد الجنرال المصري ازبك .

ويبدو أن العلاقات في عهد قانصوه مع الامبراطورية العثمانية كانت في تحسن ، حتى ان قانصوه شجع العثمانيين في نزاعهم ضد الشاه اسماعيل عندما أعلن هذا الأخير المذهب الشيعي ديناً رسمياً للدولة وأخذ يهدد سورية في منطقة الفرات .

وعندما تولى السلطان سليم العثماني العرش هاجم الشاه اسماعيل وغلبه في واقعة تشالديران عام ١٥١٦ ودخلت ديار بكر والعراق الأعلى والموصل في الامبراطورية العثمانية ، ففاق قانصوه من أطاع سليم وتحالف سراً مع الشاه اسماعيل دون أن يقطع علاقاته مع الأتراك ، ونهياً للتدخل وغادر القاهرة في أيار ١٥١٦ بجيشه وبصحبه المتوكل الخليفة العباسي ، ولم يصل حلب إلا في تموز بعد إخفاق الفرس ، وأرسل إلى سليم عرضاً يقترح فيه السلام ، غير أن سليماً كان مطلق اليدين من جهة إيران فقرر الاستيلاء على سورية ورد السفير المصري بعد أن جز ناصيته وأركبه على حمار جربان وكان هذا العمل مؤذناً بالحرب . ووقعت الواقعة بين الطرفين في مرج دابق ، شمال حلب ، في ٢٤ آب ١٥١٦ ومكن تفوق المدفعية سليماً من التغلب على خصمه بسهولة ، فضلاً عن أن خير بك حاكم حلب انتقل إلى صف السلطان سليم هو ومن معه من جنود . ولم يشأ قانصوه العجز ، وهو في الثمانين من عمره ، الفرار فخر صريعاً في المعركة ولم تتحقق أمنيته بمواراته في مشواه الأخير في المدفن الجميل الذي شاده في القاهرة . ودخل

سليم حلب الشهباء وانضم إليه الخليفة المتوكل ، فاستقبله خير بك استقبالا طيباً ، ثم قدم إليه زعماء المماليك ، ومن بينهم خير بك ، خضوعهم ، وبأمر سليم فتح بلاد الشام دون مقاومة .

فتح مصر ١٥١٧ . - وعندما علم نبأ وفاة قانصوة في مصر انتخب أمراء المماليك أحد أقربائه طومان باي خلفاً له . وقد سبق لقانصوة قبل مغادرته مصر أن مماء نائباً عنه في غيبته .

ولا يبعد أن يكون السلطان العثماني قد أصغى لايحاءات خير بك في دفعه لمهاجمة مصر ، فأرسل إلى طومان باي كتاباً شديد اللهجة يأمره فيه بالامتثال والخضوع والدعاء له بالصلاة وضرب النقود باسمه . ورأى طومان أن المقاومة لا تجدي نفعاً ولكنه آثر أن يموت شريفاً وقرر القتال ، واشترى مدافع وبنادق من بنادقة قبرص ، وانطلق إلى الصالحية في شرق الدلتا ليسد الطريق في وجه العثمانيين . واندفع سليم من دمشق والتحق بجيشه في غزة في كانون الثاني ١٥١٧ ثم أخذ طريق الصحراء ، وعلى بضعة أميال شمال القاهرة قابله طومان باي في الريدانية في ٢٢ كانون الثاني ١٥١٧ ، ولكنه اضطر إلى القتال متراجعاً أمام قوة العثمانيين وتفوقهم بالمدفعية . ثم دخل العثمانيون القاهرة وأعملوا فيها السلب والنهب . ولم يسقط في يد طومان باي ، بل حاول فتح القاهرة من جديد داراً داراً خلال يومين وليلتين . غير أنه غلب على أمره أخيراً ولجأ إلى مصر العليا . ولما رأى سليم شجاعته وشدة بأسه عرض عليه أن يبقى على رأس البلاد إذا اعترف بسيادة السلطان العثماني ، فأجاب طومان بقتل رسله ، فمأسوساً سلباً إلا أن أعمل السيف في مماليك القاهرة ، وحاول طومان باي استئناف القتال واسترداد القاهرة واشتبك مع العثمانيين في معركة فاصلة اضطرته إلى الهزيمة والفرار ، ولجأ عند أحد زعماء البدو في مديرية البحيرة فسلمه إلى

السلطان سليم في ٣٠ آذار فاستقبله استقبالا وديا وظل معه عدة أيام يسأله عن أحوال مصر وإداراتها ومواردها ، وعندما أخذ مايكفيه من معلومات اعدم طومان باي شنقا في باب زويلة في ٢٤ نيسان ١٥١٧ وظل جسده ثمانية أيام معلقا أمام أعين الشعب . وبهذا الحادث ينتهي حكم المماليك الشراكسة في مصر بعد عهد دام منذ آخر القرن الرابع عشر ، وينتهي استقلال مصر وتصبح ولاية عثمانية .

سليم الأول في مصر . - ظل السلطان سليم في مصر حتى ايلول ١٥١٧ وأقام في جزيرة الروضة حيث أمر ببناء جناح خاص له . وفي غضون ذلك أرسل إليه شريف مكة وفدا يزعمونه ليقدّم خضوعه بين يديه .

وعهد السلطان سليم إلى خير بك ، حاكم حلب السابق ، بحكم مصر وترك للمماليك الذين أعلنوا ولائهم بعض امتيازاتهم . ولم يدخر وسعا في سلب مصر وابتنز ثرواتها ونفائسها . وعند مغادرتها أخذ معه ألف جمل محملة بالذهب والفضة ، دون ذكر باقي الغنائم والهدايا الثمينة التي قدمت اليه واصطحب معه أيضا مهرة الصناع ليشغلهم في تزيين القسطنطينية .

ويزعم بان الخليفة العباسي الأخير قلد السلطان سليما الخلافة الاسلامية . وهذا التقليد خوله نفورا روحيا وجعله خليفة المسلمين . ومهما يكن فقد حمل السلاطين العثمانيون ابتداء من سليم لقب خليفة . وبعد أن أقام الخليفة العباسي مدة في القسطنطينية سمح له بالعودة إلى القاهرة حيث مات ميتة غامضة حوالي العام ١٥٤٣ .

التنظيم السياسي والاداري . - لم يكن لدى السلطان سليم متسع من الوقت لتنظيم فتحه . وظل خير بك حاكما في مصر حتى وفاته عام ١٥٢١ . وبدأت الاضطرابات بعده . فقد ثار خلفه أحمد باشا ، يدعمه امراء المماليك ، وأخذ يقتل الانكشارية وأعلن نفسه سلطانا . غير أن هذه الثورة قمت بالقوة وسبق الباشا الى القسطنطينية وأعدم عام ١٥٢٤ .

وعلى أثر هذه الاضطرابات نظم حكم مصر عهد السلطان سليمان الثاني الملقب بسليمان العظيم (١٥٢٠ - ١٥٦٦) . فقد أرسل الى مصر عام ١٥٢٥ وزيره الاكبر ابراهيم للقيام بتحقيق عام . فأخذ هذا على عاتقه مهمة تنظيم الحكم في مصر . ويقوم هذا التنظيم الجديد على الحذر وسوء الظن ، لأن السلطان كان يخشى من أن يفيد الباشا من بعد مصر عن مركز الامبراطورية فيحاول الاستقلال ، كما حدث في محاولة أحمد باشا . ولتخفيض سلطة الباشا في مصر أقام ابراهيم في البلاد ثلاث سلطات قائمة على التوازن فيما بينها : سلطات الباشا ، والحميات ، والبكوات .

الباشا . يسمى الباشا من قبل السلطان ، ويقوم على رأس الادارة المدنية والمالية في البلاد ، ولا يختاره السلطان من مصر ، بل ينتقيه من تركيا بعد أن يتمرس على الوظائف العليا ، بما فيها وظيفة الوزير ، ويعين لفترة قصيرة جداً و سنة أو سنتين . ومن الممكن أن يبقيه السلطان عدة سنوات . وعليه أن يقوم بنقل أوامر السلطان وتنفيذها ، ويعين البكوات وحكام الاقاليم ، ويرسل الى السلطان كل سنة ضريبة مصر ، وينظم قافلة الحج الى مكة ويقدم مساعداته الى مكة المكرمة والمدينة المنورة . ويقع الباشا في قلعة القاهرة ، ويرأس الاحتفالات الكبرى في العاصمة : عيد الفطر ، سفر الحج ، افتتاح الخليج (قناة تجتاز القاهرة وتغذيها مياه النيل) . غير أن الجنود التركية التي كانت في مصر لم تكن تحت تصرفه بل كان لها قادتها الخاصون . ولا يستطيع الباشا أن يرم أمراً دون ترخيص الديوان .

الديوان . - الديوان مجلس اقامه السلطان سليم الى جانب باشا مصر . ثم قسم السلطان سليمان هذا الديوان الى هيأتين .

الديوان الأكبر . - ويكلف بالشؤون العامة ، ويتلقى الأوامر من الباب العالي ، ويتألف من زعماء الحامية العثمانية في البلاد ، ومن الدفتردارين (رؤساء المالية) وأمير الحج ومفتي المذاهب الأربعة وبعض العلماء .

الديوان الأصغر . - ويكلف بالشؤون المحلية ويتألف من كيخيا (كتخدا) أو نائب الباشا ويساعده مستشاره ومدير وثائقه ويمثل واحد عن فرق الحامية العثمانية .

ويحق للديوان الأكبر تعليق أوامر الباشا والرجوع بها إلى ديوان القسطنطينية ، وعند الحاجة طلب إقالته ويرأسه نائب الباشا ولا يحق لهذا الباشا حضور جلساته إلا مستتراً وراء السجف ؛ وعندما يقال الباشا ، إما بأمر من السلطان أو بمبادرة من قوات مصر ، ينوب عنه أقوى الأمراء ويلقب بالقائم حتى يجيء الباشا الجديد .

الوجاقات . - كان الجيش العثماني الذي بقي في القاهرة بعد الفتح يضم في البدء ست فرق عسكرية تدعى « وجاقات » ، ثم أضاف إليها السلطان سليمان فرقة سابعة - تتألف من بماليك مصر ، وهي الفرقة الشركسية . والفرق الخمسة الأولى ، مع فرقة الشركس تؤلف جيش الفرسان . والسادسة والسابعة ، فرقنا العزب والانكشارية جيش المشاة . وتضم هذه الفرق جميعاً من ١٢ إلى ٢٠ ألف رجل . وكان لكل وجاق ضباطه : الآغا (الكولونيل) ، الكيخيا (النائب) ، والضباط الملقون . ومع الزمن أصبح آغا الانكشارية الذي يقيم في القلعة قائداً للفرق السبع ، ووجاق الانكشارية في الدرجة الأولى من حيث الأهمية . وهذه الفرق العسكرية مكلفة في آن واحد بالدفاع عن مصر وحمايتها وبالشرطة واقتطاع الضرائب .

البكوات والماليك - وإلى جانب الباشا والوجاقات وجد ١٢ ثم ١٤ بك يسمون من قبل الباشا ويتوزعون حكم مصر . وكانوا في البدء ينتخبون بخاصة من بين ضباط الوجاقات ، ثم من بين الماليك فيما بعد . وفي الحقيقة ، أن النزاع ، الذي قام بين الأتراك العثمانيين والماليك عند بداية الفتح ، لم يدم طويلاً لأن الجنود الأتراك والموظفين ، الذين دخلوا مصر أثناء السيطرة العثمانية ، اختلطوا مع الزمن بطبقة الماليك ، وهي أكثر عدداً ولا يستغنى عن مساعدتها في حكم البلاد . ويدل تاريخ مصر في القرون الثلاثة ، السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر ، على أن النزاع الذي قام بين أحزاب الماليك لم يكن مطبوعاً بطابع مناصر لعثمانيين أو ضدهم ، وليس له سوى صفة شخصية .

وكان هؤلاء الماليك ، الذين يقبضون على السلطة في مصر منذ قرون ، أرقاء ، كما يدل عليهم اسمهم ، يشرون من منطقة القوقاز أو سهول بحر الأسود ، ومن النادر أن تكون لهم أعقاب ولو تزوجوا . ولذا كان الرق مصدراً مغذياً للماليك في مصر . وكان النخاسون يشترونهم من آبائهم عندما تكون سنهم ثماني أو عشر سنوات ويبيعونهم إلى بك كبير في القاهرة ، ويربون تربية إسلامية وعسكرية ويسمون باسماء إسلامية ويقفون حياتهم لخدمة سيدهم . وكانوا فرساناً عظاماً يجرون الحيل الجليلة والأسلحة الفاخرة . ومن امتازوا منهم أعتقهم سيدهم وحق لهم إطالة لحام وأصبحوا أمراء ويستطيعون أن يسموا « كشافاً » . وهذه الصفة كان يعينهم البكوات في « السنجقيات » ، وأخيراً حصل بعضهم على لقب بكوات وأصبحوا موظفي السلطان ، ويعينون في وظائفهم من قبل الباشا .

وكان أم البكوات : الكينخيا (كتنخذا) : نائب الباشا ؛

الدفتردار : رئيس المالية ، أمير الحج ؛ ووظيفته قيادة الحج إلى مكة كل عام وتقديم الهدايا والصدقات إلى أشرفها وفقرائها ، وهؤلاء البكوات الثلاثة أعضاء في الديوان الأكبر ، كما رأينا ؛ وشيخ البلد : حاكم القاهرة وسيلعب في القرن الثامن عشر دوراً أساسياً ويحل محل الباشا . والآخرون قادة أسلحة في الاسكندرية ودمياط والسويس ، أو حكام أقاليم كبرى في مصر . ولم يتغير عدد هذه الأقاليم إلا قليلاً . ففي العام ١٣١٥ عرفت مصلحة التحديد والتحرير (المساحة) في عهد السلطان قلاوون ١٥ اقليماً ، منها ٩ أقاليم في مصر العليا . وفي فاتحة القرن التاسع عشر كان عددها ١٦ اقليماً .

وكان حكم الأقاليم من الناحيتين الادارية والمالية . بيد هؤلاء الأمراء وكانت مصر مقسمة إلى مديريات تسمى كل منها « سنجقية » ، ويملكها أمير يعرف بالسنجق . وكل مديرية مقسمة إلى عدد من الأقسام ، الكاشفيات ، ويحكم كل واحد منها أمير يدعى « الكاشف » ، وهو نائب السنجق .

الكشاف والضرائب . - لقد كانت الادارة الحقيقية في الاقاليم بيد « الكشاف » ، فعليهم تقع العناية بالسدود والطرق وركري القنوات وحفظ الامن في القرى والدفاع ضد هجوم البدو ، غير أن واجبهما الاصيلي كان في رقابة الضرائب وجمعها . وقد أعلن السلطان سليمان أن أرض مصر ملكه واحتفظ بنظام الضريبة السائد في عهد المماليك . ويتم تلك الارض بالتنازل إلى الملتزمين ، وكان هؤلاء يشترون تكليفهم بدفع مبلغ من المال إلى خزينة السلطان ، ويمكنهم أن ينقلوه بالوراثة ، ولكن الارجاع اجباري في حال الوفاة دون وارث . وكان هؤلاء الملتزمون في الغالب عرضة لنهب البكوات أو الكشاف ، ووسيلتهم الوحيدة للخلاص

منهم كانت في تحويل أموالهم إلى أوقاف لصالح الجوامع والمؤسسات الخيرية مع الاحتفاظ بقسم من واردات أموالهم إلى ورثتهم .

وبالمقابل كانت هؤلاء الملتزمون يشغلون كامل الفلاح لسد نفقاتهم وللحصول على الغنى والثراء . حتى ان حالة الفلاح المصري آنذاك تشبه حالة القن في اوروبا . لقد كان يتمتع بالارض ولا يحق له بيعها ومغادرتها . وفي حال الوفاة دون وارث تعود اراضيه إلى الملتزم الذي يعطيها للفلاح آخر ليفلحها ، وكانت الضريبة العقارية أو « الميري » تدفع نقداً أو عيناً . ولإقامة هذه الضريبة أمر سلطاني باجراء تحقيق عام واحصاء في الاقاليم والمدن والقرى ، ولم ينته عمل التحديد والتحرير وظل فرض الضريبة تصفياً ، وكان يتم بواسطة وجهاء القرية وجهاز من الموظفين الملحقين ويسموت المباشرين أي جباة الضرائب وهم من الاقباط في الغالب .

وكانت العلاقة وشعبة بين إدارة البلاد وملكية الاطيان . وأخيراً كان المالك أنفسهم يشتركون التزام الضريبة حتى أن بعض الكشاف أصبحوا في الوقت نفسه ملتزمين : ومنهم من أثروا ثراء فاحشاً وأصبحوا من ذوي النفوذ لارتباطهم بالحاميات العثمانية ، وكان ذلك في جملة الاسباب التي أدت إلى ضعف سلطات الباشوات في مصر .

وكان من أهم الضرائب عيناً ضريبة القمح . ووجدت في القاهرة القديمة مخازن للدولة يسميها الرحالة أحياناً « أنبار السيد الاعظم » وعلى ضفاف النيل تفرغ سفن مصر العليا بحمولها . وكان من واجبات مصر أن تجهز القسطنطينية والجهاز بالحنطة .

وإلى جانب هذه الضرائب ، كانت الموارد الاخرى تتأمن بالجزية

المفروضة على المسيحيين واليهود ، وبالتزام بعض السلع كالسنة والنظرون (فحمات الصوديوم الطبيعية) والملح ، وبالرسوم التي تفرض على الاسواق والمتحازن والحياك والموسيقين والمخين ، وبالقروض الاجبارية المفروضة على التجار الاجانب من يهود واغريق وأوربيين .

الجمارك . - وكانت تؤلف مورداً هاماً للدولة . فقد فرض على البضائع أن تدفع الرسوم في الدخول إلى مصر والخروج منها . وكانت هذه الجمارك في الاسكندرية ورشيد وأبو قير ودمياط وبرلس وبولاق ، وعلى طريق السويس على مسافة ميل من القاهرة . وفيها تدفع الرسوم على التوابل والعقاقير والبضائع الآتية من مكة وعما والمهندد وكانت هذه البضائع تفرغ في الوكالة الكبرى وهي بمثابة خان . وكانت واردات كل من هذه الجمارك تعين لجهة خاصة : مدفوعات الباشا وأغوات الحامية ، وحقوق مكة وضريبة السلطان . وكان كل جمرك منها يخول إلى ملتزم ، وكان الجمركي الحقيقي من كانت أعمال الاوربيين منوطة به ، وقد جرت العادة أن يكون يهودياً ويسمى « المعلم » . أما في القرن الثامن عشر فقد انتزع علي بك الجمر من اليهود وأعطاه لمسيحي سوري ، ثم أخذه مراد من السوريين وقرر أن يجبي الضرائب بنفسه .

النفقات . - وكانت هذه الواردات المختلفة تجمع في القاهرة وتدفع منها رواتب الباشا وحامية القاهرة ، والاشغال ذات النفع العام كالري وبناء الجسور والسدود واصلاحها ، والباقي للندن المقدسة في الحجاز ، وضريبة السلطان وتقدر هذه الضريبة في البدء ٨٠٠٠٠٠٠ دوقا . ثم خفضت إلى ٦٠٠٠٠٠٠ ثم ٤٠٠٠٠٠٠ وفي القرن الثامن عشر لم تدفع غالباً .

وهكذا كان للبasha وظائف كبرى . وكان على كل من يرشح نفسه لهذا المنصب أن يشتريه من القسطنطينية بطريق أو بآخر ويبدل في سبيله مالا كثيرا . وعندما يصبح باشا يحاول أن يسترد الاموال التي بذلها يشتري الطرق المشروعة وغيرها . وقد جرت العادة ، اعتباراً من آخر القرن السادس عشر ، أن يعمل تحقيق بشأن البasha التي انتهت مدة باشوته ، وكثير منهم يعاقبون بشدة عند عودتهم إلى تركيا ، ولكن دون كبير نتيجة .

وبالاجمال ، إن هذا النظام ، في كثير من النقاط ، لم يكن سوى فكرة واستمرار لنظام السلاطين المماليك . وهذا يعني أن الشعب المصري ظلت تتحكم بمقدراته أقلية من الاجانب الطفيليين الذين لا يفكرون إلا بالثراء على حسابه ولم يكن ليوجد أي تضامن بين هذا الحكم الاجنبي وسكان وادي النيل .

حكم الباشوات . - وهذا النظام الذي أتينا على ذكره سار بانتظام تقريباً في القرن السادس عشر ، وفي القرن السابع عشر زادت الفتن ، وفي القرن الثامن عشر سادت الفوضى في مصر . وكانت هذا التطور وثيق الصلة بضعف قوة الأتراك في أوروبا . وبالتالي أخذت سلطة الباشوات تتضاءل في مصر ، وهذا ما جعلهم يقيمون قليلاً على وظائفهم . فقد وجد ١٣٨ باشا في فترة ٢٨١ عاماً بين ١٥١٧ و ١٧٩٨ .

ولا شك في أن حكم السلطان سليمان يسجل نقطة الازوال التي وصلت إليها قوة الأتراك ، ولكن مصر لم تفد من هذه العظمة ، بل على العكس ان فتح سليمان لشاطئه افريقية الشمالية ، من طرابلس إلى وهران ، أتم إدخالها في الامبراطورية العثمانية

ويبدو أن حكم العثمانيين قد استقر في مصر منذ العام ١٥٢٥ دون صعوبة كبيرة في القرن السادس عشر ، حتى أن كثيراً من الباشوات حافظوا على حكم مصر خلال سنوات طويلة وكان بينهم إداريون صالحون . فمن ذلك أن سليمان باشا احتفظ بوظيفته من ١٤٢٥ إلى ١٥٣٨ وشاد في هذه الفترة جامع القلعة الذي يحمل اسمه . وفي العام ١٥٣٤ كان على رأس حملة ضد إيران والمهند ، ثم عاد إلى مصر بعد عام وعشرة أشهر وظل حاكماً قرابة عام ونصف . ثم خلفه داود باشا فحكم مصر اثني عشر عاماً تقريباً من ١٥٣٨ إلى ١٥٤٩ ، وقد عرف بحبه للعلماء واحترامهم وحميتهم ومطالعة الكتب العربية . واستخدم كثيراً من الكتاب لنسخ الكتب التي لا يستطيع الحصول عليها ، وأنشأ مكتبة هامة وعلم مصر بفتنة ودرابة ومات في القاهرة عام ١٥٤٩ . وكان أحد خلفائه محمد باشا ، على العكس ، إدارياً سيئاً لا م له إلا التواء وجمع المال بشتى الوسائل . ولكن السلطان دعاه إلى القسطنطينية بعد ثلاثة أعوام وأعدمه عام ١٥٥٥ .

وكان آخر باشا في عهد سليمان القانوني يسمى محمود باشا (١٥٩٥ - ١٥٦٨) وقد اشتهر بطمعه وجشعه وفظاعته . أهلك أغنياء الممالك واستولى على ثرواتهم وقتل في القاهرة .

وفي عهد السلطان سليم الثاني عرفت مصر حاكماً صالحاً وهو سنان باشا ، فقد بنى في بولاق عام ١٥٧١ جامعاً على الطراز العثماني البيزنطي . مازال موجود للآن ، وأسواقاً ، وخانات ، وأصلح قناة الاسكندرية . وفي العام ١٥٦٩ كلفه السلطان بحملة إلى اليمن وعاد ظافراً إلى مصر بعد عامين وأربعة أشهر .

ومن الولاة الصالحين مسيح باشا (١٥٧٤ - ١٥٨٠) . فقد

وطد الأمن ونشر العدل ، وضرب على أيدي المفسدين ، وبنى مدرسة وتربة له ووقف عليها أوقافاً .

وفي أواخر القرن السادس عشر ضعف نفوذ الولاة وقوي نفوذ الجند فأخذوا يتدخلون في شؤون البلاد ويقومون بأعمال الشغب . وقد أراد الوالي أويس باشا (١٥٨٧ - ١٥٩١) على ما عرف عليه من حزم ، أن يوطد النظام ويدخل المصريين في الجيش فتارت ثائرة الجنود وأخذوا أولاده رهائن وهاجموه حتى رضع وعدل عن مشروعه . واشتد تسلط الجند على الولاة ودامت الحال على هذا النحو حتى الربع الأول من القرن السابع عشر عندما ولي مصر قره مصطفى باشا في العام ١٦٢٢ وضرب على أيدي الجند فهاجموه وأحبه الناس لسماح ظلامتهم واهتمامه بنشر الأمن .

الشعب المصري . - يتألف الشعب المصري من عدة طوائف اجتماعية . ويظهر التباين جلياً بين سكان المدن وسكان الريف في مختلف النواحي . وسكان المدن موزعون ما بين علماء وتجار وأرباب حرف . وسكان الريف فلاهون .

يتمتع العلماء من بين سكان المدن بالجاه والثراء والمركز الاجتماعي الممتاز . وهم في الأصل من أبناء الفلاحين الذين التحقوا بالجامع الأزهر وتعلموا وتولوا مناصب دينية كالقضاء والتدريس والنظارة على الأوقاف الخيرية . وقد أكسبهم وضعهم الثقافي والاجتماعي مكانة خاصة في المجتمع ، واستطاعوا أن يثروا ويعيشوا عيش الأمراء . وكان الحكام يخشونهم لما لهم من نفوذ في قلوب الشعب وصلة وثيقة به ، قالهم يرجع في أوقات الملمات ويصغي لنصيحهم ويستشدد برأيهم ، حتى أن كثيراً من الحركات الشعبية كانت تقوم بتعريض منهم ضد الحكام الظالمين .

ويتصل بهؤلاء العلماء رجال الطرق الصوفية ، ولم يكونوا على شيء من العلم إلا قليلاً ، فضلاً عن أن أعمال كثير منهم يشوبها التجديف والشعوذة ولكن هذا لا يمنع من أن لهم مكانة إجتماعية خاصة بين أفراد الشعب ولا سيما طبقة الدماء منه .

التجار . - يؤلف التجار في المدن الطبقة الغنية . ومنهم من استطاع أن يكون ثروته ضخمة . وكان هؤلاء التجار يعتقدون الصلات التجارية بين المدن المصرية في الداخل . وبين مصر والبلاد الأجنبية في الخارج . ويظهر نشاطهم خاصة بالتجارة مع السودان حيث يأتي العاج وريش النعام والصمغ والتمر الهندي ؛ ومع بلاد المغرب العربي ومنها يؤتى بالطرايش والحرامات الصوفية وزيت الزيتون ؛ ومع الهند حيث يؤتى بأنواع التوابل المختلفة ؛ ومع بلاد الشام ويؤتى منها بالفواكه المجففة ؛ ومع إيطاليا حيث يستورد القماش والحلي والرخام والزجاج ويبادل هؤلاء التجار هذه المستوردات المختلفة بمنتجات مصر من غلال مختلفة وأرز ومنسوجات .

الحرف اليدوية . - وعدا عن التجار وصغار الموظفين كانت المدن تضم أرباب الحرف اليدوية المختلفة كالحداد والنجار والنحاس وغيرهم ويكون أرباب كل حرفة من هذه الحرف طائفة خاصة أو صنفاً مهنياً مهمته تعيين شروط العمل ومدته ومنح الرخص لمن يريد العمل بصنف من الأصناف ، لأن حرية العمل لم تكن مطلقة . ولا بد للصانع من قضاء وقت معين عند معلمه حتى يتخرج على يديه معلماً . ولقد كانت نظام الصناعة اليدوية في مصر يشبه من عدة وجوه نظام الأصناف الحرفية المتعارف عليه في العصر الوسيط في أوروبا .

الفلاحون . - لقد كانت غالبية الشعب المصري من الفلاحين ولم يكن هؤلاء مالكيين للأراضي التي يزرعونها ، بل كانت الأرض ملكاً

السلطان . وعليهم أن يؤدوا ما عليهم من ضرائب إلى الملتزمين . وكانت هذه الضرائب اعتبارية يفرضها الملتزم حسب هواه وبطالب بها الفلاح كلما احتاج إلى المال ، وليس لهذا الطلب حد أو قيد . وكثيراً ما يتعرض الفلاح لضروب الاهانات والتعذيب . ولا تنتقل الأرض منه لورثته دون دفع أتاوة للملتزم والقيام بما عليهم من التزامات وسخرة للعمل في أرضه .

السودان

السودان قبل الفتح العثماني . - عندما فتح العرب المسلمون مصر على يد عمرو بن العاص بين ٦٣٩ و ٦٤١ م كانت الاراضي الواقعة في جنوب الشلال الأول تؤلف بملكتين مسيحيتين :

- ١ - المملكة الشمالية وهي معروفة باسم مملكة مقرة وعاصمتها دنقلة القديمة ، وتمتد حتى النيل الأصلي جنوب نهر عطبرة .
 - ٢ - المملكة الجنوبية وهي مملكة علوة وتمتد جنوباً إلى النيل الأزرق والنيل الأبيض حتى مسافة غير محدودة تماماً وعاصمتها سوبا على الضفة اليمنى لنهر النيل الأزرق على مسافة بضعة أميال من التقائه بالنيل الأصلي .
- وقد اعتنق سكان هاتين المملكتين المذهب اليعقوبي وارتبطوا بالكنيسة القبطية .

وتسلت العناصر العربية إلى السودان عن طرق مختلفة : عن طريق البحر الأحمر ، ولم يكن هذا البحر في يوم من الأيام فاصلاً بين سكان شاطئيه الشرقي والغربي ؛ وعن طريق مصر لأن كثيراً من القبائل العربية التي هاجرت إلى مصر كانت تعبر برزخ السويس ثم تصعد نحو الجنوب ؛ وعن الطريق ؛ الليبي الذي تصل السودان الشمالي الغربي بصحراء ليبيا الواقعة غربي النيل .

وعندما انتشر الاسلام في مصر قصاد عبد الله بن أبي مرزوق حاكم مصر جيشه وحاصر دنقله ، واكتفى أخيراً بفرض معاهدات أفرت لمدة ستين سنة عام العلاقات التجارية وتسوية بين مصر الاسلامية والنوبة المسيحية ، وأمنت وضع النوبيين في الاراضي الاسلامية ، ووضع المسلمين في النوبة ، كما نصت على بقاء جامع في دنقله ، وفرضت ضريبة سنوية قدرها ٣٦٠ رقيقاً تدفع إلى حاكم أسوان المسلم . وتم اتفاق شفوي لم ينص عليه ، وهو ان يحصل النوبيون على هدايا من الحبوب والسلع الأخرى من السلطات المصرية بما يزيد ثمنها على قيمة الضريبة من الرقيق .

ثم أخذت القبائل العربية تتقاطر في هذه الفترة على السودان من ربيعة وجمينة ، ويكثر اقبالها بين حين وآخر افراداً وجماعات . وبدأ التعريب في انحاء السودان يعمل عمله عن طريق التزاوج والاختلاط . ولم تكن الحروب بين السودانيين والعرب في مصر كثيرة في أغلب الأحيان ، كما لم يكن النصر حاسماً رغم ما فرض المسلمون من جزية على السودانيين ، وإذا قبل هؤلاء الرضوخ فذلك ليستعدوا للقتال مرة أخرى .

وفي عهد الظاهر بيبرس قضي على مملكة مقره في عام ١٢٧٦ ، بعد أن هزم الملك السوداني المسيحي داود ، وندفق العرب جنوباً حتى جاءوا بمملكة علوه . وهذا الجوار مهد لدخول المسلمين ، عندما ظهر الاعياء على للسكان الأصليين وأخذ العرب يطبقون عليها من كل جانب ، واتحد العرب النازحون من الجزيرة العربية بالفونج ، وهم جماعة سود البشرة يتكلمون اللغة العربية ، ويرجع نسبهم إلى الامويين الذين نزحوا إلى السودان واختلطوا بسكانه الأصليين حتى اسودت بشرتهم ، ثم اتحدوا مع عرب القواسمة المهاجرين من الجزيرة العربية وتم على أيديهم تأسيس مملكة عصر النهضة (٢٩)

الفونج ١٥٠٤ ، وأحياناً أخرى سلطنة سنار . ومن المهم أن نذكر أن دولة الفونج منذ بدء تأسيسها كانت دولة اسلامية ، لغتها العربية ، وليس لها أي لغة أخرى . وقد تحالف هؤلاء جميعاً وزحفوا من مملكة علوه وحاصروا سوبا وخربوها .

السلطنة الزرقاء او مملكة الفونج (١٥٠٤) . - وبهذا النصر الذي حققه الفونج وحلفائهم العرب تشكلت في السودان سلطنة اسلامية عربية اتخذت من سنار مقبلة ملكها وكان سلطانها الأول عماره دونقس ، ووزيره ، زعيم القبائل العربية ، عبد الله جماع . وتم الاتفاق بين الاثنين على أن يكون السلاطين من الفونج والوزراء من العرب .

لقد أدخل العرب إلى السودان الحياة القبلية والدين الاسلامي واللغة العربية واتسعت رقعة سلطنة الفونج وامتدت من حدود الحبشة حالياً شرقاً إلى بلاد الشايقية شمالاً . ولولا وجود الحكام الاتراك في شمال السودان لأصبح هذا الاقليم خاضعاً لسلطة الفونج . وبقيت هنالك أجزاء خارجة عن إرادة السلطنة وهي : دارفور ، النوبة الشالية ، كردفان ، خلال فترة من الزمن .

وحاولت سلطنة الفونج خلق إدارة موحدة في البلاد ، ولكن الطابع القبلي كان غالباً عليها . فقد كانت حكومة إقطاعية ، للسلطان الأرض والزعماء الحكم على قبائلهم . ونظراً لاتساع البلاد وصعوبة المواصلات كان سلاطين الفونج يكتفون من زعماء القبائل بالجزية والخضوع الاسمي . وعندما وصل الحكم إلى السلطان دكين عرف عنه أنه إداري حازم ومشروع ، فقد عدل نظام الحكم وخفف من الحكم الفردي المطلق ، وعين مجلساً من الأعيان مؤلفاً من كبار رجال العائلة المالكة وعظماء السلطنة ، وكان

هذا المجلس ينعقد أربعة أيام في الاسبوع ، ويتمتع بسلطات استثنائية ويستطيع بذلك عزل السلطان .

وكانت الأقاليم شبه مستقلة ذاتياً وتخضع لسيطرة زعماء القبائل ، وبالمقابل كان هؤلاء يدفعون الجزية ويقدمون الهدايا لسلطان الفونج .

علاقة سلطنة الفونج بالعثمانيين - عندما فتح السلطان سليم الأول مصر وألحقها بالامبراطورية العثمانية عام ١٥١٧ لم يحاول فتح البلاد البعيدة في مصر العليا ، بل وظلت تحكم من زعماء القبائل الذين قبلوا سيادة السلطان وفي عهد السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ - ١٥٦٦) امتد العثمانيون إلى أراضي النوبة على يد ازدمر باشا . ويرجع هذا بنسبه إلى السلطان قانصوه الغوري ، خدم العثمانيين ، وعين حاكماً عاماً لليمن . ثم تخلى عن هذا المنصب حوالي العام ١٥٥٠ وعاد إلى مصر عن طريق سواكن ، وذهب إلى القسطنطينية وقابل السلطان واقترح عليه القيام بحملة لفتح الحبشة . فوافق السلطان على الاقتراح وسمح لازدمر بتجهيز جيشه .

انطلقت الحملة عن طريق مصر العليا براً حتى سواكن ، وكانت الطريق شاقة ، بيد أنها كانت فرصة للتدخل في قضايا النوبة السفلى وقيام الحرب بين قبيلتي الجوابرة والغربية . وكان الجوابرة حلفاء الفونج ، ويبدو أنهم كانوا أتباع ملك دنقلة . واستطاعوا السيطرة على الأراضي العليا ، بينما اعتمد الغربية على دعم العثمانيين .

ويمكن ازدمر من الاستيلاء على حصون ايريم ، وأقام فيها حامية بشناقية وفي اسوان ومي التي تقوم بين الشلال الثاني والثالث . وعهد بإدارة هذه المنطقة وجمع وارداتها إلى كاشف أقام في الدر وأصبحت وظيفته وراثية في أسرته ، وألفت ذريته قبيلة عرفت باسم الفز .

- ٤٥٢ -

وتم التزاوج بين البشناق وأبناء البلاد وشكلت أنسأهم طبقة ممتازة عرفت باسم « القلججي » أي « رجال الحامية » أو « العثماني » . وكان يحكمهم آغا خاص منهم مستقلاً عن الكاشف .

انطلق ازدمر من النوبة إلى شاطئ البحر الأحمر وأنشأ قاعدة عثمانية ضد البرتغاليين والأجاش . وأصبحت سواكن بيده ، ويمكن من الاستيلاء على مصوع عام ١٥٥٧ ، وأصبحت له مركزاً إدارياً ، وعلى زيلع التي خلصها من أيدي البرتغاليين ، ثم توطأ مع أحد النازرين على ملك الحبشة وفتح بعض البلاد وأخذ ديبادووا . وتوفي هناك ودفن في ١٥٥٩ - ٦٠ ثم نقل فيما بعد إلى مصوع . وعلى اثر ذلك أفل نجم العثمانيين في الحبشة بسرعة .

سلطنات السودان . - لقد كان السودان الشمالي يضم ثلاث سلطنات إسلامية وهي : سلطنة الفونج (١٥٠٥ - ١٨٢١) ، وسلطنة دارفور (١٥٩٦ - ١٩١٦) وملكة تقي (١٥٧٠ - ١٨٨٠) في الشمال الشرقي من البلاد . وكانت سلطنة الفونج في نزاع دائم مع سلطنة دارفور على كردفان الواقعة بينها .

وقد ساعد سادة هذه الدول على نشر الاسلام والتعليم على أيدي الفقهاء الذين وفدوا إلى البلاد من الأندلس والحجاز وكانوا موضوع احترام منهم . كما انتشرت في السودان الطرق الصوفية الاسلامية .

ونشطت تجارة الفونج مع الخارج بطريقين : طريق سواكن الخاضعة للعثمانيين وهي الميناء الوحيد للسودان على البحر الأحمر ، وطريق مصر . ولم يكن لها عملة خاصة مستقلة بل كانت تتداول الريال النمساوي .

الفصل الثاني

المغرب العربي الكبير

لقد ساد حكم سلالة الموحدين على المغرب العربي وعلى نصف أسبانيا من ١١٤٧ إلى ١٢٦٩ ، ثم قامت على أنقاض هذه الدولة دول صغيرة أهمها الدولة المرينية في مراكش ، والدولة الحفصية في تونس ، والدولة الزيانية في جزء من الجزائر . وكان النزاع بين هذه الدول دائماً لا ينقطع ، حتى أن تفتت المغرب ، في آخر القرن الخامس عشر ، شجع الغزو الأجنبي وأثار أطماع الدول : أسبانيا والبرتغال والدول الإيطالية .

وكانت الدولة العثمانية آنذاك في أوج قوتها وتوسعها . وقد قامت تفتح بلاد الحوض الغربي للبحر المتوسط الجنوبي . وساعدت العرب والمسلمين في بلاد المغرب في نضالهم ضد الغزاة الأوروبيين . ولذا كان تاريخ المغرب العربي في هذه الفترة مطبوعاً بالتوسع العثماني من جهة والعدوان الإسباني خاصة على تلك البلاد من جهة أخرى . غير أن الحكم العثماني لم يكن مستقراً . فكان يمتد حيناً وينحسر حيناً آخر ، وفي أغلب الأحيان كان حكماً اسمياً . أما مراكش في المغرب الأقصى ، فقد ظلت مستقلة عن العثمانيين وتمتعت باستقلالها حتى الحماية الفرنسية عليها عام ١٩١٢ .

مراكش

الدولة الوطاسية (١٤٧١ - ١٥٥٤) - يتفق عصر النهضة الذي ندرسه مع حكم الدولتين الوطاسية والسعدية في مراكش . وتنتسب

الدولة الوطاسية إلى بني وطاس وهم فرع من بني مرين . وكان منهم وزراء وأصحاب شأن في الدولة المرينية ، وكانوا ينافسون المرينيين سلطانهم وقد قتل عبد الحق آخر سلاطين المرينية كثيراً منهم ونكل بهم كما فعل الرشيد بالبرامكة . وافلت منه محمد الشيخ أخو الوزير يحيى وأسس الدولة الوطاسية واحتل آصيلا في الريف وأيده أعيان فاس بعد أن خلعوا السلطان عبد الحق وقتلوه ، ثم استولى على فاس في ١٤٧١ ، وخرج منها أبو عبد الله الحفيد .

وكانت الفتن قائمة في المغرب عندما تولى محمد الشيخ الحكم ، فضلاً عن نزول البرتغاليين واستيلائهم على المواني مثل سبتة وطنجة وآصيلا ، وبعوثهم ومراياهم التي كانت مبعوثه في اطراف البلاد المجاورة . وقد سقطت في عهد هذا السلطان مدينة غرناطة في يد الاسبان (١٤٩٢) وقدوم أهلها من بني الأحمر إلى المغرب . وقام جماعة من سكان مراکش فأوقفوا الأعداء عند حدهم . ومن هذه الجماعة الاندلسيون الذين عمروا تطوان بعد خرابها ، وأخذوا يشنون الغارات على المسيحيين في سبتة .

ونوفي محمد الشيخ في ١٥٠٤ ثم خلفه ابنه محمد البرتغالي ، وقد عرف بهذا اللقب لأنه بقي أسيراً في البرتغال مدة سبع سنوات . واستولى البرتغاليون في عهده على ميناء العرائش ، ولكنه هاجمهم وأخذ آصيلا في ١٥٠٨ ، ثم اتهم النجيدات من جبل طارق وطنجة فعاد المسلمون واخلوها . وهكذا شغل هذا السلطان بالدفاع ضد البرتغاليين الذين نزلوا في السواحل المراكشية لتأمين مواصلاتهم في المحيط الاطلسي .

ولما مات محمد البرتغالي خلفه أخوه أبو حسون ، ولكن ابن أخيه أبو العباس أحمد بن محمد خلعه واستولى على العرش . وفي عهده اشت

ساعد امراء مراکش السعديين ، وقامت بين الوطاسيين والسعديين حروب ابادت الكثيرين من الطرفين ، ثم تصالح الفريقان على اقتسام البلاد ولكن هذا الصلح كان قصير الأمد . فقد تمكن السعديون أخيراً من القبض على الوطاسيين ، إلا أن أبا حسون المخلوع فر إلى الجزائر واستنجد بالأتراك فانجدوه بجيش دخل به فاس ، وفر السعديون إلى عاصمتهم ، ثم هاود أميرهم محمد السعدي الكرة على فاس ، وكانت بينه وبين أبي حسون حروب كان النصر فيها حليف السعديين ، ودخلوا فاس ثانية وألقوا القبض على أبي حسون وقتلوه ، وبموته انقرضت امرة بني وطاس وسيطر السعديون على مراکش كلها في ١٣ ايلول ١٥٥٤ .

وفي الحقيقة ، ان السلالة الوطاسية ليست بذات اهمية عظيمة ، لأن سادتها لم يعملوا سوى أن سلكوا سياسة المرينيين ولم يغيروا فيها شيئاً . ولقد حاولوا في البدء أن يناضلوا ضد الغزاة البرتغاليين ، ولكنهم تعاهدوا معهم أخيراً . لقد وضعوا ايديهم على بلاد في حالة انحلال واقتصرت على القسم الشمالي من مراکش من أم الربيعة إلى طنجة .

غير أن السلالة الوطاسية لم تكن وحدها في الميدان في النصف الثاني من القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر ، فقد ظهرت قوة السعديين كما رأينا ، وأخذت تعمل ضدها . وإذا بدأت الحكومة غير أهل لمقاومة السيطرة البرتغالية فإن جماهير الشعب المراكشي لم تقبل بذلك ، وكانت تحركها عاطفة دينية جريجة مع ما يمازجها من كره للأجنبي . وحاولت ان تقاوم أي آت من جديد حيثما ظهر : في البدء في الشمال في جوار سبتة وطنجة ، ثم في سهل السوس وحتى واحات درع عندما أسس البرتغاليون سانتا كروز - آغادير .

وأخيراً استطاع الشرفاء السعديون أن يجمعوا مراكش حولهم
ويؤسسوا السلالة السعدية .

الدولة السعدية (١٥٠٩ - ١٦٥٩) . - من المؤكد أن أصل هذه
السلالة عربي ، ولكن وصولهم إلى الشرفية كان موضع نقاش وجدل ،
وعلى الأقل في عهد انحطاطهم . ولقد حامت حولهم ضجة تقول بأنهم لم
يتحدروا من اولاد علي بن ابي طالب بن عم النبي ، بل من حليلة
السعدية التي يرجع أصلها إلى بني سعد ، ولذلك سموا بالسعديين منذ
بداية القرن السابع عشر . وقد جاءوا من شبه جزيرة العرب في القرن
الثاني عشر قبل بني عمومهم العلويين بقليل ، واقاموا في واحات درع
الأوسط وعاشوا فيها حياة بسيطة متواضعة ، حياة ائاس من صغار
المتقنين ، وهما لهم أصلهم بعض الاعتبار . وفي النصف الثاني من القرن
الخامس عشر اقاموا في وادي السوس في تادمي في الجنوب الغربي حيث
بنوا زاوية خاصة بهم .

وعندما شغل الوطاسيون بمحاربة البرتغاليين في الشمال ظلت المناطق
الجنوبية معرضة للخطر . فاجتمع الناس حول ابي عبد الله محمد القائم
بأمر الله ، وترأس حركة الجهاد في السوس وحكم من ١٥٠٩ إلى ١٥١٧ .
وخلفه ابنه أبو العباس أحمد الأعرج (١٥١٧ - ١٥٣٠) ، وتابع
مقاومة البرتغاليين ، وطهر سواحل السوس ، ودخلت مدينة مراكش
في طاعته عام ١٥٢٣ ، وأخلى البرتغال أصيلا في الشمال على ساحل المحيط
الأطلسي . ثم استولى اخوه محمد (١٥٣٩ - ١٥٥٧) على العرش وسجنه
مع اولاده في مراكش ، وحارب البرتغاليين وفتح حصن فونتي ١٥٤١ .
وقد أسسه البرتغاليون عام ١٥٠٥ على ساحل المحيط الأطلسي لتأمين
مواصلاتهم التجارية وبنوا بقربه حصن أغادير ، ثم استولى على مكناس

وفاس ١٥٤٩ . وكان الوطاسيون مايزالون يحكمون في هذه المنطقة
فقبض على آخر ملوكهم ، وصار اليه حكم المغرب الأقصى في ١٥٥٤
وانتهت الدولة الوطاسية .

وكان محمد المهدي على خلاف دائم مع الأتراك الذين خلفوا دولة بني
زيان في الجزائر لاعتقاده أنه أولى منهم بالإشراف عليها ، ولذا سار إلى
تلمسان واستولى عليها حتى وادى الشليف في عام ١٥٥٠ ، غير أنه لم
يحتفظ بها طويلاً ، لأن الأتراك كروا عليه وهزموه واستولوا على فاس
مع أبي حسون الوطاسي ، ثم اجلاهم السعديون عنها كما رأينا .

وكان محمد المهدي شديد البطش ، قتل ثلاثة علماء بتهمة بمالة
الوطاسيين ، وبطش بآرباب الزوايا ، بعد أن خشي قيامهم عليه ، وربما
كان على حق بعد أن توسط بعضهم للأتراك في الجزائر .

وطد المهدي حكم السعديين في مراكش ، ويقال بأن السلطان سليمان
القانوني طلب إلى المهدي أن يقرأ له الخطبة في المساجد وأن يضرب
النقد باسمه فأبى . فبعث اليه من قطع رأسه وحمله إلى استانبول .

وخلف محمد المهدي ابنه عبد الله الغالب بالله (١٥٥٧ - ١٥٧٤) ،
وكان صالحاً عادلاً . ومن مآثره جامع الاشراف بحومة المواسين في
مراكش والسقاية المتصلة به والمارستان الذي أوقف عليه أوقافاً كثيرة .

وفي العام ١٥٦٢ حاصر محمد المهدي مدينة الجديدة التي بناها البرتغاليون
وكاد يفتحها لولا خوفه من هجوم الأتراك واسطولهم القريب ، فهادن
البرتغال ، ولم يعارض نزول الاسبان في مرمي باديس على البحر المتوسط ،
وكان بيد العثمانيين ، لئلا يجدوا سبيلاً الى المغرب ، وتم الاتفاق بينه
وبين الاسبان والبرتغاليين على الا يتجاوز العثمانيون الجزائر غرباً ، بعد

ان زحفوا من تلمسان في أوائل حكم الغالب بقيادة حسن بن خير الدين باربروس ، فهزمهم الغالب وتشرّدوا في الجبال حتى بلغوا باديس .
وقد ندد العلماء واثنان من أخوة الغالب وهما عبد الملك وأحمد بسياسته ، وعندما توفي في ١٥٧٣ كان الاخوان لاجئين في الجزائر .

وخلف المهدي ابنه محمد المتوكل (١٥٧٣ - ١٥٧٥) ويعرف بالسلوخ . ولم تمض على حكمه سنتان حتى قام عليه عمه عبد الملك وأحمد وكانا خارج البلاد ، فقد ذهب عبد الملك الى استانبول يطلب مساعدة السلطان سليم الثاني وكان هذا مشغولا بأمر تونس التي استولى عليها الاسبان بدعوة من الحفصيين ، وعندما جهزت الدولة العثمانية حملة سنان باشا ضد تونس وافقها عبد الملك واسهم فيها وابلغ خبر استيلاء العثمانيين عليها في ١٥٧٤ إلى السلطان فكافأه بأن أمر جيش الجزائر أن يساعده . وهكذا تقدم الجيش إلى فاس وانضم إليه جيش ابن اخيه السلطان محمد المتوكل فدخل فاس في ١٥٧٥ . وفر المتوكل إلى الجنوب واختفى عن الاعين ، ونولى السلطة عبد الملك وتلقب بلقب المعتمد بالله (١٥٧٥ - ١٥٧٨) واتخذ مراكش مقراً له ، وهين أخاه أحمد على فاس . وظن ان الامر قد استتب له ، ولكن المتوكل جمع جموعه وزحف على مراكش واستولى عليها . واستنجد المعتمد بأخيه أحمد فأجده وحاصروا مراكش حتى استولوا عليها وفر المتوكل إلى السوس فتيه أحمد ، وجرت بينها معارك دامية كتب فيها النصر لاهم ، وفر المتوكل إلى طنجة واستنجد بالبرتغاليين فأنجدوه على ان يتنازل لهم عن الشواطئ المغربية . وفي سنة ١٥٧٨ سار المتوكل مع حلفائه البرتغاليين لقتال المعتمد بالله فدارت الدوائر عليه وعلى البرتغاليين في معركة تعرف بمعركة وادي الخازن في شمال غربي مراكش . ومات المتوكل غرباً في النهر وتوفي المعتمد أثناء المعركة . وكان مريضاً ومحمولاً

على محفة وكم خبر وفاته حتى انتهاء المعركة التي اعتبرت حاسمة لأت البرتغاليين ايقنوا أن لا سبيل لهم الى اجتياح المغرب .

وبعد المعتم حكم أخوه أبو العباس أحمد وقلقب بلقب المنصور بالله (١٥٧٨ - ١٦٠٣) ويعتبر من أعظم السلاطين السعديين . وكان حكيماً شجاعاً ، بلغ المغرب الاقصى في عهده درجة عالية من الرقي ، ونعم بالاستقرار بعد زوال خطر البرتغال ، وكانت علاقاته ودية مع الامبراطورية العثمانية التي كان يحكمها مراد الثالث (١٥٧٤ - ١٥٩٥) الذي اعترف باستقلال مراكش . ولم يتمكن المنصور من التوسع شرقاً بسبب هذه العلاقات الحسنة مع العثمانيين لأن الجزائر كانت ولاية عثمانية .

أصلح الجيش وأحسن تدريبه ، وأخذ يوسع المغرب ، ففتح المناطق الصحراوية ١٥٨٢ ، وذاع صيته في مناطق السودان ، وتم له فتحها عام ١٥٩١ ، وصار يأتيه الذهب منها بكثرة . وعظم شأن المنصور وأخذت الدول ترسل اليه الوفود والهدايا للحصول منه على قروض وصار يلقب بـ « الذهبي » .

انشأ المنصور مجلساً شورياً سماه الديوان وكان يجتمع به كل يوم اربعاء بأعيان الدولة لتبادل الرأي والمشورة في أمور البلاد . وكان بحق رجل دولة ، ومثقفاً ثقافة واسعة ، ولم تمنعه شؤون الامبراطورية عن المطالعة ، حتى لقب « عالم الخلفاء وخليفة العلماء » .

ورأت البلاد المراكشية في عهده الأمن والرفاه والحصب ، فقد اهتم بالتجارة ، واستغل حصر الصناعات ، ولزم اليهود أو المسيحيين طواحين السكر ، ووجه تهريب الحرب ، وأثرى من ارباح المشتريات ، وزاد نسبة الضرائب ، وقضى على الثورات الداخلية ، واطرما ثورة البرانس التي قادها المدعي بالعرش ، الناصر ، واخفقت لعدم دعم اسبانيا (١٥٩٥ - ١٥٩٦) لها .

- ٤٦٠ -

وحكم المنصور البلاد بجزم وعزم ، وكان يساعده أمناء شخص بالذكر منهم مؤرخه الفشتالي ويهودي . وكان للمنصور فلسفة سياسية خاصة استوحى منها طريقة حكمه للقبائل . ونظم حكومة مراکش ، المخزن ، حسب قواعد وأصول دامت حتى انشاء الحماية الفرنسية بالرغم من التغيرات التي ادخلت فيما بعد .

ألفت البلاد المراكشية اتحاد قبائل يدار من قبل هيئة مركزية ، المخزن ، مع قبائلها العسكرية المعفاة من الضرائب ووزرائها وضباطها وحكامها ورجال القصر . وهذا التنظيم يجعل من مراکش مراكشيين : مراكش الرسمية (بلاد المخزن) وتضم بلاد الطائفة الاسلامية ؛ الخاضعة لضريبة الدولة ، وتحتلها القبائل العربية ويديرها المخزن مباشرة ؛ ومراكش المستقلة (بلاد السبيا) ، وهي خارجة عن سلطة السلطان الفعلية ، وعلى استعداد للطغيان على بلاد المخزن . وكان التنافس بين هذين القسمين في زمن المنصور عتيداً ، ولم يكن مكتشفاً كما جرى ذلك في المستقبل ، وذلك بفضل حكمة المنصور وجاهه وقوة جيشه .

وزين السلطان المنصور ، كأخيه الغالب ، مدينة مراکش ، واستدعى العمال اليها من جميع البلاد ، ومن اوروبا أيضاً ، وعهد بذلك الى أشخاص مهرة ، واشترى بوزن السكر رخام ايطاليا ، وبعد انتصاره في وادي الخنازن قام ببناء قصر البديع ، ودام هذا البناء خمسة عشر عاماً . ويرتفع هذا القصر في إطار القصبة السعدية ، وقد حفر في فيه عدة أحواض وبلطت بالحزف وزينت بالفسقيات ، وأحيطت بها حدائق الورد والاجنحة الفخمة .

وكان للسلطان المنصور بلاط فخم يستقبل فيه الاجانب بأبهة

وفخامة . وكانت تختلف اليه الشخصيات من أصحاب النفوذ واليهود والتجار المسيحيين والسفراء الأجانب ورجال ثقة الشريف والمندوبين السياسيين ورجال الأعمال والوسطاء والسامرة ، وقلبس فيه الأعياد الدينية أبهى الحلل والزينات .

وقد جعل فتح السودان لمراكش في عهد المنصور شهرة اسطورية و دخول سلطانها جأها عظيماً . وقد أقلقت قوته سلاطين القسطنطينية فأرادوا أن يفرضوا عليه تفوقهم الديني ، حتى ان اليلاربكوات المقيمين في الجزائر كانوا يجلبون بتسليم موافي الأطلسي إلى قرصانهم . واستنجد المنصور ضد خصومه الشرقيين بمساعدة أوربية . ومع هذا فقد تجنب تدخل اليلاربك علي باغداق الهدايا إلى الباب العالي (١٥٨١) ، وبفضل وفاة علي (١٥٨٧) وزوال اليلاربكوات (١٥٨٨) نجح من خطر دائم ، وأصبح بإمكانه أن يقوم بدور المجهوم لولا أن تنافس أولاده شغل باله فصرفه عن ذلك .

ولم ترفض الدول المسيحية عروضه . كان الانكليز والاسبان يتنازعون التحالف معه . وقد صاقب الانكليز مراكش عام ١٥٥١ ، وأفادوا من إخفاق البرتغال لينموا مبادلة أقمشتهم بالذهب والسكر والجلد وملح البارود (نترات البوتاسيوم) ، وتنظيم التهريب . ولكن المنافسات بين التجار المستقلين وعمال تجار مدينة لندن من جهة ، ونفوذ كبار الشخصيات اللندنية من جهة أخرى ، أجهضت محاولة تجميع المصالح والجهود في هيئة واحدة « الشركة البربرية » (١٥٨٥) . ومنذ ذلك الحين لم تتقدم التجارة الانكليزية . ومع ذلك فان علاقات المصالح والأعمال أسهمت في توجيه انتباه الملكة اليزابيث نحو أهمية مراكش الاقتصادية

- ٤٦٢ -

والسياسية . فقد حاولت أن تشكل حلفاً ضد فيليب الثاني يدخل فيه سلطان القسطنطينية وسلطان مراکش ، ولكن المنصور كان يعتبر الترك أعداء يخشى خطرهم . وبالرغم من الكره التقليدي ، الذي تشعر به مراکش حيال اسبانيا ، والذي عبر عن نفسه بحماس شعبي لدى مسماع خبير تدمير أسطول الأرمادا (١٥٨٨) ، فما كان ليجهل بأن فيليب الثاني كان يتعهد في بلاطه أخا المتوكل ، وهو على استعداد دوماً ليتزعم ثورة . وكان ملك اسبانيا من جانبه يخشى أن يقبض القرصان المراكشيون على قوافل الهند ، وينتموا بالإطاحة بالخصوف البائسة المحاصرة ، فحاول أن يشتري حياد السلطان بالتخلي له عن أرزيلا عام ١٥٨٩ .

وقد لعب المنصور بين الاسبان والانكليز بمهارة فائقة بالخوف الذي أوحاه بتدخله ، وسام بمساعدته ولكنه لم يعط شيئاً . بيد أن خطة فيليب الثاني لاحتلال جزيرة آرغوين والشاطئ الصحراوي ، في سبيل الحصول على ذهب السودان ، ، رجع كفة الميزان لصالح انكلترا ، حتى ان المنصور تصور فتح اسبانيا واقتسامها مع انكلترا . ولكن الملكة اليزابيث فضلت أن توجه جهدها إلى الهند . وقد أنهى موت الملكة العجوز وموت المنصور بالطاعون تحقيق مشروعات هذه السياسة الكبرى (١٦٠٣) .

ولم يعقد المنصور مع فرنسا سوى علاقات مصالح واستقبال القناصل الفرنسيين . كما أن البلاد المنخفضة في عهده أخذت تهتم بالتجارة مع مراکش .

الجزائر

لقد شجع تفتت المغرب في آخر القرن الخامس عشر اطماع الدول الأوروبية في بلاده . وكما استقر البرتغاليون على تخوم الاطلسي ، استقر الاسبان

في حصون الشاطئ الجزائري والتونسي ، ولكن محاولاتهم تخطمت أمام مشاريع الاتراك العثمانيين .

لقد كانت المغرب الشرقي والاطلس ، بسبب التفكك والتجزئة وفوضى الحكم ، فسيغساء سياسية والفت المواني القائمة على الشاطئ الافريقي الشمالي من جزيرة جربة إلى مراكش نوهاً من جمهوريات منظمة للقرصنة : تونس ، بنزرت بجاية ، الجزائر ، وهران وغيرها ، وجمز كل واحد منها لحسابه الخاص اساطيل تجوب البحر المتوسط . وكانت القراصنة في القرن الرابع عشر والخامس عشر قطاع طرق وجنود حرب مقدسة ضد الغزاة الاوربيين الذين اتخذوا الصليب شعاراً وقاموا بغزو البلاد بحجة الخلاص من أعمال القرصنة وفرض الأمن والسلام في ربوعها . ولقد بولغ ولا شك بأهمية العوامل الدينية التي كانت في أصل هذا الغزو الأجنبي « الصليبي الجديد » . ولا نزاع في أن للغيرة الدينية التي كانت تتملك فرديناند أراغون الكاثوليكي وتظهر في مراسلاته الرسمية ، وان لاسهام الاكليروس في تنظيم الحملة الاولى أثراً واضحاً في هذا التوسع الاستعماري ، ولكن الفوائد المادية التي أريد الحصول عليها كانت تتخطى العوامل الدينية ، لأن ملك اسبانيا الحق ظفر الايمان باعتبارات السياسة الداخلية وخاصة الخارجية التي لاصلة لها به ، وكانت الجنود المسيحيون يعملون جنوداً ويهتمون بسلام أرواحهم أقل بكثير من اهتمامهم بالتمتع بالسلب والنهب والقتل .

وفي الوقت الذي كان الاسلام يتراجع فيه من اسبانيا كان يتقدم في اوربه على يد الاتراك العثمانيين . لقد فتح هؤلاء القسطنطينية وأفادوا من انحطاط الامبراطوريتين الفارسية والبيزنطية وغمروا بموجاتهم المتتالية آسيا الصغرى . وأقاموا على شواطئ الدردنيل ، ومنه نفذوا إلى البلقان وأخذوا يهددون المسيحية الأوربية في عقر ديارها ، ويفتحون البلاد العربية

الواحد بعد الآخر ، ومحاولون من وراء ذلك السيطرة على البحر المتوسط وهذا التدخل من قبل العثمانيين جعل الحصون التي استولى عليها الاسبانيون في الشمال الافريقي في حالة خطر ، وأكثر من ذلك أدى إلى اخفاق سياسة اسبانيا الافريقية .

وقد حز في نفوس الجزائريين ماحل بهم من خطر الاسبان وهجومهم فراحوا إلى التركي عروج الذي استقر في جيلالي منذ ١٥١٤ يطلبون منه النجدة . وعروج هذا كان بكر أربعة أولاد : عروج ، خير الدين الياس ، إسحاق ، وكاث أبوم جندياً من جزيرة ميتلين (لسبوس القديمة) ثم تخلى عن مهنة السلاح واشتغل صانعاً للأواني . وقد أظهر هؤلاء الاخرة منذ حداثة سنهم استعداداً فريداً للقرصنة ، وفي احدى مغامراتهم هلك الياس واضطر عروج ان يهدف على سفن لفرسان طريقة القديس يوحنا ، ولا يعلم كيف نجا ، ولا لأي سبب غادر الأرخبيل اليوناني مع اخوته ونقل مسرح عملياته إلى المتوسط الغربي ، وقد تمتع من ١٥٠٤ إلى ١٥١٠ بجاه عظيم في نفوس المسلمين لما اشتهر به من قرصنة السفن المسيحية ، وخاصة الاسبانية ، وتأمين هجرة المسلمين النازحين من الاندلس إلى شمالي افريقية . ومنذ ذلك الحين كثر المغامرون الباحثون عن الغنائم بالمئات تحت أمره . وكان السلطان الحفصي يهتم بالربح فغوله اجازة التموين من موانيه . وحكم عروج جزيرة جربة التي أصبحت قاعدة لاسطوله .

وفي ١٥١٢ أراد عروج أن ينتزع مجابه من الحصار بعد أن ناداه الحاكم الحفصي المطرود ، ولكنه لم يستطع قيادة المبحوم لأن قنبلة أصابته فبوت ذراعه .

على أن نبأ موت فرديناند الكاثوليكي أثار موالي المغرب التي يحتلها الاسبان ، واعتبر الجزائريون أن هذا الموت يجعلهم في حل من يمين الطاعة الشخصي حيال هذا الملك ، ولكنهم كانوا يشعرون بضعفهم ولا يستطيعون تحرير أنفسهم فطلبوا من شيخهم سالم التومي أن يستدعي عروج ، فأنبرى القرصان للمغامرة واحتل في البدء مرسال التي يحكمها مغامر تركي آخر ، ثم دخل الجزائر دخول الظافرين ، وانقذت الجزائر المدينة على يده (١٥١٦) .

غير أن المؤامرات بدأت تحاك على عروج بمعونة الاسبان ، وقتل في إحدى حملاته (١٥١٨) . وكان عمل عروج مهدداً بالدمار لولا أن عاوده ووجهه إلى غايته اخوه خير الدين المعروف بلقب بارباروسا . فلقد رأى أمارات المغرب لا يمكنها أن تقاوم اسبانيا ، وان على الدولة العثمانية أن تقوم بهذا العمل ، وعرض خدماته على السلطان العثماني سليم الأول الذي منحه لقب باشا وجعله حاكماً عاماً على الجزائر في ١٥١٩ وسماه أمير الامراء (بيلربك) . ثم أصبح في عهد السلطان سليمان القانون قائداً للأسطول العثماني ليوجه العمليات ضد الامبراطور شارلكان وحلفائه .

وفي العام ١٥٣٤ استولى على تونس وأرسل اليه السلطان قوة كبيرة ولكن الحسن الحفصي لجأ إلى الاسبان فساعدوه وعاد إلى عرشه في السنة التالية واتسع نفوذ اسبانيا ، بيد انها انشغلت في الوقت نفسه بالحروب الأوروبية وفشلت في الاستيلاء على الجزائر عام ١٥٤١ .

الدولة الجزائرية ، الوجاق . - لقد نظم خير الدين بارباروسا الجزائر ، بعد أن أصبحت ولاية عثمانية ، تنظيماً عسكرياً لم يطرأ عليه عصر النهضة (٣٠)

ببدل عميق حتى الفتح الفرنسي في القرن التاسع عشر . وكانت مليشا الانكشارية تمثل الجيوش الممتازة ، وتساق من الطبقات الفقيرة في الاناضول ، ولكنها تنقلب في الجزائر إلى امراء عظام وتؤلف طبقة ارسنقراطية . وكانت هذه المليشا تضم عدة اورطاط وتقيم في الشكنات مجموعة في (اوضات) تتألف من ١٢ إلى ٢٠ رجلاً . وكانت هذه الاورطاط تسهر على القدر البرونزي الكبير وتتجمع حوله للأكل والنقاش . وفي حال الثورة يقلب الانكشاريون هذا القدر ويرفعون أصوات الحرب (استيمايز) .

وكان اللباس الرسمي يحتوي على طاقية بقرنين (طرطوره) من قماش ملون مطوي ينزل إلى نقرة الرقبة ، وينسب ابداعها إلى حركة درويش توكي ، ويعاوها غمد من الخشب وقرن مذهب أو ريش مختلف ألوانها ؛ وعلى جاكيت مفتوح له أكمامه ؛ ومروال يسلك به بشال ملفوف حول الخصر . وفي عهد حكم البيلابيكوات كان الوجاق يستعمل البندقية القديمة والسهم مع الاسلحة النارية والسيوف المستقيمة والسيوف المنحنية والخناجر .

وكان الانكشاريون يتمتعون براتب مربع ويقبضون الخبز واللحم والزيت وجزءاً من غنائم القرصنة وعطاء ، ويقيدون من استثناء الضريبة . وكانت أعراف الوجاق تحدد كل شيء حتى العقوبات ، والانكشارية بمنجاة من المحاكم العادية ويتبعون في ذلك ضباطهم الذين يستطيعون أن يفرضوا عليهم السم والجلد بالعصا أو الموت . وكان الاعدام سرياً . وتتألف المليشا من المشاة فقط ، لان الفرسان (السباهية) كانوا يؤخذون من بين قدامى الاغوات أو أبناء البلاد الاصلين ، وكانت شجاعة

وتسودها روح التضامن والجماعة ، ولكنها كانت فظة وغير منظمة . وكان مجلسها (الديوان) مكلفاً بحماية منافعها . ولايتوانى عن خلطها بمنافع الدولة ، ولا يكتفي بأن يندب بعض أعضائه إلى ديوان الباشا حيث تناقش قضايا الحكومة والعدل ، ولكنه يحاول مراراً الاستيلاء على السلطة . وكان يوجه ضرباته ضد البياربكوات وضد طبقة من الرؤساء المنفصلة التي تساندتهم .

حكم البياربكوات . - لقد كان السلطان يعين البياربكوات الذين يحكمون النيابة مباشرة أو عن طريق من يقوم مقامهم (خليفة) ، ولم يكونوا مقيدين برأي الديوان ، ويمارسون سيادتهم على باشوات تونس وطرابلس ويتصرفون « ملوكاً » في الجزائر . وكانوا موالين للباب العالي وينفذون أوامر السلطان العثماني .

وكان البياربكوات يعيشون ، في الجزائر ، في الجنيينة التي تحتل مركز عدة أبنية تعرف تحت اسم « دار السلطان » ، وتضم هذه فناءين ، ويضم اصغرهما بركة مربعة ونافورة وسلماً خشبياً في إحدى الزوايا ينتهي الى بهو مبطن بالحزف ومحاط بأعمدة الرخام . وفي منتصفه ترتفع نافورة فوق بركة مشمسة . وفي الصدر كرمي واطىء يجلس الباشا عليه .

ولم يكتف الباشوات باغناء عاصمتهم بالقرصنة ، بل استغلوا الجزائر مع الفتوح ، وسهلت الفوضى المستحكمة ووحدة الدين وتأثير الطرق الصوفية تقدمهم في البلاد . ولم يقتصروا على احتلال الساحل ، بل وضعوا الحاميات في المدن ذات المواقع الاستراتيجية . وكان تنظيمهم يميل إلى الضغط على أبناء البلاد وارهاقهم بالضرائب .

وادر ك اليلار بكوات بأن الانكشارية خطر عليهم فحاولوا انشاء جيش القبائل وخاصة الزواوا . وقد عهد إلى هذا الجيش بمهمة الحفاظ على الأمن الداخلي في الأقاليم . وظل الوجاق مرتبطاً بطائفة الانكشارية ورجال البحر . ويبدو ان الانكشارية تغاضت عن انشاء هذا الجيش لان غنائم الحروب البحرية كانت توفر لهم مرتبات كافية . وعندما أخذت أهمية الباشوات تتضاءل تمكن الوجاق في سنة ١٦٥٩ من تنصيب أحد أعضائه دائماً أو حاكماً فعلياً للولاية على نمط النظام المتبع في تونس منذ الانقلاب الذي قام به الانكشارية عام ١٥٩٠

وقسمت الجزائر في العهد العثماني إلى ثلاثة أقسام رئيسية : اقليم قسنطينة في الشرق ، واطليم وهران في الغرب وعاصمته معسكر ؛ اقليم بتطري وعاصمته مدينة في الوسط .

وكان منصب حاكم الاقليم قاصراً على الاتواك . أما القادة فيختارون من الترك أو السكان الأصليين . وكما هي عادة الادارة العثمانية لم يتدخل العثمانيون في حياة السكان الاجتماعية بل تركوهم وشأنهم ، ولذلك حافظ النظام القبلي على مقوماته في الجزائر ، حتى ان بعض القيادات كانت تتمشى مع توزيع القبائل .

وازدهرت مدينة الجزائر في العهد العثماني ، وخاصة في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وقدر عدد سكانها في ذلك العصر بنحو مائة الف نسمة من اجناس مختلفة : من الترك والأوربيين الذين اعتنقوا الاسلام ويؤلفون نصف المدينة ، والنصف الآخر يتألف من المهاجرين الاندلسيين الذين سموا البلدي وابناء القبائل العربية أو البربرية القريبة .

واثرت الهجرة الاندلسية في الجزائر ، وانتشرت فيها القصور المشيدة

على الطراز الاندلسي ، وكان يجلب اليها الرخام من ايطاليا . وعجت هذه القصور بالتحف الفنية التي كان يسلبها القراصنة من السفن الأوربية.

تونس

تتمتع تونس بموقع جغرافي واستراتيجي ممتاز على شاطئ البحر المتوسط ، وقد لعبت دوراً هاماً في النزاع بين الدولتين العثمانية والاسبانية في هذا البحر ، وتبادل الجانبان المتنازعان احتلالها أكثر من مرة . وكانت الدولة الحفصية عاجزة عن دفع الخطر الاسباني الذي يهددها . ولذلك فكر خير الدين بارباروسا بضم تونس ، ولاسيما بعد أن ساءت علاقاته مع الحفصيين الذين تأمروا مع الثائرين عليه في الجزائر . وسنعت له الفرصة عندما لجأ الرشيد الحفصي اليه بعد أن استولى أخوه الحسن على السلطة وأراد القضاء على أبناء أخيه لينت عرشه ، فاصطحب خير الدين الأمير الحفصي معه إلى الآستانة عام ١٥٣٣ واستطاع أن يقنع السلطان سايمان بضم تونس إلى ولاية الجزائر ، وأن يزوده بأسطول كبير لهذا الغرض ، وتم له ذلك وأعلن ضم تونس مباشرة ، وأصبحت من بعد ولاية عثمانية .

وقد اعتبر الامبراطور شارل سكان ضم تونس تهديداً لممتلكاته الايطالية ، وأعد حملة كبرى لذلك ، وبما شجعه على هذه الحملة لجوء الحسن الحفصي اليه واستنجاده به . وكان السلطان العثماني منشغلاً في نزاعه مع الصفويين في فارس ، واضطر خير الدين إلى الاعتماد على قواه الخاصة . ونزلت حملة شارل سكان في تونس ، وانضم اليها الأمري ، وأخذوا يرتكبون للفظائع . وبعد هذه الهزيمة تابع خير الدين نشاطه الحربي في البحر ، فغزا جزيرة مينورقة وهاجم السواحل الاسبانية ، ثم استدعته حكومة الآستانة لقيادة الاسطول العثماني في حربها مع البندقية .

- ٤٧٠ -

وأعاد شارل لكان الحسن الحفصي إلى حكم تونس وفرض عليه معاهدة قاسية وغير مشرفة . ورفضت معظم الأقاليم التونسية الخضوع للحسن الحفصي ، وتمكن أحد أفراد الأسرة الحاكمة ويدعى حميدة من خلعها والاستيلاء على السلطة عام ١٥٤٢ ، ولكنه لم يستطع أن يعيد للأمره اعتبارها .

وأصبحت السواحل التونسية في حالة فوضى وبحر نزاع بين آندريا دوريا أمير الماء الجنوبي الذي يعمل لحساب الامبراطور شارل لكان ودراغوت خلف خير الدين في قيادة الاسطول .

ثم أخذت كفة العثمانيين ترجح بعد استيلائهم على ميناء طرابلس الغرب في عام ١٥٥١ ، واستولى دراغوت باشا على قفصة وأوغل في داخل تونس وتوصل إلى القيروان واحتلها عام ١٥٥٨ وأقام فيها حامية عثمانية ، وأصبحت تونس تخضع لنفوذين : النفوذ الحفصي في الشمال ، والنفوذ العثماني في الجنوب . وثبت انتصار دراغوت عام ١٥٦٠ على حملة جربه مركز العثمانيين في تونس .

وبعد مقتل دراغوت في حصار مالطة عام ١٥٦٥ أخذ بيلر بك الجزائر الجديد ويدعى علي باشا علوج (عليج علي في بعض المصادر) على عاتقه مهمة توطيد الحكم العثماني في تونس .

واستولى العثمانيون على تونس في عام ١٥٦٩ ، وعاد الحفصيون مرة أخرى واستنجدوا بالاسبان وأخرج العثمانيون .

وهكذا تعاقب العثمانيون والاسبان على تونس إلى أن أتى سنان باشا فاتح اليمن واستولى على تونس وقضى على الدولة الحفصية في العام ١٥٧٤ وتم للدولة العثمانية حكم طرابلس وتونس والجزائر في آخر القرن السادس عشر .

حكم تونس . - لقد أبقي سنان باشا على الكثير من أنظمة الخفصيين بعد فتح تونس ، وهذا يرجع إلى أن الحكم العثماني ورث دولة عريقة في تونس بخلاف ما كان في الجزائر التي جعل منها العثمانيون دولة قائمة بذاتها . وتبعت تونس حاكم الجزائر في عهد الـ بيلايكوات ، حتى إذا سقط هذا النظام صارت تونس ولاية عادية يرأسها الباشا ، وبمساعده في إدارة البلاد الباي المشرف على الشؤون المالية ، ثم الديوان ، مجلس الجند الأعلى .

ليبيا

بعد زوال دولة الموحدين في افريقية عام ١٢٦٩ ، أصبحت ليبيا تابعة للخفصيين في تونس ، ومنذ أوائل القرن السادس عشر تعرضت هذه البلاد للاحتلال الاسباني (١٥١٠ - ١٥٣٠) .

طرابلس الغرب . - وكانت طرابلس أقوى مدينة في الشمال الافريقي ، وامتازت بثروتها وغناها ، ولكن أحوالها كانت مضطربة ، فضلاً عن أن أحمد الخفصي التجأ إلى فرديناند ملك اسبانيا يستنجد به ضد والده ، وكانت الأخبار قد أفادت أن حالة طرابلس من الغنى والاحتلال والضعف تستوجب فتحها . وفي ١٥ تموز ١٥١٠ رسا الاسطول الاسباني في ميناء طرابلس وفتح نيران مدافعه على المدينة ، ثم تمكن من انزال الجنود ودخول الجامع الكبير وقتل أكثر من ألفي شخص ومهاجمة القصر وأمر الوالي وهائلته مع بعض الزعماء .

وقد شجع هذا الفتح الاسبان وحرك أطماهم في افريقية ، ولكن المسلمين امتدوا لهذا الاحتلال ، وقابله الطرابلسيون المقيمون في الاسكندرية وأحرقوا فيها فندقاً اسبانياً . ولما استقر الأمر للاسبانيين جعلوا من

- ٤٧٢ -

طرابلس قاعدة لعملياتهم البحرية ولغزو الشمال الافريقي ، فمن ذلك أنهم حاولوا مرتين فتح جزيرة جربة ، مركز القرصان . ولكنهم عجزوا عن ذلك لامانة أهلها في الدفاع .

وفي سنة ١٥١٣ انحلت مدينة طرابلس بصقلية بعد أن تنازل ملك اسبانيا عنها لنائبه في هذه الجزيرة ، وهاجرت على أثر ذلك عائلات صقلية للاستيطان بها بعد أن شجع نائب الملك المهاجرين ومنعهم المنازل والاراضي الزراعية واعقام من الضرائب .

فرسان القديس يوحنا (١٥٣٠ - ١٥٥١) . - يتنسب فرسان القديس يوحنا إلى طريقة دينية تأسست في القدس لمساعدة الحجاج المسيحيين ثم تحولت أثناء الحروب الصليبية إلى منظمة عسكرية وأخذت تعنى بمعالجة الجرحى في الحرب . وعندما انتصر صلاح الدين الايوبي على الصليبيين طرد هؤلاء الفرسان من القدس فذهبوا منها إلى عكا ثم طردوا من هذه عام ١٥٢١ وانتقلوا إلى جزيرة رودس وألفوا دولة مسيحية تحت رعاية البابا واستولوا على جزر الدوديكانيز ، ثم أخذوا يعرقلون تحركات الاسطول العثماني في حوض البحر المتوسط الشرقي ، فجهز السلطان سليم الاول اسطولاً وحاصره رودس ، واستسلمت الجزيرة أخيراً سنة ١٥٢٢ . وسمح السلطان سليمان القانوني للفرسان بمغادرة الجزيرة فرحلوا إلى إيطاليا بدعوة البابا كليمان السابع ، ثم طلبوا من الامبراطور شارلكان أن يمنحهم جزيرة مالطة وقوزو لتكونا مركزاً لهم فأجاب الامبراطور طلبهم واشتروط عليهم الدفاع عن مدينة طرابلس فقبلوا هذا الشرط ورحل وفد منهم إلى طرابلس ليستلم المدينة من واليها الاسباني . وانتهى حكم الاسبان المباشر على طرابلس بعد أن دام عشرين عاماً .

طرابلس الغرب وفرسان القديس يوحنا . - لاقى الفرسان في طرابلس صعوبات كثيرة ، ونخص بالذكر منها عداة أهالي البلاد والاتراك الذين يعرقلون مواصلاتهم بين جنوب اوروبا وشمال افريقية .

وفي سنة ١٥٣١ توفي مولاي محمد ملك تونس وتولى ابنه الحسن الحكم من بعده ، فأرسل إلى والي طرابلس يطلب معاهدة حسن الجوار بين البلدين ، غير أن أخاه رشيد هرب إلى الجزائر واستغاث بجير الدين الذي أعلن الحرب على المسيحيين برأ وبجراً واستولى على السفينتين اللتين يملكها الفرسان .

ثم خلف دراغوت خير الدين في قيادة الاسطول . وتجمع الاسطول التركي في شرق البحر المتوسط بقيادة سنان باشا ومعه دراغوت . وتمكن الاثنان من طرد الفرسان من طرابلس بعد أن وهبهم أرواحهم . وفي ١٦ آب ١٥٥١ احتفل سنان باشا بفتح طرابلس وسمح للفرسان بمغادرة البلاد بعد يومين على هذا الاحتفال ، وهكذا انتهت فترة حكم الفرسان في طرابلس بعد أن أقاموا فيها ٢١ سنة ضربوا فيها المثل في التعصب والفضاعة والانتقام .

برقة وفزان قبيل الفتح العثماني . - كانت برقة تابعة لحكم سلاطين المماليك في مصر كما كان الحال في زمن الايوبيين والفاطمين ، ولكن هذه التبعية كانت اسمية لأن المماليك لم يباشروا الحكم في برقة بأنفسهم . ثم ساءت الأحوال في هذا الاقليم بعد أن تدهور وضع المماليك وتحولت طرق التجارة عن طريق رأس الرجاء الصالح ، وأخذت القبائل تستغل حيث هي ، واحتفظ الافراد بالولاء القبلي دون الاعتراف بأي سلطة ، كما تحالفت القبائل للذود عن كيائها أمام أي طارئ . وظلت حالة

البلاد على هذا النحو حتى زوال المماليك على يد السلطان سليم الأول العثماني عام ١٥١٧ .

أما فزان فكانت تابعة اسمياً لبني حفص إلى أن ضعفوا . ثم تمكن بعض الزعماء الأقوياء من أن يتحكموا بصير البلاد ، وظهرت أمرة آل خطاب وحكمت في فزان فترة طويلة . ومنذ احتلال الاسبان لطرابلس حتى مجيء العثمانيين أسس منتصر بن محمد ، أحد أشراف مراکش ، أمرة حاكمة في فزان عرفت بامم أمرة بني محمد ، واتخذت مدينة مرزق عاصمة لها . وبعد الفتح العثماني أعلنت هذه الأمرة ولاءها للعثمانيين فأقروها في حكم فزان . وظلت تحكم هذا الاقليم حتى قتل يوسف باشا القره مانلي آخر حكام هذه الاسرة سنة ١٧١١ م .

ليبيا ولاية عثمانية ؛ العهد العثماني الأول (١٥٥١ - ١٧١١) . - قبل أن يغادر سنان باشا طرابلس ، ولى عليها مراد آغا (١٥٥١ - ١٥٥٣) مدة حياته وترك فيها حامية صغيرة ، وقام هذا الوالي باعمال جيدة في تعمير مدينة طرابلس وقلاعها وتشجيع الناس على الزراعة والصناعة ونضال فرسان القديس يوحنا ، وبني في تاجوراء جامعته العظيم والحق به مدرسة لتعليم الاولاد .

دراغوت باشا (١٥٥٣ - ١٥٦٥) . - لقد كانت الدولة العثمانية دراغوت بتوليته نيابة طرابلس . وقد اتاح له هذا المنصب أن يلعب دوراً هاماً في السياسة الدولية شيئاً بالدور الذي لعبه خير الدين من قبل عندما كان والياً على الجزائر .

حاول دراغوت تثبيت الحكم العثماني في ليبيا كلها ، وقدم له زعماء البلاد الليبية ولاءهم للحكم العثماني ، وجعل من مدينة طرابلس قاعدة بحرية

- ٤٧٥ -

عثمانية ، واهم بالنشاط العمراني وتشجيع الزراعة والتجارة ، ونشر الامن وبني في طرابلس المسجد المعروف باسمه جامع دراغوت .

وعندما طلب ملك فرنسا ، هنري الثاني ، متابعة التعاون العسكري مع العثمانيين عهد السلطان العثماني إلى دراغوت بالقيام بهذه المهمة واشترك باساطيله العثمانية المغربية في سنة ١٥٥٢ مع الفرنسيين في حملة موجهة ضد جزيرة كورسيكا ، وكانت في ذلك الحين تابعة لجنوة ، ولكنه استاء من حلفائه بعد أن منعوا جنوده من الافادة من الغنائم .

وحول دراغوت طرابلس إلى قاعدة بحرية لمواجهة الأطماع الأوروبية عامة وفرنسا مألطة خاصة .

ثم تمكن في سنة ١٥٥٩ و ١٥٦٠ من رد الاعتداءات المتكررة في المغرب . فبعد أن وقعت اسبانيا الصلح مع فرنسا جددت حربها الصليبية بتدبير حملة بالاشتراك مع جنوة والبابا ضد طرابلس . وعندما وصلت الاساطيل إلى الميناء وجدت فيها قوات كبيرة ، فالتجته صوب جربة واستولت عليها بعد أن وجدت خالية . ولكن دراغوت تمكن بعد بضعة أشهر على هذه الحوادث من طرد الاسبان متعاوناً مع قبطان الاسطول العثماني بيالي باشا . ثم وجه جهوده إلى التخلص من قاعدة مألطة .

وفي سنة ١٥٦٥ وجه السلطان سليمان القانوني حملة بحرية كبرى للنزول في الجزيرة ، ولكن حاكمها لافاليت استمات في الدفاع وكبد العثمانيين خسائر فادحة . وكان دراغوت على رأس الضحايا . وقد أطلق اسم لافاليت على عاصمة مألطة تخليداً لصموده أمام العثمانيين في حصارهم للجزيرة .

ولا تختلف طرابلس من حيث انظمتها الداخلية عن بقية نيايات

المغرب إلا بالتفاصيل . ويتم تعيين الوالي بمرجب صدور فرمان سلطاني ، وكان الوالي (الباشا) يستعين في إدارة الولاية بمجلس الديوان ويرأسه الداي ، زعيم البحرية ، وبالحامية الانكشارية ويرأسها الباي . وكثيراً ما كان الداي والباي يستأثران بالحكم الفعلي في البلاد في حالة ضعف الباشا . وكثيراً ما كانا يختلفان ويمجر خلافهما على البلاد الدمار والحرب . وكانت طائفة الانكشارية بعد وفاة دراغوت سبباً في اضطراب الأمن وقيام الثورات في طرابلس وبرقة وفزان ، وذلك بسبب تمردهم وتدخلهم في شؤون الحكم . وظلت حالة البلاد مضطربة حتى حكم الاميرة القره مانلية سنة ١٧١١ . وكانت الحكومة العثمانية تحرص على تقصير ولاية الولاة لئلا يفكروا بالاستقلال في ولايتهم . وقد بلغ عدد من تولى ليبيا من الولاة في هذه الفترة (١٥٥١ - ١٧١١) ثلاثة وأربعين والياً . وكان جل اهتمام الواحد منهم جمع المال وامتصاص الدماء . وهذا لم يمنع من وجود ولاة اشتهروا بالشجاعة والامانة والأعمال المحيدة .

الختام

لقد كان القرن السادس عشر عصر النهضة الأوروبية وعصر الحداثة والتجديد ، ولكن مازالت فيه بقايا وآثار من مجتمع العصر الوسيط وحضارته .

وإذا نظرنا إلى هذا العصر من جهة النظر الاقتصادية لرأيناه ، من عدة وجوه ، ثورة حقيقية سبقت بقرون مديدة من التطور . فقد وجدت ، منذ العصر الوسيط ، في إيطاليا والبلاد المنخفضة خاصة ، رأسمالية بشكل تجاري . وفي القرن الخامس عشر ، وخاصة بعد حرب المائة عام ، يرى في أوربة عموماً توسع اقتصادي عظيم .

والحادث الهام حقاً هو أن الاقتصاد الأوروبي اندفع اندفاعاً عظيماً بتأثير الاكتشافات الجغرافية الكبرى والفتوحات فيما وراء البحار التي قام بها البرتغاليون والاسبان . فقد وجدت طرق تجارية جديدة ، وأخذ للتجارة ، الأوروبيون يبحثون مباشرة في الشرق الأقصى عن التوابل والسلع الثمينة بعد أن كانت تأتيهم بطريق التجارة العرب والإيطاليين . ولا يعني هذا أن البحر المتوسط فقد قيمته مباشرة ، بل أن الخطاطات الجمهورية البحرية القديمة في إيطاليا بدأ من قبل وورثت موانئ الأطلسي والمانش وبحر الشمال رخاءها ، وبدأت حركة الأعمال التجارية تتركز في مدن مثل آنفرس ومن بعدها أمستردام .

ثم أن تدفق الذهب والفضة الأميركيين على أوربة أثر في حياتها

الاقتصادية والاجتماعية ، ورفع الاسعار بشكل لم يعرف من قبل ، ولعبت
الراسمالية ابتداء من ذلك الحين دوراً عظيماً ظهر بنمو المصارف الخاصة
والعامة وانشاء الاسواق المالية والمضاربات وانشاء الشركات المساهمة
وتوسع المبادلات والاستثمار . وكان أصحاب المصارف بأعمالهم الكبرى
يلعبون دوراً سياسياً كبيراً ، مثل آل فوغر أثناء الانتخابات الامبرطورية
عام ١٥١٩ . وبدأت الرأسمالية الصناعية تظهر بدورها ، كما أخذت
الامواط الريفية والمنزلية تنمو وتفتح الطريق أمام ظفرها في المستقبل .

ويلفت النظر في الحياة الاقتصادية ، في القرن السادس عشر ، طابع
الشدة والكثافة والقوة ، وكما قال وليم اشلي : « إن الثورة الاقتصادية
في القرن السادس عشر هي هذه الظاهرة الاقتصادية لما نسميه « فردية
النهضة » .

ووجدت في القرن السادس عشر ثورة فكرية حقيقية ، ولكنها لم
تنقطع عن الماضي بشكل مفاجيء ، لان بعض عادات العصر الوسيط
مازالت موجودة لدى كتاب عصر النهضة وترجع إلى الفلسفة المدرسية .
ولكن رجال القرن السادس عشر وخاصة النخبة المختارة منهم ، كانوا
يرون ويشعرون بالحياة الجديدة تتدفق في أفكارهم وعقولهم ومفهومهم
الجديد للطبيعة والعلم واعتمادهم على التجربة التي لا ترى في الكتب ؛ هذا
فضلاً عن أن بعضهم دل على مفهوم جديد وأصيل لأمور الحياة والروح
أكثر من فلاسفة العصر .

وظهر تأثير القديم أيضاً في الفنون التشكيلية ، ولاسيما البناء والنحت ،
ولكنه لم ينقطع انقطاعاً تاماً وفجائياً عن فن العصر الوسيط ، لان الفن
القديم تكيف مع الفنون القومية المختلفة ، كما ولدت الملاحظة المباشرة
للطبيعة أشكالاً جديدة خصبة بالمعاني .

وكانت الثورة الدينية في أساسها عودة إلى الانجيل والمسيحية البدائية ، ولكنها ، من جهة أخرى ، ولدت مفهوماً جديداً للعقيدة والايان مطبوعاً بطابع الاستقلال الذاتي للوجدان . ولقد رأينا أن اللوثرية لم تكن الظاهرة الوحيدة للإصلاح الديني ، بل وجدت أيضاً الزونغلية والكالفنية وغيرهما من الفرق الأخرى . ولم يكن هذا دليلاً على أن المصلحين كانوا أنصاراً لحرية الوجدان ، بل ان التنوعات الحتمية للكنائس البروتستانتية مهدت السبيل ، مع الزمن ، إلى حرية الفكر ، حتى أن بعضهم ، وكانوا متقدمين على عصرهم ، كانوا يفكرون بعدم وجوب معاقبة المرافقة .

أما في الناحية العملية فكان على الرعايا أن يتبعوا دين أميرهم . ومع هذا فقد ساد التسامح في بولونيا واضطرت الحروب الدينية السياسية في فرنسا إلى قبول الحل الوسط والتسوية في مرسوم فانت الشهير رغم ما كان عليه من ضعف .

واختلطت القضايا الدينية بالقضايا السياسية في هذا القرن ، وأوجدت الكنائس المصلحة منازعات أثرت على المفاهيم السياسية نفسها ، وتوصلت في كثير من الحالات إلى زعزعة سلطة الدولة دون أن تؤكد بأن الإصلاح الديني كان مشرباً بالديموقراطية .

ولم ينشأ تشكيل الدولة في مفهومها الحديث دفعة واحدة في القرن السادس عشر ، ولكنه نما في هذا العصر بشكل فريد ، وخاصة في فرنسا ، وإسبانيا ، وإنكلترا ، حيث كانت الملكيات مجهزة بهيئتها الأساسية التي تكاملت مع الزمن وتراخى بتقدمها النظام الإقطاعي .

ونزع تقدم الدولة صاحبة السيادة إلى تشكيل أمم لها أصلاتها الخاصة ورجالها الكبار من دبلوماسيين وسياسيين وفنانين ورجال فكر ودين وغيرهم .

وبشر سليمان العظيم في تركيا ، والشاه عباس في إيران ، واكبر في الهند بحضارة اسلامية أصيلة . وعرفت الصين في آل منغ واليابان في الشوغون إيازر تقدماً عظيماً ورفياً كبيراً . ولعبت كل وحدة سياسية دروها الخاص في حضارة القرن السادس عشر .

ولم تكن العاطفة القومية قوية بعد ، ومفهزم الحدود مازال غامضاً . ولكن اللغة الرسمية والادارية والادبية تقدمت تقدماً ملحوظاً واسهمت في تقوية الوجدان القومي دون القول بعد برطنية لغوية ، وربما أمكن القول بحق الشعوب في تقرير مصيرها ، هذا الحق الذي يعتبر جوهر القومية ، ولكن القول في ذلك مازال سابقاً لاوانه . ولاول مرة يرى تشكل أمة جديدة وهي « الاقاليم المتحدة » اثر قيام الرعايا على سيدها .

ونشأت في السياسة الخارجية عادات وتعاملات جديدة بتأثير ايطاليا ، وأصبح لسادة اوربه دبلوماسيون نظاميون ودائمون مع تقارير منظمة واستعمال للأرقام السرية ، وكان ذلك نتيجة من نتائج حروب إيطاليا . وأدى التنافس بين الدول إلى تعصير السياسة الخارجية ، وقد ضرب ملوك فرنسا في ذلك المثل بعد أن تحالفوا مع الامراء البروتستانتين في ألمانيا والسلطان العثماني . كما نشأت فكرة التوازن بين الدول الاوربية الكبرى وأفادت بلاط فرنسا في نزاعه ضد محاولات السيطرة العامة للبيت النمساوي . وأخيراً يمكن القول بأن فكرة تنظيم السلام نشأت بعد الحروب العديدة

كما كان عصر النهضة عصر اتصال الشعوب في خارج اوربه وعصر التضخم النقدي والثقافة الجديدة والمتازعات العقائدية ، مما حمل بعض المفكرين على اعتباره صورة مسبقة للتاريخ المعاصر .

المصادر الأساسية

المنشورات العربية

- الدكتور أحمد عزت عبد الكريم وزملاؤه
مصر في العصر الحديث . دار المعارف ، القاهرة ١٩٥٤ .
احسان حقي
١ - تونس العربية . دار الثقافة ، بيروت دون تاريخ
٢ - الجزائر العربية أرض الكفاح ، منشورات المكتب التجاري،
بيروت ١٩٦١
٣ - المغرب العربي ، دار البقعة العربية للتأليف والترجمة والنشر ، بيروت
دون تاريخ
أحمد حسين شرف الدين
اليمن عبر التاريخ ، القاهرة ١٩٦٣
الدكتور جلال يحيى
المدخل الى تاريخ العالم العربي ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٦٦
حسن حسني عبد الوهاب
خلاصة تاريخ تونس ، تونس ، الطبعة الثالثة ١٣٧٢ هـ
الدكتور حسن سليمان محمود
ليبيا بين الماضي والحاضر . مؤسسة سجل العرب ، الالف كتاب (٤٢٦)
القاهرة ١٩٦٢
الدكتور زكي صالح
مجل تاريخ العراق الدولي في العهد العثماني ، معهد الدراسات العربية العالية
القاهرة ١٩٦٦
عصر النهضة (٣١)

- ٤٨٢ -

الدكتورة زينب عصمة راشد والدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

مراجعة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

أصول التاريخ الاوربي الحديث من النهضة الأوروبية الى الثورة الفرنسية ،

كتاب مترجم ، دار المعارف القاهرة ١٩٦٢

سيتون لويدي

الرافدان ، موجز تاريخ العراق من أقدم العصور حتى الآن ، نقله الى العربية

طه باقر و بشير فرنسيس ، بغداد ١٩٤٣

الدكتور صلاح العقاد

١ - الاستعمار في الخليج الفارسي ، الألف كتاب (١٢١) ، القاهرة ١٩٥٦

٢ - المغرب في بداية العصور الحديثة ، القاهرة ، معهد الدراسات العربية

العالية ، محاضرات القاها عام ١٩٦٢ - ١٩٦٣

٣ - التيارات السياسية في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٦٥

٤ - المغرب العربي ، القاهرة ١٩٦٦

ضراو صالح ضراو

تاريخ السودان الحديث ، دار مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٥

الدكتور عبد الرحمن زكي

حضارة عصر النهضة ، مؤلف مترجم ، مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر ،

القاهرة ١٩٦١

— ٤٨٣ —

عبد الرزاق الحسني

تاريخ العراق السيامي الحديث ، الجزء الاول ، مطبعة العرفان ، صيدا ،

لبنان ١٩٤٨

الدكتور عبد الكريم رافق

بلاد الشام ومصر من الفتح العثماني الى حملة نابليون بونابرت (١٥١٦ -

١٧٩٨) دمشق ١٩٦٧

الدكتور عبد الكريم غرايبة

١ - تاريخ العرب الحديث ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠

٢ - افريقية العربية ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦٠

٣ - العرب والاتراك ، مطبعة جامعة دمشق ١٩٦١

الدكتور فيليب حقي

١ - تاريخ سورية ، الجزء الثاني ، ترجمة الدكتور كمال اليازجي ، دار الثقافة ،

بيروت ١٩٥٩

٢ - لبنان في التاريخ ، ترجمة الدكتور أنيس فريجة

مراجعة الدكتور نقولا زيادة ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٥٩

ليلى الصباغ

الفتح العثماني لسورية ومطلع العهد العثماني فيها ، رسالة ماجستير قدمت

لجامعة القاهرة ١٩٦٠

- ٤٨٤ -

محمد بدران

النهضة الأوروبية ، أثر مترجم تأليف مدني دارك ، القاهرة ١٩٤١

الدكتور محمد خير فارس

تاريخ المغرب الحديث ، مذكرات لم تنشر بعد ، منسوخة على الآلة الكاتبة

جامعة دمشق ١٩٦٦ - ١٩٦٧

الدكتور نادر العطار

تاريخ سورية في العصور الحديثة ، الجزء الاول ، دمشق ١٩٦٢

المؤلفات الأجنبية

A. J. Arkell

A history of the Sudan, from the Earliest to 1821 ,
London 1955 .

Cornevin (Robert)

Histoire de l' Afrique des origines à nos jours, Payot Paris 1956

Dupuis (Jacques)

Histoire de l' Inde, Payot, Paris 1963,

Furon (Raymond)

l' Iran, Perse et Afganistan. Payot Paris 1951.

Gerald de Gaury

Arabian Journey, London 1951

HAUSER (Henri) et Augustin Renaudet

Les débuts de l' Age Moderne, t : VIII de la collection Halphenet
Sagnac, Paris 1938

P. M. Holt

- 1 - *A Modern History of the Sudan*, London 1961
- 2 - *Egypt and the Fertile Crescent (1516—1922)*, Longmans, London 1966

Julien (Ch. André)

Histoire de l' Afrique du Nord, Payot Paris, 1961

Jean - Jacques Schellens et Jacqueline Mayer

Histoire Universelle, t 5 de la collection Marabout Université,
Verviers (Belgique) 1964

Histoire Universeile t : 6 Verviers (Belgique) 1964

Jean - Paul Roux

l' Islam au Proche - Orient, Payot, Paris 1960

H. Lammens, S. J.

La Syrie, précis historique , Beyrouth 1921

Mousnier (Roland)

Les XVI et XVII Siècles t : IV de la collection Histoire
Générale des Civilisations, P. U. F , Paris 1954

ترجم هذا الكتاب الى العربية دار عويدات في بيروت

NANET (Jacques)

Histoire du Liban, Paris 1963

Brigadier - Général Sir Percy Sykes

A History of Persia, London 1951

SÉE (Henri) et Armand Relbillon avec la collaboration d'Edmond
Préclin

Le XVI e Siècle, P. U. F. éditeur , PARIS 1942

Zeller (Gaston)

les Temps modernes t : II 1ere partie de la collection : Histoire
des Relations internationales, Hachette, Paris 1953

بعض الاعلام الاجنبية

الواردة في فصول الكتاب

C		A	
Calais	كاليه	Agnadel	آنياديل
Calvin (jean)	جان كالفن	Aiguesmortes	ايغمورت
Cambrai	كامبريه	Albret (Charlotte)	شارلوت البريت
Cateau-Cambrésis	كانو-كامبريزي	Amboise	آمبواز
Charles Quint	شارلكان	Angoulême	آنغوليم
Chinon	شينون	Ardres	آردر
Ciceron	شيشرون	Augsbourg	اوغسبورغ
Colet (john)	خون كولين	B	
Colonna	آل كولوننا		
Coutras	كوترا	Beaulieu	بوليو
Crespy	كريبي	Bentivoglio	آل بانتيفوليو
D		Blois	بلوا
Doullens	دولان	Bodin (jean)	جان بودن
Dreux	دور	Boulogne	بولون
Duprat (Antoine)	انطوان دوبرا	Bresse	بريس
Dürer	دورير	BRUEGEL	بروغيل
E		Budé (guillaume)	غليوم بوديه
Estramadure	ايسترامادور	Bugey	بوجي
Etaple (Lefèvre)	لوفيفر ديتابل	Bullant (jean)	جان بولان

Loyola لويولا
Ludovic لودوفيك
Luther (Martin) مارتن لوتر

M

Mantone مدينة مانتو
Manuce (Alde) آلد مانوتشه
Marignan مارينيان
Marot (Clément) كليمان مارو
Médicis آل ميدشي
Mélanchton ميلانكتون
Mezières ميزيير
Michlet ميشله
Montaigne مونتين
Moore قصر مور
More (Thomas) توماس مور
Mouzon موزون

N

Namestniki ناميستنيكي
Nantes نانت
Noyon مدينة نويون

O

Opritchnina اوبريتشينا
Opritchnik اوبريتشنيك
Orsini آل اورسيني

F

Farel (Guillaume) فليوم فاريل
Ficin (marsile) مارسيل فيتشينو
Foix (Gastonde) غاستون دوفوا
fornoue مدينة فورنو
Fribourg فريبورغ
Fugger آل فوغر

G

Gargantua غارغانتوا
Gibelins الجيبيلين
Goujon (Jean) جان غوجون
Gravelines غرافولين
Guelfes الغلفيون
Guichardin غيشاردن
Guines غين

H

Hertford هرتفورد
Holbein هولبين

I

IVRY ايفري

L

Lapepolinière لابوبولينير
Léman بحيرة ليان
Lépante ليبانت

S	
le Saint - Barthélemy	سان بارتليمي
Saluces	مار كيزية سالوس
Savoie	سافوا
Savonarole	سافونارولا
Schiner	ماتياس شينر
Senlis	سانليس
Servet (Michel)	ميشيل سيرفيه
Sforza	سفورزا
Smal Kalde	شمالكد
Sully	سولي

T	
Taro	نهر تارو
Trente	ترانت
Tycho - Brahé	تيكو - براهيه

V	
Valois (les)	آل فالوا
Vasa (Gustave)	غوستاف فازا
Vassy	فامسي
Vaucelles	فوسيل
Vervins	فيرفن
Vésale	فيزال
	فالانتين فيسكونتي
Visconti (Valentine)	

P	
Pantagruel	بانتا غرويل
PARÉ (Ambroise)	امبرواز باريه
la Paulette	ضريبة البوليت
Paulet	نسبة الى بوليه
PAVIE	بافيا
Périgord	بيريجور
Pilon (Germain)	جرمن بيلون
Pizzighettone	حصن بيزيغتون
Poissy	بوامسي
Pomestia	بومستيا
Pomietchik	بوميتشيك
Pomponazzi	بومبونازي
	ميناه بوزول (بوزولي بالاطالية)
Pouzzoles	
Pri Kaz	بريكاز

R	
Rabelais	رابليه
Razrjad	الرازرجاد
Richet (Ligier)	ليجه ريشيه
Romagne	رومانيو
Ronsard	رونسار
	جوليان دولاروفير
Rouvière (Julien de La)	

— ٤٨٩ —

Z	Volosteli	فولوستيلي
Zemtchina	Valgate	فولغاتة
زمتشيننا	W	
اولرينخ زونجلي	Wartburg	فارتبورغ
Zwingle (Ulrich)	Welser	آل فيلزر
	Wolsey	ولزي



الفهرس

المقدمة

عصر النهضة

- الثورة الفكرية ٦ . الثورة الدينية ٨ . الثورة الاخلاقية ١٠
السياسة الجديدة ١٢ . الثورة الاقتصادية ١٤ .

القسم الاول

النهضة الاوربية

الفصل الأول

اوربة والعالم في آخر العصر الوسيط

- اوربة ١٧ . أوربة الغربية ١٨ . فرنسا ١٨ . انكلترا ١٨ . اسبانيا ١٩ .
اوربة الوسطى ١٩ . ايطاليا ٢٠ . البلاد الاسكاندينافية ٢١ .
اوربة الشرقية ٢١ . موسكو ٢١ . الامبراطورية العثمانية ٢٢ .
القارات الاخرى : آسيا ٢٣ . الصين ٢٣ . اليابان ٢٤ . الهند ٢٤ .
ايران ٢٤ افريقية ٢٥ . البلاد الاسلامية ٢٥ . بلاد الحضارة السوداء ٢٦ .
الحبشة ٢٦ . امريكا ٢٦ .

- ٤٩١ -

الفصل الثاني

حروب إيطاليا

من ١٤٩٤ الى ١٥٥٩

أسباب حروب إيطاليا ٢٩ . أدوار الحرب ٣٣ . إيطاليا قبل الحروب
٣٣ . الحوادث الأساسية ٤٣ . الدور الاول (١٤٩٤ - ١٥١٦)
٤٣ . قضية ميلانو ، لويس الثاني عشر وانقلاب الأحلاف ٤٦ . النصر
الاسباني (١٥٤٤) ٥١ . حبرية جول الثاني (١٥٠٣ - ١٥١٣)
٥٣ . الدور الثاني (١٥١٩ - ١٥٥٩) : النزاع بين البيت الفرنسي
والبيت النمساوي وانتخاب عام (١٥١٩) ٥٥ . توازن القوى ٥٨ .
معاهدة كريبي وآردور ٦٥ ، نهاية النزاع (١٥٤٧ - ١٥٥٩) ٦٦ .
سياسة الحدود ٦٩ . معاهدة كانتو - كامبريزي (٣ نيسان ٥٥٩) ٧١ .

الفصل الثالث

النهضة

الصفات العامة ٧٤ . مجتمع النهضة ٧٦ . إنسان النهضة ٧٨ . الأدب
الانساني ٧٩ . مراكز الانسانيه ٨٠ . صفات الانسانية ٨١ . أدب
الانسانين اللاتيني ٨٧ : أثر الانسانية في التعليم ٨٨ . النهضة الأدبية
والفنية والعلمية : النهضة الأدبية ٩١ . النهضة الفنية ٩٦ . عباقرة الفن
١٠٠ . لؤناردو فاننشي ١٠١ . آثار لؤناردو فاننشي ١٠٢ . ميكيل
آنجلو ١٠٣ . رافائيل ١٠٦ . تيسان ١٠٨ . الفن في آخر القرن السادس
عشر ١٠٩ . البحوث الموسيقية الجديدة ١١٠ . النهضة العلمية ١١١ .
مصادر النهضة العلمية ١١٤ . علم الفلك ١١٥ . الفيزياء ١١٩ . الرياضيات

- ١٢١ . الطب والعلوم الطبيعية ١٢١ . التشريع وعلم الغريزة (الفيزيولوجيا)
 ١٢٣ . علم النبات ١٢٤ . علم الحيوان ١٢٤ . علم طبقات الأرض
 (الجيولوجيا) ١٢٤ . لوفاردو فانتشي والطرق التجريبية ١٢٤ . موسوعة
 لوفاردو العلمية ١٢٥ . التطبيقات العلمية ١٢٧ . نظراته العقلية العامة
 ١٢٨ . أخلاق لوفاردو ١٢٨ . العلوم الاجتماعية والسياسية ١٢٩ . ماكيافيلي
 ١٢٩ . كتاب الأمير ، الغاية ١٣٥ . الواسطة ١٣٦ . غيثاردن ١٣٧
 توماس مور ١٣٨ . جان برون ١٣٨ ، أزمة النهضة ١٤٠ .

الفصل الرابع

النهضة الاقتصادية

- الانتاج : الانتاج الزراعي ١٤١ . الانتاج الصناعي ١٤١ . المبادلات
 ١٤٣ . الاكتشافات الجغرافية الكبرى : أسباب الاكتشافات ١٤٤ .
 الحوادث الأساسية ١٤٧ . نتائج الاكتشاف ١٥١ . النتائج السياسية ،
 النتائج الدينية ، النتائج الفكرية ١٥١ . النتائج الديموغرافية ، النتائج
 الاقتصادية ١٥٢ . تدفق الثروات ١٥٣ . الاشكال الحديثة للحياة الاقتصادية
 ١٥٤ . الاشكال الجديدة للشاريع ١٥٥ . دور المصارف ١٥٥ . نتائج
 الثورة الاقتصادية : عند طبقة النبلاء . عند المعلمين . عند التجار ١٥٦ .

الفصل الخامس

النهضة الدينية

- الاصلاح البروتستانتي ١٥٨ . أسباب الاصلاح البروتستانتي ١٥٨ .
 فكرة الاصلاح في إدارة الكنيسة ١٥٩ . فكرة الاصلاح عند الانسانيين
 ١٦٠ . مارتن لوتر ١٦٢ . حادث صكوك الغفران ١٦٤ . أفكار لوتر

١٦٨ . ظروف نجاح الاصلاح ١٦٩ . اعتراف أوغسبورغ ١٧١ . صلح
 اوغسبورغ (١٥٥٥) ١٧٢ . الاصلاح في البلاد الاسكاندينافية ١٧٣ . في السريد ١٧٣ .
 في الدانمارك ١٧٤ . الاصلاح في سويسرا الألمانية وحمل الراين ١٧٤ .
 اولريغ زونغلي ١٧٥ . الاصلاح في فرنسا ١٧٦ . حنا كالفن ١٨٠ .
 مذهب كالفن ١٨١ . الأخلاق ١٨٣ . السياسة ١٨٥ . الكنيسة ١٨٦ .
 كالفن في جونيف ١٨٨ . توسع الكالفنية ١٨٩ . في فرنسا ١٨٩ . في
 البلاد المنخفضة ١٩٠ . في سكوثلاندة (ايكوسيا) ١٩٠ . في انكلترا
 ١٩١ . هنري الثامن ومشكلة الطلاق ١٩١ . الديانة الانغليكانية ١٩٣ .
 الاصلاح في بلاد البحر المتوسط ١٩٣ ، الاصلاح في أوربة الوسطى والشرقية ١٩٤
 الاصلاح الكاثوليكي ١٩٥ . الطرق الديرية ١٩٧ . اغناطيوس لويولا
 ١٩٨ . جمعية اليسوعيين ١٩٨ . محكمة التفيش ٢٠٠ ، مجمع توانت ٢٠٢
 العقائد ٢٠٣ . العمل التنظيمي ٢٠٤ .

الفصل السادس

نهضة الدولة

تشكل الدول الكبرى ٢٠٩ . الملكية المطلقة ٢١٠ . حدود الحكم
 المطلق ٢١٥ .

نموذج الدولة المتطورة

الملكية الفونسية

وحدة الأرض الفرنسية ٢١٦ . نمو البلاط ٢١٧ . حياة البلاط ٢١٨
 الملكية والنظم الملكية ٢١٩ . الحكم الملكي ٢٢٠ . الحكومة المركزية
 ٢٢١ . ادارة الأقاليم ٢٢٢ . نظام المالية ٢٢٣ . الحالة الاجتماعية والنشاط

الاقتصادي ٢٢٥ . أسباب التحويل ٢٢٦ . النشاط الاقتصادي ٢٢٩ .
مظاهر النهضة في فرنسا ٢٣١ . رابليه ٢٣٢ . موتين ٢٣٣ . رونسا
٢٣٤ الفن ٢٣٤ البناء ٢٣٥ . بيير ليسكو ٢٣٦ . فليور دولورم ٢٣٧
جان بوللان ٢٣٧ . النعت ٢٣٧ . الحروب الدينية ٢٣٨ . بواذر الحروب
الدينية ٢٣٨ . فرنسوا الثاني ومؤامرة أمبواز ٢٤١ . صفات الحروب
الدينية ٢٤٣ . الحرب الاولى ٢٤٤ . الحرب الثانية والثالثة ٢٤٥ ،
مذبحة سان بارتلمي ٢٤٦ . الحرب الرابعة ٢٤٨ . هنري الثالث والعصبة
٢٤٨ . الحرب الخامسة ٢٤٨ . الحرب السادسة والسابعة ٢٥٠ ، الحرب
الثامنة ويوم المتاريس ٢٥١ . هنري الرابع والعصبة ٢٥٣ . السلام
الديني ومرسوم نانت (١٣ نيسان ١٥٩٨) ٢٥٦ . حالة فرنسا بعد
الحروب الدينية ٢٥٨ . العمل التنظيمي ٢٥٩ . إرجاع السلطة الملكية
٢٥٩ . سولي ٢٦٠ . المالية ٢٦٠ . الزراعة ٢٦١ . الصناعة ٢٦٢ .
التجارة والاستعمار ٢٦٢ . السياسة الخارجية ٢٦٣ . مقتل هنري الرابع
٢٦٤ .

الملوكيات الأوربية المماثلة للملكية الفرنسية

الملكية الاسبانية

الملكية الاسبانية ٢٦٥ . فيليب الثاني ٢٦٥ . حكومة فيليب الثاني
٢٦٦ . الحالة المالية والاقتصادية ٢٦٧ . المجتمع ٢٦٨ . السياسة الخارجية ،
كفاح المسلمين والسيطرة على البحر المتوسط ٢٦٩ . ضم البرتغال ٢٧٠
ثورة البلاد المنخفضة ٢٧٠ . التدخل في انكلترا ٢٧٢ . التدخل في فرنسا
٢٧٣ . الحضارة الاسبانية في العصر الذهبي ٢٧٤ . الازدهار الادبي
٢٧٤ . الفن ٢٧٥ .

- ٤٩٥ -

نموذج الملكية المعتدلة انكلترا في عهد الامرة التيودورية (١٤٨٥ - ١٦٠٣)

انكلترا في عهد الامرة التيودورية ٢٧٥ نتائج حرب الوردوين
٢٧٧ . هنري السابع ٢٧٩ . السياسة الخارجية ٢٨١ . الملكيات العقارية
في القرى ٢٨٣ ، ايرلنده في عهد هنري السابع ٢٨٤ . هنري الثامن
٢٥٥ . قضية الطلاق ٢٨٨ . الحرب مع ايكوسيا وفرنسا ٢٨٩ . قضية
الورثة ٢٩٠ . ادوارد السادس ٢٩١ . حكومة ورويك ٢٩٢ . ماري
تيودور ٢٩٣ . اليزابت ٢٩٤ . إرجاع الكنيسة الانغليكانية ٢٩٦ .
قضايا ايكوسيا . ماري ستوارث ٢٩٧ . حكم آل يتودور : تقدم الوحدة
الادارية والسياسية ٢٩٩ . المجلس الخاص والوزراء ٢٩٩ . البرلمان ٣٠٠ .
مجلس اللوردات ٣٠١ التقدم الاقتصادي ٣٠٢ . التشريع الاقتصادي والاجتماعي
٣٠٤ .

نموذج الجمهورية البورجوازية البلاد المنخفضة

البلاد المنخفضة ٣٠٨ . التجارة والمستعمرات ٣٠٩ . الفن الهولندي
في القرن السادس عشر ٣١٠ .

البلاد الاسكندنافية الدانمارك

البلاد الاسكندنافية وأوربة الغربية ٣١٢ . انحلال اتحاد كالمار ٣١٣
التفوق الدانماركي ٣١٣ . الملكية الدانماركية والطبقات الممتازة ٣١٣
كريستيان الثاني ملك الدانمارك ٣١٤ .

- ٤٩٦ -

السويد

غوستاف فازا واستقلال السويد ٣١٤ . الضائقة المالية والاصلاح الديني ٣١٥ . الحكم المطلق في عهد الملك غوستاف فازا ٣١٥ . النظام الاقتصادي . المركاتيزم ٣١٥ . اضطراب الاحوال بعد غوستاف فازا ٣١٦ . الاضطراب في الدانمارك ونهاية كريستان الثاني ٣١٦ . جورغن فولنفير ٣١٧ . كريستان الثالث ٣١٧ . الاصلاح الديني في الدانمارك والسيطرة على النورفيج ٣١٧ . أهمية الباطليك الاقتصادية ٣١٨ .

الفصل السابع

ملكيات العصر الوسيط

بولونيا ، روسيا

بولونيا ٣١٩ . عجز الحكومة ٣١٩ . سيطرة الأرستقراطية ٣٢٠ . ضعف الأمة ٣٢٢ . روسيا بلديفي منعزل ٣٢٣ . تقدم أمير موسكو الأكبر ٣٢٥ . العقيدة الامبراطورية البيزنطية ورسالة روسيا المقدسة ٣٢٥ . دولة موسكويا العسكرية المطلقة ٣٢٦ . ايفان الرابع الفظيع زعيم الكفاح ٣٢٢ . نمو الاقتصاد النقدي ٣٢٩ . أزمة المجتمع الرومي ٣٣١ . الانتقال من الادارة الاميرية الى إدارة الدولة ٣٣١ . الدولة البوليسية ٣٣٢ . الملكية الموسكوفية والملكية في الغرب ٣٣٣ .

الفصل الثامن

خطر الأتراك العثمانيين على اوربة

خطر الاتراك العثمانيين على اوربة ٣٣٥ . سليمان يهدد اوربة ٣٣٦ . إخفاق الاتراك أمام فينا ٣٣٩ . واقعة ليبانت ٣٤٣ . تركيا عنصر من عناصر السياسة الأوروبية ٣٤٤ . الاتراك في البحر المتوسط ٣٤٤ . الحياة في الامبراطورية العثمانية ٣٤٥ .

الفصل التاسع

نهضة السياسة الخارجية

نهضة السياسة الخارجية ٣٤٨ . الشروط العامة : الدبلوماسية المستديمة
٣٤٩ . الملاحة ٣٥١ . الجيش ٣٥٢ . الجنود المرتزقة ٣٥٢ . اسلوب
الحرب ٣٥٣ . الحرب الاقتصادية والمالية ٣٥٤ .

الامبراطوريات والامبرياليات

الامبراطوريات والامبرياليات ٣٥٥ . التسلطات القارية ٣٥٦ . التسلط
الألماني ٣٥٦ . التسلط الفرنسي ٣٥٧ . التسلط البورغوني ٣٥٧ . التسلط
القشتالي ٣٥٨ . التسلطات البحرية ٣٦٠ . تسلطات البحر المتوسط ٣٦٠
التسلطات المحيطية ٣٦١ . التوازن الاوربي ٣٦٢ . السياسة الايجابية ٣٦٣
المسيحيون والمسلمون ٣٦٢ . الرأي والدعاية ٣٦٤ . الاصلاح الديني
والأمم ٣٦٥ .

مكايد الحروب

الحرب المغطاة والحرب المكشوفة ٣٦٦ . الحدود الآسيوية ٣٦٧ .
العمليات العسكرية وفقدان جبهه القتال ٣٦٧ . ستراتيجية الملحقات ٣٦٧
الأبواب ٣٦٨ . الطرق ٣٦٨ . ارتباط مسارح العمليات ٣٦٨ . القتال
المنفرد ٣٦٨ . الأمرى ٣٦٩ . الخسائر ٣٦٩ . الحياذ ٣٦٩ . التدخل
٣٦٩ . النزعة السلمية ٣٧٠ . الحق الدولي ٣٧٠ .

الفصل العاشر

العلاقات الثقافية

العلاقات الثقافية ٣٧١ . وحدة الثقافة الأوروبية في العصر الوسيط
عصر النهضة (٣٢)

- ٣٧١ . حركة التأميم الجامعي ٣٧٢ . انتشار أفكار المفكرين ٣٧٣ .
 قوة الفكر الايطالي واشعاعه في أوروبا ٣٧٥ . الاصلاح الديني
 وانتشاره في البلدان الأوربية ٣٨٢ . تأثير فرنسا الفكري والمعنوي
 ٣٨٥ . اسبانيا والحياة الفكرية الدولية ٣٨٨ .

القسم الثاني

البلاد الآسيوية

الفصل الأول

المشرق العربي

- المشرق العربي ٣٩٣ . سورية ٣٩٦ . شبه الجزيرة العربية ٣٩٩
 فتح العثمانيين ليمن ٣٩٩ . عدن ٤٠١ . الحجاز ٤٠١ . نجد ٤٠٢ .
 الخليج الفارسي ٤٠٣ . العراق ٤٠٣ . الدور الصفوي الأول والدور
 العثماني الأول في العراق ٤٠٤ . الدور العثماني الثاني ٤٠٥ . الحكم العثماني
 في البلاد العربية ٤٠٥ .

الفصل الثاني

بلاد آسيا الوسطى والمشرق الأقصى

ايران

- ايران ٤٠٨ . الشاه إسماعيل ٤٠٩ . الشاه طهاسب ٤١٠ . الشاه
 عباس الكبير ٤١١ .

الهند

- الهند ٤١٥ . بابر المغولي الاكبر ٤١٦ . السلطان أكبر ٤١٦ .

- ٤٩٩ -

الحضارة الهندية في القرن السادس عشر ٤١٨ . تطور الثقافة الهندية ٤١٩
تايلاند ٤٢٢ . الهند الصينية ٤٢٣ . المغول ٤٢٣ .

الصين

سلالة المنغ ٤٢٤ . الحضارة الصينية ٤٢٥ .

كوريا ٤٢٦

اليابان ٤٢٦

اقطاعية الدولة ٤٢٦ . الكنيسة البوذية ٤٢٧ . الضرائب والبؤس
٤٢٧ المدن والتجارة ٤٢٨ . التوسع البحري والاستعماري ٤٢٨ . توحيد
اليابان في عهد اودا نوبوناغا ٤٢٨ . تأسيس سلالة توكو غاوا ٤٢٨ .
العلاقات مع الغرب . العلاقات التجارية . المبشرون ٤٢٩ . الحضارة
اليابانية ٤٣٠ .

القسم الثالث

البلاد الافريقية

الفصل الاول

وادي النيل

مصر

مصر قبل الفتح العثماني ٤٣٣ . أفول تجارة الهند ٤٣٤ . النزاع
بين السلطان سليم وقانصوه الغوري ٤٣٤ . فتح مصر ٤٣٦ . سليم الأول
في مصر ٤٣٧ . التنظيم السيامي والاداري ٤٣٧ . الباشا ٤٣٧ . الديوان
٤٣٨ . الديوان الاكبر والديوان الأصغر ٤٣٩ . الوجاقات ٤٣٩ .
البكوات والممالك ٤٤٠ . الكشف والضرائب ٤٤١ . الجمارك ٤٤٣ .

- ٥٠٠ -

النفقات ٤٤٣ . حكم الباشوات ٤٤٤ . الشعب المصري ٤٤٦ . التجار
٤٤٧ . الحروف اليدوية ٤٤٧ . الفلاحون ٤٤٧ .

السودان

السودان قبل الفتح العثماني ٤٤٨ . السلطنة الزرقاء أو مملكة الفونج
(١٥٠٤) ٤٥٠ . علاقة سلطنة الفونج بالعثمانيين ٤٥١ . سلطنات
السودان ٤٥٢ .

الفصل الثاني

المغرب العربي الكبير

مراكش

المغرب العربي الكبير ٤٥٣ . مراكش ٤٥٣ . الدولة الوطاسية
(١٣٧١ - ١٥٥٤) ٤٥٣ . الدولة السعدية (١٥٠٩ - ١٦٥٩) ٤٥٦

الجزائر

الجزائر ٤٦٢ . الدولة الجزائرية ، الوجاق ٤٦٥ . حكم اليبلا
بكوات ٤٦٧ .

تونس

تونس ٤٦٩ . حكم تونس ٤٧١ .

ليبيا

الاحتلال الاسباني (١٥١٠ - ١٥٣٠) ٤٧١ . طرابلس الغرب
٤٧١ فرسان القديس يوحنا (١٥٣٠ - ١٥٥١) ٤٧٢ . طرابلس
الغرب وفرسان القديس يوحنا ٤٧٣ . برقة وفزان قبيل الفتح العثماني
٤٧٣ . ليبيا ولاية عثمانية ، العهد العثماني الأول (١٥٥١ - ١٧١١)
٤٧٤ . دراغوت باشا (١٥٥٣ - ١٥٦٥) ٤٧٤ .

- ٥٠١ -

الخاتمة ٤٧٧

المصادر الأساسية

المنشورات العربية ٤٨١ . المؤلفات الأجنبية ٤٨٤ . الأعلام
الأجنبية ٤٨٦

أسماء الأشهر في البلاد العربية

يناير	=	١ - كانون الثاني
فبراير	=	٢ - شباط
مارس	=	٣ - آذار
أبريل	=	٤ - نيسان
مايو	=	٥ - أيار
يونيو	=	٦ - حزيران
يوليو	=	٧ - تموز
أغسطس	=	٨ - آب
سبتمبر	=	٩ - أيلول
أكتوبر	=	١٠ - تشرين الأول
نوفمبر	=	١١ - تشرين الثاني
ديسمبر	=	١٢ - كانون الأول

كلمة شكر

وافر الشكر لكل من أسهم
في نشر هذا الكتاب

سورة التَّارِيخِيَّةُ الْحَدِيثَةُ



الموسوعة التَّارِيخِيَّةُ الْحَدِيثَةُ

تاريخ العصر الوسيط

من أواخر العصر الروماني إلى القرن الثاني عشر

تاريخ العصر الوسيط

من القرن الثاني عشر إلى عصر النهضة

تاريخ عصر النهضة

تاريخ القرن السابع عشر

تاريخ القرن الثامن عشر

تاريخ النصف الأول من القرن التاسع عشر

تاريخ النصف الثاني من القرن التاسع عشر

تاريخ القرن العشرين

١٩٤٥ - ١٩٠٠

التاريخ الدبلوماسي

١٩٤٠ - ١٩٥٨

تاريخ عصرنا

منذ ١٩٤٥

قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

تاريخ الحركات القومية (يقظة القوميات الأوروبية)

أربعة أجزاء